قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

قصص الرحمن في ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الثالث

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل

الباب الأول: قصة يَعقوب عليه السلام، وقصة بني إسرائيل من قَبْل موسى عليه السلام.

الباب الثاني: قصة موسى عليه السلام.

القسم الأول: موسى وفرعون.

القسم الثاني: موسى وبني إسرائيل.

الباب الأول

قصة إسرائيل ـ يعقوب عليه السَّلام ـ وبني إسرائيل من قبل موسى عليه السلام

إسرائيل ـ يعقوب عليه السَّلام ـ

حين اعتزل إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أباه وقومه، وعبادتهم وآلهتهم، وهجر أهله ودياره، لم يتركه الله وحيداً. بل وَهَبَ له ذرية، وعوَّضه خيراً.

﴿فلمَّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكُلًّا جعلنا نبيّاً. ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾ [مريم: ٤٩]. . **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلًّا هدينا﴾** [الأنعام: ٨٤].

وإسحاق هو ابن إبراهيم، رَزَقه الله من سارة ـ وكانت قبله عقيماً ـ كما تقدم ـ، ويعقوب هو ابن إسحاق؛ ولكنَّه يُحسب ولداً لإبراهيم لأنَّ إسحاق رُزِقَه في حياة جَدّه، فنشأ في بيته وحُجره، وكان كأنَّه ولده المباشر، وتعلم ديانته، ولَقَّنها بنيه. وكان نَبياً كأبيه.

﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم. . والرحمة تُذكر لأنَّها هبة الله التي تُعوِّض إبراهيم عن أهله ودياره، وتُؤنسه في وحدته واعتزاله.

وكانوا صادقين في دعوتهم، مسموعي الكلمة في قومهم. يُؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل **﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾**. .

كان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ رحمةً وبشرىٰ من الله لإبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ الشيخَ الكبيرَ الطاعنَ في السن، وزَوْجَه العقيمَ التي لم

تعقب، ولم يكن بَعْدُ قد وَهَبهما الله إسحاق، فعجَّل ـ سبحانه وتعالىٰ ـ البشرىٰ بحفيدهما يعقوب بن إسحاق:

﴿ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيم بالبشرىٰ، قالوا: سلاماً. قال: سلام. . . وامرإته قائمةٌ فضحكت فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٦٩، ٧١]. . **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاًّ جعلنا صالحين﴾** [الأنبياء: ٧٢].

وقد ذكر الله يعقوب مع المختارين من عباده الذين اصطفاهم وآتاهم النبوة، ذكره مع أبويه إبراهيم وإسحاق.

﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي والأبصار. إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ الدار. وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ [صٓ: ٤٥]. .

ويصف الله سبحانه وتعالىٰ: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بأنَّهم **﴿أُولي الأيدي والأبصار﴾**. . كناية عن العمل الصالح بالأيدي والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار. وكأنَّ من لا يعمل صالحاً لا يَدَ له، ومن لا يفكر تفكيراً سليماً لا عَقْلَ له أو لا نَظَرَ له!

كما يذكر من صفتهم التكريمية أنَّ الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة، ويتجردوا من كل شيء سواها:

﴿إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ الدار﴾. . فهذه ميزتهم ورفعتهم. وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخياراً: **﴿وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾**. .

وقد وردت قصة يعقوب مع قصة ابنه يوسف ـ عليهما السَّلام ـ، فكان الوالد المحب الملهوف، والنبي المُطمئن الموصول، وقد التقينا بهذه الشخصية النبوية العظيمة في حلقات مُعبِّرة عن صدق ظَنّه بالله رب العالمين، وثقته المتينة بِقَدَر الله وقدرته وحكمته. .

فقد امتاز بمعرفة واضحة بذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته، وأحكامه ومرضاته، وبجَوهر العقيدة، وقاعدة العمل، لقد وقف على قمة الحقيقة ـ يُشرف منها ـ بقَدَر ما يريد الله ـ على عالم الغيب والشهادة.. فهو يقول:

﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٨٦]، وذكر القرآن عنه ﴿وإنَّه لذو علم لما عَلَّمناه ولـكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٦٨]..

لقد أكَّد القرآن الكريم أنَّ الأنبياء هم الأدِلاَّء على ذات الله وصفاته الحقيقية. لقد عرف يعقوبُ الحقَّ الذي لا يشوبه جَهل ولا ضلال، ولا سوء فَهم ولا سوء تعبير. ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾..

إنَّه العلم الذي يعرف به الإنسانُ خالقَه؛ فاطِرَ هذا الكون، ومدبِّرَ هذا الوجود، وصفاته العَليَّة الجَليلة، والصلة بين العبد وربِّه، وموقف الإنسان في هذا العالم من كل المعالم والعوالم ﴿وإن من شيء إلاَّ يُسبِّح بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤]، وموقفه من ربه ـ تبارك وتعالىٰ ـ، ما يرضيه وما يسخطه..

هذه سمة فاضلة لسيدنا يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، هذه الخاصية الفاضلة تكمن في شعوره الدقيق الحساس، المتصل بخالق الناس، وقلبه الرقيق الفَيَّاض بالحكمة الإلـهية والثبات على أمر الله..

ومن أهم ملامح عقيدة يعقوب التي أُشْرِبَها في قلبه، تشديده على الإيمان بالغيب، فكان التسليم شِعاره، وكان اليقين علامته..

لقد آمن بمعرفة، وعلم ويقين، فكان أُنموذجاً للتصديق بصفات الله العلية، وقدرته الفاعلة، وأفعاله العجيبة، فكان صورة إنسانية للتصديق المُطْلَق، والثقة المطمئنة بأفعال الله.. ها هو ذا يقول لأولاده بعد سنوات طويلة من غياب يوسف عنهم، وقد أخبروه بمصرعه حين أكله الذئب كما زعموا:

﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله. إنَّه لا يَيأس من رَوْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]..

كذلك نراه حين أتاه البشير من يوسف، وألقىٰ قميصه على وجهه، انشرحت أساريره بهذا العبق الغائب، كأنَّه كان منه على ميعاد مُنْتَظَر:

﴿فلمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً قال: ألَم أقل لكم إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٩٦]..

وتُصوِّر هاتان الآيتان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ في عمق إيمانه، واستسلام قلبه ووجدانه.. تُصوِّر حقيقة الثقة بالله ومشيئته ورعايته وحمايته.. إنَّه شعور المؤمن الواثق المُدرك لسنة الله في الوجود في الابتلاء والبلاء.. لقد آمن واطمأنَّ قلبه، وأخلص لله نفسه، ولم يلبس إيمانه بظلم..

إنَّها عقيدة الفطرة السليمة، والبصيرة المفتوحة.. إيمان لا يطمسه ركام المِحَن والخطوب، ويقين ثابت راسخ لا تهزّه ريح الحياة.. والقصة تعرض يعقوب ـ عليه السَّلام ـ ليكون أُسوة ومثالاً..

هذا الشعور الواثق المتيقن بِرَوْح الله، يصوره القرآن العظيم في حسّ هذا النبي الكريم.. كيف كانت جدية الحق في نفسه.. كيف كان يتلقىٰ المحنة، وهو يعلم أنَّه مُبتلىً من الخبير العليم..

إنَّ القصة تعكس صورة الوجدان الراسخ والإيمان العميق.. ترسم يعقوب في مشاهد مختلفة.. ترسمه بصورة واحدة.. صورة الوجدان المطمئن.. فها هو ذا يقول في يقين صادق يلامس قلبه:

﴿اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله. إنَّه لا ييأس من رَوْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾..

إنَّه مشهد النفس المطمئنة التي حملت دين إبراهيم، وكانت ستاراً

لِقَدَر الله، ومُنْفِذاً لمشيئته في واقع الحياة. .

إنَّ الإيمان الصادق لا يزيده البلاء والمِحَن والخطوب إلَّا يقيناً بما وَعَدَ الله، فالمحنة مهما ثقلت، والموقف مهما كان رهيباً قاتماً، فهناك قلوب يعمرها الحق، فما تزيدهم المحنة إلَّا إيماناً وتسليماً، وما يزيدهم الموقف القاتم إلَّا رسوخاً ويقيناً. .

هـذه طبيعة الإيمـان في عبـاد الله المخلصين، وهـذه سنـة الله في الوجود، يحقق صورتها الصادقة نبي الله يعقوب، فقد علم من سنة الله أنّ الشدة والمحنة إذا بلغت غـايتها فـإنّه سيتبعهـا اليسر، ولن تجـد لسنة الله تبديلاً. .

هذا هو الموقف الكريم الذي يدعو القرآن إليـه في قصة يعقـوب ـ عليه السَّلام ـ. هذا هو الدرس الذي يتلقاه أصحاب العقيدة والإيمان من قَصص الرَّحمـٰن. قصة وحياة نبي جليل تربّىٰ في حُجر جَدّه إبراهيم ﷺ، ونشأ متعبداً لله ـ سبحانه ـ على مِلّة إبراهيم، وحمل الوصية والأمانة بهـذه المِلّة الحنيفة السمحة.

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلَّا من سَفِهَ نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين. ووصّىٰ بها إبراهيم بَنيه ويعقوب: يَـا بنيَّ إنَّ الله اصـطفىٰ لكم الدين فلا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]. .

ملة إبراهيم هي الإسلام الخالص الصريح. .

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه، ووصية يعقوب لبنيه. . الوصية التي كررها يعقوب في آخر لحظة من لحظات حياته، والتي كانت شُغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته، فلتسمعها البشرية كلها، وليسمعها بنو إسرائيل بقلوب مفتوحة:

﴿أم كنتم شهداء إذ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه: ما تعبدون من

بعدي؟ قالوا: نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٣]. .

إنَّ هذا المشهد بين يعقوب وبَنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير. . مَيِّت يحتضر. فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجَلَلْ الذي يريد أن يطمئن إليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يريد أن يُخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في مَحضر، يسجل فيه كل التفصيلات؟. .

إنَّها العقيدة. . هي التركة. . وهي الذخر. وهي القضيـة الكبرىٰ، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجَلَل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته: **﴿ما تعبدون من بَعْدي؟﴾**. .

ومن أهم معالم سيرة يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، هو التعليم والتربية، فقد كان صَلب العقيدة، ثابتاً على المحن والخطوب، عاش لدينه ودعوته، وكان هدفه ـ كسائر الأنبياء ـ هو تصحيح العقيدة في الله تعالىٰ، وتصحيح الصلة بين العبـد وربه، والـدعوة إلى إخـلاص الدين، وإفـراد العبادة لله وحده، وأنَّه الأحد ـ سبحانه ـ، المستحق للعبادة والتوجُّه والدعاء والالتجاء، وكانت هِمَّة يعقوب موجَّهة إلى العقيدة الناصعة والعبودية لله وحـده: **﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾**. .

إنَّ محاربة الشرك بكل صوره وألوانه ومراتبه كانت هَـدَف يعقوب، هَدَف النبوّة الأساسي، وأساس دعوة الأنبياء، منها يبدأون وإليها ينتهون. . **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنَّه لا إلـه إلاَّ أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء: ٢٥]. .

لقـد أشار القـرآن الكريم إلى وصيـة يعقـوب لتكـون عَلَمـاً لبنيـه: بني إسرائيل على مر الزمان والأيام، فقد وضع لبني إسـرائيل هـذا الجيل

البشري في تاريخه الطويل أُسس الحق ودعائم التوحيد: **﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾** . . هكذا قال لبنيه حين حضره الموت. .

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله. وهذه هي القضية التي أردتُ الاطمئنان عليها. وهذه هي الأمانة والذخر والتراث. .

﴿قالوا: نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ . .

إنَّهم يعرفون دينهم ويذكرونه. إنَّهم يتسلمون التراث ويصونونه. إنَّهم يُطَمْئِنُون الوالد المُحتضر ويُريحونه. . وكـذلك ظلت وصيـة إبراهيم لبنيـه مـرعية في أبنـاء يعقوب. وكـذلك هم ينصـون نصـاً صـريحـاً على أنهم « مسلمون »!

إنَّ هذه الوصية جديـرة بالتـأمل. فليس الإلـه الـذي يُعبد هـو إلـه إسرائيل إنَّما هو رب العالمين **﴿نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾** . .

هذه هي مِلّة إبراهيم ويعقوب: **﴿يَا بني إنَّ الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾** . .

ها هم أُولاء أولاد يعقوب ـ بني إسرائيل ـ يقولون بنص واضح لا لبس فيه ولا غموض: يعبدون إلـهاً واحداً هو إلـه إسرائيل وإلـه آبائه إبـراهيم وإسماعيل وإسحاق **﴿إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾** . .

إنَّـه الإسـلام. . هـو ملة إبـراهيم ويعقـوب. . والإسـلام هـو دين بني إسرائيل حين قالوا عن عبادتهم: نعبد إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون. . صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع. . الإسلام هو الاستسـلام المطلق للقوامة الإلـهية، والتلقي منه وحده والتحاكم إليه فيما شرّع. . الإسلام: الطاعة والاتباع. الإسلام: تحكيم الله في أُمور العباد، وقيام الحياة البشرية

على الدينونة لله وحده في كل شؤون الحياة: في الاعتقاد والتصور، وفي الشعائر والمناسك، وفي الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وفي كل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء: **﴿نعبد.. إلـٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾**..

ونقف أمام شخصية يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، إنَّه نموذج الإيمان المستسلم الواثق الحليم، لقد صوّرها القرآن الكريم شاخصة لتكون مَثَلاً وقدوة لبنيه بني إسرائيل، فلا فَلَاح عند الله إلاَّ باتباع منهج الإسلام الذي دعا إليه إبراهيم وإسرائيل والنبيون من بعد **﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممَّن هدينا واجتبينا﴾** [مريم: ٥٨].. لقد حفظ القرآن تاريخ الأنبياء الذين قَصَّ خَبَرهم، فكان يعقوب مثلاً للاستسلام، الواثق بقَدَر الله وأفعاله، ومثلاً للإخلاص الذي لا يشوبه طمع، ولا يرقىٰ إليه شك، ومثلاً للاعتماد والتوكل على الله والالتجاء إليه: **﴿إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** [يوسف: ٨١]..

لقد أدرك يعقوب بإيمانه ويقينه أنَّ الرجعة لله وحده في كل الأمور، فكان مثلاً يُقْتَدىٰ، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام..

إنَّ القاعدة التي يبني عليها الإسلام العقيدة في القلوب وهي تواجه الأحداث والخطوب.. القاعدة الراسخة: الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد، وتتوارىٰ الأوهام وهي شتّىٰ، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سنداً إلاَّ سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مدّ البصر.. لا شيء إلاَّ الله.. لا قوة إلاَّ قوته.. لا حول إلاَّ حوله.. لا إرادة إلاَّ إرادته.. لا ملجأ إلاَّ إليه.. وعندئذٍ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح.

فالخلق والأمر لله.. كل شيء بإرادته ومشيئته.. كلنا لله.. كل ما

فينا.. كل كياننا وذاتيتنا.. لله.. وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير.. التسليم.. التسليم المطلق، فأولى مراتب الإيمان.. الاعتقاد واليقين بأنَّ الحَوْل والقوة والحركة كلها لله، وأن لا حَول ولا قوة إلاّ بالله.

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس المؤمنين حتى تستقر في كل نفس، وتعمر كل قلب، وتختلط بالدم وتجري في العروق، لقد كان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ مَثَلاً لهذه الحقيقة، وصورة مُلَوَّنَةَ المشاعر لها، رَسَمها القرآن شخصية إنسانية، وقد استقرَّت هذه الحقيقة في حياته كلها، لا يجول غيرها في حسّ ولا خيال..

إنَّ المؤمن يتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود، فيتوكل على الله وحده في أموره كلها، فهو سبحانه يُحدث النتائج، ويُحقق المصاير، ويدبر الأمر بحكمته، ومن ثمَّ يتقبَّل ما يجيء به قَدَر الله في اطمئنان أيّاً كان.. إنَّه التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلاَّ في الإسلام.

إنَّ قصة يعقوب تُنشيء التصور الإيماني الصحيح في القلب بالنسبة لإرادة الله، ﴿وإنَّه لذو علم لما علَّمناه﴾ [يوسف: ٦٨].. لقد عَلِمَ بإيمان ويقين أنَّه ﴿قد جعل الله لكل شيء قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣].. فكل شيء مقدَّر بمقداره، وبزمانه ومكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. ليس شيء مصادفة. وليس شيء جزافاً في حياة الناس، وفي هذا الوجود كله، فكل شيء معقود بإرادة الله وأمره وقدَره وعلمه..

ها هو ذا يعقوب ـ عليه السَّلام ـ يقول لبنيه بعد أن أخذ موثقاً من الله عليهم أن يعودوا بأخيهم في رحلتهم إلى مصر بعد أن مُنع منهم الكيل:

﴿وقال يَا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أُغني من الله من شيء إن الحكم إلاَّ لله عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكِّلون﴾ [يوسف: ٦٧]..

إن الحكم إلاَّ لله عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكِّلون. . إنَّها كلمة المطمئن، المؤمن بأنَّ الله وحده هو المتصرف، المؤمن الذي يحسّ بأنَّ يَدَ الله ـ سبحانه ـ تقود خطاه، فالحكم لله وحده. . هذا هو قلب موصول بالله لا يُخطىء الشعور بوجوده ـ سبحانه ـ وألوهيته القاهرة المسيطرة على الأحداث والمصائر.

هذه الحقيقة التي يرسمها القرآن بعبارات واضحة. . فالمؤمن لا يرجو سوىٰ الله، ولا يقصد إلاَّ إياه، ولا يلوذ إلاَّ بجنابه، ولا يرغب إلاَّ إليه، ويعلم أنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. . وأنَّه المتصرف في المُلك. لا شريك له ﴿**إن الحكم إلاَّ لله**﴾ ولا معقِّب لحكمه، ومن ثَمَّ كان التوكُّل عليه هو جِماع الإيمان. .

ذاك هو نبي الله إسرائيل ـ يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، الذي تَشَرَّفت الأرض بدعوته ويقينه، وتَشَرّف المؤمنون بالانتساب إليه، فقد أكرمه الله أن جعل ذُريته أئمة الهدىٰ والتقىٰ ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة**﴾ [غافر: ٥٣]. .

لقد اصطفىٰ الله ـ سبحانه ـ بني إسرائيل، وجعلهم مُلوكاً، وآتاهم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين، فقد اتَّبعُوا سُبل السلام، واقتفوا خطوات أبيهم النبي الإمام، منذ ما يزيد على ستة آلاف عام ﴿. . **ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل إذا تُتلىٰ عليهم آيات الرَّحمـٰن خرُّوا سُجّداً وبُكِيّاً**﴾. . [مريم: ٥٨]. .

وهكذا يطوي يعقوب حياته، فقد صَدَقَ الله قولاً وفعلاً، كان مستسلماً لمشيئة ربّه وقَدَره، ثمَّ حمل بنو إسرائيل هذا الميراث الإيماني العظيم إلى العالمين. . ومَكَّن الله لبني إسرائيل في الأرض. . بدأ هذا الفضل الإلـٰهي في حياتهم منذ يوسف ـ عليه السَّلام ـ كما تَقَدَّم، وعاش بنو إسرائيل في عَين الله ورعايته ورحمته، عاشوا في عِزّ وكرامة ورعاية، فقد حققوا في

حياتهم منهج الله المُمَثّل فيما أُنزل عليهم من التعاليم الإلهية، كما أنزلها الله، فصلحت حياتهم، وفاضت عليهم البركات والأرزاق، وبوَّأهم الله مبوَّأ صدق فرفع ذكرهم ومجَّد اسمهم ونَسَبهم.. وبعد ذلك طال عليهم الأمد، واستولت عليهم الدنيا، وغرَّهم بالله الغرور، وقست قلوبهم، وزاغوا، وانحرفوا، وضلُّوا، وفسقوا، وظلموا.. فماذا كان..؟

إنَّ سُنَّة الله لا تُحابي أحداً. ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولن تجد لسنة الله تحويلاً.. **﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمَّهنَّ. قال: إنِّي جاعلك للنَّاس إماماً. قال: ومِنْ ذرِّيَّتي.. قال: لا ينالُ عهدي الظالمين﴾** [البقرة: ١٢٤]..

لقد سأل إبراهيم ربه عن الإمامة في ذريته.. وجاءه القول الفصل من الله رب العالمين: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**..

إنَّ الإمامة في ذريتك لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، فالقربىٰ ليست وشيجة لحم ودم، إنَّما هي وشيجة دين وعقيدة. ودعوىٰ القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلَّا دعوىٰ الجاهلية التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح.

فالإمامة ممنوعة على الظالمين، ممنوعة على المُنحرفين، ممنوعة على الفاسقين، ممنوعة على الضالين.. فَمَنْ ظَلَم - أي لون من الظلم -، ومن انحرف عن دين الله وبدَّل، ومن فَسَقَ عن منهج الله وشريعته، ومَن ضلَّ عن الحق والتوىٰ، فقد جرَّدَ نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها، بكل معنىٰ من معانيها: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة. وكل معنىٰ من معاني الإمامة والقيادة..

وهذا الذي قاله الله سبحانه لإبراهيم - عليه السَّلام.. وهذا الذي أراد

يعقوب التأكيد عليه في وَصيته عندما حضرته الوفاة فقال لبنيه: ﴿**ما تعبدون من بعدي؟**﴾..

لقد آتىٰ الله بني إسرائيل من نِعمته ما لم يُؤت أحداً من العالمين، ورزقهم من فضله فجعلهم سادة الدنيا وملوكها، فقد مكَّن لهم في الأرض، وجعلهم خلائف فيها.. وهذا كله إنَّما أعطاه الله لهم ابتلاءً منه وامتحاناً، لينظر أيشكرون أم يكفرون؟ ولكنَّهم كفروا نعمة الله ولم يشكروا فضله، وطغوا وبغوا بما أُعطوا، وغيَّرتهم النعمة والقوة فصاروا ظَلَمة فَجَرة..

والله سبحانه قد وَضَعَ سنته في عباده يمضي بها قَدَره ﴿**ذلك بأنَّ الله لم يكُ مُغَيِّراً نعمةً أنعمها على قوم حتّىٰ يُغَيِّروا ما بأنفسهم. وأنَّ الله سميع عليم**﴾ [الأنفال: ٥٣]..

إنَّها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.. عَدْل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إيّاها إلاَّ بعد أن يغيروا نواياهم، ويُبدِّلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يُغَيَّر ما بهم ممَّا أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يُقدروها ولم يشكروها ﴿**ومن يُبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنَّ الله شديد العقاب**﴾ [البقرة: ٢١١]..

ها هم أُولاء بني إسرائيل الذين وُهِبوا نعمة الله من الإيمان، والعِزّ بِسلطان الله، كانوا ملوكاً، سرير الدنيا يُحركونه بفضل الله وأمره.. فإذا هم يتركون هذا كله، ودانوا لِسُلْطان شهواتهم وأهوائهم، ونبذوا شرع الله ومنهجه من حياتهم.. ها هم أُولاء يهوون من تلك العلياء التي رفعهم الله، فهم في ظُلمٍ وعُتوّ وانحراف، تراكمت على قلوبهم الأوزار الكبار ففسدت أفئدتهم، وجرىٰ في عروقهم الظُلم والفسوق والعصيان، فَخَوت أرواحهم، وطُمست قلوبهم، ففقدت النور.. ﴿**فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً**﴾ [مريم: ٥٩]..

عاشوا للدنيا في بَذَخ وترف، فانطفأت شعلة الحق في وجدانهم،

وآثروا الهوىٰ على الإيمان، والظلمات على النور. لقد امتلأت مِصر ببني إسرائيل فإذا هم كثيرٌ عَددهم، ولكنهم غُثاء كغثاء السيل، يلهثون وراء المال والهوىٰ، يَفرَقون من الموت، قلوبهم تائهة، وعقولهم مضطربة..

لقد اشتروا الدنيا بالآخرة، والضلال بالهدىٰ، والعذاب بالمغفرة، فجفَّت قلوبهم وقَسَتْ، وضاعت الدمعةُ الخائفة الراجفة الذاكرة من العيوُن، وضاع الإخلاص، وكانت سنة الله لا مَناص **﴿ومن يُبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنَّ الله شديد العقاب﴾.. ﴿ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مُغيِّراً نعمةً أنعمَها على قوم حتّىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾..**

وكان مصداق ذلك في حال بني إسرائيل، منذ أن بدّلوا نعمة الله، ونجد مصداقه دائماً فيما ينتظر المُبدّلين للنعمة المُتَبطّرين عليها في كل زمان.

لقد حقَّ على بني إسرائيل العذاب وشديد العقاب.. ها هي ذي أُمَّة بني إسرائيل وقد قُضي الأمر، فأصبح الملوك عبيداً أذلّاء، والأحرار رقيقاً ضعفاء، وأمطروا ذُلًّا مهيناً وعذاباً أليماً..

لقد هوىٰ بنو إسرائيل من عزِّ الطاعة والاستقامة إلى ذُلِّ العصيان والانحراف، انتكسوا إلى أسفل سافلين، انحرفوا وحادوا عن نهج الله وشرعه.. ها هم أُولاء يَهْوون إلى الدرك الأدنىٰ، فأصبحوا مُسْتَضْعَفين مُطارَدين، أذلّاء، وفرعون مصر **﴿يُذَبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾** [القصص: ٤]..

لقد كانوا سادة.. ملوكاً أعزّة، رفعهم الله إلى المقام الأسنىٰ حين تمسكوا بدين الله ـ دين أبيهم إسرائيل ـ **﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾**.. قالوا: **﴿نعبد.. إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾**..

ثمَّ ماذا بعد أن زاغوا وانحرفوا وفسقوا؟.. ها هم أُولاء يرتكسون إلى

الدَرَك الأسفل، وقد تفلَّتوا من حَبل الله المتين، فانطفأ النور الذي كان يملأ الصدور، وأضاعوا الإخلاص، فكانت سنة الله لا مناص. .

ها هي ذي أُمَّة بني إسرائيل قبل موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ المنكودة الطالع تُعاني العقاب الشديد، وتَجد الشقوة النكدة على يد فرعون وملئه، يُطاردها الظالمون، فلا طمأنينة لحياتهم ولا سلام، يَتَخبَّطون في ظُلم وظلام. .

إنَّه حال عجيب يصيب من يُبَدِّل نعمة الله كفراً، وذلك جزاء كفران النعمة. . فَضَيَّق عليهم حياتهم، وغلبت عليهم الشقوة، وصاروا أذلاء مهينين بعد أن كانوا أمة هي وَجْه الحياة والرخاء. .

هذه بعض ملامح تلك الحقبة التي عاشتها أُمَّة بني إسرائيل قبل ميلاد موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ، عاشوا في ذلّ وهَوان وضياع. . عاشوا في الخسران المبين بعد العزّ المكين. . لقد كانوا أئمَّة الهدىٰ فجعلهم الله ملوكاً، ثمَّ بدَّلوا نعمة الله، وألقوا راية الحق، فإذا هم ذَيل مُسْتَضْعَف مَهين. . فهم أبداً من ضياع وخسران إلى عذاب وحرمان. .

هذه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً: **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فَلَها﴾** [الإسراء: ٧]. .

والقرآن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا يواجهون رسول الإسلام محمَّد ﷺ: **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟﴾**. . فهذا هو الذي كان، يَشهد به الله، ويُقرره، ويَقطع به كل حجة لهم في التمويه والتضليل؛ ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل!

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأُمَّة التي خَلَت حيث قال بنو إسرائيل: نعبد إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون. . والجيل الذي كانت تُواجهه الدعوة، وكل جيل ينسلخ من آيات الله، والإسلام لرب

العالمين. . حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين:

﴿تلك أُمَّةٌ قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تُسألون عمَّا كانوا يعملون﴾. .

فلكلٍّ حساب؛ ولكل طريق، ولكل عنوان؛ ولكل صفة. . أُولئك أُمَّة مؤمنة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين. .

إنَّ هذه الأعقاب ليست امتداداً لتلك الأسلاف. هؤلاء حزب وأُولئك حزب. لهؤلاء راية ولأُولئك راية. . والتصور الإيماني في هذا غير التصور الجاهلي. . فالتصور الجاهلي لا يُفرق بين جيل من الأمة وجيل، لأنَّ الصلة هي صلة الجنس والنسب. . أمَّا التصور الإيمـاني فيفرق بين جيـل مؤمن وجيل فاسق؛ فليسا أُمَّة واحدة، وليس بينهما صلة ولا قرابة. . إنَّهما أُمَّتان مختلفتان في ميزان الله، فهما مُختلفتان في ميزان المؤمنين. .

إنَّ الأمَّة في التصور الإيماني هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض؛ وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة. . وهذا هو التصور اللائق بـالإنسان، الـذي يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية، لا من التصاقات الطين الأرضية!

الباب الثاني

قصة موسى عليه السلام

١ - القسـم الأول: موسى وفرعون.
٢ - القسم الثاني: موسى وبني إسرائيل.

القسم الأول

موسى وفرعون

المحتوى	ص
ـ تقديم	٢٩
الحلقة الأولى	
تقدير وتدبير	
ـ ولادة موسى وطفولته	٣٣
ـ شباب موسى وفتوّته	٤٦
ـ ظُهور السرّ	٥٢
ـ من مِصْر إلى مَدْيَن	٥٤
ـ الرحمة والفَرَج	٥٧
ـ الزواج بين البَساطة والصَّراحة	٥٨
الحلقة الثانية	٦٣
ـ تَدْبير الله سبحانه	٦٣
ـ من مَدْيَن إلى مِصر	٦٧
ـ المفاجأة الكبرىٰ واللَّحظة العُظْمىٰ	٦٩
ـ التكليف والرسالة	٧٢
ـ فَضْل من الله ورَحمة	٨٠
ـ لقاء موسى وهارون، والتكليف بالرسالة	٨٥

الحلقة الثالثة	٩١
لقاء الحقّ والباطل	٩١
ـ المواجهة والتَبليغ	٩١
ـ تهديد غليظ والمعجزة المُزلزلة	١٠٣
ـ إلى المَيْدان	١١٢
ـ بين الحق والباطل	١١٦
ـ المفاجأة الكبرى	١٢١
ـ انتصار العقيدة على الحياة	١٢٦
ـ التآمُر والوعيد	١٣٤
ـ إيمان كريم ونصيحة حكيم	١٤٠
ـ الأُبَّهة الزائفة والبَريق الخادع	١٥٠
ـ بين موسى وقومه	١٥٤
ـ اللَّمسة الموقظة والآيات البيِّنَات	١٦٠
ـ نِعمة ورَحمة	١٦٨
ـ دُعاء وإجابة	١٧٦
الحلقة الرابعة	١٧٩
عاقبة الطغيان وانتصار الإيمان	١٧٩
ـ انتصار الحق، وخروج بني إسرائيل من مِصر	١٧٩
ـ إيمان عقيم	١٨٥
ـ عِبرة ونَظَر	١٩٤
ـ صُوَر ومَشاهد	٢٠٠
ـ موقف مكروب	٢١٠
ـ امرأة فرعون	٢١٩
ـ ماشطة ابنة فرعون	٢٢٩
ـ ميزان الإيمان والعقيدة	٢٤٣

قصة موسى – عليه السلام –

وردت هذه القصة في حوالي الثلاثين موضعاً في كتاب الله. إذ أنها أشد القصص ذكراً في القرآن الكريم، وكانت تُعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغَرض في السياق القرآني، ومن الحَلقة التي تتفق معه، فَمَرَّة تُعرض القصة من أولها، ومَرة من وَسطها، ومرة من آخرها، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذاك.

وقد قصَّ الله على رسوله ﷺ قصة موسى مع فرعون وملَئه، القصة التي قَصَّها في سورة القَصَصْ بعد قصة يوسف في جو مكة الثقيل الذي يُعادي الدعوة الإسلامية وقد تألّب الأعداء ليَسُدُّوا مداخل النور الإلٰهي في القلوب.

وهي قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكيده. فرعون الذي علا في الأرض واستشرى بَغْيَه وفَساده فيها، وجعل الناس طبقات وطوائف غير متساوية، واستضعف إحداها ـ بني إسرائيل ـ فاعتزم إبادتها بذبح ذكورها واستحياء نسائها[1]..

وكان فرعون يُبْغِضُ بني إسرائيل بُغْضاً شديداً، وكان هذا الملك

(١) إبقاءهم على قيد الحياة وجعلهم خدماً مستذلين.

لا يَرى أن بني إسرائيل من أولاد الأنبياء وأنَّهم من بيت يوسُفَ ملك مصر الكريم.

بل كان لا يرى أنهم بَشرٌ يستحقون الرحمة والإنصاف والمساواة مع المصريين، وكان يرى أن قومه «القِبْط» من نوع وأن بني إسرائيل من نوع آخر.

القِبْطُ من نوع المُلوك خُلِقُوا لِيَحكُموا. وبنو إسرائيل من نوع العبيد خُلِقُوا لِيَخْدِمُوا. وكان فرعون يُعامِلُ بني إسرائيل معاملة الدوابّ يستخدمها الإنسانُ ولا يُعطيها إلا قُوتَ يومها.

لقد تمادى فرعون في غَيّه، وعَلاَ في الأرض، وأنزل الخَسْفَ ببني إسرائيل، إذ عاشوا في ظلالهِ عِيشَة البلاء يضطربون ويرزحون في نكد من العيش وسوء الحال.

و «فرعون» كلمة عرفها التاريخ في مصر، ولَقَب كان يطلقه المصريون على حُكامهم، فيقولون: «فرعون» مصر، كما يقال: «قيصر» الروم، و «كسرى» الفرس.

وقد اكتفى القرآن باللقب وحده، فلم يذكر اسم فرعون الذي كان يحكمها على عهد موسى، وذَكَر صفاته وأعماله التي استحقّ بها لعنة الله، وبقيت بذلك كلمة فرعون عنواناً مجرداً لا يهمّ فيه اسم شخص بذاته، وإنما المهم فيه هذه الصفات والأعمال التي يَعرف بها أهل القرآن فرعونَ في كل زمان ومكان!.

فإن قيلَ: فلماذا ذُكر موسى باسمه ولم يُذكر اسم فرعون؟ فقد يُجاب على ذلك بأن موسى رجلٌ اختاره الله وأرسله، ورُسل الله نماذج صنعها هو للناس، فصفاتهم وأعمالهم من خصائصهم وحدهم والناس لهم فيها تَبَع، ثم هم في تاريخ البشرية الطويلة معدودون قليلون، أما فرعون موسى، فهو حاكم فَرَض نفسه على المصريين وأمثاله كثيرون يتكررون.

وقد نجد من خلال ذلك جواباً على السؤال القديم: لماذا ذُكرت قصة موسى وفرعون في كثير من سور القرآن؟.

وقد تخلّل آيات القصة كثير من المواعظ ومواضع العبرة مما يمكن أن يسوّغ القول أن القصة قد أُريد بها الموعظة وإيراد المُماثلة في رسالة النبي محمد ﷺ ـ ورسالة موسى عليه السلام ـ وفي ظروفهما. وهذا واضح أكثر في الآيات التي تعقب القصة.

ومن مواضع العبرة، التنديد بفرعون لجعله الناس طبقات متفاوتة، واضطهاده الضُعفاء منهم، والبُشرى للمستضعفين بعناية الله ونصره وتمكينه. ففي هذا من جهة بشرى للمسلمين الذين استضعفهم الكفار في مكة وآذوهم وبغوا عليهم، وتثبيت لهم، وإنذار للكفار بعاقبة مماثلة لعاقبة فرعون وجنوده.

فهي قصة تَشَرُّف موسى بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة وهلاك العدو ونجاة بني إسرائيل، وهي قصة كقصة يوسف مع زيادة أنها مقرونة بنجاة بني إسرائيل وفوزهم وسيادتهم.

الحلقة الأولى:

القسم الأول
موسى وفرعون

ولادة موسى وطفولته:

كانت ولادة موسى ـ عليه السلام ـ في مصر حيث كان بنو إسرائيل في يعظم محنة مَرّت عليهم، حيث كان فرعون يُبالغ في إلحاق الأذى والنكال بهم، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

وما كان لمولود في بني إسرائيل أن يعيش في مملكة فرعون، وذُبح ألوف من الأطفال أمام آبائهم وأمهاتهم. وكان اليوم الذي يُولد فيه مولود في بني إسرائيل يوماً عسيراً مؤلماً. وكان يوم حزن وبكاء، ويوم تعزية ورثاء..

وقد افتتح الله هذه القصة بمقدمة مُجلجلة عظيمة، كانت جديرة بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش وتملأها هيبة وإشفاقاً من مُستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً، فقال الله تعالى:

﴿طَسَمَ، تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعونَ عَلاَ في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً، يستضعف طائفة منهم، يُذَبِّح أبناءهم ويَستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين. ونريد أن نَمنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونُمكّن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان

وجنودهما منهم ما كان يحذرون﴾ [القصص: ١ - ٦].

وسورة القصص أكثر السور حديثاً عن طفولة موسى فهي تَعرضها منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها.

ذلك أن **الحلقة الأولى** من قصة موسى، والظروف القاسية التن وُلِدَ فيها؛ وتَجرّدَه في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة؛ وضُعْف قومه واستذلالهم في يد فرعون.. ذلك كله هو الذي يؤدي هدف سورة القصص الرئيسي؛ ويبرز يَد القُوة سافرة مُتحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر؛ وتضرب الظُلم والطُغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر؛ وتنصر المُستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة؛ وتُمَكِّن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية. وهو المعنى الذي كانت القلة المُسلمة المُستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى مَعرفته واستيقانه.

ولقد كانت قصة موسى - عليه السلام - تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة - لا من حلقة الميلاد - حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي؛ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية. فأما في سورة القصص فليس هذا المعنى هو المقصود؛ إنما المقصود **أن الشرّ حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته**؛ والبغي حين يتمرَّد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر؛ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المُستضعفين المُعتَدَى عليهم، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم، وتربيهم، وتجعلهم أئمة، وتجعلهم الوارثين.

إن هذه الحلقة من قصة موسى تُؤدي هذا الغَرَض وتبرزه.. وفي عرضها أداة تربية للنفوس، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادىء. وهي تتناسق في هذا مع حلقات قصة موسى كلها الذي تُعرض فيه، وتتعاون في

بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمر هذه القلوب.

إن حلقة مولد موسى ـ عليه السلام ـ وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته تكشف عن تَحدّي القدرة السافرة للطغيان الباغي. وفيها يَتجَلّى عجز قوة فرعون وحيلته وحَذَره عن دفع القَدَر المحتوم والقضاء النافذ: **﴿ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾**.

وقبل أن يبدأ السياق القرآني القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث، والظرف الذي يجري فيه القَصص، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث، والتي من أجلها يسوق هذا القصص..

﴿إن فرعون عَلاَ في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً يستضعف طائفة منهم، يُذبِّح أبناءهم، ويَستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين. ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين. ونُمكِّن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾.

وهكذا يرسم المسرح الذي تجري فيه الحوادث، وتنكشف اليد التي تُجريها. وتَنكشف معها الغاية التي تتوخاها. وانكشاف هذه اليد، وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها، يَتَمشّىٰ مع أبرز هدف لها. ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء. وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب.

ولا يُعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده، فالتحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية؛ ولا يزيد في دلالتها شيئاً. ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان **يوسف ـ عليه السلام ـ الذي استقدم أباه وإخوته. وأبوه يعقوب هو «إسرائيل» وهؤلاء كانوا ذريته. وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعباً كبيراً.**

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية ﴿عَلاَ في الأرض﴾ وتَكَبّـر وتَجَبَّر، وجعل أهل مصر شِيَعاً، كل طائفة في شأن من شؤونه. ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب؛ ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإلّه واحد؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعاً.

وكذلك أحسّ الطاغية أن هناك خطراً على عرشه ومُلكه من وجود هذه الطائفة في مصر؛ ولم يكن يستطيـع أن يطردهم منهـا وهم جماعـة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف، فقد يصبحون إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب، فـابتكر عنـدئذ طـريقة جهنميـة خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تَعبـده ولا تَعتقد بألوهيته، تلك هي تسخيرهم في الشاقّ الخطر من الأعمال، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب. وبعد ذلك كله تَذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الـرجال فيهم. وبـذلك يُضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يَصبّه عليهم من نكال وعذاب.

وروي أنه وَكَّل بالحوامل من نسائهم قوابل مُولدات يُخبرنه بمـواليد بني إسرائيل، ليبادر بذبح الذكور[1]، فور ولادتهم حسب خطّته الجهنمية الخبيثة، التي لا تَستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة.

هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى ـ عليه السلام ـ عند ولادته، كما وردت في سورة القصص:

---

(١) تذكر الروايات أن كاهناً قبطياً قال لفرعون: «يُولد مولود في بني إسرائيل يذهب مُلكك على يده».

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [القصص: ٤]..

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون؛ ويُقدّر غير ما يُقدر الطاغية. والطغاة البغاة تَخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم، فينسون إرادة الله وتقديره؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يُحبون، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون. ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون.

والله يعلن هنا إرادته هو، ويكشف عن تقديره هو؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما، بأن احتياطهم وحَذَرهم لن يُجديهم فتيلاً:

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونُمكن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص: ٥، ٦].

فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسومهم سوء العذاب والنكال. وهو مع ذلك يَحذرهم ويَخافهم على نفسه ومُلكه، فيبثّ عليهم العيون والأرصاد، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفّار الجزّار!.

هؤلاء المُستَضْعَفون يريد الله أن يَمنّ عليهم بِهباته من غير تحديد؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيداً ولا تابعين؛ وأن يُورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يُمكّن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين. وأن يُحقق ما يَحذره فرعون وهامان وجنودهما، وما يتخذون الحيطة دونه، وهم لا يشعرون!.

هكذا يعلن حلسياق قبل أن يأخذ في عرض القصة ذاتها. يعلن واقع الحال، وما هو مُقدَّر في المآل. ليقف القوتين وجهاً لوجه: قوة فرعون

المتنفشة المنتفخة التي تبدو للناس قـادرة على الكثير. وقـوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي تُرهب الناس!.

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ في عرضها. والقلوب مُعلّقة بأحداثها ومجرياتها، وما ستنتهي إليه، وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنها قبل البدء في عرضها.

ومن ثم تَنبض القصة بالحياة؛ وكأنهـا تُعرض لأول مـرة، على أنها رواية معروضة الفصول، لا حكاية غبرت في التاريخ. هذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام.

ثم تبـدأ القصة. ويبـدأ التحدّي وتنكشف يـد القدرة تعمـل سافـرة بلا ستار. وأراد الله أن يقعَ ما كان فرعونُ يخافُه ويحذَرُه.

لقد وُلِدَ موسى في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رَسَمها قبل البدء في القصة؛ وُلِدَ والخطر مُحدق به، والموت يَتَلَفَّت عليه، والشَفرةُ مُشرَّعة على عُنقه، تَهمّ أن تَحتزَّ رأسه..

وها هي ذي أُمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى أن يصـل نَبؤه إلى الجلّادين، وترجف أن تتناول عُنقه السكين. ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجـز صَوته الفطري أن يَنمّ عليه؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة.

هنا تتدخل يد القدرة، فَتتَّصل بالأمّ الوَجلة القَلقة المذعورة، وتُلقي في روعها كيف تعمل، وتُوحي إليها بالتصرف:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليّم، ولا تخافي ولا تحزني﴾ [القصص: ٧]..

يا لله! يا للقدرة! يا أُمّ مـوسى أَرضعيه. فـإذا خفتِ عليه وهـو في

حضنك. وهو في رعايتك. إذا خفتِ عليه وفي فَمه ثـديك، وهـو تَحت عينيك. إذا خِفت عليه ﴿فألقيه في اليم﴾!!.

﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ إنه هنا.. في اليمّ.. في رعاية اليد التي لا أَمْن إلا في جـوارها، اليـد التي لا خَـوف معهـا. اليـد التي لا تقـرب المخاوف من حِماها. اليد التي تجعل النار برداً وسلاماً، وتجعل البحر مَلجأً ومناماً. اليد التي لا يَجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنو من حماها الآمِن العزيز الجناب.

﴿إنا رادُّوه إليك﴾.. فلا خوف على حياته ولا حُـزن على بُعْده.. ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧]. وتلك بشارة الغد، وَوَعد الله أصدق القائلين.

وحين بشَّر الله موسى بالرسالة قال له مذكراً:

﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أُمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم. فَلْيُلْقه اليمّ بالساحل..﴾ [طه: ٣٧ ـ ٣٩].

لقد صُنع موسى على عين الله منذ زمان، وآدرِّبَ على المشاق وهو طفل رضيع، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف. وكان تحت سلطان فرعون وفي مُتناوله وهو مُجرد من كل عدّة ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون..

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أُمك ما يوحى وألهمناها ما يلهم في مثل حالها.. ذلك الإلهام:

﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليمّ بالساحل﴾.

حركات كلها عنف وكلها خشونة. قذف في التابوت بالطفل. وقذف في اليم بالتابوت. وإلقاء للتابوت على الساحل.. ثم ماذا؟.

هذا هو المشهد الأول في القصة. مشهد الأم الحائرة الخائفة القَلقة الملهوفة تتلقَّى الإيحاء المُطَمْئِنّ المثبِّت المريح.

وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بَرداً وسلاماً. ولا يذكر السياق كيف تلقَّته أُم موسى، ولا كيف نفَّذته. إنما يسدل الستار عليها.

وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج ويخفضه أخرى. أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف في اليم المُلْقَى به على الساحل. مَنْ يَتَسلَّمه؟ ﴿**عدو لي وعدو له**﴾ [طه: ٣٨].

ويُرْفَع الستار فإذا نحن أمام المشهد الثاني: ﴿**فالتقطه آل فرعون**﴾ [القصص: ٨].

أهذا هو الأمن؟ أهذا هو الوعد؟ أهذه هي البشارة؟.

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون؟ وهل كانت ترتجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون؟.

نعم! ولكنها القدرة تَتحدّى. تَتحدَّى بطريقة سافرة مكشوفة. تتحدَّى فرعون وهامان وجنودهما. إنهم ليتَتَبَّعون الذُكور من مواليد قوم موسى خوفاً على مُلكهم وعرشهم وذواتهم. ويبثّون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر. فها هي ذي القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كدّ بطفل ذكر. وأي طفل؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين!.

ها هي ذي تُلقيه في أيديهم مُجرداً من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفّاح المتجبر، ولا تُتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات!.

وفي زحمة هذه المخاوف كلها. وبعد تلك الصدمات كلها. ماذا؟ ما الذي حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة؟ ما الذي جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية؟:

﴿وألقيتُ عليك محبة مني ولتُصْنَع على عيني﴾!!! [طه: ٣٩].

يا للقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعاً تتكسر عليها الضربات وتَتَحطَّم عليه الأمواج. وتعجز قوى الشرّ والطغيان كلها أن تمسّ حاملها بسوء؛ ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول...

إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد. مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التي تتربَّص بالطفل الصغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف.. والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف، وتَقيه من الشدائد وتَلُفّه من الخشونة، مُمثلة في المحبة لا في صيال أو نزال: **﴿ولتصنع على عيني﴾**.. وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يُلقيه التعبير القرآني العجيب: **﴿ولتصنع على عيني﴾**.

كيف يصف لسان بشري، خلقاً يُصنع على عين الله؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتَملّاه.. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية. فكيف بمن يُصنع على عين الله؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يَتَلَقّى ذلك العنصر العلوي الذي تَلَقّاه. ولتُصنع على عيني. تحت عين فرعون ـ عدوك وعدوي ـ وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مُدافع. ولكن عَينه لا تمتد إليك بالشرّ لأني ألقيتُ عليك محبة مني. ويده لا تنالك بالضرّ وأنت تُصنع على عيني.

لقد أرادت القدرة الإلَهية أن يربي فرعونُ طفلاً يذهبُ مُلكه على يده **﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عَدواً وحزناً﴾** [القصص: ٨].

يا حسرة.. مسكين فرعون! لقد أخطأ في شأن موسى. وقد أخطأ معه وزيره هامان وجنوده.

وها هي القدرة تُعلن عن مقصدها سافرة متحدية: **﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾**.

ليكون لهم عدواً يتحدَّاهم وحزناً يدخل الهمّ على قلوبهم:

﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ [القصص: ٨].

ولكن كيف؟ كيف وها هو ذا بين أيديهم، مُجرداً من كل قوة، مجرداً من كل حيلة؟ لندع السياق يجيب:

﴿وقالت امرأة فرعون: قُرّة عَين لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً؛ وهم لا يشعرون﴾ [القصص: ٩].

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعدما اقتحمت به عليه حصنه. لقد حَمَتْه بالمحبة. ذلك الستار الرقيق الشفيف. لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال. حَمَتْه بالحبّ الحاني في قلب امرأة. وتحدَّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذَرَه.. وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف! **﴿قُرة عين لي ولك﴾**..

وهو الذي تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم ـ فيما عدا المرأة ـ عدواً وحزناً! **﴿لا تقتلوه﴾**..

وهو الذي على يده مصرع فرعون وجنده!.

﴿عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾...

وهو الذي تخبىء لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلاً!.

﴿وهم لا يشعرون﴾.. فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون!.

وينتهي المشهد الثاني ويسدل الستار عليه إلى حين. . ذلك شأن موسى. فما بال أُمّه الوالِهة وقلبها الملهوف؟.

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً. إن كادت لَتُبدي به. لولا أن رَبَطْنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأُخته: قُصِّيه﴾ [القصص: ١٠، ١١].

لقد سمعت الإيحاء، وألقت بِطفلها إلى الماء. ولكن أين هو يا ترى وماذا فعلت به الأمواج؟ ولعلها سألت نفسها: كيف؟ كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف بها في اليمّ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أمّ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة؟ وكيف استسلمتُ لذلك الهاتف الغريب؟.

الله أكبر! مَن يُرضع الطفلَ في الصندوق؟ وكيف يَتَنفَّس الطفل في الصندوق؟!.

كل ذلك فَكَّرتْ الأم الحنون فاستولى عليها الحزن والألم والضيق. . ماذا حدث له وهو بَعْدُ رضيع ضعيف؟!.

والتعبير القرآني يُصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية: **﴿فارغاً﴾**. . لا عَقل فيه ولا وَعي ولا قُدرة على نَظَر أو تصريف!.

﴿إن كادت لَتُبدي به﴾. . وتُذيع أمرها في الناس، وتَهتف كالمجنونة: أنا أَضَعْتُه، أنا أضعتُ طفلي. أنا ألقيتُ به في اليمّ إتباعاً لهاتف غريب!.

﴿لولا أن رَبَطْنا على قلبها﴾. . وشددنا عليه وثَبّتْناها، وأمسكنا بها من الهيام والشرود.

﴿لتكون من المؤمنين﴾. . المؤمنين بوعد الله، الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه.

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة! **﴿وقالت لأخته: قُصِّيه﴾**.. اتبعي أَثَره، واعرفي خَبَره، إن كان حياً، أو أَكَلَته دوابّ البحر أو وحوش البر.. أو أين مقرّه ومرساه؟.

وذهبت أُخته تقصّ أَثَره في حَذَر وخفية، وتَتَلمَّس خَبره في الطُرق والأسواق. فإذا بها تعرف أين ساقته القُدرة التي ترعاه؛ وتبصر به عن بُعد في أيدي خَدَم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع:

﴿فبصرت به عن جُنب وهم لا يشعرون. وحَرَّمنا عليه المراضع من قبل. فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟﴾ [القصص: ١١، ١٢].

إن القدرة التي ترعاه تُدبّر أمره، وتَكيد به لفرعون وآله؛ فتجعلهم يلتقطونه، وتجعلهم يُحبونه، وتجعلهم يَبحثون له عن ظئر تُرضعه، وتُحرّم عليه المراضع، لتَدَعهم يحتارون به، وهو يرفض الثديّ كلما عُرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول! حتى تُبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع، فتقول لهم: **﴿هل أدلّكم على أهل بيت يَكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾**؟ فيتلقفون كلماتها، وهم يَستبشرون، يَودُّون لو تَصْدق فينجو الطفل العزيز المحبوب!.

ويُذكِّر الله موسى بفضله وهو يُبلِّغه التكليف والرسالة، يُذكره بالقدرة التي حَفِظَتْه من عَدوّه وأعادته إلى أُمه.. إني لم أُحطك في قصر فرعون، بالرعاية والحماية وأَدَع أُمك في بيتها للقلق والخوف. بل جَمَعْتُك بها وجَمَعْتُها بك:

﴿إذ تمشي أختك فتقول: هل أدلكم على من يكفله؟ فرجعناك إلى أُمك كي تقرّ عينها ولا تحزن﴾ [طه: ٤٠].

وكان ذلك من تدبير الله. إذ جعل الطفل لا يَقبل ثدي المرضعات.

وفرعون وزَوْجه وقد تَبَنَّيا الطفل الذي ألقاه اليم بالساحل يبحثان له عن مُرضع. فيتسامع الناس وتروحُ أختُ موسى بإيحاء من أُمها تقول لهم: هل أدلكم على من يَكفله؟ وتَجيء لهم بأُمِّه فيلقم ثديها.

وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التي سمعت الإلهام فَقَذَفتْ بفلذة كبدها في التابوت، وقذفت بالتابوت في اليمّ، فألقاه اليمّ بالساحل. ليأخذه عدوّ لله وله، فيكون الأمن بإلقائه بين هـذه المخاوف، وتكـون النجاة من فرعون الذي كان يـذبح أطفـال بني إسرائيـل. بإلقـائه بين يـدي فرعـون بلا حارس ولا معين!.

وينتهي المشهد الرابع؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير من هذه الحلقة. وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة. مُعافى في بَدَنه، مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون، وتَرعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير. وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب:

﴿فرَدَدْناه إلى أُمه، كي تقرّ عينها ولا تَحزن، ولتعلم أن وَعْد الله حقّ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [القصص: ١٣].

ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى ـ عليه السلام ـ والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله. فلا نعلم ماذا كان بعد ردّه إلى أمه لترضعه. ولا كيف تربى في قصر فرعون. ولا كيف كانت صلته بأُمّه بعد فترة الرضاعة. ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شبّ وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية. ولا كيف كانت عقيدته، وهو الذي يصنـع على عين الله، ويُعدّ لـوظيفته، في وسط عبـاد فرعون وكهنته..

إن قصة موسى وفرعون.. تعرض قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المُتجبر اليَقِظ الحَذِر؛ وفي مُواجهتها موسى طفلاً رضيعاً لا حَول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية. وقد عَلا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها

شيعاً، واستضعف بني إسرائيل، يُذَبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حَذَر منهم، وهو قابض على أعناقهم. ولكن قوة فرعون وجبروته، وحَذَره ويقظته، لا تُغني عنه شيئاً، بل لا تُمكن له من موسى الطفل الصغير، المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمي عنه العيون، وتتحدّى به فرعون وجنده تحدياً سافراً، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه!:

﴿تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ [القصص: ٢، ٣].

فإلى القوم المؤمنين يُوجّه هذا الكتاب، يُربِّيهم به ويُنشئهم ويرسم لهم المنهاج، ويشق لهم الطريق.. فالقصص المتلو في القرآن الكريم، مقصود به أولئك المؤمنين، وهم به ينتفعون.

شباب موسى وفتوته:

نشأ موسى ـ عليه السلام ـ في قصر فرعون وبين مظاهر الترف ومباهج المُلك والسلطان.. نشأ كما ينشأ أبناء الملوك. وهكذا زالت من قلب موسى مهابَةُ الملوك والأغنياء.

ولم يَخفَ على موسى أنه دخيل على أهل فرعون، وأنه يرجع في أصله الحقيقي إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ، وأنه من ذلك الشعب الإسرائيلي الذي يُعاني العسف والعذاب من فرعون وآل فرعون. فاتجه إلى بني إسرائيل بقلبه وروحه..

رأى موسى بعَيْنيه كيف يَشقى بنو إسرائيل لينعم فرعون وأهله.. وكيف يجوع بنو إسرائيل لتشبَع دوابّ فرعون.. وكيف يُعاملون بني إسرائيل

معاملة الدَّواب. . وكيف يستخدمونهم ويسومونهم سوء العذاب.

كان موسى يرى ذلك فيسكت. ولكن يغيظه ذلك. وكيف لا يغِيظُه إهانة قومه وأسرته. وهم أبناء الأنبياء الصالحين الكرام. .

يسكت سياق القصة في القرآن الكريم عن نشأة موسى الأولى. ويبدأ مرحلة شبابه مباشرة حين بَلَغَ أَشدّه واستوى، فقد آتاه الله الحكمة والعلم، وجزاه جزاء المحسنين: **﴿ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾** [القصص: ١٤]. .

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية. والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي. وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين. فهل ظلَّ موسى في قصر فرعون، ربيباً ومُتبنًّى لفرعون وزَوْجه حتى بلغ هذه السن؟ أم أنه افترق عنهما، واعتزل القصر، ولم تَسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفسٌ مُصفاة مُجتباة كنفس موسى ـ عليه السلام ـ؟ وبخاصة أن أُمه لا بدّ أن تكون قد عرّفته مَن هو ومَن قومه وما ديانته. وهو يرى كيف يُسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع، والبغي اللئيم؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم.

ليس لدينا من دليل. ولكن سياق الحوادث بعد هذا يُلهم شيئاً من هذا كما سيجيء؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم: **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾** يَشي كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم:

﴿ودخل المدينة على حين غَفْلَة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان: هذا من شِيعته وهذا من عَدوّه. فاستغاثه الذي من شِيعته على الذي من عدوّه؛ فوَكَزَه موسى فقضى عليه﴾ [القصص: ١٥]. .

ودخل المدينة. . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ. . فمن أي مكان جاء فَدَخَلَها؟ وهل كان من القصر في عين شمس؟ أم أنه كان قد اعتزل القصر

والعاصمة، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها، في وقت الظهيرة مثلاً حين تغفو العيون؟.

لقد دخل المدينة على كل حال ﴿**فوجد فيها رَجُلَين يقتتلان**﴾.. وقد كان أحدهما قبطياً ـ يقال إنه من حاشية فرعون، ويقال: إنه طباخ القصر. والآخر إسرائيلي. وكانا يقتتلان. فاستغاث الإسرائيلي بموسى مُستنجداً به على عدوهما القبطي: فكيف وقع هذا؟ كيف استغاث الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجلٍ من رجال فرعون؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر، مُتَبنّى، أو من الحاشية. إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلاً بالقصر، وأنه قد عرف أنه من بني إسرائيل. وأنه ناقم على المَلك والحاشية، مُنتصر لقومه المضطهدين. وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى ـ عليه السلام ـ فإنه بعيد الاحتمال أن تُطيق نفسه البقاء في مُستنقع الشر والفساد..

﴿**فوَكَزَه موسى فَقَضَى عليه**﴾.. والوَكْز الضرب بجمع اليد. والمفهوم من التعبير أنها وَكْزة واحدة كان فيها حَتْف القبطي. مما يشي بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.

ولكن يبدو من حلسياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي، ولم يعمد إلى القضاء عليه. فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع ونَدِمَ على فعلته، وعَزاها إلى الشيطان وغوايته؛ فقد كانت من الغَضَب، والغضب شيطان، أو نَفْخ من الشيطان:

﴿**قال: هذا من عَملِ الشيطان. إنه عَدوّ مُضلّ مبين**﴾ [القصص: ١٥].

. ثم استطرد في فَزَع مما دفعه إليه الغضب، يعترف بظلمه لنفسه أن حَمَلها هذا الوزر، ويتوجه إلى ربه، طالباً مغفرته وعفوه:

﴿**قال: ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي**﴾.. واستجاب الله إلى ضراعته، وحساسيته، واستغفاره: ﴿**فغفر له. إنه هو الغفور الرحيم**﴾ [القصص: ١٦].

وكأنّما أحس موسى بقلبه المرهف وحسّه المُتَوفِّز في حرارة توجهه إلى ربه، أن ربَّه غَفَر له. والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء، فور الدعاء، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد..

وارتعش وجدان موسى ـ عليه السلام ـ وهو يستشعر الاستجابة من ربه، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً، يعده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه: ﴿**قال: ربِّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين**﴾ [القصص: ١٧]..

فهو عهد مُطلق ألّا يقف في صفّ المجرمين ظَهيراً ومُعيناً. وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صُورة من صورها. حتى ولو كانت اندفاعاً تحت تأثير الغَيظ، ومرارة الظُّلم والبغي.

ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه؛ ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل.

وهذه الارتعاشة العنيفة، وقبلها الاندفاع العنيف، تُصور لنا شخصية موسى ـ عليه السلام ـ شَخصية انفعالية، حارّة الوجدان، قوية الاندفاع. وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع كثيرة.

بل نحن نلتقي بها في المشهد الثاني في هذه الحلقة مباشرة:

﴿**فأصبح في المدينة خائفاً يترقَّب؛ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى: إنك لغوي مبين..**﴾ [القصص: ١٨]..

لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطي، ونَدِم موسى على

فعلته، وتوجّهه إلى ربه، واستغفاره إياه، ومغفرته له، وعَهْده على نفسه ألا يكون ظهيراً للمجرمين.

ومرّ يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره، يترقَّب الافتضاح والأذى. ولفظ: ﴿يترقب﴾ يُصوّر هَيئة القَلَق الذي يَتَلفَّت ويتوجّس، ويتوقّع الشرّ في كل لحظة.. وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يُجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يُضخمها بِكَلِمَتَي: ﴿في المدينة﴾ فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر!.

وحالة موسى هذه تُلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر. وإلا فما أرخص أن يُزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً على أن يُصبح ﴿خائفاً يَترقَّب﴾ لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره.

وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع: ﴿فإذا الذي استنصَرَه بالأمس يَستصرخه﴾!.

إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطي. إنه هو مُشتبكاً مع قبطي آخر؛ وهو يستصرخ موسى لينصره؛ ولعله يريد منه أن يقضي على عدوهما المشترك بوَكْزة أخرى!.

ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تُخايل لموسى. وإلى جوارها ندَمه واستغفاره وعهده مع ربّه. ثم هذا التوجُّس الذي يتوقَّع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى. فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه، ويصفه بالغواية والضلال: ﴿قال له موسى: إنك لغوي مبين﴾..

غويّ بعراكه هذا الذي لا يَنتهي واشتباكاته التي لا تُثمر إلا أن تُثير الثائرة على بني إسرائيل. وهم عن الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المُثمرة ضُعفاء. فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضرّ ولا تفيد.

ولكن الذي حدث أن موسى ـ بعد ذلك ـ انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس! ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى ـ عليه السلام ـ بالغيظ من الظُلم، والنَقْمة على البغي، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، والتَوفُّز لردّ العدوان الطاغي، الطويل الأمد، الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخاديد.

﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عَدوٌ لهما، قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، وما تُريد أن تكون من المُصلحين﴾ القصص: ١٩]. .

وإنه ليقع حينما يشتد الظُلم، ويفسد المجتمع، وتختل الموازين، ويُخيم الظلام، أن تَضيق النفس الطيبة بالظُلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعُرف؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظُلم فلا يثورون عليه، ويَرون البغي فلا تَجيش نفوسهم لِدَفْعه؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يَدفع عن نفسه ويُقاوم؛ ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره **﴿جباراً في الأرض﴾** كما قال القبطي لموسى. ذلك أنهم أَلِفُوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون، حتى وُهِمُوا أن هذا هو الأصل، وأن هذا هو الفضل، وأن هذا هو الأدب، وأن هذا هو الخُلق! وأن هذا هو الصلاح! فإذا رأوا مظلوماً يدفع الظُلم عن نفسه، فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها. . إذا رأوا مظلوماً يَهبّ لتحطيم ذلك السياج المُصطنع الباطل وَلْوَلُوا ودُهشوا، وسمَّوا هذا المظلوم الذي يدفع الظلم سفاكاً أو جباراً، وَصبُّوا عليه لَومهم ونَقمتهم. ولم ينل الظالم الطاغي من نقمتهم ولَومهم إلا القليل! ولم يجدوا للمظلوم عُذراً ـ حتى على فَرْض تَهَوّره ـ من ضيقه بالظلم الثقيل!.

ولقد طال الظُلم ببني إسرائيل، فضاقت به نفس موسى ـ عليه السلام ـ حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله، ويهمّ أن يبطش بالذي هو عدوّ له ولقومه.

لذلك لم يَتَخَلّ الله عنه، بل رعاه، واستجاب له، فالله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حداً في الاحتمال. وأن الظُلم حين يشتد، وتُغلق أبواب النصفة، يندفع المُضطهد إلى الهجوم والاقتحام. فلم يُهوِّل في وصف الفَعلة التي فعلها موسى، كما تُهوِّل الجماعات البشرية التي مَسَخَ الظُلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطري مهما تجاوز الحدود تحت الضغط والكظم والضيق.

وهذه هي العبرة التي تُستَشَف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاهما، فهو لا يُبرر الفعلة ولكنه كذلك لا يُضخمها. ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية. وهو المختار ليكون رسول الله، المصنوع على عين الله.. أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان؛ والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها، حيث لا تجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع. كما كَفّ الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان.

ظهور السر:

ويبدو أن رائحة فاحَتْ عن قتيل الأمس، وأن شُبهات تطايرت حول موسى. لما عُرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سرّاً بين قومه، ثم تَفَشّى بعد ذلك خارج بني إسرائيل.

نُرجح هذا لأن قَتْل موسى لأحد رجال فرعون في معركة بينه وبين إسرائيلي في مثل هذه الظروف يُعد حدثاً مريحاً لنفوس بني إسرائيل، يَشفي

بعض غيظهم، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة في همس وفَرَح وتَشَفّ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك، وبخاصة إذا عُرِف عن موسى من قبل نفرته من البغي، وانتصاره للمظلومين.

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة، لأنها عندئذ تجسمت له حَقيقة، وهو يراه يَهمّ أن يَبطش به، وقال له تلك المقالة: **﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟﴾**.

أما بقية عبارته: **﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾**.. فَتُلْهِم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكاً يُعرف به أنه رجل صالح مُصلح، لا يُحب البغي والتجبر. فهذا القبطي يُذَكِّره بهذا ويُورِّي به؛ ويتهمه بأنه يُخالف عما عُرف عنه. يريد أن يكون جباراً لا مُصلحاً، يقتل الناس بدلاً من إصلاح ذات البين، وتهدئة ثائرة الشرّ. وطريقة خطابه له وموضوع خطابه، كلاهما يُلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوباً من رجال فرعون. وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة، ولما كان هذا موضوع خطابه.

ولقد قال بعض المفسرين: إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي، لأنه لما قال له موسى: **﴿إنك لغوي مبين﴾**، ثم تقدم نحوه وهو غاضب ليبطش بالذي هو عدو لهما، حَسِبَ الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو، وأنه يتقدم ليبطش به هو، فقال مقالته، وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده.. وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السرّ كان مجهولاً عند المصريين.

ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال. وقد عَلَّلنا شيوع ذلك السرّ. وأنها قد تكون فراسة أو حدساً من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع.

والظاهر أن موسى لم يَقدم بعد إذ ذكَّره الرجل بفعلة الأمس، وأن الرجل أفلت ليُنْهِي إلى الملأ من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها.

فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق. ثم إذا مشهد جديد. رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة، يُحذّره ائتمار الملأ من قوم فرعون به، ويَنْصَح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته:

﴿وجاء رجل من أقصىٰ المدينة يسعىٰ. قال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فاخرج إني لك من الناصحين﴾ [القصص: ٢٠].

إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة، لِتَتِّم مشيئتها!.

لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليها أنها فعلة موسى. وما من شك أنهم أحسُّوا فيها بِشَبَح الخَطَر. فهي فعلة طابعها الثورة والتمرُّد، والانتصار لبني إسرائيل. وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر. ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء. فانتدبت يَدُ القدرة واحداً من الملأ. **الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه**، والذي جاء ذكره في سورة (غافر) انتدبته ليسعى إلى موسى **﴿من أقصى المدينة﴾** في جدّ واهتمام ومسارعة، لِيُبَلِّغه قبل أن يَبْلغه رجال الملك: **﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين﴾.. ﴿فخرج منها خائفاً يترقب. قال: ربّ نجّني من القوم الظالمين﴾** [القصص: ٢١]..

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية. التَوَفُّز والتَلَفُّت. ونلمح معها، التَوجُّه المباشر بالطلب إلى الله، والتطلّع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة، وترقُّب الأمن عنده والنجاة: **﴿ربّ نجّني من القوم الظالمين﴾** [القصص: ٢١].

من مصر إلى مَدْين:

ثم يتبعه السياق خارجاً من المدينة، خائفاً يترقَّب، وحيداً فريداً، غير مُزوّد إلا بالاعتماد على مولاه؛ والتوجه إليه طالباً عونه وهداه:

﴿ولما تَوَجَّه تلقاء مَدْيَن قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ [القصص: ٢٢].

ونلمح شخصية موسى ـ عليه السلام ـ فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مَدْيَن في جنوبي الشام وشمالي الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقَّب، وخرج مُنزعجاً بنذارة الرجل الناصح، لم يَتَلبَّث، ولم يَتزوَّد، ولم يتخذ دليلاً. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه، مستسلمة له، متطلعة إلى هداه: ﴿عسىٰ ربي أن يهديني سواء السبيل﴾..

ومرة أخرى نجد موسى ـ عليه السلام ـ في قلب المخافة، بعد فترة من الأمن. بل من الرفاهية والطراءة والنعمى. ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً، يُطارده فرعون وجنده، ويَبحثون عنه في كل مكان، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً. ولكن اليد التي رَعَتْه وحَمَتْه هناك ترعاه وتحميه هنا، ولا تُسلِّمه لأعدائه أبداً. فها هو ذا يقطع الطريق الطويل، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء:

﴿ولما ورد ماء مَدْيَن، وجد عليه أُمَّة من الناس يَسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان..﴾ [القصص: ٢٣].

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين. وصل إليه وهو مجهود مكدود. وإذا هو يَطَّلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، السليمة الفطرة، كنفس موسى ـ عليه السلام ـ، وَجَدَ الرعاة الرجالَ يوردون أنعامهم لتشرب من الماء؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء. والأَوْلى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويُعينوهما.

ولم يقعد موسى الهارب المُطارد، المسافر المكدود، ليستريح، وهو يشهد هذا المنظر المُنكَر المُخالِف للمعروف. بل تقدم للمرأتين يسألهما عن

أمرهما الغريب: ﴿**قال: ما خَطْبكما؟**﴾. . **قالتا: لا نسقي حتى يُصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير**﴾ [القصص: ٢٣].

فأطلعناه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود. إنه الضعف، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال. وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال! وثارت نخوة موسى ـ عليه السلام ـ وفطرته السليمة. فتقدّم لإقرار الأمر في نصابه. تقدم ليسقي للمرأتين أولاً، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة. وهو غريب في أرض لا يعرفها، ولا سَنَد له فيها ولا ظهير. وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد. وهو مُطارَد، من خَلْفه أعداء لا يرحمون. ولكن هذا كُلّه لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس: ﴿**فسقى لهما**﴾ [القصص: ٢٤]. .

مما يشهد بنبل هذه النفس التي صُنعت على عين الله. كما يَشي بقوته التي تُرهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل. ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه. فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب:

﴿**ثم تولى إلى الظلّ**﴾. .

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قَيظ وحرّ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر.

﴿**فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقير**﴾ [القصص: ٢٤]. .

إنه يأوي إلى الظلّ المادّي البليل بجسمه، ويأوي إلى الظل العريض المَمْدود. ظلّ الله الكريم المنّان. بروحه وقلبه: ﴿**ربِّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير**﴾. ربّ إني في الهاجرة. ربّ إني فقير، ربّ إني وحيد. ربّ إني ضعيف. ربّ إني إلى فَضلك ومَنّك وكَرمك فقير محووج.

ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن، والركن الركين، والظل الظليل. نسمع المناجاة القريبة والهَمس المُوحي، والانعطاف الرفيق، والاتصال العميق: **﴿ربِّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾**...

الرحمة والفَـرَج:

وما نكاد نستغرق مع موسى ـ عليه السلام ـ في مشهد المناجاة حتى يُعَجِّل السياق بمشهد الفَرَج، مُعقباً في التعبير بالفاء، كأنما السماء تُسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب:

﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء. قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أَجْرَ ما سقيتَ لنا﴾ [القصص: ٢٥]..

يا فَرَج الله: ويا لِقُربه ويا لَنَداه! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير. دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان. دعوة تحملها: **﴿إحداهما﴾** وقد جاءته **﴿تمشي على استحياء﴾** مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال. **﴿على استحياء﴾** في غير ما تبذُّل ولا تَبَرُّج ولا تبجُّح ولا إغواء. جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدلِّه، يحكيه القرآن بقوله: **﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أَجْرَ ما سقيت لنا﴾**. فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح؛ لا التلجلج والتعثُّر والربكة. وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة. فالفتاة القويمة تستحيي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب. الاضطراب الذي يُطمِع ويُغري ويُهيج؛ إنما تتحدث في وضوح بالقَدْر المطلوب، ولا تزيد.

وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة، والاستجابة من موسى. ثم إذا مَشْهد اللقاء بينه وبين

الشيخ الكبير. الذي لم ينصّ على اسمه. وقيل: إنه ابن أخي شعيب النبي المعروف. وإن اسمه يثرون:

﴿فلما جاءه وقَصَّ عليه القَصَص، قال: لا تخف. نجوتَ من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥]..

فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب. ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد. ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: **﴿لا تخف﴾** فجعلها أول لفظ يُعقِّب به على قَصَصه ليلقي في قلبه الطمأنينة، ويُشعره بالأمان. ثم بيّن وعَلَّل: **﴿نجوتَ من القوم الظالمين﴾** فلا سُلطان لهم على مَدْيَن، ولا يَصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار.

الزواج بين البَساطة والصَّراحة:

ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة: **﴿قالت إحداهما: يا أبت استأجره. إن خَيْرَ من استأجرت القويّ الأمين﴾** [القصص: ٢٦]..

إنها وأختها تُعانيان من رَعْي الغنم، ومن مزاحمة الرجال على الماء، ومن الاحتكاك الذي لا بدّ منه للمرأة التي تُزاول أعمال الرجال. وهي تَتَأذّى وأختها من هذا كله؛ وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى. والمرأة العفيفة الروح، النظيفة القلب، السليمة الفطرة، لا تستريح لمزاحمة الرجال، ولا للتبذُّل الناشىء من هذه المزاحمة.

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين. رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما. وهو غريب. والغريب ضعيف مهما اشتد. ورأت من أمانته ما يجعله عفّ اللسان والنظر حين

توجهت لدعوته. فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتَبَذُّل. وهو قوي على العمل، أمين على المال. فالأمين على العِرض هكذا أمين على ما سواه. وهي لا تتلعثم في هذه الإشارة ولا تضطرب، ولا تخشى سوء الظن والتهمة. فهي بريئة النفس، نظيفة الحس؛ ومن ثم لا تخشى شيئاً، ولا تُتَمْتِم ولا تُجَمْجِم وهي تَعرض اقتراحها على أبيها.

ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى. كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه - فيما قالوا - إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل. فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين، أو سقى لهما مع الرعاء.

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودلِّيني على الطريق خوف أن يراها. أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها.. فهذا كله تَكَلُّف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها.. وموسى - عليه السلام - عفيف النظر، نظيف الحس، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة. فالعفّة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع!.

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته. ولعله أحسّ من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة مُتبادلة، وميلاً فطرياً سليماً، صالحاً لبناء أسرة. والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تُلَوَّث ولم تنحرف عن فطرة الله. فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيهِ في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين. فإن زاد إلى عشر فهو تَفَضُّل منه لا يُلزَم به:

﴿قال: إني أُريدُ أنْ أُنكِحَك إحدى ابنتي هاتين، على أن تأجرني ثمان حجج. فإن أتممت عشراً فمن عندك. وما أُريد أن أشقّ عليك.

سَتَجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ [القصص: ٢٧].

وهكذا في بساطة وصراحة عَرَض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ـ ولعله كان يشعر كما أسلفنا ـ أنها مُحدّدة، وهي التي وَقَع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى. عَرَضها في غير تَحَرُّج ولا التواء. فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه. يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يُخجل، ولا ما يدعو إلى التحرُّج والتردّد والإيماء من بعيد، والتصنّع والتكلُّف مما يُشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خُلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نيّة نكاح. فأما حين تُعرض الخطبة أو يُذكر النكاح، فيهبط الخَجَل المُصطنع، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة!.

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ـ ﷺ ـ أو من يرغب في تزويجهن منهم. كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل، لا تُخدش معه كرامة ولا حياء.

عَرَضَ عمر ـ رضي الله عنه ـ ابنته حفصة على أبي بكر، فسكت وعلى عثمان فاعتذر، فلما أخبر النبي ـ ﷺ ـ بهذا طَيَّبَ خاطره، وقال: «عسى أن يجعل الله لها نصيباً فيمن هو خير منهما». ثم تَزَوَّجها ـ ﷺ ـ.

وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ـ ﷺ ـ فاعتذر لها. فألقت إليه ولاية أمرها يُزوّجها ممن يشاء. فَزوَّجها رجلاً لا يملك إلا سورتين من القرآن، علَّمَها إياهما فكان هذا صداقها.

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه. في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تَصَنُّع ولا التواء.

وهكذا صَنَع الشيخ الكبير ـ صاحب موسى ـ فَعَرَض على موسى ذلك العرض واعداً إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل؛ راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه. وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله. فهو لا يُزكِّي نفسه، ولا يجزم بأنه من الصالحين. ولكن يرجو أن يكون كذلك، ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله.

وقَبِلَ موسى العرض وأمضى العقد؛ في وضوح كذلك ودقة، وأَشْهَد الله:

﴿قال: ذلك بيني وبينك. أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ. والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص: ٢٨].

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها، ولا اللعثمة، ولا الحياء. ومن ثم يُقرّ موسى العَرض، ويُبرم العقد، على ما عَرَض الشيخ من الشروط. ثم يُقرر هذا ويوضحه: **﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾**.. سواء قضيتُ ثماني سنوات أو أتممتُ عشراً، فلا عدوان في تكاليف العمل، ولا عدوان في تحتيم العشر؛ فالزيادة على الثمانية اختيار.. **﴿والله على ما نقول وكيل﴾**. فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين. وكفى بالله وكيلاً.

بَيَّنَ موسى ـ عليه السلام ـ هذا البيان تمشياً مع استقامة فطرته، ووضوح شخصيته، وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان. وهو ينوي أن يُوفِّي بأفضل الأجلين كما فَعَل. فقد روي أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخبر أنه: «قضى أكثرهما وأطيبهما». أخرجه البخاري.

وهكذا اطمأن بموسى ـ عليه السلام ـ المقام في بيت حميه؛ وقد أَمِنَ من فرعون وكيده. ولحكمة مُقَدَّرة في علم الله كان هذا الذي كان. . فلندع الآن هـذه الحلقة تمضي في طـريقها حتى تنقضي. فقـد سكت السيـاق القرآني فيها عند هذا الحد وأسدل الستار. .

الحلقة الثانية:

تدبير الله سبحانه

وتمضي السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى ـ عليه السلام ـ لا يُذكر عنها شيء في القرآن. ثم تعرض **الحلقة الثانية** بعدما قضى موسى الأجل وسار بأهله، عائداً من مَدْيَن إلى مصر، يسلك إليها الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات وحيداً طريداً. ولكن جَوّ العودة غير جو الرحلة الأولى.. إنه عائد ليَلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال. ليناديه ربّه ويُكلِّمه، ويُكلفه النهوض بالمهمة التي من أجلها وقاه ورعاه، وعلَّمه وربّاه. مُهمة الرسالة إلى فرعون وملئه. ليطلق له بني إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحداً، ويرثون الأرض التي وعدهم ليمكِّن لهم فيها؛ ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدواً وحزناً، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقاً:

﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً، قال لأهله: امكثوا، إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بِخَبَر أو جَذْوَة من النار لعلكم تَصطلون﴾ [القصص: ٢٩]..

وقبل أن نستعرض هذا في هذه الحلقة نقف قليلاً أمام **تدبير الله** لموسى ـ عليه السلام ـ في هذه السنوات العشر، وفي هذه الرحلة ذهاباً وجيئةً، في هذا الطريق.

لقد نقلت يَد القدرة خُطى موسى - عليه السلام - خطوة خطوة. منذ أن كان رضيعاً في المهد حتى هذه الحلقة. ألقت به في اليمّ ليلتقطه آل فرعون. وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوه. ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً. وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون لِيُحَذِّره ويَنصحه بالخروج منها. وصَاحَبَتْه في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد. وجَمَعَتْه بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر. ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف.. وهذا خط طويل من الرعاية والتوجيه، ومن التلقي والتجريب، قبل النداء وقبل التكليف.. تجربة الرعاية والحب والتدليل. وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار. وتجربة الخوف والمطاردة والفزع. وتجربة الغربة والوحدة والجوع. وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور. وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة، والمشاعر المتباينة، والخوالج والخواطر، والإدراك والمعرفة.. إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليف ضخم شاق مُتعدد الجوانب والتَبعات؛ يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوّق في واقع الحياة العملي، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير.

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تَلَقَّاه بَشَر - عدا رسالة محمد - ﷺ - فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المُتجبّر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء في الأرض.

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شَربوا من كؤوس الذلّ حتى استمرأوا

مذاقه، فَمَرَدوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً. والذلّ يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن؛ ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العَفَن والنَـتَن والرجس والدنس. فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير.

وهو مُرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة؛ انحرفوا عنها، وفسدت صورتها في قلوبهم. فلا هي قلوب خامة تَـتَقبَّل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة؛ ولا هي باقية على عقيدتها القديمة. ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة. والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً.

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أُمة، بل لإنشائها من الأساس. فلأول مرة يُصبح بنو إسرائيل شَعباً مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة. وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير.

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية. وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل.

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى ـ عليه السلام ـ وحياة الجهد الشاقّ في الدعوة وتكاليفها العسيرة.

إن لحياة القصور جواً خاصاً، وتقاليد خاصة، وظلالاً خاصة تُلقيها على النفس وتَـطْبَعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية. والرسالة مُعاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير، والواجد والمحروم، وفيهم النظيف والوسخ، والمهذب والخَشِن؛ وفيهم الطَّيِّب والخبيث والخَيِّر والشِرِّير. وفيهم القوي والضعيف، والصابر والجزوع.. وفيهم وفيهم.. وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم، وطريقة فَهمهم للأمور، وطريقة تصورهم للحياة، وطريقة حديثهم وحركتهم، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم..

وهذه العادات تثقل على نفوس المُنعمين ومشاعر الـذين تربَّـوا في القصور؛ ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلاً على معاناتها وعلاجها، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مُستعدّة للصلاح، لأن مظهـرهـم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم في قلوب أهل القصور! .

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشَظَف أحياناً. . وقلوب أهل القصور ـ مهما تكن ـ مُستعدّة للتضحية بما اعتادته من السَّعَة والدَعة والمُتعة ـ لا تصبر طويلاً على الخشونة والحرمان والمشقة عند معانـاتها في واقـع الحياة.

فشاءت القدرة التي تنقل خطى موسى ـ عليه السلام ـ أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة؛ وأن تزجّ به في مُجتمع الرعاة، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع. وأن ينزع من حِسّه روح الاشمئزاز من الفقر والفقـراء، وروح التَأَفُّف من عـاداتهم وأخلاقهم وخشـونتهم وسذاجتهم؛ وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثـاثة هَيئتهم ومجمـوعة عـاداتهم وتقاليدهم. وأن تُلقي به في خضم الحياة كبيراً بعدما ألقت به في خضم الأمواج صغيراً، لِيُمَرّن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها. .

فلما أن استكملت نفس موسى ـ عليه السلام ـ تجـاربها، وأكملت مرانتها ودربتها، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة، قادت يد القدْرة خُطاه مرة أخرى عائدة بـه إلى مهبط رأسه، ومَقـرّ أهله وقومـه، ومجال رسـالته وعمله، سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيداً طريداً خائفاً يَـتَلفَّت. فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق؟.

إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق. الطريق الـذي سيقود فيه موسى خُطى قومه بِأَمْر ربّه، كي يستكمل صفات الرائد وخبرته، حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق. فقومه كانوا في حاجة إلى

رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير؛ حتى فَقَدُوا القدرة على التدبير والتفكير.

وهكذا ندرك كيف صُنِعَ موسى على عَين الله، وكيف أُعدَّته القدرة لتلقي التكليف. فلنتبع خطى موسى تَنقلها يَد القدرة الكبرى، في طريقه إلى هذا التكليف.

من مدين إلى مصـر :

﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطُّور ناراً. قال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً، لعلي آتيكم منها بِخَبَر أو جَذْوَة من النار لعلكم تصطلون﴾ [القصص: ٢٩].

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ في الطريق بين مَدْين ومصر إلى جانب الطور. ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعـاقد بينـه وبين الرجـل الصالح في مَدْين، وقد خَطَر له أن يُفارق مَدْين وأن يستقل بنفسه وبزوجه، ويعود إلى البلد الذي نشأ فيه، والذي فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره.

ترى أيّ خاطر راود موسى، فعاد به إلى مصر، بعد انقضاء الأَجَل، وقد خرج منها خائفاً يَـتَرقَّب؟.

لماذا عاد. وقد خرج من مصر طريداً وأنساه الخطر الذي ينتظره بها، وقد قَتَل فيها نفساً.. قتل قبطياً حين رآه يقتتل مع إسرائيلي؟ وهناك فرعون الذي يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه؟.

لماذا عاد. وقد غادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يُسامون العذاب ألواناً؟ حيث وَجَدَ الأَمن والطمأنينة في مَدْين إلى جوار الرجل الصالح صهره الذي آواه وزوَّجه إحدى ابنتيه؟.

إنها اليد التي تنقل خطاه، لعلها قادمة هذه المرة بالميل الفطري إلى

الأهل والعشيرة، وإلى الوطن والبيئة، وأنْسَتْه الخطر الذي خرج هارباً منه وحيداً طريداً. ليؤدي المهمة التي خُلق لها ورُعي منذ اللحظة الأولى.

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستاراً لما تُهيئه لموسى من أدوار.. وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرك. تُحركنا أشواق وهواتف، ومطامح ومطامع، وآلام وآمال.. وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المُضمرة، والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار. يد المدبِّر المهيمن العزيز القهار..

وعلى أية حال ها هو ذا عائد، ومعه أهله، والوقت ليل، والجو ظلمة، وقد أضاع الطريق، والليلة شاتية، كما يبدو من أُنسه بالنار التي شاهدها، ليأتي منها بخبر أو جذوة..

وهكذا عاد موسى **﴿وهل أتاك حديث موسى. إذ رأى ناراً فقال لأهله: امكثوا إنّي آنست ناراً، لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾** [طه: ٩ - ١١].

وهل أتاك حديث موسى؟ وما يتجلّى فيه من رعاية الله وهُداه لمن اصطفاه؟.. لقد ضلّ طريقه في الصحراء. ضلّ طريقه والليل مظلم والمتاهة واسعة. نعرف هذا من قوله لأهله: **﴿امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بِقَبَس أو أَجدُ على النار هدى﴾**.. فأهل البادية يُوقدون النار عادة على مُرتفع من الأرض، ليراها السَّاري في الصحراء، فتكشف له عن الطريق، أو يَجد عندها القِرَى والضيافة ومن يَهديه إلى الطريق.

لقد رأى ما رأى **﴿إذ قال موسى لأهله: إني آنستُ ناراً. سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾** [النمل: ٧].

فقد رآها على بُعد، فَشَعر لها بالطمأنينة والأُنس. وتوقَّع أن يَجد عندها خَبَر الطريق، أو أن يَقبس منها ما يَستدفىء به أهله في قَرِّ الليل في الصحراء.. هذا هو المشهد الأول في هذه الحلقة.

فأما المشهد الثاني فهو:

المفاجأة الكبرى واللحظة العظمى:

لقد ذهب يطلب قَبَساً من النار، ويطلب هادياً في السرى.. ها هو ذا يقصد إلى النار التي آنسها، وهو لا يطمع إلا في نار يصطلي بها وتتدفأ بها زوجه.. ولكنه وَجَد المفاجأة الكبرى. إنها النار التي تُدفىء لا الأجسام ولكن الأرواح. النار التي تَهدي لا في السرى ولكن في الرحلة الكبرى: **﴿فلما أتاها نُوديَ من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾** [القصص: ٣٠].

ها هو ذا في شاطىء الوادي إلى جِوار جبل الطور، الوادي إلى يمينه (الأيمن لموسى إذ ذاك)، **﴿في البقعة المباركة﴾** المباركة، منذ هذه اللحظة.. ثم هذا الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوي الآتي لموسى **﴿من الشجرة﴾** ولعلها كانت الوحيدة في هذا المكان: **﴿أن يا موسى إني أنا الله ربّ العالمين﴾** [القصص: ٣٠]..

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ وقد مضى إلى النار التي آنسها، ينشد خبراً، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى:

﴿فلما جاءها نُوديَ أن بُورك من في النار ومن حولها. وسبحان الله ربّ العالمين. يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم﴾ [النمل: ٨، ٩].

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله، وتتصل به العوالم والأفلاك؛ ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح. النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض؛ وتَتَلَقّى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير، ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله.

﴿فلما جاءها نودي﴾.. بهذا البناء للمجهول ـ وهو معلوم ـ ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم.

﴿نودي أن بورك من في النار ومَنْ حولها﴾ . .

فمن ذا كان في النار؟ ومن ذا كان حولها؟ إنها على الأرجح لم تكن ناراً من هذه النار التي نوقدها. إنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى. ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى. وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها. ومن ثم كان النداء: **﴿أن بورك من في النار﴾** إيذاناً بِفَيْض من البركة العلوية على مَن في النار من الملائكة ومَن حولها. . وفيمن حولها موسى. .

إن القلب ليجفُ، وإن الكيان ليرتجف. وهو يتصور ـ مجرد تصور ـ ذلك المشهد. . موسى فريد في تلك الفلاة. والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مُخيم. وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور. ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء: **﴿إني أنا ربُّك فاخلع نعليك. إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتُك. .﴾ . . ﴿فاستمع لما يُوحى﴾** [طه: ١٢، ١٣].

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تُواجه الجلال الذي لا تُدركه الأبصار. الجلال الذي تتضاءل في ظِلّه الأرض والسموات. ويَتلقَّى. يَتلقَّى ذلك النداء العلوي بالكيان البشري. . فكيف؟ كيف لولا لطف الله؟.

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كُلّها وتَكبر مُمَثَّلة في موسى ـ عليه السلام ـ فبحسب الكيان البشري أن يطيق التلقي من ذلك الفيض لحظة. وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هذا الاتصال على نحو من الأنحاء. . كيف؟ لا ندري كيف! فالعقل البشري ليس هنا لِيُدرك ويَحكم، إنما قصاراه أن يقف مبهوتاً يشهد ويُؤمن!.

وقد بيَّن الله سبحانه فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن وتقريبه إلى الله لدرجة الكلام. الكلام القريب في صورة مناجاة: **﴿واذكر**

في الكتاب موسى إنه كان مُخْلَصاً وكان رسولاً نبياً. وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً. . ﴾ [مريم: ٥١، ٥٢].

لقد تلقى موسى النداء المباشر. تلقاه وحيداً في ذلك الوادي العميق، في ذلك الليل الساكن. تلقَّاه يتجاوب به الكون كله، وتمتلىء به السماوات والأرضون. تلقاه لا ندري كيف وبأية جارحة وعن أي طريق. تلقاه ملء الكون من حوله، وملء كيانه كله.

﴿فلما أتاها نودي يا موسى: إني أنا ربك. . ﴾ نودي. . بهذا البناء للمجهول. فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه. ولا تعيين صورته ولا كيفيته. ولا كيف سَمِعَه موسى أو تَلَقَّاه. . نُودي بطريقة ما فَتَلَقَّى بطريقة ما. فذلك من أمر الله الذي نُؤمن بوقوعه، ولا نَسأل عن كيفيته، لأن كيفيته وراء مَدارك البشر وتصورات الإنسان.

نحن لا ندري كيف كان هذا الكلام، وكيف أدركه موسى. . أكان صوتاً تسمعه الأُذن أم يتلقَّاه الكيان الإنساني كله. تلَقَّاه وأطاق تَلقِّيه لأنه صُنع على عين الله حتى تَهيَّأ لهذه اللحظة الكبرى. ولا نعلم كيف أعدّ الله كيان موسى البشري لتلقي كلام الله الأزلي. . إنما نُؤمن أنه كان. وهو على الله هَيِّن أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق، وهو بَشَر علي بشريته، وكلام الله عُلويّ على عُلْوِيَّته. ومن قبل كان الإنسان إنساناً بنفخة من روح الله.

وسَجَّل ضمير الوجود ذلك النداء العلوي، وشَهِدَ الكون كله هذه المنحة العليا؛ وبوركت البقعة التي تجلَّى عليها ذو الجلال. ومضت هذه البقعة مباركة مُقدَّسة بتجلي ذي الجلال، وإذنه لها بالبركة الكبرى؛ وتميَّز الوادي الذي كَرَّم بهذا التجلي، ووقف موسى ـ عليه السلام ـ في أكرم موقف يلقاه إنسان. . **﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾** [النساء: ١٦٤]. إنه الأمر الهائل العظيم. . وهو غيب من الغيب لا يعلمه إلا عالم الغيب.

وسَجَّل الوجود كله بقية النداء والنجاء: ﴿**يا موسى إني أنا ربُّك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طُوَى**[1]﴾ [طه: ١٢].

.. إنك في الحضرة العلوية فَتَجَرَّد بقدَمَيك. وفي الوادي الذي تتجلَّى عليه الطلعة المُقدَّسة، فلا تَطَأْه بنعليك..

ويُنزه الله ذاته العلية، ويُعلن ربوبيته للعالمين، ويكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم: ﴿**وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم**﴾ [النمل: ٩].

وارتفعت البشرية كلها في شخص موسى ـ عليه السلام ـ إلى ذلك الأفق الوضيء الكريم. وَوَجَد موسى الخبر عند النار التي آنسها، ولكنه كان الخبر الهائل العظيم؛ ووجد القَبَس الدافىء، ولكنه كان القَبَس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

التكليف والرسالة:

وكان النداء للاصطفاء، ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض في ذلك الحين..

﴿**وأنا اخترتك**﴾.. فيا للتكريم! يا للتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار. يختار عبداً من العبيد هو فرد من جموع الجموع.. تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرة في مجموعة. المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله: كُن.. فكان! ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان! وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار، والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه، يجيء التنبيه للتلقي: ﴿**فاستمع لما يُوحى**﴾ [طه: ١٣].

ويُلخّص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة: الاعتقاد بالوحدانية،

---

(١) قيل: إنها اسم الوادي، وقيل: إنها وَصْف له.

والتوجُّه بالعبادة، والإيمان بالساعة وهي أُسس رسالة الله الواحدة:

﴿إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري. إن الساعة آتية أكاد أُخفيها لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى. فلا يَصدنَّك عنها من لا يُؤمن بها واتَّبع هواه فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٤ ـ ١٦].

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة. والله في ندائه لموسى ـ عليه السلام ـ يؤكدها بكل المؤكدات:

بالإثبات المؤكد **﴿إنني أنا الله﴾** وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء: **﴿لا إلّه إلاّ أنا﴾** الأولى لإثبات الألوهية لله، والثانية لنفيها عن سواه.. وعلى الألوهية تترتب العبادة؛ والعبادة تشمل التوجُّه لله في كل نشاط الحياة؛ ولكنه يخصّ بالذكر منها الصلاة: **﴿وأقم الصلاة لذكري﴾** لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها تتمحض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغَرَض وحده، وتَتَجمَّع للاتصال بالله.

فأما الساعة فهي الموعد المُرتقب للجزاء الكامل العادل، الذي تَتَوجَّه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق.. والله سبحانه يُؤكِّد مَجيئها: **﴿إن الساعة آتية﴾** وأنه يَكاد يُخفيها. فَعِلْمُ الناس بها قليل لا يتجاوز ما يُطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يُحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم.

والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي. فلا بدّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه. ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم ـ وهم بهذه الفطرة ـ لوَقَفَ نشاطهم وأَسِنَتْ حياتهم، فوراء **المجهول يَجْرون**. فيحذرون ويأملون، ويُجرّبون ويَتَعلّمون. ويَكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم؛ ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق؛ ويُبدعون في الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا..

وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد، يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حَذَر دائم وعلى استعداد دائم. ذلك لمن صَحَّت فطرته واستقام. فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى:

﴿**فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى**﴾..

ذلك أن إتباع الهوى هو الذي يُنشيء التكذيب بالساعة. فالفطرة السليمة تُؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها، ولا يتم فيها العدل تمامه؛ وأنه لا بُدّ من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المُقَدَّر للإنسان، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال. فحكمة الله لا تترك الناس سُدى، يُحسن منهم من يُحسن ويُسيء منهم من يُسيء؛ ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته. وقد أخبر الله على لسان رُسله: إنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة. فكل من يُدرك حكمة الله في خَلْقه يُدرك أن الآخرة حتمية لتحقيق وعد الله وخبره..

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العلوي الذي تجاوبت به جنبات الوجود؛ وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد. ولا بد أن موسى قد نَسي نفسه ونسي ما جاء من أجله، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه؛ وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه. وبينما هو مُستغرق فيما هو فيه، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب:

﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾ [طه: ١٧] إنها عَصاه. ولكن أين هو من عصاه؟ إنما يتذكر فيجيب:

﴿**قال: هي عصاي، أَتَوَكَّأُ عليها وأهشّ بها على غَنَمي ولي فيها مآرب أخرى**﴾ [طه: ١٨]..

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده. إنما كان عَمَّا في يمينه.

ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل، فهي واضحة، إنما عن وظيفتها معه فأجاب . .

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا: أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم ـ وقد كان يرعى الغنم للشيخ الصالح في مَدْين ـ. وقيل: إنه ساق معه في عودته قطيعاً منها كان من نصيبه. وأن يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أَجْمَلَها ولم يُعدِّدها لأن ما ذكره نموذج منها.

ولكن ها هي ذي القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال، تمهيداً لتكليفه بالمهمة الكبرى:

﴿قال: ألقها يا موسى. فألقاها. فإذا هي حيّة تسعى. قال: خُذها ولا تَخَف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ [طه: ١٩ ـ ٢٠].

وألقى موسى عصاه كما أُمر إطاعة لمولاه؛ ولكن ماذا؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبَها طويلاً، والتي يعرفها معرفة اليقين. إنها حَيَّة تدبّ في سُرعة، وتتحرك في خِفّة.

لقد وقعت المعجزة التي تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا ينتبهون إليها. وقعت معجزة الحياة. فإذا العصا حية تسعى. وكم من ملايين الذرات المَيّتة أو الجامدة كالعصا تَتَحوّل في كل لحظة إلى خلية حيّة؛ ولكنها لا تُبهر الإنسان كما يُبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسيرَ حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيراً في تصوراته عما تُدركه حواسه. وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسّية تصدم حسّه فينتبه لها بشدّة. أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خَفيَّة قَلَّما يلتفت إليها. وبخاصة أن الألفة تفقدها جدّتها في حسّه، فيمر عليها غافلاً أو ناسياً.

وقعت المعجزة، فإذا هي تدبّ وتسعى، وتتحرك حركة سريعة كحركة

ذلك النوع الصغير من الحيات «الجان»، وهي حية كبرى تتلوى كصغار الحيات **﴿فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ وَلَّى مُدْبراً ولم يُعَقِّب﴾** [القصص: ٣١]، [النحل: ١٠].

إنها المفاجأة التي لم يستعد لها؛ مع الطبيعة الانفعالية، التي تأخذها الوهلة الأولى.. فقد أدركت موسى ـ عليه السلام ـ طبيعته الانفعالية، وأخذته هزّة المفاجأة التي لم تخطر له ببال **﴿ولَّى مُدبراً ولم يُعَقِّب﴾**.. جرى بعيداً عن الحية دون أن يُفكر في الرجوع والعودة إليها ليتبين ماذا بها؛ وليتأمّل هذه العجيبة الضخمة. وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تَتجلّى في موعدها! وهي حركة تبدو فيها المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال.

ثم يستمع إلى ربه الأعلى: **﴿يا موسى أقبل ولا تَخَف إنك من الآمنين﴾** [القصص: ٣١].

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعاً على هذه النفس، ويتعاورانها في مراحل حياتها. إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها؛ وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس، مُقدّر في هذه الحياة، لأنه الصفحة المقابلة لتبلُّد بني إسرائيل، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل. وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق.

﴿أقْبِل ولا تَخَف إنك من الآمنين﴾.. وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خُطاه، ومن ترعاه عين الله؟.

لقد نودي موسى بالنداء العلوي المُطَمْئِن، وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه: **﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون﴾** [النمل: ١٠]..

لا تخف. فأنت مُكلَّف بالرسالة. والرسل لا يخافون في حضرة ربِّهم وهم يتلقون التكليف.

﴿إلا من ظَلَم ثم بَــدَّلَ حسناً بعــد ســوء. فــإني غفـور رحيم﴾ [النحل: ١١]..

إنما يخاف الذين ظلموا. ذلك إلا أن يُبدِّلوا حسناً بعد سوء، ويَدَعُوا الظُّلم إلى العدل، ويَدَعُوا الشرك إلى الإيمان، ويدعوا الشَّر إلى الخيرَ. فإن رحمتي واسعة وغفراني عظيم.

وبعد هذا النداء العلوي الذي ألقى إلى عبده التكليف.. وأمام موسى المعجزة التي وقعت فَدُهش لها، وخاف وولَّى مُدبراً.. تعلَّق قلبه وهَفَت روحه إلى النداء: ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ [طه: ٢١] ونردها عصا..

عاد موسى وقد سَكتَ خوفُه وهَدَأ روعُه واطمأنت نفسه والتقط الحية، فـإذا هي تعود سيـرتها الأولى! عصـا!.. ووقعت المعجـزة في صـورتهـا الأخرى. صورة سَلْب الحياة من الحيّ، فإذا هو جامد ميت، كما كان قبل أن تُدركه المعجزة الأولى..

والآن وقد اطمأنَّ موسى وقَرّ، يُجهّزه ربه بالمعجزة الثانية، قبـل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف. وصَدَر الأمر العلوي مرة أخرى إلى عبده موسى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء..﴾ [القصص: ٣٢].

كان هذا، وأطاع موسى الأمر، وأدخل يـده في فَتحة ثـوبه ـ وهي جيبه ـ عند صدره ثم أخرجها. فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة. فخرجت بيضاء مُشرقة لامعة مُشعّة، من غير مَرَض، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السُّمرة.

ويُعبّر القرآن الكـريم عن هذا في ســورة طه: ﴿واضمم يـدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾ [طه: ٢٢]..

والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيه من رفرفة وطلاقة وخفّة في هذا الموقف المُجَنَّح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج يده التي وضعها تحت إبطه بيضاء لا عن مرض أو آفة، ولكن عن معجزة. إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل.

وأدركت موسى طبيعته. فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المُتتابعة. ومرّة أخرى تُدركه الرعاية الحانية بتوجيه يردّه إلى السكينة. ذلك أن يضمّ يده على قلبه، فَتُخْفِض من دقاته، وتُطامن من خَفَقاته:

﴿**واضمم إليك إلى جناحك من الرهب**﴾ [القصص: ٣٢]. . وكأنما يده جناح يقبضه على صدره، كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه. والرفرفة أشبه بالخفقان، والقبض أشبه بالاطمئنان. والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن.

لقد جعل الله يُعدّ موسى ـ عليه السلام ـ ويُجهّزه ويُقوّيه. فمعجزة اليد البيضاء ﴿**آية أخرى**﴾ مع آية العصا. ﴿**لنريك من آياتنا الكبرى**﴾ [طه: ٢٣]. فتشهد وقوعها بنفسك تحت بَصَرِك وحسّك.

والآن وقد تَلَقَّى موسى ما تَلَقَّى، وقد شاهد كذلك ما شاهد، وقد رأى الآيتين الخارقتين، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن. . الآن يعرف ما وراء الآيات، والآن يتلقى التكليف الذي كان يُعدُّ من طفولته الباكرة ليتلقاه. . ﴿**فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه. إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ [القصص: ٣٢]. .

لقد رأيتَ من آياتنا الكبرى فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى: ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ [طه: ٢٤].

لم يكن يعلم موسى أنه مُنتدب لهذه المهمة الضخمة. . وإنه ليعرف مَن هو فرعون: فقد رُبِّي في قصره. وشَهِدَ طُغيانه وجبروته. وشاهد ما يصبّه على قومه من عذاب ونكال. .

ووعده ربّه أن يُؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذي شاهد منه اثنتين؛ وهو يكشف له عن وجهته التي من أجلها دعاه وجهَّزه ورعاه! :

﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [النحل: ١٢]. .

لقد بادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى. . إذن فهي الرسالة إلى فرعون وملئه. وإذن فهو الوعد الذي تَلَقَّتْهُ أُمّ موسى وهو طفل رضيع: **﴿إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** [القصص: ٧]. . الوعد اليقين الذي انقضت عليه السنون. وَعْد الله لا يُخلف الله وَعْده وهو أصدق القائلين.

﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون. ألا يتقون؟﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١].

وهنا يبدأ بإعلان صفة القوم: **﴿القوم الظالمين﴾** فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال، وظلموا بني إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسخرة والنكال. . لذلك يقدم صفتهم ثم يُعَيِّنهم **﴿قوم فرعون﴾**، ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان: **﴿ألا يتقون؟﴾** ألا يخشون ربهم؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم؟ ألا يرجعون عن غيهم؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجيب! وكذلك كل من كان على شاكلتهم.

﴿هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طُوىً اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٧]. .

والطغيان أمر لا ينبغي أن يكون ولا أن يبقى. إنه أَمْر كَريه، مُفسد للأرض، مُخالف لما يُحبه الله، مُؤدّ إلى ما يَكره. . فمن أجل مَنْعه ينتدب الله عبداً من عباده المختارين. ينتدبه بنفسه سبحانه. ليحاول وقف هذا الشرّ، ومَنْع هذا الفساد، وَوَقْف هذا الطغيان.

إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبداً من عباده ليذهب إلى الطاغية، فيحاول ردّه عما هو فيه، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نَكَال الآخرة والأولى!.

فضل من الله ورحمة:

ها هو ذا موسى في مشهد النداء والتكليف.. مشهد رهيب جليل. وهو مشهد كذلك عجيب. ونداء الله بذاته ـ سبحانه ـ لعبد من عباده أمر هائل. أهول ما تملك الألفاظ البشرية أن تُعبِّر. وهي سرّ من أسرار الألوهية العظيمة، كما هي سرّ من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن، وهَيَّأه بها لتلقي ذلك النداء. وهذا أقصى ما نملك أن نقوله في هذا المقام الذي لا يملك الإدراك البشري أن يُحيط منه بشيء؛ فيقف على إطاره، حتى يكشف الله له عنه فيتذوَّقه بشعوره.

ها هو ذا موسى يتلقى التكليف الإلهي. لقد أمره ربّه بتبليغ رسالته إلى فرعون.. وهو اللحظة في حضرة ربّه. يغمره الرَوْح والانشراح والإشراق والنور في هذه المناجاة الرائعة.. ها هو ذا موسى في حضرة الله الذي لا إله إلا هو، يحسّ الرضى والتكريم والحفاوة. فَلْيَسْأله كل ما يُطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة؛ ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة:

﴿قال: ربِّ اشرح لي صدري. ويَسِّر لي أمري. واحلل عُقدة من لساني يَفقهوا قولي. واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي. آشدد به أزري، وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً. إنك كنتَ بنا بصيراً﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٥].

وقد دعا ربه في أول الأمر دعاءً شاملاً بِشَرْح الصدر وتيسير الأمر. ثم أخذ يُحدِّد ويُفصِّل بعض ما يُعينه على أمره ويُيَسِّر له تَمامه.

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره.. وانشراح الصدر يُحَوِّل مشقة

التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذة؛ ويجعله دافعاً للحياة لا عِبئاً يثقل خطى الحياة.

وطلب إلى ربه أن يُيَسِّر له أمره.. وتيسر الله لعباده هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول؟!.

وطلب إلى ربه أن يحلّ عُقدة لسانه فيفقهوا قوله. وقد روي أنه كان بلسانه حَبْسة والأرجح أن هذا هو الذي عناه. ويؤيده قوله تعالى: ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، فأرسله معي ردءاً، يُصَدّقني، إني أخاف أن يُكذبون**﴾ [القصص: ٣٤].

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديداً على موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرفه، ويعرف ظُلم فرعون وعُتوّه وجبروته، ويُدرك أنها مُهمة ضخمة وتكليف عظيم. ومن ثم يشكو إلى ربّه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصّل أو يعتذر عن التكليف، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير:

﴿**قال: ربّ إني أخاف أن يُكذبون. ويَضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون**﴾ [الشعراء: ١١ ـ ١٤].

والظاهر من حكاية قوله ـ عليه السلام ـ أن خوفه ليس من مُجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يُبيِّن، وأن يُناقش هذا التكذيب ويُفَنّده. إذ كانت بلسانه حبسة. ومن شأن هذه الحبسة أن تُنشىء حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال فيزداد الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالة معروفة. فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبّار كفرعون. فشكا إلى ربه

ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته، ويُشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف؛ فإذا أدركت موسى حَبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمُحاجّة والبيان.

ولقد دعا موسى ربه ليحلّ هذه العقدة من لسانه، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض طلب معه أخاه وزيراً ومعيناً.. طلب أن يُعينه الله بمعين من أهله. هارون أخيه فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب، وكان موسى ـ عليه السلام ـ انفعالياً حادّ الطبع سريع الانفعال. فطلب إلى ربه أن يُؤيده بأخيه يشدّ أزره ويُقوّيه ويتروّى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه. وهارون أفصح لساناً فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة. وهو ردء له ومعين، يُقوّي دعواه، ويَخلفه إن قتلوه..

هنا يتذكر موسى أنه قَتَل نفساً، وأنه خرج من بينهم طريداً، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيداً. وهو في حضرة ربه. وربه يُكرمه بلقائه، ويكرمه بنجائه، ويُكرمه بآياته، ويكرمه برعايته، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يُقتل فتنقطع رسالته:

﴿قال: ربّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ﴾ [القصص: ٣٣].. يقولها لا ليعتذر، ولا ليتقاعس، ولا لينكص؛ ولكن ليحتاط للدعوة، ويطمئن إلى مُضيّها في طريقها، لو لقي ما يخاف. وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين: **﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، فأرسله معي ردءاً يُصدقني، إني أخاف أن يكذبونِ﴾** [القصص: ٣٤].. فهارون يخلفه إن قتلوه.

وكذلك الشأن في قوله: **﴿ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾** [الشعراء: ١٤].. فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة، والتخلي عن التكليف. ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون. حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده بالرسالة، وأتمّ الواجب كما أمره ربه دون تعويق. فهو الاحتياط للدعوة

لا للداعية. الاحتياط من أن يَحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة.

والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربه التي كُلِّف أَداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص. وهذا هو الذي يليق بموسى ـ عليه السلام ـ الذي صنعه الله على عينه، واصطنعه لنفسه.

لقد طلب موسى العون من ربه لحمل هذه الأمانة.. كل أُولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ولكن ليتخذ ذلك كله مساعداً له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير والتلقي الكثير من السميع البصير. **﴿إنك كنتَ بنا بصيراً﴾** [طه: ٣٥].. تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير.

لقد أطال موسى سُؤله، وبَسَط حاجته، وكَشَف عن ضُعفه، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير.. وقف طويلاً يسأل الله من فضله. وربّه يسمع له. وهو ضعيف في حضرته. ناداه وناجاه. فها هو ذا الكريم المنّان لا يُخجل ضيفه، ولا يرد سائله، ولا يُبطىء عليه بالإجابة الكاملة: **﴿قال: قد أُوتيتَ سُؤلك يا موسى﴾** [طه: ٣٦].. هكذا مرة واحدة، في كلمة واحدة. فيها إجمال يُغني عن التفصيل. وفيها إنجاز لا وَعْد ولا تأجيل.. كل ما سَأَلْتَهُ أُعطيتَه. أعطيته فعلاً. لا تُعطاه ولا سَتُعطاه؟ وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه: «يا موسى» وأي تكريم أكبر من أن يَذكر الكبير المتعال اسم عَبد من العباد؟.

ويتلقى موسى الاستجابة والتطمين: **﴿قال: سنشدّ عضدك بأخيك، ونجعل لكما سُلطاناً فلا يصلون إليكما. بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** [القصص: ٣٥]..

لقد استجاب ربّه رجاءه؛ وشدّ عضده بأخيه.

ويذكر القرآن الكريم رحمة الله بموسى في مساعدته بإرسال أخيه هارون معه: **﴿ووهبنا له من رحمتنا هارون نبياً﴾** [مريم: ٥٣].

وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين: **﴿ونجعل لكما سُلطاناً﴾**.. فهما لن يذهبا مُجرَّدين إلى فرعون الجبار. إنما يذهبان إليه مُزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان؛ ولا تنالهما معه كفّ طاغية ولا جبّار: **﴿فلا يصلون إليكما﴾**.. وحولكما من سلطان الله سياج، ولكما منه حصن وملاذ.

ولا تقف البشارة عند هذا الحد. ولكنها الغَلَبة للحق. الغلبة لآيات الله التي يجبهان بها الطغاة. فإذا هي وحدها السلاح والقوة، وأداة النصر والغلبة: **﴿بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾**.

فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث؛ وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض، لتكون الغَلَبةِ بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس، في دنيا الناس، وليقوم في النفوس ميزان جديد للقوى والقيم. إيمان وثقة بالله، وما بعد ذلك فعلى الله.

إنه فضل من الله.. ومنه التكريم والعطف والإيناس. وقد طال التجلي؛ وطال النجاء؛ وأجيب السُؤل وقُضيت الحاجة.. ولكن فضل الله لا خازن له، ورحمة الله لا مُمسك لها. فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه، فيستبقيه في حضرته، ويمدّ في نجائه وهو يُذكّره بسابق نعمته، ليزيده اطمئناناً وأُنساً بموصول رحمته وقديم رعايته. وكل لحظة تمرّ وهو في هذا المقام الوضيء هي متاع ونعمى وزاد ورصيد.

لقد تفضّل المنعم على عبده، فأطال له النجاء، وبَسَط له في القول، وأوسع له في السؤال والجواب..

إنه الود الحبيب الجليل الذي يُنَسّم على روح موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الودود الرحيم. إنه العطف والفضل الكبير.. إنه حادث عظيم.

عظيم جداً. عظيم إلى غير حد. ومهما حاولنا أن نحيط بعظمته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!.

وهكذا تلقى موسى الرسالة. هذه الأمانة الثقيلة في خشوع وابتهال.. وأسبغ عليه ربُّه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان، بفيضٍ من عطائه ورحمته ومحبته.

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ يُتابع رحلته إلى مصر يحمل رسالة الله إلى فرعون وقد تزوَّد بمدد الله وعونه من ربه العلي الأعلى في الوادي المقدس، في البقعة المباركة، حيث أشرق عليه النور الإلهي، وهبطت عليه الرحمة، وأُنزلت عليه السكينة، فهو يمضي على هدى ربه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة، والاسترواح للرعاية.

لقاء موسى وهارون والتكليف بالرسالة:

إن موسى ـ عليه السلام ـ ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار. إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان. إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر؛ ثم مع قومه بني إسرائيل وقد أذلّهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم، وأضعف استعدادهم للمهمة التي هم مُنتدبون لها بعد الخلاص. فَربّه يُطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد. وأنه لم يُرسَل إلا بعد التهيئة والإعداد. فَيَدُ القدرة كانت تسنده، وعين القدرة كانت ترعاه في كل خُطاه. فلا عليه اليوم من فرعون، وقد بَلَغ أشدّه. وربّه معه. قد اصطنعه لنفسه، واستخلصه واصطفاه.

﴿ولقد مَنَنّا عليك مرة أخرى. إذ أَوحينا إلى أُمك ما يُوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم. فَلْيُلْقِه اليمّ بالساحل، يأخذه عدو لي وعدو له. وألقيتُ عليك محبة مني، ولتصنع على عيني..﴾ [طه: ٣٧ ـ ٣٩]..

فالمنّة قديمة مُمتدة مُطّردة، سائرة في طريقها معك منذ زمـان. فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن.

وإلى هنا كان الخطاب لموسى ـ عليه السلام ـ وكان المشهد هو مشهد المناجاة في الفلاة. وقد أجاب الله موسى إلى ما سأل، وطَمْأَنه مما يخاف. والقرآن يختصر مـرحلة الإرسال إلى هـارون، ومرحلة وصـول موسى إلى مصر. ويطوي السياق المسافـات والأبعاد والأزمـان؛ ويبرز مشهـد موسى وهارون مُجْتَمِعَين يَتَلقَّيان أمر ربّهما الكريم، في نفس اللحظة التي يُطمئن الله فيها موسى، وينفي مخاوفه نفياً شديداً، في لفظة تستخدم أصلاً للردع وهي كلمة «كلا»!:

﴿قال: كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مُستَمِعون. فأتيا فرعون فقولا: إنَّا رسول ربّ العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ١٥ ـ ١٧]..

كلا. لن يضيق صدرك ويُحبَس لسانك، وكلا لن يقتلوك. فأبْعِد هذا كله عن بالك بشدة. واذهب أنت وأخوك.

﴿فاذهبا بآياتنا﴾ وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء.. **﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تَنِيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً لَيناً لعلَّه يتذكر أو يخشى﴾** [طه: ٤٢ ـ ٤٤]..

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتي ولا تنيـا في ذكري فهـو عدتكمـا وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد.. اذهبا إلى فرعون. وقد حَفظتك من شرّه من قبل. وأنت طفل وقد قُذفت في التابوت في اليم، فألقاه اليم بالساحل، فلم تضرّك هذه الخشونة، ولم تُؤذك هذه المخاوف. فالآن أنت مُعَدّ مُهيًّأ، ومعك أخوك. فلا عليك وقد نجوت مما هو أشدّ، في ظروف أسوأ وأعنف..

ثم يُعلّمـه الله كيف يُخاطب الطاغية بـأحبّ أسلوب وأشد جـاذبية للقلوب، لعله ينتهي، ويتقي غَضَبَ الله وأَخْذِه:

﴿فقل: هل لك إلى أن تزكّى﴾؟ [النازعات: ١٨]. . هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة؟ ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات: ١٩]. . هل لك أن أعرفك طريق ربّك؟ فإذا عرفته وَقَعَتْ في قلبك خشيتُه.

فما يطغى الإنسان ويعصي إلا حين يذهب عن ربه بعيداً، وإلا حين يضل طريقه فيقسو قلبه ويفسد، فيكون منه الطغيان والتمرد!.

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبّر وعَتا ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ فالقول اللَّيِّن لا يُثير العزة بالإثم؛ ولا يُهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته، راجين أن يتذكر ويخشى. فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يُبلّغها بحرارة، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار.

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون. ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بدّ منه. والله يُحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم. وهو عَالِم بأنه سيكون. فَعِلْمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء.

ها هما ذان هارون مع موسى يتلقيان التكليف. . وإذا هما معاً يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون، ومن التسرع في أذاه، ومن طغيانه إذا دَعَوَاه: ﴿قالا: ربنا إننا نخاف أن يَفرط علينا أو أن يطغى. . ﴾ [طه: ٤٥]. .

وهارون لم يكن مع موسى قطعاً في موقف المناجاة الطويل في الوادي المقدس. ولقد اجتمع موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور. والسياق القرآني يطوي الزمان

والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تُعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحيّة الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس. وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم ها هما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما: ﴿**قالا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى**﴾..

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ يتحرج من أحدهما أو كليهما.

هنا يجيئهما الرد الحاسم الذي لا خوف بعده، ولا خشية معه: ﴿**قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]..

إنني معكما.. إنه القوي الجبار الكبير المتعال. إنه الله القاهر فوق عباده. إنه موجد الأكوان والحيوان والأفراد والأشياء بقوله: كن. ولا زيادة.. إنه معهما.. وكان هذا الإجمال يكفي. ولكنه يزيدهما طمأنينة، ولمسا بالحس للمعونة: ﴿**أسمع وأرى..**﴾ فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى؟ والله معهما يسمع ويرى؟ وللسمع والرؤية ما بعدهما!.

اذهبا ﴿**إنا معكم مستمعون**﴾ [الشعراء: ١٥]، فأية قوة؟ وأي سلطان؟ وأي حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان. ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد. فهو يرسمها في صورة الاستماع، الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه. وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة. وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

اذهبا ﴿**فأتيا فرعون**﴾ فأخبراه بمهمتكما في غير عذر ولا تلجلج ﴿**فقولا: إنا رسول رب العالمين**﴾ [الشعراء: ١٦]..

ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال: ﴿**فأتياه**

فقولا: إنا رسولا ربك. فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تُعذبهم. قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى. إنا قد أُوحي إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولى﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة. فهما رسول ربِّ العالمين. في وجه فرعون الذي يدّعي الألوهية، ويقول لقومه: **﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾** [القصص: ٣٨].. فهي المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى، بلا تدرج فيها ولا حذر. فهي حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة.

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما: **﴿إنا رسولا ربك﴾** ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربّه. وهو رب الناس. رب العالمين. فليس هو إلهاً خاصاً بموسى وهارون أو ببني إسرائيل، كما كان سائداً في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة، ولكل قَبيل إلهاً أو آلهة. أو كما كان سائداً في بعض الصور من أن فرعون مصر إله يُعبد فيها لأنه من نسل الآلهة..

ثم إيضاح لموضوع الرسالة:

﴿إنا رسول رب العالمين. أن أَرْسِل معنا بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].. وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن، أنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته. إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون. وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل ـ وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام ـ فَبَهتَ هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويُعيد تربيتهم على دين التوحيد..

ففي هذه الحدود كانت رسالة موسى وهارون إلى فرعون: **﴿فَأَرْسِل**

معنا بني إسرائيل ولا تُعذّبهم﴾ [طه: ٤٧]. .

الرسالة لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها «إلى أن يُفسدوا فيها، فيدمّرهم تدميراً».

ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة: **﴿قد جئناك بآية من ربك﴾** تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك، في هذه المهمة التي حددناها.

ثم ترغيب واستمالة **﴿والسلام على من اتّبع الهدى﴾**. . فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى.

ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطغيانه: **﴿إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذّب وتولى﴾** [طه: ٤٨]. . فلعلّه لا يكون ممن كذّب وتولى!.

هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون. وهكذا رسم لهما الطريق. ودبَّر لهما الأمر. ليمضيا آمِنَيْن عَارِضَيْن هَادِيَيْن. . كان هذا في مشهد التكليف. .

وينتهي هذا المشهد الرائع الجليل. ويسدل الستار هنا ليرفعه على مشهد المواجهة والتبليغ.

الحلقة الثالثة:

لقاء الحق والباطل

المواجهة والتبليغ:

ويطوي السياق القرآني للقصة الزمان والمكان. ويرفع الستار.. فإذا موسى وهارون أمام الطاغية في حوار وجدال.. في مواجهة فرعون بآيات الله البيّنات. وإذا الحوار بين الهدى والضلال.

لقد أتيا فرعون ـ والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه ـ أتياه وربهما معهما يسمع ويرى. فأية قوة وأي سلطان هو الذي يتكلم به موسى وهارون، كائناً فرعون وما كان؛ ولقد أتيا ليبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه: **﴿إنا رسولا ربك. فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾** [طه: ٤٧].

هاهوذا موسى ـ عليه السلام ـ يواجه فرعون وملأه بأنه رسول من رب العالمين: **﴿وقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق. فأرسل معي بني إسرائيل﴾** [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥]..

فهذه النصوص القرآنية في القصة تُثبت حقيقة الدين الذي جاء به موسى ـ عليه السلام ـ؛ وحقيقة التصور الاعتقادي الذي تنشئه هذه الحقيقة.. وهو التصور الصحيح الذي جاء به الإسلام؛ وتَضَمَّنه دين الله في جميع الرسالات. كما أنها تُثبت زيف النظريات والتكهنات التي يدلي بها

الباحثون في تاريخ الأديان من الغربيين ومن يأخذ بمنهجهم وتقريراتهم ممن يكتبون عن تطور العقيدة!.

كذلك تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله وبين الجاهلية كلها. وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين؛ وكيف يحسّ فيه الخطر على وجوده؛ كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت!.

إنه بمجرد أن قال موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون: **﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾**.. تَبَيَّن مدلول هذه الدعوة إلى «ربّ العالمين».. إنه ردّ السلطان كله إلى الله بردّ عبودية العالمين كلها إلى ربّ العالمين!.

وبناء على هذا المدلول طلب موسى إطلاق سراح بني إسرائيل. فإنه إذا كان الله ربّ العالمين، فما يكون لعبد من عبيده ـ وهو فرعون المتجبر الطاغي ؛ أن يُعَبِّدهم لنفسه، فهم ليسوا عبيداً إلا لربّ العالمين.

إن ردّ الربوبية كلها لله سبحانه معناه ردّ الحاكمية كلها له. فالحاكمية هي مظهر ربوبية الله للناس ـ وهم من العَالمين ـ وهي تتجلّى في العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده. فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده، وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية.. أو بتعبير آخر لهذه الحاكمية.. وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره. لا يحكمهم بشرعه.

فما الذي كان بين موسى وفرعون وملئه؟.

هنا يبدأ المشهد الأول بينهما: **﴿وقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين..﴾**.

إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر،..

مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى «رب العالمين» وبين الطاغوت الذي يَدّعي ويزاول الربوبية من دون ربّ العالمين!.

ف ﴿يا فرعون﴾.. لم يقل له: يا مولاي! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق! ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز. ناداه ليقرر له حقيقة أمره، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود: ﴿إني رسول من ربّ العالمين﴾..

لقد جاء موسى ـ عليه السلام ـ بهذه الحقيقة التي جاء بها كل رسول قبله. حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً.. ألوهية واحدة وعبودية شاملة.. لا كما يقول الخابطون في الظلام من «علماء الأديان» ومن يتبعهم في زعمهم عن «تطور العقيدة» إطلاقاً، وبدون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين!..

إن العقيدة التي جاء بها الرسل جميعاً عقيدة واحدة ثابتة؛ تقرر ألوهية واحدة للعوالم جميعها. ولا تتطور من الآلهة المتعددة، إلى التثنية، إلى الوحدانية في نهاية المطاف.. فأما جاهليات البشر ـ حين ينحرفون عن العقيدة الربانية ـ فلا حدّ لتخبّطها بين الطوطم والأرواح والآلهة المتعددة والعبادات الشمسية والتثنية والتوحيد المشوب برواسب الوثنية.. وسائر أنواع العقائد الجاهلية.. ولا يجوز الخلط بين العقائد السماوية التي جاءت كلها بالتوحيد الصحيح، الذي يُقرر إلهاً واحداً للعالمين؛ وتلك التخبطات المُنحرفة عن دين الله الصحيح.

ولقد واجه موسى ـ عليه السلام ـ فرعون وملأه بهذه الحقيقة الواحدة، التي واجه بها كل نبي ـ قبله أو بعده ـ عقائد الجاهلية الفاسِدة.. واجهه بها وهو يعلم أنها تعني الثورة على فرعون وملئه ودولته ونظام حكمه..

إن ربوبية الله للعالمين تعني ـ أول ما تعني ـ إبطال شرعية كل حُكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأَمْره؛ وتَنحية كل طاغوت عن

تعبيد الناس له ـ من دون الله ـ بإخضاعهم لشرعه هو وأمره. . واجَهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين. مُلزماً ومأخوذاً بقول الحق على ربه الذي أرسله. . ﴿حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق﴾. .

فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله، ليقول عليه إلا الحق، وهو يعلم قدره؛ ويجد حقيقته ـ سبحانه ـ في نفسه.

﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾. . تدلكم على صدق قولي: إني رسول من ربّ العالمين.

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة. . حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين. طلب موسى من فرعون أن يُطلق معه بني إسرائيل. .

إن بني إسرائيل عبيد لله وحده، فما ينبغي أن يُعَبّدهم فرعون لنفسه! إن الإنسان لا يخدم سيدين، ولا يعبد إلهين. فمن كان عبداً لله، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه. وإذ كان فرعون إنما يُعَبّد بني إسرائيل لهواه، فقد أعلن له موسى أن ربّ العالمين هو الله. وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل!.

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان. تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله. تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر.

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس. . والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صُنع البشر ـ أي لربوبية غير ربوبية الله ـ واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون!.

إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله، وقانونهم غير شريعة الله. إنما هم في دين حاكمهم ذاك. في دين المَلك لا في دين الله!.

وعلى هذه الحقيقة أُمر موسى ـ عليه السلام ـ أن يبني طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل:

﴿يا فرعون إني رسول من ربّ العالمين﴾.. ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾...

مقدمة ونتيجة.. تتلازمان ولا تفترقان.

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان. إعلان ربوبية الله للعالمين.. لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم مُلك فرعون. وقَلْب نظام حكمه، وإنكار شرعيته، وكشف عدوانه وطغيانه..

ويَعجب فرعون وهو يرى موسى يُواجهه بهذه الدعوى الضخمة: **﴿إنا رسول ربّ العالمين﴾**. ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم! **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾**. فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً في قصره منذ أن التقطوا تابوته. وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وَجَدَهُ يَتعارك مع الإسرائيلي. وقيل: إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون. فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يُواجهه بها بعد عشر سنين! ومن ثم بدأ فرعون مُتهكماً مُستهزئاً مُستعجباً:

﴿قال: ألم نُرَبِّك فينا وليداً، ولبثتَ فينا من عُمرك سنين؟ وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ وأنت من الكافرين﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩]..

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولِتَخْرج على المَلك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟!.

وما بالك ـ وقد لبثت فينا من عمرك سنين ـ لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدّعيها اليوم؛ ولم تُخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟!.

ويُذكّره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم: **﴿وفعلتَ فعلتك**

التي فعلت﴾.. فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة! فعلتها ﴿وأنت من الكافرين﴾ بربِّ العالمين الذي تقول به اليوم، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن ربِّ العالمين!.

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلاً لا يملك موسى ـ عليه السلام ـ معه جواباً، ولا يستطيع مقاومة. وبخاصة حكاية القَتْل، وما يمكن أن يعقبها من قَصَاص، يتهدَّده به من وراء الكلمات!.

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حَبسة لسانه ـ انطلق ـ يجيب:

﴿قال: فَعَلْتُها إذن وأنا من الضالّين. ففررتُ منكم لما خِفتكم، فوهَبَ لي ربي حُكماً وجعلني من المرسلين. وتلك نِعمةٌ تمنّها عليّ أن عبَّدت بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢٢]..

فعلتُ تلك الفعلة وأنا بعد جاهل، أندفع اندفاع العصبية لقومي، لا اندفاع العقيدة التي عرفتُها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة.

﴿ففررتُ منكم لما خفتكم﴾ على نفسي. فَقَسَمَ الله لي الخير، وَوَهَب لي الحكمة **﴿وجعلني من المرسلين﴾** فلست بِدعاً من الأمر، إنما أنا واحد من الرعيل «من المرسلين»[1].

لم يُجيبه تهكماً بتهكم. ولكن بالحق: **﴿وتلك نعمة تمنّها عليَّ أن عَبَّدت بني إسرائيل﴾**.. فما كانت تربيتي في بيتك وليداً إلا من جراء

---

(١) يلاحظ من ناحية التنسيق في التعبير أن حرف الفاصلة في سورة الشعراء التي منها هذه الآية هو الميم أو النون وقبلها مد. فقوله: من المرسلين. يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد في السورة. بعكس ما لو قيل: وجعلني رسولاً. ولكنه مع هذا يؤدي معنى مقصوداً. وهو أنه واحد من كثيرين وأن الأمر ليس بفذ ولا عجيب. وهكذا يجتمع التناسق الفني والديني في التعبير.

استعبادك لبني إسرائيل، وقَتْلَك أبناءهم، مما اضطر أُمي أن تلقيني في التابوت، فتقذفُ بالتابوت في الماء، فتلتقطوني، فأُربَّى في بيتك، لا في بيت أبويّ. فهل هذا هو ما تَمنّه عليّ، وهل هذا هو فَضلك العظيم؟!.

عندئذ عَدَل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه. ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم:

﴿**قال فرعون: وما ربّ العالمين؟**﴾ [الشعراء: ٢٣]..

إنه ـ قبّحه الله ـ يسأل: أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول: إنك من عنده رسول؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه، المتهكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث!.

فيجيبه موسى ـ عليه السلام ـ بالصفة المشتملة على ربوبيته ـ تعالى ـ للكون المنظور كله وما فيه:

﴿**قال: ربّ السماوات والأرض وما بينهما. إن كنتم موقنين**﴾ [الشعراء: ٢٤]..

وهو جواب يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه.. إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك ـ يافرعون ـ ولا علمك. وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل. وهو مُلك صغير ضئيل، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السموات والأرض وما بينهما. وكذلك كان جواب موسى ـ عليه السلام ـ يحمل استصغار ما يدّعيه فرعون مع بطلانه، وتوجيه نَظَره إلى هذا الكون الهائل، والتفكير فيمن يكون ربّه.. فهو ربّ العالمين!.. ثم عَقَّب على هذا التوجيه بما حكايته[1].. ﴿**إن كنتم**

(١) لم يكن موسى يتكلم العربية. فقد كان يخاطب فرعون باللغة المصرية طبعاً. ولكن القرآن يحكي قوله.

موقنين﴾ فهذا وحده هو الذي يُحسن اليقين به والتصديق.

لقد فَزِعَ فرعون لهذه المفاجأة، ولكنه كَظَم غيظه.. واستمر الحوار والجدال: ﴿قال: فمن ربُكما يا موسى؟! قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]..

إنه لا يريد أن يعترف بأن ربّ موسى وهارون هو ربّه، كما قالا له: ﴿إنا رسولا ربك﴾ فهو يسأل موجهاً الكلام إلى موسى لما بَدا له أنه هو صاحب الدعوى: ﴿فمن ربكما يا موسى؟﴾ من ربكما الذي تتكلمان باسمه وتطلبان إطلاق بني إسرائيل؟.

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فيردّ بالصفة المُبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى:

﴿قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.. فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى:

﴿قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى﴾.. ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خَلَقه لها، وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة ويُعينه عليها.

وثم هنا ليست للتراخي الزمني. فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خُلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خَلْق المخلوق وخلق وظيفته. إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته؛ فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خَلْقه غَفلاً..

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى ـ عليه السلام ـ يُلَخّص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خَلْقه على الصورة التي خُلِقَ بها. وهبة هدايته للوظيفة التي

خُلِقَ لها. . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته ـ في حدود ما يطيق ـ في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير. من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان.

وهذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء؛ وكل ذرة فيه تنبض، وكلية خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى. . وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات!.

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فُطرت عليها، داخل حدود الناموس العام، في توافق وانتظام.

وكل كائن بمفرده ـ ودعك من الكون الكبير ـ يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه. دراستها مجرد دراسة لا خَلْقها ولا هدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان. وهو خَلْق من خلق الله. . وَهَبَه وجوده، على الهيئة التي وُجِد بها؟ للوظيفة التي خُلق لها، كأي شيء من هاتِه الأشياء!.

إلا أنه للإله الواحد. . ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى. .

وقام فرعون بسؤال آخر: **﴿قال: فما بال القرون الأولى؟﴾** [طه: ٥١]. .

ما شأن القرون التي مضت من الناس؟ أين ذهبت؟ ومن كان رَبّها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا؟.

﴿قال: عِلْمها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾ [طه: ٥٢]. .

بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت عِلْمه شيء ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله. في ماضيها وفي مستقبلها. والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله.

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان. فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون، المشهود له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزروع والأنعام:

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً، وسلك لكم فيها سبلًا، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى. كلوا وارعوا أنعامكم. إن في ذلك لآياتٍ لأولي النُهى﴾ [طه: ٥٣، ٥٤]. .

والأرض كلها مَهد للبشر في كل مكان وزمان. مهد كمهد الطفل. وما البشر إلا أطفال هذه الأرض. يضمهم حضنها ويغذوهم دَرّها! وهي مُمهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة. جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شيء خَلْقه. فأعطى هذه الأرض خَلْقها على الهيئة التي خُلقت بها صالحة للحياة التي قدرها فيها؛ وأعطى البشر خَلْقهم كذلك على الهيئة التي خَلَقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مَهَّدها لهم وجعلها مهدهم. . المعنيان متقاربان متصلان.

والخالق المدبر الذي جعل الأرض مهداً، شقّ للبشر فيها طرقاً وأنزل من السماء ماء. ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض ـ ومنها نهر النيل القريب من فرعون ـ فيخرج النبات أزواجاً من أجناس كثيرة. ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعي الحيوان.

وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء. وهي

ظاهرة مطردة في الأحياء كلها. والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير، وخلايا التأنيث في النبتة الواحدة وأحياناً اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية. وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع.. ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النُهى﴾.. وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى.

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جَلّ وعلا:

﴿منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥]..

من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهداً وسلكنا لكم فيها سُبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجاً من نبات شتى، للأكل والمرعى.. من هذه الأرض خلقناكم، وفي هذه الأرض نعيدكم، ومنها نخرجكم بعد موتكم.

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً. ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس. وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتاً يختلط بترابها، وغازاً يختلط بهوائها. ومنها يُبعث إلى الحياة الأخرى، كما خُلق في النشأة الأولى.

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر، الذي يتسامى إلى مقام الربوبية، وهو من هذه الأرض وإليها! وهو شيء من الأشياء التي خَلَقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها.. ربّ العالمين **﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾** [الشعراء: ٢٤]..

والتفت فرعون إلى مَنْ حوله، يعجبهم من هذا القول، أو لعله يصرفهم عن التأثُّر به، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات

الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب: ﴿**قال لمن حوله: ألا تستمعون؟**﴾ [الشعراء: ٢٥]..

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عَهْد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه!.

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين: ﴿**قال: ربكم وربّ آبائكم الأولين**﴾ [الشعراء: ٢٦]..

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه وأوضاعه، فهو يُجبهه بأن ربّ العالمين هو ربه، فما هو إلا واحد من عبيده. لا إله كما يدّعي بين قومه! وهو ربّ قومه، فليس فرعون ربّهم كما يزعم عليهم! وهو ربّ آبائهم الأولين. فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دَعوى باطلة. فما كان من قبل إلا الله رباً للعالمين!.

وإنها للقاصمة لفرعون. فما يُطيق عليها سكوتاً والملأ حوله يستمعون. ومن ثم يرمي قائلها في تهكّم بالجنون:

﴿**قال: إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون**﴾ [الشعراء: ٢٧]..

إن رسولكم الذي أُرسل إليكم.. يريد أن يَتهكّم على مسألة الرسالة في ذاتها، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكّم، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها. ويتّهم موسى ـ عليه السلام ـ بالجنون، ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم. وتردّ الناس إلى الله ربّهم وربّ آبائهم الأولين.

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يَفتّ في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تُزلزل الطغاة والمتجبرين:

﴿**قال: ربّ المشرق والمغرب وما بينهما. إن كنتم تعقلون**﴾ [الشعراء: ٢٨]..

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما، وشدة ألفتهما. واللفظ يدل على الشروق والغروب. كما يدل على مكاني الشروق والغروب. وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المُتجبرين أن يدَّعي تصريفهما. فمن يُصرفهما إذن ومن يُنشئهما بهذا الاطّراد الذي لا يَتخلَّف مرة ولا يُبطىء عن أجله المرسوم؟.

إن هذا التوجيه يهزّ القلوب البليدة هزّاً، ويُوقظ العقول الغافية إيقاظاً. وموسى ـ عليه السلام ـ يُثير مشاعرهم، ويدعوهم إلى التدبير والتفكير: **﴿إن كنتم تعقلون﴾**.

تهديد غليظ والمعجزة المُزَلْزِلَة:

والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يَهزُّون الضمائر الغافية. ومن ثم تَرى فرعون يَهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب. فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين:

﴿قال: لئن اتخذت إلَهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [الشعراء: ٢٩]..

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين. فليس السجن عليه ببعيد. وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع. وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد!.

غير أن التهديد لم يُفقد موسى رباطة جأشه. وكيف وهو رسول الله؟

والله معه ومع أخيه؟ فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يُغلقها ويستريح. يفتحها بقول جديد، وبرهان جديد: ﴿**قال: أَوَ لَوْ جِئْتك بشيء مبين؟**﴾ [الشعراء: ٣٠]..

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى، ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لَدَلّ على خوفه من حجته، وهو يدعي أنه مجنون. ومن ثم وَجَد نفسه مُضطراً أن يطلب منه الدليل:

﴿**قال: فأت به إن كنت من الصادقين**﴾ [الشعراء: ٣١]..

إن كنت من الصادقين في دعواك؛ أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئاً مبيناً. فهو ما يزال يُشَكِّك في موسى، خيفة أن تترك حُجته في نفوس القوم شيئاً.

وقد كان أمام فرعون ومَلَئِه أن يُظهروا موسى بمظهر الكاذب الذي يَزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بَيِّنة ولا دليل:

﴿**قال: إن كنتَ جئتَ بآية فأتِ بها إن كنتَ من الصادقين**﴾ [الأعراف: ١٠٦]..

ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه؛ سقطت دعوته، وهان أمره؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر ـ وصاحبها دعيّ لا بَيّنة عنده ولا دليل!.

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتَين، وقد أخرهما حتى بلغ التحدّي من فرعون أقصاه:

﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونَزَع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]..

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى ثُعبان تدبّ فيه الحياة، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلاً. يدل على هذا بقوله: ﴿فإذا هي﴾ فلم يكن الأمر تخييلاً، كما هو الحال في السحر الذي لا يُغير طبائع الأشياء، إنما يُخَيِّل للحواس بغير الحقيقة.

ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر، معجزة تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا يلقون لها بالاً، لطول الألفة والتكرار، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي فأما في مثل هذا المشهد. وموسى ـ عليه السلام ـ يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يُزَلْزِل ويُرهب.

ها هو ذا موسى يجيب: **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** [الشعراء: ٣٢، ٣٣]..

إنها المفاجأة!! إن العصا تنقلب ثعباناً لا شك في ثعبانيته.. **﴿مبين﴾** وكما قيل في آية أخرى: **﴿فإذا هي حَية تسعى﴾** [طه: ٢٠].. ثم إن يده السمراء ـ وقد كان موسى عليه السلام «آدم» أي مائلاً إلى السمرة ـ يُخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض، ولكنها المعجزة، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء!.

هذه هي البَيِّنة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى.. إني رسول من رب العالمين.

ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه؟.

علام يقوم هذا كله إن كان الله هو «رب العالمين»؟.

إنه إن كان الله هو «رب العالمين» فلا حكم إلا لشريعة الله، ولا طاعة

إلا لأمر الله . . فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يـرتكن إلى أمره؟ . . إن النـاس لا يكون لهم «ربّ» آخـر يُعبِّدَهم لحكمه وشرعه وأمره، إن كان الله هو ربّهم . . إنما يخضع النـاس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون. فالحاكم ـ بأمره وشرعه ـ هو رب الناس. وهم في دينه أياً كان!.

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها، وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق القوم من حوله، ويُهيج مخاوفهم من موسى وقومه، ليغطي على وَقْع المعجزة المُزَلْزِلة:

﴿قال للملأ حوله: إن هـذا لساحـر عليم، يريـد أن يُخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]. .

وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كـان يسميها سحراً؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر «عليم».

ويبدو ذُعره من تَأَثُّر القوم بها فهو يُغريهم به: **﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾** ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهاً، فيطلب أمرهم ومشورتهم: **﴿فماذا تأمرون؟﴾** ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!.

وتلك شَنشنة الطغاة حينما يحسّون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم. عندئذ يَلينـون في القول بعـد التجبُّر. ويلجـأون إلى الشعوب وقـد كانـوا يدوسونها بالأقدام. ويتظاهـرون بالشـورى في الأمر وهم كـانوا يستبـدون بـالهوى. ذلـك إلى أن يتجاوزوا منـطقة الخـطر، ثم إذا هم هم جبابـرة مستبدون ظالمون!.

وأشار عليه الملأ؛ وقد خَدَعَتْهم مكيدتـه، وهم شركـاء فرعـون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربـة

ذات نفوذ وسلطان؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى مُعجِزَتَي موسى وتسمع إلى ما يقول.. أشاروا عليه أن يَلْقَى سِحره بسحر مثله، بعد التهيئة والاستعداد: ﴿**قالوا: أَرْجه وأخاه. وابعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليم**﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧]..

أي أَمْهله وأخاه إلى أَجَل؛ وابعث رُسلك إلى مدائن مصر الكبرى، يجمعون السَحَرة المَهَرة، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه.

كلا! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب، ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة!.

وفرعون وملؤه لا يُخطئون فَهْم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يُعلنها موسى. بل إنهم ليعلنونها صريحة. ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة، باتهام موسى بأنه ساحر عليم:

﴿**قال الملأ من قوم فرعون: إن هذا لساحر عليم. يريد أن يُخرِجَكم من أرضكم. فماذا تأمرون؟**﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]..

إنهم يُصرّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة. إنها الخروج من الأرض.. إنها ذهاب السلطان.. إنها إبطال شرعية الحكم.. أو.. محاولة قلب نظام الحكم!.. بالتعبير العصري الحديث!.

إن الأرض لله. والعباد لله. فإذا رُدَّت الحاكمية في أرض الله، فقد خرج منها الطغاة، الحاكمون بغير شرع الله! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يُزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمْرهم. وخرج منها الملأ الذين يُولّيهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى، فَيُعبِّدون الناس لهذه الأرباب!.

ولقد أدرك فرعون وملئه خطر الدعوة إلى «ربّ العالمين». وأحسوا أن

توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون ـ وسلطانهم المستمد منه ـ فَعَبَّروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يُخرجهم من أرضهم: **﴿قال الملأ من قوم فرعون: إنَّ هـذا لساحـر عليم. يُريـد أن يُخرجكم من أرضكم. فمـاذا تأمرون؟﴾** [الأعراف: ١٠٩، ١١٠].. **﴿وقال الملأ من قوم فرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟﴾** [الأعراف: ١٢٧]..

وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى ربِّ العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحداً هو انتزاع السلطان من يَد العبيد ـ الطواغيت ـ وردّه إلى صاحبه ـ سبحانه ـ وهذا معناه ـ من وجهة نظرهم ـ الإفساد في الأرض! أو كما يقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها: إنها محاولة لقلب نظام الحكم! ومن وجهة نظر طواغيت الجاهلية التي تغتصب سلطان الله ـ أي تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان ـ يكون هذا «قلباً» لنظام الحكم. لأن نظام الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عَبْد من العبيد لبقية العبيد.. بينما الدعوة إلى ربِّ العالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد!.

﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذَّب وأبَى﴾ [طه: ٥٦]..

أريناه الآيات الكونية التي وَجَّهَهُ إليها موسى ـ عليه السلام ـ فيما حوله، وآيتي العصا واليد يجملهما هنا لأنهما بعض آيات الله، وما في الكون منها أكبر وأبقى. لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون، فهذا مفهوم ضمناً، إنما يُفصل ردّه على الآيات كلها فنفهم أنه يُشير إليهما:

﴿قال: أجِئْتَنا لِتُخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخلفه نحن ولا أنت، مكاناً سُوَى. قال: موعدكم يوم الزينة وأن يُحشَر الناس ضُحى﴾ [طه: ٥٧ ـ ٥٩]..

وهكذا لم يمض فرعون في الجَدَل، لأن حجّة موسى ـ عليه السلام ـ

فيه واضحة وسلطانه فيه قوي، وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون، ومن آياته الخاصة معه.. إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذي يجعل العصا حية تسعى، ويُحيل اليد بيضاء من غير سوء. وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه مُنتشر في ذلك الوقت في مصر؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر.. وهو تخييل لا حقيقة، وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فينشىء فيه آثاراً محسوسة كآثار الحقيقة. كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها، أو في صورة غير صورتها. وما يشاهد من تَأَثُّر المسحور أحياناً تَأَثُّرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثَر الواقع عليه حقيقة.. وليس من هذا النوع آيتا موسى. إنما هما من صُنع القدرة المبدعة المحوّلة للأشياء حقاً. تحويلاً وقتياً أو دائماً.

﴿قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟﴾..

ويظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم. وفي سبيل المُلك والحكم لا يتحرّج الطُّغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخُلق والشَرف والضمير.. ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلّهم بقتل المواليد. واستبقاء الإناث؛ وتسخير الكبار في الشاقّ المُهلك من الأعمال.. فلما قال له موسى وهارون: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تُعَذِّبهم. قال: **﴿أجئتنا لتُخرِجَنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟﴾** لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض. وإذا كان موسى يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغَرَض، وكل ما يُقدّمه هو عمل من أعمال السحر، فما أسهل الرد عليه: **﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾**.. وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفاً من أهداف هذه الأرض؛ وأنها ليست سوى ستار للمُلك والحكم.. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات، إما خارقة كآيات موسى، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها

إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق. فإذا الطغاة يقابلونها بما يُماثلها ظاهرياً.. سحر نأتي بسحر مثله! كلام نأتي بكلام من نوعه! صلاح نتظاهر بالصلاح! عمل طيب نُرائي بعمل طيب! ولا يدركون أن للعقائد رصيداً من الإيمان، ورصيداً من عون الله؛ فهي تَغْلِب بهذا وبذاك، لا بالظواهر والأشكال!.

ويجمل القرآن في سورة المؤمنين قصة موسى في الرسالة والتكذيب: **﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون؟ فكذبوهما فكانوا من المُهلَكِين﴾** [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨]..

ويبرز في هذا الاستعراض الاعتراض على بشرية الرسل: **﴿فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا﴾** ويزيد عليه تلك الملابسة الخاصة بوضع بني إسرائيل في مصر: **﴿وقومهما لنا عابدون﴾** مُسخّرون خاضعون. وهي أدعى ـ في اعتبار فرعون وملئه ـ إلى الاستهانة بموسى وهارون.

فأما آيات الله التي معهما، وسلطانه الذي بأيديهما، فكل هذا لا إيقاع له في مثل تلك القلوب المطموسة، المستغرقة في ملابسات هذه الأرض، وأوضاعها الباطلة، وقِيَمها الرخيصة.

وهكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة.. وكذلك يُدركها الطواغيت في كل مرة.. لقد قال الرجل العربي ـ بفطرته وسليقته ـ حين سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: «هذا أمْرٌ تكرهه الملوك!». وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: «إذن تُحاربك العرب والعجم»..

لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته. كان يفهم أَنَّ شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جدّيتها في حسّ هؤلاء العرب، لأنهم كانوا

يفهمون مدلول لغتهم جيداً. فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، شهادة أن لا إله إلا الله، مع الحكم بغير شرع الله! فيكون هناك آلهة مع الله! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يَدعون أنفسهم «مسلمين» ذلك الفَهْم الباهت التافه الهزيل!.

وهكذا قال الملأ من قوم فرعون، يتشاورون مع فرعون: **﴿إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم. فماذا تأمرون؟﴾** [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠]..

واستقرّ رأيهم على أمر: **﴿قالوا: أرجه وأخاه، وأرسل في المدائن حاشرين، يأتوك بكل ساحر عليم﴾** [الأعراف: ١١ ـ ١١٢]، **﴿يأتوك بكل سحَّار عليم﴾** [الشعراء: ٣٧]..

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد. وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر. ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر؛ ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها «علماء الأديان!» فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة! ويقول الملحدون منهم: إن الدين سَيَبْطُل كما بَطل السحر! وإن العلم سينهي عَهْد الدّين كما أنهى عهد السحر!.. إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه: «العلم»!.

وقد استقر رأي الملأ من قوم فرعون، على أن يُرجىء فرعون موسى إلى موعد. وأن يرسل في أنحاء البلاد مَن يَجمع له كبار السحرة. ذلك ليواجهوا «سحر موسى» بزعمهم ـ بسحر مثله ـ.

وعلى كل ما عُرف من طغيان فرعون، فقد كان في تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة في القرن العشرين؛ في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية ربّ العالمين! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة!.

وقد طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة. . وتَرَكَ له اختيار ذلك الموعد: للتحدّي - **﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾** وشدّد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي: **﴿لا نُخلفه نحن ولا أنت﴾**. وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف: **﴿مكاناً سُوَى﴾** مبالغة في التحدي!.

وقَبِلَ موسى ـ عليه السلام ـ تحدّي فرعون له؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة؛ **﴿قال: موعدكم يوم الزينة﴾** وطلب أن يجمع الناس ضُحَى، ليكون المكان مكشوفاً والوقت ضاحياً. **﴿وأن يُحشر الناس ضحى﴾** [طه: ٥٨، ٥٩]. .

فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً في يوم العيد. لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت. ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحرّ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية. . !!.

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان لِلّقاء المُنْتَظَر في الميدان. .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة. .

إلى الميدان:

لقد تعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر، وأرادوا ـ في أغلب الظن ـ أن يُفرّقوا الجماهير بها، بأن يعقدوا حلقة للسّحرة يتحدُّون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر في ظاهرها، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً. وبذلك ينتهي الخَطَر الذي يخشونه على مُعتقداتهم الموروثة، وعلى سلطانهم في الأرض، وهو الأساس. . ونُرجّح أن هذه

كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة، بعدما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقي الذي يتوقعونه: **﴿وقال فرعون: ائتوني بكل ساحر عليم﴾** [يونس: ٧٩].

وجَهِدَ فرعون ومَلَئِه في جَمْع السحرة من المدائن..

وفي يوم الزينة ترى الناس يخرجون من بيوتهم ضُحَىً! ويمشون إلى الميدان أفواجاً.. ولا تسمع في المَطرِيّة[1] إلا حديث السِّحر وأسماء السَّحرة.. وجاء السَّحرة من كل حَدب وصَوْب وأقبلوا بِخُيَلائِهم وفَخْرِهم يحملون العصيّ والحبال.

ويُرفع الستار على مشهد السَّحرة يُحشَدون، والناس يُجمعون للمباراة، وتُبثّ فيهم الحماسة للسَّحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان؛ وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل، أو بين الإيمان والطغيان.

﴿فَجُمِعَ السحرة لميقات يوم معلوم. وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون، لعلنا نَتَّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين؟﴾ [الشعراء: ٣٨ - ٤٠]..

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير: **﴿هل أنتم مُجْتَمعون، لَعَلَّنا نتبع السحرة؟﴾** هل لكم في التجمُّع وعدم التخلُّف عن الموعد، ليترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي! والجماهير دائماً تَتجمَّع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حُكامها الطغاة يَلْهون بها ويَعبثون، ويُشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، لِيَلْهوها عما تُعاني من ظُلم وكَبْت وبُؤس. وهكذا تَجمَّع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى - عليه السلام -!.

ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة، يَطْمَئِنُّون على

(١) قصبة مصر أيام الفراعنة.

الأَجْر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقُربى من عرشه الكريم! : ﴿**فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أَئِنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم إذن لمن المقربين**﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يَستعين بها فرعون الطاغية؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل مكان وفي كل زمان.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع. وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر. يعدهم أن يكونوا من المُقربين إليه. وهو بزعمه المَلك والإله!.

ويكشف القرآن على المشهد ويُصَوّره كأنه واقع منظور، لا حكاية تُروى!.

﴿**وجاء السحرة فرعون، قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم لمن المقربين**﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]..

إنهم مُحترفون.. يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هَدَف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المُحترفين من رجال الدين! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله، وإفراده ـ سبحانه ـ بالحاكمية؛ وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين، وكافأهم على الاحتراف، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يُقرُّون سلطانه باسم الدين! وهو يُعطيهم المال ويَجعلهم من المُقربين!.

ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، وَوَعَدَهم مع الأجر

القُربى منه، زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد.. وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل؛ إنما هو موقف المُعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة، التي لا يقف لها الساحرون ولا المُتَجَبِّرون!.

﴿فتولَّى فرعون فَجَمع كيده ثم أتى﴾ [طه: ٦٠].

ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه، وما دار بينه وبين السَّحرة من تشجيع وتحميس وَوَعْد بالمكافأة، وما فكَّرْ فيه وما دبَّر هو ومستشاروه.. يُجمله في جملة: **﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾**.. وتُصوِّر تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون، وجَمْع كَيده، والإتيان به.

ورأى موسى ـ عليه السلام ـ قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة، وأن يُحذِّرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله، لعلهم يثوبون إلى الهدى، ويدَعُون التحدّي بالسِّحر، والسِّحر افتراء:

﴿قال لهم موسى: ويلكم! لا تفتروا على الله كذباً فَيُسْحِتَكم[١] بعذاب، وقد خاب من افترى﴾ [طه: ٦١]..

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتَنفذ فيها. ويبدو أن هذا الذي كان؛ فقد تَأَثَّر بعض السحرة بالكلمة المُخْلِصة، فَتَلَجْلَجَ في الأمر؛ وأخذ المُصِرُّون على المباراة يُجادلونهم هَمساً خيفة أن يسمعهم موسى: **﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾** [طه: ٦٢]..

وجعل بعضهم يُحمِّس بعضاً، وراحوا يُهَيِّجون في المُتَرَدِّدين الخوف من موسى وهارون، اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها،

---

(١) يهلككم ويستأصلكم.

مما يوجب مواجهتهما يداً واحدة بلا تردد ولا نزاع. واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح:

﴿قالوا: إنْ هـذان لساحران يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثلى. فأَجْمِعُوا كَيدكم ثم أتوا صفاً. وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ [طه: ٦٣ ـ ٦٤]..

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة، كالقذيفة في معسكر المُبطلين وصفوفهم، فَتُزَعْزِع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة. وتحتاج إلى مثل هـذا التحميس والتشجيع. وموسى وأخوه رجلان اثنان، والسَّحرة كثيرون، ووراءهم فرعون ومُلكه وجُنده وجَبَروته وماله.. ولكن موسى وهارون كان معهما ربّهما يَسمع ويَرى..

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر، وموقف السحرة ومَنْ ورائهم فرعون. فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحدَّاهما فرعون ويقبل تحديهما؛ ويجمع كَيده ثم يأتي، ويُحشر السحرة ويُجمع الناس؛ ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟.

وكيف قَبِلَ فرعون أن يُجادله موسى ويُطاوله؟ وموسى فَرْد من بني إسرائيل المُستعبدين المُستذلّين تحت قهره؟.. إنها الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى..

وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الارتباك في صفوف السحرة المُدَرَّبين، فتحوجهم إلى التناجي سراً؛ وإلى تجسيم الخطر، واستثارة الهمم، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات.

بين الحق والباطل:

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى.. ويبدأ المشهد عادياً. إلا أنه يَشي منذ

البدء باطمئنان موسى إلى الحقّ الذي معه؛ وقلّة اكتراثه لجمـوع السحرة المحشودين من المدائن، المستعدين لعَرض أقصى ما يملكون من براعة، ووراءهم فرعون وملؤه، وحولهم تلك الجماهير المُضلَّلَة المخدوعة. .

ها هم أولاء السحرة وقد اطمأنوا على الأجر، واشرأبت أعناقهم إلى القُربى من فرعون، واستعدوا للحلبة. . ثم ها هم أولاء يتوجهون إلى موسى ـ عليه السلام ـ بالتحدّي. . ثم يكون من أَمرهم ما قَسَم الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يَحتسبون، ومن الأجر الذي لم يكـونوا يتـوقعون **﴿قـالوا يـا مـوسى، إمـا أن تُلقي وإمـا نكـون نحن الملقين. . قـال: ألقــوا﴾** [الأعراف: ١١٥، ١١٦]. .

ها هم أولاء السحرة وقد أَقدموا. . وهي دعوة الميدان إلى النزال. يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي:

﴿قـالـوا: يـا مـوسى إمـا أن تُلقي وإمـا أن نكـون أول من ألقى﴾ [طه: ٦٥]. .

فَقَبِـلَ التحدي، وتـركَ لهم فرصـة البدء، واستبقى لنفسـه الكلمـة الأخيرة. .

إنه الاطمئنان في قلب موسى في تركهم إياهم يبدأون: **﴿قـال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون﴾** [الشعراء: ٤٣]. .

وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة **﴿أَلقوا ما أنتم مُلقـون﴾**. . بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام.

وهكذا تتجلى ثقة موسى ـ عليه السلام ـ واستهانته بالتحدي **﴿قال: ألقوا﴾** [الأعراف: ١١٦]. . فهذه الكلمة الواحدة تبـدو فيها قلة المبـالاة وتُلقي ظل الثقة الكامنة وراءها في نفس موسى على طريقة القرآن في إلقاء الظلال، بالكلمة المفردة في كثير من الأحايين. .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزّته: **﴿فألقوا حبالهم وعصيّهم؛ وقالوا: بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾** [الشعراء: ٤٤]..

وبينما نحن في ظل الاستهانة وعدم المبالاة.. وإذا بالسياق القرآني يُفاجئنا بما فُوجِىء به موسى ـ عليه السلام ـ.. ماذا حدث؟ إنه لَسِحْر عظيم فيما يبدو إذا بنا أمام مظهر السحر البارع الذي يُرهب ويُخيف: **﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾** [الأعراف: ١١٦]..

وحسبنا أن يُقرر القرآن أنه سحر عظيم، لِنُدرك أي سحر كان. وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا **﴿أعين الناس﴾** وأثاروا الرهبة في قلوبهم: **﴿واسترهبوهم﴾** لنتصور أي سحر كان. ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مُصوِّر. فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً.

وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى: **﴿فإذا حبالهم وعصيّهم يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾** [طه: ٦٦، ٦٧]..

والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى. وحسبنا أن نعلم من هذا النص القرآني أنه قد أضمر في نفسه خوفاً لنتصور حقيقة ما كان، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جَلَلْ يُنسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يُذكِّره ربه بأن معه القوة الكبرى، فيبقى في ظل الطمأنينة والثبات للحق:

﴿قلنا: لا تخف، إنك أنت الأعلى. وألقِ ما في يمينك تَلْقَف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يُفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٧، ٦٨]..

لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق ومعهم الباطل. معك

العقيدة ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً.

لا تخف ﴿وألقِ ما في يَمينِك﴾ بهذا التنكير للتضخيم ﴿تلقف ما صنعوا﴾. فهو سحر من تدبير ساحر وعمله. والساحر لا يُفلح أنَّى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلاً ويصنع تخييلاً؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية. شأنه شأن كل مُبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق. وقد يبدو باطله ضخماً فخماً، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر؛ ولكنها تدفع الباطل في النهاية، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه، فإذا هو يتوارى.

لقد خُيل لموسى أنها حَيَّات على الأرض تسعى، ولكنه وَهْم تَسلَّل إلى خَلَجات نفسه. حَذَراً وخَوفاً أن يُؤْخَذَ الناس بهذا الظاهر المُمَوَّه، والباطل المُشوَّه، فينصرفوا عن دعوته مُدبرين؛ بكثرة هذه الأجرام وعظمها.. وثَبَّته الله وربَطَ على قلبه:

﴿قال موسى: ما جئتم به السحر، إن الله سَيُبطله، إن الله لا يصلح عَمَل المُفسدين، ويُحقّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

وفي قولة موسى: ﴿ما جئتم به السحر﴾.. ردّ على تهمة السحر التي وُجِّهت إليه. فالسحر هو هذا الذي يصنعه هؤلاء، لأنه ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هَدَف له إلا اللعب بالعقول، ولا تصحبه دعوة، ولا تقوم عليه حركة. فهذا هو السحر لا آيات الله التي جاءهم بها حقاً من عند الله..

وفي قوله: ﴿وإن الله سيبطله﴾.

تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه، المُطمئن إلى أن ربّه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح:

﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾.. الذين يُضلّلون الناس بالسحر، أو الملأ الذين جاءوا بالسحرة بنيّة الفساد والإبقاء على الضلال.

﴿ويُحقّ الله الحق بكلماته﴾.. كلماته التكوينية ﴿كن فيكون﴾.. وهي تعبير عن تَوجُّه المشيئة. أو كلماته التي هي آياته وبيناته.

﴿ولو كَرِهَ المجرمون﴾.. فإن كراهتهم لا تُعطل مشيئة الله، ولا تَقِف دون آياته.

وقد كان.. وبَطَلَ السِّحر وعَلاَ الحق..

ها هي ذي مفاجأة أخرى تُطالع فرعون وملأه، وتُطالع السَّحرة الكهنة، وتُطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم:

﴿وأوحينا إلى موسى أن أَلْقِ عصاك، فإذا هي تَلْقَفُ ما يَأفكون. فَوَقَع الحقّ وبَطَل ما كانوا يعملون. فَغُلِبُوا هنالك، وانقلبوا صاغرين﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩]..

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويُخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محيق! وما هو إلا أن يُواجه الحق الهادىء الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفىء كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور..

والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصدر الحقّ واقعاً ذا ثقل: ﴿فوقع الحق﴾.. وثبت، واستقر.. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود: ﴿وبَطَلَ ما كانوا يعملون﴾.. وغلب الباطل والمبطلون وذلُّوا وصَغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يُبهر العيون: ﴿فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾..

المفاجأة الكبرى المذهلة:

وألقى موسى.. ووقعت المفاجأة الكبرى. والسياق يُصوِّر ضخامة المفاجأة بِوَقْعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يُحمِّس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً. والذين بلغت بهم البراعة في فَنِّهم إلى حدّ أن يُوجس في نفسه خيفة موسى.

ويُخيل إليه ـ وهو الرسول ـ أن حبَالهم وعصيّهم حيات تسعى! **﴿قلنا: لا تخف! إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾** [طه: ٦٨، ٦٩]..

وينتهي سياق القصة مسارعاً إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل.. **﴿فألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾** [الشعراء: ٤٥]..

ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة؛ فلقد بذلوا غاية الجهد في فَنِّهم الذي عاشوا به وأتقنوه؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه. وهم جَمع كثير. محشود من كل مكان. وموسى وَحْده، وليس معه إلا عَصَاه. ثم إذا هي تلقف ما يأفكون؛ واللَّقف أسرع حركة للأكل. وعَهْدهم بالسحر أن يكون تَخييلاً، ولكن هذه العصا تَلْقَف حِبالهم وعصيّهم حقاً. فلا تُبقي لها أثراً. ولو كان ما جاء به موسى سحراً، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خُيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها. ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً!.

عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يَقبل جَدَلاً. وهم أعرف الناس بأنه الحق..

ولكن المفاجأة لم تُخْتَتَم بعد، والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى.. مفاجأة كبرى..

﴿وأُلقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢]. .

إنها صولة الحق في الضمائر. ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المُهيَّأة لتلقي الحق والنور واليقين. .

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فَنّهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبَشَر، أم من القدرة التي وراء مقدور البَشَر والسحر. والعالم في فَنّه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور. . ومن هنا تحول السَّحرة من التحدّي السافر إلى التسليم المُطْلَق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين. .

والسياق يُصوّر ببراعة وَقْع المفاجأة في نفوسهم في صورة تَحَوّل كامل في مشاعرهم ووجدانهم، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به:

﴿فأُلقي السحرة سجداً. قالوا آمنا بربِّ هارون وموسى﴾ [طه: ٧٠]. . **﴿فَأُلقي السحرة ساجدين. قالوا آمنا بربِّ العالمين. ربِّ موسى وهارون﴾** [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨]. .

إنها اللمسة تُصادف العَصَب الحسَّاس فَيَنْتَفِض الجسم كله. وتصادف «الزِرّ» فينبعث النور ويُشرق الظلام. إنها لَمسة الإيمان للقلب البشري تُحوّله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية. ولكن الحق الذي مسّ قلوبهم قد حولهم تحويلاً. لقد كانت هَزَّة رجَّتهم رجّاً، وخَضَّتهم خضّاً؛

ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضـلال، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار. فإذا هم يجدون طأنفسهم مُلقين سُجـداً، بغير إرادة منهم، تتحـرك ألسنتهم، فتنطلق بكلمة الإيمان، في نصاعة وبيان: ﴿**آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون**﴾.

وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب، فإن لمسة واحدة تُصادف مكانها لِتُبَدّله تبديلاً. وصدق رسول الله ـ ﷺ : «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن. إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه» ـ أخرجه الشيخان ـ.

وهكذا انقلب السحرة المأجورون، مؤمنين من خيار المؤمنين. على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئـه. لا يُفكّرون فيمـا يعقب جَهرهم بالإيمان في وَجْه الطاغية من عواقب ونتائج، ولا يَعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول.

ولا بُد أن كان لهذا الانقلاب المفاجيء وَقْع الصاعقة على فـرعون وملئه. فالجماهير حاشدة. وقد عبأهم عُملاء فرعون وهـم يحشدونهم لشهود المباراة. عَبَّأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي، ساحر يريد أن يُخرجهم من أرضهم بسحره، ويريـد أن يجعل الحكم لقـومه؛ وأن السحـرة سيغلبونـه ويفحمونه..

ثم ها هم أولاء يَرون السحرة يُلقون ما يُلقون باسم فرعون وعزّته. ثم يُغلبـون حتى ليَقرُّون بـالغلب؛ ويعترفـون بصدق مـوسى في رسـالتـه من عنـد الله، ويؤمنون بـربّ العـالمين الـذي أرسله، ويَخلعـون عنهم عبـادة فرعون، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته، وانتظروا أجره، واستفتحوا بعزته!.

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون، إذ يتهدد الأسطورة الـدينية التي يقوم عليها هذا العرش. أسطورة الألوهية، أو بنوته للآلهة ـ كما كان شائعاً

في بعض العصور ـ وهؤلاء هم السحرة. والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلّا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها. .

ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، والجماهير تسير وراء الكهنة في مُعتقداتهم التي يُلهونهم بها. فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تُقيم عرشاً ولا تَحمي حُكماً.

إن لنا أن نقدر ذِعْر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة؛ وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجداً مُعترفين مُنيبين.

عندئذ جنّ جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال. بعد أن حاول أن يَتّهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى!:

﴿**قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم! إنه لكبيركم الذي عَلّمكم السحر. فلسوف تعلمون. لأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. ولأصلبنكم أجمعين**﴾ [الشعراء: ٤٩]. .

﴿**آمنتم له قبل أن آذن لكم**﴾. . إنها الجريمة الكبرى في الاستسلام له قبل إذنه. على طريقة المناورات التي يُدبّرها صاحبها وهو مالك لإرادته، عارف بهدفه، مُقدّر لعاقبته. ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم.

ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة؟.

إن الطواغيت المُتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان؛ ولا كيف تَلمسها حرارة اليقين. فهم لِطُول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب

القلوب ـ وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ـ. . ومن ثم فوجىء فرعون بهذا الإيمان المفاجىء الذي لم يُدرِكْ دبيبه في القلوب ولم يُتابع خُطاه في النفوس؛ ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر. . ثم هَزّته المفاجأة الخطيرة التي تُزلزل العرش من تحته: مفاجأة استسلام السحرة ـ وهم من كَهَنة المعابد ـ لربّ العالمين. ربّ موسى وهارون. بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى ربّ العالمين! والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت. . وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تَحَرّج في سبيل المحافظة على الطاغوت.

﴿قال فرعون: آمنتم به قبل أن آذن لكم! إن هذا لَمَكْر مَكَرْتموه في المدينة لِتُخْرجوا منها أهلها. فسوف تعلمون. .﴾ [الأعراف: ١٢٣]. .

هكذا. . **﴿آمنتم به قبل أن آذن لكم!﴾**. . كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ـ وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها ـ أو يستأذنوه في أن تَرتعش وجداناتهم ـ وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً ـ أو يستأذنوه في أن تُشرق أرواحهم ـ وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها. أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق. أو أن يُطمسوا الإيمان وهو يَترقرق من الأغوار. أو أن يَحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين!.

ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس؛ وهو في الوقت ذاته مُتَعَجْرِف مُتكبّر مغرور!.

أَنَّى للطغاة أن يُدركوا هذا السر اللطيف؟ أَنَّى لهم أن يدركوا كيف تَتَقَلَّب القلوب؟ وهم قد نَسوا لطول ما طَغوا وبَغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن الله هو مُقلّب القلوب؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتُشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان: **﴿قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾**. . قولة الطاغية الذي لا يُدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون ـ وقد

لمس الإيمان قلوبهم ـ أن يدفعوه عنها، والقلب بيد الخالق المالك يُقلّبه كيف يشاء.

وكان فرعون يعتقد أنه مَلِكُ العقول كما أنه مَلِكُ الأجسام.. وأن له سلطاناً على القلوب كما أن له سلطاناً على الألسنة. وليس لأحد أن يعتقد شيئاً أو يؤمن بشيء إلا بإذنه فقال كلمته تلك في عتوٍّ وكِبْر وجبروت: **﴿آمنتم له قبل أن آذنَ لكم﴾**.. ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير:

﴿إنه لكبيركم الذي عَلَّمكم السحر﴾.. فذلك سـرّ الاستسلام في نَظَره، لا أنّه الإيمان الذي دَبَّ في قُلوبهم من حيث لا يحتسبون. ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة ـ وهم من الكهنة ـ كانوا يتولّون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تَبنَّاه، أو كان يختلف إليهم في المعابد. فارتكن فرعون هذه الصلة البعيدة، وقَلَبَ الأمر فبدلاً من أن يقول: إنه لتلميذكم قال: إنه لكبيركم. ليزيد الأمر ضخامة وتهويلاً في أعين الجماهير!.

ثم إنه الفَزَع على العرش المُهدَّد والسلطان المهزوز: **﴿إن هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾**..

انتصار العقيدة على الحياة:

والمسألة واضحة المعالم.. إنها دعوة موسى إلى «ربّ العالمين».. هي التي تُزعج وتُخيف.. إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين.

وهم إنما يقوم مُلكهم على تَنحية رُبوبية الله للبشر بتنحية شريعته. وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يُشرّعون للناس ما يشاءون، ويُعبّدون الناس لِمَا يُشَرّعون!.

إنهما منهجان لا يجتمعان . . أو هما دينان لا يجتمعان . . أو هما رَبَّان لا يجتمعان . . وفرعون كان يعرف وَمَلَؤه كانوا يعرفون . . ولقد فَزِعوا للدعوة من موسى وهارون إلى ربّ العـالمين. فَأَوْلَى أن يَفـزعوا الآن وقـد أُلقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا بربِّ العالمين. ربّ موسى وهارون! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تُؤلِّه فرعون، وتُمكِّنه من رقـاب الناس بـاسم الدين! .

لقد جُنَّ جنون فرعون . . وقام وقَعَدَ، وبرَقَ ورَعَد. وَقَع ما لم يكن يرجوه! إنه أراد أن يهزم موسى بالسحرة، فأصبح السحرة مع موسى جُند ربّ العالمين . . لقد ارتدت سِهامه عليه، فَغَلَتْ مراجلُ الحقد في صدره، وقد احتدم غيظه، فانقلب على أولئك السحرة مُهدداً متوعداً . .

ها هو ذا فرعون مُزمجراً غاضباً في هذا اليوم العقيم في حياته. يقول للسحرة الذين بَهَرهم الحق فآمنوا بربّ العالمين؛ وخَلَعُوا ربقة العبودية له بهذا الإعلان: إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم. وهَدَّدهم بأبشع العذاب والنّكال: ﴿**قال فرعون: آمنتُم به قبل أن آذنَ لكم! إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمـون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم لأصلبنّـكم أجمعين**﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤] . .

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعُّد الوحشي الفظيع . . التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويُسلّطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح . .

وحين يُهدّدهم فرعون بالعذاب الرعيب: فإنهم يتجهون إلى ربهم، ويُعلنون أنهم عائدون إليه في حياتهم ومماتهم وبَعثهم وفي أمرهم كله:

﴿**قالوا: إنا إلى ربنا مُنقلبون. وما تنقم منا إلا أنْ آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦] . .

كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين؛ وأسلموا لله وحده؛ وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المُغتصب للربوبية واختصاصاتها.. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت. إنها المعركة على العقيدة. لأن هذه العقيدة تُهدّد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين. بل بمجرد إعلان أن الله ربّ العالمين! ومن ثم قالوا لفرعون رداً على اتهامه لهم بأن هذا مَكْر مَكَروه في المدينة ليخرجوا منها أهلها ـ وهو مرادف للاتهام في الجاهليات الحديثة لكل من يُعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم! ـ: ﴿**وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا**﴾.. ثم لجأوا إلى ربهم الذين آمنوا به فتَمرَّدوا على العبودية لغيره قائلين: ﴿**ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾.. فكان هذا فرقاناً جعله الله في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها.

إنه التعذيب والتنكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدّة الباطل في وجه الحق الصريح.. ﴿**فلسوف تعلمون. لأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خِلاف، ولأصلبنكم أجمعين**﴾ [الشعرا: ٤٩]..

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحسّ بالخَطَر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عُنف وغلظة وبشاعة، بلا تَحَرُّج من قلب أو ضمير.. ﴿**فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنَّكم في جذوع النخل**﴾ [طه: ٧١]..

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة. قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تُمزِّق الأحشاء والأوصال، ولا تُفَرِّق بين إنسان يَقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿**ولتعلمن أيُّنا أشدّ عذاباً وأبقى**﴾ [طه: ٧١]..

إنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبِّر الذي يملك تنفيذ ما يقـول. فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور!.

إن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستَدَع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفـع؟ ماذا ستخسـر وماذا ستكسب؟ ومـاذا ستلقى في الـطريق من صعاب وأشـواك وتضحيـات؟ لأن الأفق المشـرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق: ﴿**قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون**﴾ [الأعراف: ١٢٥]..

إنها كلمة القلب الذي وَجَد الله فلم يعـد يحفل مـا يفقد بعـد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزّة فلم يَعد يحفل الطغيان. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير:

﴿**قالوا: لا ضَير. إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنـا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين**﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١]..

لا ضير. لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف[1]. لا ضير في التصليب والعذاب. لا ضير في الموت والاستشهاد. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون.. وليكن في هذه الأرض ما يكون: فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه ﴿**أن يغفر لنا ربنا خطايانا**﴾.. جزاء ﴿**أن كنا أول المؤمنين**﴾.. وأن كنا نحن السابقين..

يـا لله! يا لـروعة الإيمـان إذ يُشرق في الضمـائر. وإذ يفيض على الأرواح. وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس. وإذ يرتفع بسلالة الـطين إلى

---

(١) اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، واليد اليسرى مع الرجل اليُمنى.

أعلى عليين. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

لقد أشرق نور الحق في قلوب هؤلاء المؤمنين، فلم يزدهم التهديد والوعيد إلا إيماناً على إيمانهم..

لقد فات الأوان. فاللمسة الإيمانية قد وَصَلَتْ الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل. وكانت قد تَفَتَّحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تُبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عَرَض زائل. ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه:

﴿قالوا: لن نُؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات والذي فَطَرنا، فاقضِ ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ [طه: ٧٢]..

إنه الإيمان الذي لا يَفْزع ولا يَتَزعزع. كما أنه لا يَخضع أو يَخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة إلى ربّه فيطمئن إلى جواره.. والذي يُدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يُداهن ولا يُناور.. ولا يرجو الصَّفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا تَرك العقيدة، لأنه إنما يُحاربه ويُطارده على العقيدة: **﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾**..

والذي يعرف أين يتجه في المعركة، وإلى من يتجه؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، إنما يطلب من ربّه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام: **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾** [الأعراف: ١٢٦]..

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام الوعي، وأمام الاطمئنان.. يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خُيِّلَ إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام. فإذا هي مُستعصية عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك

الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان! .

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية. هذا الذي كان بين فرعون ومَلَئِه، والمؤمنين من السحرة. . السابقين. .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشيطان»! .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية. فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة.

والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد وُلِدَت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلّة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتمنى بالقرب من السلطان. . هي ذاتها التي تستعلي على فرعون؛ وتستهين بالتهديد والوعيد، وتُقبل صابرة مُحتسبة على التنكيل والتصليب. . وما تغير في حياتها شيء، ولا تغَيَّر حولها شيء ـ في عالم المادة ـ إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى. وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت، وتصل الفَرد الفاني بقوّة الأزل والأبد. . وقعت اللمسة التي تُحوّل الإبرة، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة، ويَتَسمَّع الضمير أصداء الهداية، وتَتَلقَّى البصيرة إشراقات النور. . وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي؛ ولكنها هي تُغير الواقع المادي؛ وترفع «الإنسان» في عوالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال! .

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتُعدّ

القُربى منه مَغْنماً يتسابق إليه المتسابقون. فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه:

﴿قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا..﴾ فهي علينا أعزّ وأغلى وهو جَلَّ شأنه أكبر وأعلى: **﴿فاقضِ ما أنت قاض﴾** ودونك وما تملكه لنا في الأرض. **﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾**. فسلطانك مُقيد بها، وما لَكَ من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً. **﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾** [طه: ٧٣].. مما كنت تُكلفنا به فلا نملك لك عصياناً؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا. **﴿والله خير وأبقى﴾** خير قسمة وجواراً، وأبقى مغنماً وجزاءً. إن كنت تُهدِّدنا بمن هو أشد وأبقى.. وأُلْهِمَ السحرةُ الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المُعَلِّم المُستعلي:

﴿إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنَّم لا يموت فيها ولا يحيا. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ [طه: ٧٤، ٧٥]..

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى. فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرماً هي أشد عذاباً وأدوم **﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا﴾** فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع. إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار **﴿وذلك جزاء من تزكى﴾** وتَطَهَّر من الآثام.

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية. وباستعلاء الإيمان الواثق. وبتحذير الإيمان النّاصع. وبرجاء الإيمان العميق.

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع، في المثوبة والخوف من السلطان. وما يملك القلب البشري أن يَجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان.

ويذهب التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويمضي الإيمان في طريقه. لا يَتَلَفَّت، ولا يَتَردَّد، ولا يحيد!.

ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد.. إن روعة الموقف تبلغ ذروتها؛ وتنتهي إلى غايتها. وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض؛ مع الهدف النفسي للقصة، على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني، في تناسق لا يبلغه إلا القرآن.

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة. لا يزيد شيئاً. ليبقى للمشهد جَلاَلَه الباهر وإيقاعه العميق. وهو يُربّي به النفوس في مكة وهي تُواجه الأذى والكرب والضيق ويُربّي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.

وينبغي أن نقف وقفة قصيرة أمام هذا المشهد الباهر الأخاذ...

ـ نقف ابتداء أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين، رب موسى وهارون، يُمثل خطراً على نظام ملكهم وحكمهم؛ لِتعَارُض القاعدة التي يقوم عليها هذا الإيمان، مع القاعدة التي يقوم عليها ذلك السلطان.. وقد عرضنا لهذا الأمر من قبل.. ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدها.. إنه لا يجتمع في قلب واحد، ولا في بلد واحد، ولا في نظام حكم واحد، أن يكون الله رب العالمين، وأن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من العبيد، يباشر بتشريع من عنده وقوانين.. فهذا دين وذلك دين..

ـ ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة ـ بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم، وجعل لهم فرقاناً في تصورهم ـ أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة؛ وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم بربِّ العالمين. فهذا الإيمان على هذا النحو يُهدد عرش فرعون ومُلكه وسُلطانه؛ ويُهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون.. أو بتعبير آخر مرادف: من ربوبية فرعون، ويُهدّد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله.. وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يَتَصدَّى للدعوة إلى ربوبية الله وحده. فهو وحده الذي أهّلَ هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله..

ـ إنهم يُقدمون على الموت مُستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون بربِّ العالمين، وأن عدوّهم على دين غير دينهم؛ لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره يُنكر ربوبية رب العالمين. فهو إذن من الكافرين.. وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين ـ على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل ـ إلا بمثل هذا اليقين بِشقّيه: أنهم هم المؤمنون، وأن أعداءهم هم الكافرون، وأنهم إنما يُحاربونهم على الدين، ولا ينقمون منهم إلا الدين.

ـ ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشيطان». وهو مشهد بالغ الروعة.. نعترف أننا نعجز عن القول فيه. فندعه كما صَوَّره النص القرآني الكريم!.

التآمر والوعيد:

لا يذكر القرآن ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون. ولا كيف تَصرَّف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم

مُستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه، المستهين بحياة الأرض كلها وما فيها ومَن فيها..

ويسدل الستار.. حيث ندرك من الموقف المضطرب المُزَلْزِل لعرش الطاغية أنّ فرعون قد مضى يُنفّذ عزمه الوحشي..

ها هو ذا يَشتطّ غضباً، وقد مضى في غلوائه وكبريائه. يُنفِّذ وعيده بالمؤمنين في ذلك اليوم العبوس، فَقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصَلَبهم في جذوع النخل، فأصبحوا سَحَرة كَفَرَة، وأمسوا شُهداء بَرَرَة..

ويرفع السياق القرآني الستار عن مشهد آخر في هذه القصة.. إنه مشهد التآمر والتناجي بالإثم والتحريض.. بعد الهزيمة والخذلان في معركة الإيمان والطغيان. مشهد الملأ من قوم فرعون يَكبر عليهم أن يذهب موسى ناجياً والذين آمنوا معه ـ وما آمن له إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ـ كما ذكر القرآن ـ فإذا الملأ يَتناجون بالشرّ والإثم، وهم يُهيِّجون فرعون على موسى ومن معه؛ ويُخوفونه عاقبة التهاون في أمرهم؛ من ضياع الهيبة والسلطان؛ باستشراء العقيدة الجديدة، في ربوبية الله للعالمين، فإذا هو هائج مائج، مُهدِّد مُتوعّد، مُستعزّ بالقوة الغاشمة التي بين يديه، وبالسلطان المادي الذي يرتكن إليه!.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون: أَتَذَر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذَرك وآلهتك؟ قال: سَنُقَتِّل أبناءهم، ونستحي نساءهم، وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: ١٢٧]..

إن فرعون لم يكن يدّعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومُدبره؛ أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية. إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذلّ! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه؛ وأنه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتُقْضَىٰ الأمور. وهذا ما يدّعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه، وتمضي الشؤون وتُقْضَىٰ الأمور بإرادته وأمره ـ وهذه هي

الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي ـ كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له ـ فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر من قول الملأ له: **﴿ويذَرَك وآلهتك﴾** وكما يُثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية. إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريده بهم، لا يعصون له أمراً، ولا ينقضون له شرعاً.. وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة.. فأيما ناس تلقّوا التشريع من بَشَر وأطاعوه فقد عَبَدوه، وذلك هو تفسير رسول الله ـ ﷺ ـ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى: **﴿اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله﴾** الآية [التوبة: ٣١].. عندما سمعها منه عديّ بن حاتم ـ وكان نصرانياً جاء لِيُسْلِم ـ فقال: يا رسول الله ما عبدوهم. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «بلى إنهم أحلُّوا لهم الحرام وحَرَّموا عليهم الحلال؛ فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».. (أخرجه الترمذي).

أما قول فرعون لقومه: **﴿ما علمتُ لكم من إلَه غيري﴾** [القصص: ٣٨].. فيفسره قوله الذي حكاه القرآن عنه: **﴿أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين. ولا يكاد يبين؟ فلولا أُلْقِيَ عليه أَسْوِرَة من ذَهَب أو جاء معه الملائكة مُقترنين؟﴾** [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].. وظاهر أنه كان يوازن بين ما هو فيه من مُلك ومن أَسْوِرَة الذهب التي يُحلَّى بها الملوك، وبين ما فيه موسى من تجرّد من السلطان والزينة!.

وما قصد بقوله: **﴿ما علمت لكم من إلَه غيري﴾** إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذي يُسيرهم كما يشاء؛ والذي يتبعون كلمته بلا معارض! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي! وهي في الواقع ألوهية. فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم! سواء قالها أم لم يقلها[1]! وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قوم ملأ فرعون:

(١) يراجع بتوسع كتاب «المصطلحات الأربعة» للشيخ السيد أبي الأعلى المودودي.

﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فيَ الأرض، ويذرك وآلهتك؟﴾.

فالإفساد في الأرض ـ من وجهة نظرهم ـ هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده؛ حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله. إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره ـ أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه ـ وإذن فهو ـ بزعمهم ـ الإفساد في الأرض، بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع، الربوبية فيه لله لا للبشر.. ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه..

ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تُعبد فيها هذه الآلهة.. بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة! وهي بُنوّة ليست حسية! فلقد كان الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولود من أب وأم بَشَريّين. إنما كانت بُنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته. فإذا عَبَدَ موسى وقومه ربّ العالمين، وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المُسْتَخَفّ؛ الذي إنما يُطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح.. وذلك كما يقول الله سبحانه: ﴿استَخَفّ قومه فأطاعوه... إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [الزخرف: ٥٤]. فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ.. وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله.. فالمؤمن بالله لا يَستخفه الطاغوت، ولا يمكن أن يُطيع له أمراً، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شَرع الله.. ومن هنا كان يجيء التهديد لنظام حكم فرعون كله بدعوة موسى ـ عليه السلام ـ إلى «ربّ العالمين» وإيمان السَّحرة بهذا الدين، وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك وعبادتهم لربّ العالمين..

ومن هنا يجيء التهديد لكل وَضْع يقوم على ربوبية البشر للبشر من

الدعوة إلى ربوبية الله وحده. . أو من شهادة أن لا إله إلا الله. . حين تُؤخذ بمدلولها الجَدّي الذي كان الناس يدخلون به في الإسلام. لا بمدلولها الباهت الهزيل الذي صار لها في هذه الأيام!.

ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فرعون، وأشعرته بالخطر الحقيقي على نظامه كله فانطلق يعلن عزمه الوحشي البشع:

﴿قال: سَنُقَتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: ١٢٧]. .

﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ [غافر: ٢٥].

إنه منطق الطغيان الغليظ، كلما أعوزته الحجة، وخَذَله البرهان، وخاف أن يستعلي الحق، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح، وهو يخاطب الفطرة فتصغي له وتستجيب. كما استجاب السحرة الذين جيء بهم لِيَغْلِبوا موسى وما معه، فانقلبوا أوّل المؤمنين بالحق في مواجهة فرعون الجبار.

فأما فرعون وهامان وقارون فقالوا: **﴿اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾**.

ولقد كان فرعون ـ في أيام مولد موسى ـ قد أصدر مثل هذا الأمر. وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول. .

ـ الاحتمال الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده، ولم يكن الأمر مُنَفَّذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى وَوَاجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد، ويعرف تربيته في القصر، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل. فحاشيته تشير إلى هذا الأمر، وتُوحي بتخصيصه بمن آمنوا

بموسى، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه. .

ـ والاحتمال الثاني: أنه كان فرعون الأول الذي تَبنَّى موسى، ما يزال على عرشه. وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدّته. وكان بنو إسرائيل قد عانوا من قبل ـ في إبان مولد موسى ـ مثل هذا التنكيل الوحشي من فرعون وملئه كما يقول الله تعالى:

﴿إن فرعون عَلاَ في الأرض، وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يُذبح أبناءهم ويَستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [القصص: ٤].

فالحاشية تشير بتجديد هذا التعذيب الفظيع القاسي، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف. .

إنه الطغيان في كل مكان وزمان لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام. . !.

فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأي آخر، أو اقتراح إضافي في أثناء التآمر. ذلك أن يتخلص من موسى نَفْسه فيستريح!.

﴿وقال فرعون: ذروني أقتل موسى، وليدع ربّه، إني أخاف أن يُبَدّل دينكم، أو أن يُظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر: ٢٦].

ويبدو من قوله: **﴿ذروني أقتل موسى﴾**. . أن رأيه هذا كان يجد مُمانعة ومعارضة ـ من ناحية الرأي ـ كأن يقال مثلاً: إن قَتْل موسى لا يُنهي الإشكال. فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع، وإعلانهم سبب إيمانهم، وهم الذين جيء بهم لِيُبْطِلُوا عمله ويناوئوه. وقد يكون بعض مستشاري الملك أحسّ في نفسه رهبة أن ينتقم

إله موسى له، ويبطش لهم. وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه! ويكون قول فرعون: ﴿**وليدع ربه**﴾.. رداً على هذا التلويح! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كان تَبَجُّحاً واستهتاراً، لَقِيَ جزاءه في نهاية المطاف كما سيجيء.

ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى: ﴿**إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد**﴾..

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضالّ الوثني، عن موسى رسول الله ـ عليه السلام ـ: ﴿**إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد**﴾؟!!.

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مُفسد عن كل داعية مُصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الصالح في وَجْه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادىء؟.

إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين.

ويدع السياق القرآني فرعون وملأه يتآمرون ويمكرون.. والله خير الماكرين.

إيمان كريم ونصيحة حكيم:

انتشر خَبَرُ عَزْم الطاغية العُتُلِّ الجبار حول قَتْل موسى، والتهديد بالعذاب المريع لمن آمن بدعوة ربّ العالمين...

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فالتجأ إلى الركن الركين والحصن

الحصين، ولاَذَ بالجناب الذي يحمي اللائذين، ويُجير المستجيرين:

﴿وقال موسى: إني عذتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ [غافر: ٢٧].

قالها. واطمأن. وسلَّم أمره إلى المُستعلي على كل مُتَكَبّر، القاهر لكل مُتجبّر، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين. وأشار إلى وحدانية الله ربّه وربّهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد. كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب. فما يتكبّر مُتكبّر وهو يُؤمن بيوم الحساب، وهو يتصوّر موقفه يومئذ خاسراً خاشعاً خاضعاً ذليلاً، مجرداً من كل قوة، ما له من حميم ولا شفيع يطاع.

هنا انتُدِبَ رجل من آل فرعون، وَقَع الحق في قلبه، ولكنه كَتَم إيمانه. انتُدب يَدفع عن موسى، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتّى، ويتدسّس إلى قلوبهم بالنصيحة ويُثير حساسيتها بالتخويف والإقناع:

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟..﴾ [غافر: ٢٨]..

إنها جولة ضخمة هذه التي جالَها الرجل المؤمن مع المتآمرين من فرعون وملئه. وإنه منطق الفطرة المؤمنة في حَذَر ومَهارة وقُوة كذلك.

إنه يبدأ بتفظيع ما هم مُقدمون عليه: **﴿أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله﴾**.. فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل، ويُردّ عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة. ثم يخطو بهم خطوة أخرى. فالذي يقول هذه الكلمة البريئة: **﴿ربي الله﴾**.. يقولها ومعه حجته، وفي يده برهانه: **﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾**.. يشير إلى تلك الآيات التي عرضها موسى

ـ عليه السلام ـ ورأوها، وهم ـ فيما بينهم وبعيداً عن الجماهير ـ يصعب أن يُماروا فيها!.

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض؛ ويقف معهم موقف المُنْصِف أمام القضية؛ تمشياً مع أقصى فَرَض يُمكن أن يَتّخذوه: **﴿وإن يك كاذباً فعليه كَذِبه﴾**.. وهو يحمل تبعة عمله، ويَلْقى جزاءه، ويحتمل جريرته. وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال!.

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقاً. فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه: **﴿وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعض الذي يعدِكم﴾**.. وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه. وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام.

ثم يُهدّدهم من طَرف خَفي، وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم: **﴿إن الله لا يهدي من هو مُسرف كذّاب﴾** [غافر: ٢٨].. فإذا كان موسى فإن الله لا يَهديه ولا يوفقه، فدعوه له يُلاقي منه جزاءه. واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربّه وتُسرفون، فيصيبكم هذا المآل.

وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب، يهجم عليهم مُخوّفاً بعقاب الله، مُحذّراً من بأسه الذي لا يُنجيهم منه ما هم فيه من مُلك وسُلطان، مُذكّراً إياهم بهذه النعمة التي تستحق الشكران لا الكفران: **﴿يا قوم لكم المُلك اليوم ظاهرين في الأرض. فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟﴾** [غافر: ٢٩]..

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض؛ فهم أحق الناس بأن يحذروه، وأجدر الناس بأن يحسّوه ويتقوه، وأن يبيتوا منه على وَجَل، فهو

يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار. ومن ثم يُذكرهم بما هم فيه من المُلك والسلطان، وهو يُشير إلى هذا المعنى المستقرّ في حسّه البصير. ثم يُجمل نفسه فيهم وهو يُذكِّرهم ببأس الله: **﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟﴾** ليشعرهم أن أمرهم يهمّه، فهو واحد منهم، يَنتظر مصيره معهم؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص. وهو يُحاول أن يُشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف.

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية تُوجَّه إليه النصيحة. تَأخذه العزّة بالإثم. ويرى في النُصح الخالص افتياتاً على سلطانه، ونَقصاً من نفوذه، ومشاركة له في النفوذ والسلطان: **﴿قال فرعون: ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** [غافر: ٢٩]..

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً، وأعتقده نافعاً. وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟! وإلا فَلِمَ كانوا طغاة؟!.

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا؛ ويجد أن عليه واجباً يُحذِّر ويَنصح ويُبدي من الرأي ما يراه. ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائناً ما كان رأي الطغاة. ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تُحسّ وتستيقظ وترتعش وتلين، يطرق قلوبهم بلغتها على مصارع الأحزاب قبلهم. وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة:

﴿وقال الذي آمن: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

ولكل حِزب كان يوم. ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد: **﴿مثل يوم الأحزاب﴾** فهو اليوم الذي يتجلى فيه بأس الله. وهو يوم واحد في طبيعته على تَفرّق الأحزاب.. **﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾** إنما يأخذهم بذنوبهم، ويصلح من حولهم ومن بعدهم بأخذهم بأيام الله.

ثم يَطرق على قلوبهم طرقة أخرى، وهو يُذكّرهم بيوم آخر من أيام الله. يوم القيامة. يوم التنادي:

﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تُولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم. ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]..

وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف. وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار. وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة.. فالتنادي واقع في صور شتى. وتَسميته «يوم التناد» تُلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصوّر يوم زحام وخصام. وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن: **﴿يوم تُولّون مُدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾**.. وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار. ولا عاصم يومئذ ولاتَ حين فرار. وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبِرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان!.

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.. ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: **﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾**.. وتلميحاً بأن الهدى هدى الله. وأن من أضلّه فلا هادي له. والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال.

وأخيراً يُذكّرهم بموقفهم من يوسف، ومن ذريته كان موسى ـ عليهما السلام ـ وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات، فلا يُكرروا الموقف من موسى، وهو يُصَدّق ما جاءهم به يوسف، فكانوا منه في

شك وارتياب. ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال:

﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات، فما زلتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً. كذلك يُضلّ الله من هو مسرف مرتاب. الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم. كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ [غافر: ٣٤، ٣٥]..

وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يُشار فيها إلى رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ للقوم في مصر. وقد عرفنا من سورة يوسف، أنه كان قد وصل إلى أن يكون على خزائن الأرض، المتصرف فيها. وأنه أصبح «عزيز مصر» وهو لقب قد يكون لكبير وزراء مصر. وفي السورة كذلك ما قد يؤخذ منه أنه جلس على عرش مصر ـ وإن لم يكن ذلك مؤكداً ـ وذلك قوله:

﴿ورفع أبويه على العرش وخَرُّوا له سجداً وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ [يوسف: ١٠٠]..

وقد يكون العرش الذي رفع عليه أبويه شيئاً آخر غير عرش المملكة المصرية الفرعونية. وعلى أية حال فقد وصل يوسف إلى مكان الحكم والسلطان. ومن ثم نملك أن نتصور الحالة التي يشير إليها الرجل المؤمن. حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل، مع مصانعة يوسف صاحب السلطان وعدم الجهر بتكذيبه وهو في هذا المكان! **﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾**.. وكأنما استراحوا لموته، فراحوا يظهرون ارتياحهم في هذه الصورة، ورغبتهم عما جاءهم به من التوحيد الخالص، الذي يبدو مما تكلم به في سجنه مع صاحبي السجن: **﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾** [يوسف: ٣٩].. فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول، لأن هذه كانت رغبتهم. وكثيراً ما يرغب المرء في شيء ثم يصدق تحققه، لأن تحققه يلبي هذه الرغبة!.

والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف في التكذيب فيقول: **﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾**.. فينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات.

ثم يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان. وهم يفعلون هذا في أبشع صورة. ويُندّد بالتكبر والتجبر، ويُنذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين!.

﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كَبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾..

والتعبير على لسان الرجل المُؤمن: المقت للمجادلين في آيات الله بغير برهان، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى، ولا منفذ للإدراك.

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أَخَذَ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظل فرعون في ضلاله، مُصراً على التنكر للحق. ولكنه تظاهر بأنه آخذ في التحقق من دعوى موسى. ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومَن معه تجاهلها.

فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً: **﴿وقال فرعون: يا هامان ابنِ لي صَرْحاً لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى. وإني لأظنه كاذباً. وكذلك زُين لفرعون سوء عمله، وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تَباب﴾** [غافر: ٣٦، ٣٧]..

يا هامان ابنِ لي بناءً عالياً لعلي أبلغ به أسباب السموات، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك **﴿وإني لأظنه كاذباً﴾**.. هكذا يُموه فرعون الطاغية ويُحاور ويُداور، كي لا يواجه الحق جهرة؛ ولا يعترف بدعوة

الوحدانية التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه.

هكذا كان ردّ فرعون على هذا الأدب، وهذه النصيحة ادِّعاءً وتطاولاً، ولعباً ومداورة، وتهكماً وسخرية: **﴿وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٓه غيري. فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين﴾** [القصص: ٣٨].

يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري.. كلمة فاجرة كافرة، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذي لا يدع لرأس أن يُفكر، ولا للسان أن يُعبِّر. وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب!.

ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر: **﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى﴾**.. في السماء كما يقول! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق موسى، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة: **﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾**!.

وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فَهْم فرعون وإدراكه. وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج، وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور. إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة. والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى.

وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن!.

وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله، وتبجّحه في جحوده: **﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله، وصد عن السبيل﴾**.. وهو

مستحق لأن يصد عن السبيل، بهذا المراء الذي يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل.

ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار: **﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾** . .

وأمام هذه المراوغة، وهذا الاستهتار، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مُدوّية صريحة، بعدما دعا القوم إلى إتباعه في الطريق إلى الله، وهو طريق الرشاد. وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية؛ وحذّرهم عذاب الآخرة؛ وبيّن لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان: **﴿وقال الذي آمن: يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار. .﴾** [غافر: ٣٨، ٣٩].

إنها الحقائق التي تقررت في القرآن الكريم، وها هو ذا الرجل المؤمن يُقررها في مواجهة فرعون ومَلَئِه. إنه يقول في مواجهة فرعون: **﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾** . .

وقد كان فرعون منذ لحظات يقول: **﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** فهو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار، ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون. وزيري فرعون فيما يقال.

ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا: **﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾** . . متاع زائل لا ثبات له ولا دوام. **﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾** . . فهي الأصل وإليها النظر والاعتبار.

ويقرر لهم قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار: **﴿مَن عمل سيئة فلا يُجْزَىٰ إلا مثلها. ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك**

يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ [غافر: ٤٠]. .

فقد اقتضى فضل الله أن تُضاعف الحسنات ولا تُضاعف السيئات، رحمة من الله بعباده، وتقديراً لضعفهم، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة، فَضَاعَفَ لهم الحسنات، وجعلها كَفارة للسيئات. فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب، رزقهم الله فيها بغير حساب.

ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونـه إلى النار، فيهتف بهم في استنكار: **﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟﴾** [غافر: ٤١].

وهم لم يدعوه إلى النار. إنما دعوه إلى الشرك. وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب. فهو يُبدّل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية: **﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم. وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾** [غافر: ٤٢].

وشتان بين دعوة ودعوة. إن دعوته لهم واضحة مستقيمة. إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار. يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره. يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفـر، الذي تفضـل بالغفـران: **﴿العزيـز الغفار﴾**. . فـإلى أي شيء يدعونه؟ يدعونه للكفر بالله. عن طريق إشراك ما لا علم له به من مُدَّعَيات وأوهام وألغاز!.

ويقرر من غير شك ولا ريب أن هؤلاء الشركـاء ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المَرَدّ لله وحده، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار:

﴿لا جَرَم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة. وأن مردنا إلى الله. وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ [غافر: ٤٣]. .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جَهَر بها الرجل في مواجهة فرعون ومَلَئه بلا تردّد ولا تلعثم، بعدما كان يكتم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان؟ لا يبقى إلا أن يُفوّض أمره إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى. والأمر كله إلى الله: **﴿فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد﴾** [غافر: ٤٤].. وينتهي الجدل والحوار. وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان.

ويسجل القرآن «لقطة» بعد هذا الموقف الأخير. وبعد الحياة: **﴿فوَقاه الله سيئات ما مَكَروا، وحاق بآل فرعونِ سوء العذاب..﴾** [غافر: ٤٥]..

لقد طُويت الدنيا، وعرضت أول صفحة بعدها. فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى، وقد وَقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه، فلم يُصبه من آثارها شيء في الدنيا، ولا فيما بعدها أيضاً. بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب.

ويسدل الستار على مشهد التآمر والوعيد.. حيث ندرك منه أن فرعون قد مضى يُنَفِّذ الوعيد البغيض.

الأُبَّهة الزائفة والبريق الخادع:

استمر موسى ـ عليه السلام ـ في دَعْوَتِه لا يُثنيه وعيد، ولا يُخيفه تهديد، مضى في نشر دعوته، يدعو فرعون إلى الإيمان بربّه.. ربّ العالمين. خالق الأرض والسموات، وأن يُطلق معه بني إسرائيل. ولكن الطاغية الجَهول كان ولوعاً بغوايته مُستمسكاً بتكبّره وعناده. لم يفده الحق الذي ظَهَر. فلم يُغير من نفسه شيئاً، ولم يُخفف من غروره وكبريائه، بل زاده عناداً وطغياناً، فأخذ يُباهي بِمُلكه العظيم وقُصوره الشامخة، ويتفاخر

بما يتقلّب فيه من نِعَمْ. وبمن يَتحكّم فيهم من بَشَر. ومضى يُعلن أنه صاحب هذا المُلك الواسع.. وأنه مُتصرف فيه كما يشاء.. فلا ينبغي لأحد أن يَتعالى عليه برأي أو أمر. ثم أخذ يُوازن بين ما هو فيه من نعيم، وبين موسى النبيّ الأمين.

ها هي الجماهير التي أَلِفت الذلّة وارتضت عيش الهوان والاستعباد جَمَعَها فرعون ليُبهرها بالقوة، ويُثبتها على الكُفر والمذلة.

ولكن الجماهير قد تُؤخذ بالخوارق المُعجزة، وقد يَجد الحق سبيلاً إلى قلوبها المخدوعة. وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زُخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأُبّهة والبَريق:

﴿ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟..﴾ [الزخرف: ٥١]..

إن مُلك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير، يُبهرها وتَستخفها الإشارة إليه. فأما مُلك السموات والأرض وما بينهما ـ ومصر لا تساوي هباءة فيه ـ فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسّه، وتعقد الموازنة بينه وبين مُلك مصر الصغير الزهيد!.

والجماهير المُسْتَعبدة يُغريها البريق الخادع القريب من عيونها؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تَدبّر ذلك الملك الكوني العريض البعيد!.

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب! **﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين ولا يكاد يُبين؟﴾** [الزخرف: ٥٢]..

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس مَلِكاً ولا أميراً ولا صَاحب سطوة ومال مشهود. أم لعلّه يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المُسْتَعبد المهين.

شَعب إسرائيل. أما قوله: ﴿**ولا يكاد يَبين**﴾ فهو استغلال لما كان معروفاً عن موسى قبل خروجه من مصر من حَبْسة اللسان. وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه: ﴿**رب اشرح لي صدراً ويَسِّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨]. . وحُلّت عُقدة لسانه فعلاً، وعاد يَبين.

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، خيراً من موسى ـ عليه السلام ـ ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم!.

﴿**فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب؟**﴾ [الزخرف: ٥٣]. .

هكذا. من ذلك العَرَض التافه الرخيص! أَسورة من ذهب تصدّق رسالة رسول! أَسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيَّدَ الله بها رسوله الكريم! أم لَعلّه كان يقصد من إلقاء أَسورة الذهب تتويجه بالملك، إذ كانت هذه عادتهم، فيكون الرسول ذا مُلك وذا سلطان؟.

﴿**أو جاء معه الملائكة مُقترنين**﴾ [الزخرف: ٥٣]. .

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر، تُؤخذ به الجماهير، وترى أن اعتراضه وجيه! وهو اعتراض مكروه، وَوُجِّه به أكثر من رسول!.

﴿**فاستخفَّ قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ [الزخرف: ٥٤]. .

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سُبل المعرفة، ويَحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المُصطَنَعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!.

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يَزنون بميزان الإيمان.

فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يُعلِّل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: **﴿فاستخفَّ قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾**..

مضى فرعون في عُتوّه وبُهتانه، وذهب به الهَوى والغرور واعتداده بنفسه مذهباً بعيداً.. فقد استخفّ قومه، استخف عقولهم، فلعب بها، يتصرف كيف يشاء، فهو المحتكر لضمائر الناس وتفكيرهم، واستعمل سلطانه الرهيب على شعبه المستضعف فهو الذي يُناديه: **﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾** [القصص: ٣٨].. بل إنه أسرف على نفسه وعلى الناس، فتجاوز كل الحدود، وطغى وبغى وقال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** [النازعات: ٢٤]..

يعرض سياق القصة قولة الطاغية الكافرة.. الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهالة..

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذِلّتها وطاعتها وانقيادها.

وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً. إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتَمدّ له أعناقها فيَجرّ! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزّة والكرامة فيطغى!.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى. وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوَهْم. فالطاغية ـ وهو فرد ـ لا يمكن أن يكون

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعِزّتها وحريتها.

وكل فرد هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً!.

وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تَتَعَبَّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضَرّاً ولا رشداً!.

فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الفاجرة: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**.. وما كان ليقولها أبداً لو وَجَد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عَبْدٌ ضعيف لا يقدر على شيء.. وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً!.

بين موسى وقومه:

لقد تمادى فرعون في غيّه وعناده، ولجَّ في غلوائه وكبريائه، وراح يُذيق قوم موسى صنوف العذاب، وألوان الأذى.. ففي كل يوم محنة جديدة! وفي كل يوم بلية نازلة.

وكَبُر العذاب، وتعدّدت صنوف الظلم وألوان الأذى، فضجُّوا لاجئين إلى موسى، ليحميهم من طغيان الكافر الجبار، ولينقذهم مما لا يزالون يجدونه من التنكيل والتقتيل والتعسف الصارخ.

ويرفع السياق الستار على مشهد لقاء موسى مع قومه.

ويتحدث القرآن عن مشهد النبي ـ عليه السلام ـ مع قومه، يُحدّثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربّه؛ وبسُنّته وقَدَره، فيُوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها. ويُعَرّفهم بحقيقة الواقع

الكوني. فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده. والعـاقبة لمن يتقـون الله ولا يخشون أحداً سواه. . فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذي يحلّ بهم قد حَلّ بهم من قبل أن يأتيهم، وهو يحل بهم كذلـك بعدمـا جاءهم، حيث لا تبـدو له نهـاية، ولا يلوح لـه آخر! أعلن لهم رجـاءه في ربه أن يُهلك عدوّهم، ويَستخلفهم في الأرض لِيَبْتَليهم في أمانة الخلافة:

﴿قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين. . ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. .

إنها رؤية «النبي» لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه. ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمـل فيه. ولحقيقـة السُّنة الإلهيـة وما يـرجوه منهـا الصابرون.

إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى ربّ العـالمين إلا ملاذ واحـد، وهو المـلاذ الحصين الأمين، وإلا وَليّ وهو الـولي القوي المتين. وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يُقدّره بحكمته وعلمه. وألا يعجلوا، فهم لا يَطَّلِعون الغيب، ولا يَعلمون الخير. .

وإن الأرض لله. وما فرعون وقومه إلا نُزلاء فيها. والله يورثها من يشاء من عباده ـ وفق سُنَّته وحكمته ـ فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين، إلى شيء من ظواهر الأمور التي تُخَيّل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مُزحزح عنها. . فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يُقرّر متى يطردهم منها!.

وإن العـاقبة للمتقين. . طـال الزمن أم قصـر. . فلا يُخـالج قلوب الداعين إلى ربّ العالمين قَلَقٌ على المصير. ولا يُخايل لهم تَقَلّب الذين كفروا في البلاد، فيحسبونهم باقين. .

إنها رؤية «النبي» لحقائق الوجود الكبير. .

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! ﴿**قالوا: أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾ [الأعراف: ١٢٩]..

إنها كلمات ذات ظلّ! وإنها لَتَشِي بما وراءها من تَبرُّم! أُوذينا قبل مجيئك وما تَغَيَّر شيء بمجيئك. وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية! لم تَنْتَهِ آلامنا ومتاعبنا النفسية.

لم تَنفعنا شيئاً! لم تُغن عنا شيئاً.. ولكن موسى لم يَجزع ولم ييأس!.

ويمضي النبي الكريم على نهجه. يُذَكّرهم بالله، ويُعلّق رجاءهم به، ويُلوّح لهم بالأمل في هلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض. مع التحذير في فتنة الاستخلاف.. ﴿**قال: عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون**﴾ [الأعراف: ١٢٩]..

إنه ينظر بقلب النبي فيرى سُنة الله، تجري وفق وَعْدَه، للصابرين، وللجاحدين! ويرى من خلال سُنّة الله هلاك الطاغوت وأهله، واستخلاف الصابرين المُستعينين بالله وحده. فيدفع قومه دفعاً إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد.

وهو يُعلمهم ـ منذ البدء ـ أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم. ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ كما زعموا ـ فلا يُعذّبهم بذنوبهم! وليس جزافاً بلا غاية. وليس خلوداً بلا توقيت. إنه استخلاف للامتحان: ﴿**فَيَنْظُر كيف تعملون**﴾.. وهو ـ سبحانه ـ يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون. ولكنها سنة الله وعدله ألا يُحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان، ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم.

واستجاب المؤمنون لنداء الله.. ها هو ذا موسى ومن آمن معه.. وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم!..

وهذا إحدى عِبَر القصة المقصودة **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، على خَوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم. وإن فرعون لعال في الأرض. وإنه لمن المسرفين﴾** [يونس: ٨٣]. .

ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي. وأن هؤلاء الفتيان كان يُخشى من فتنتهم وردّهم عن اتباع موسى، خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل. وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مُسرفاً في الطغيان، لا يقف عند حد، ولا يتحرّج من إجراء قاسٍ.

﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئه أن يفتنهم﴾ . .

يقول العلامة الأستاذ الدكتور فضل عباس[1]: «وفي الآية درسان على قَدْر كبير من الأهمية، فهما بحق قضيتان حَرِيَّتان بالوقوف والتأمُّل:

أما **أولاً**: فإنه لم يؤمن لموسى إلا ذرية من قومه، والذرية ـ بالطبع ـ تشير إلى أن الذين آمنوا كانوا من عنصر الشباب وهي إشارة ذات مغزى، فالشباب هم العنصر الفعال في حياة الدعوات وتاريخها.

وأما **ثانياً**: فإن عدم الإيمان لم يكن خوفاً من فرعون فحسب، وإنما كان خوفاً من مَلَئِهم أي ملأ هذه الذرية من بني إسرائيل. إن كثيراً من المستضعفين الذين استمرأوا الذل يقفون مع العتاة الطغاة في وجه الحق مع أنهم يعلمون أن في هذا الحق دفعاً لكابوس الظلم عنهم، ولكنهم يُداهنون مع ذلك، بل يكونون أشدّ من الطغاة أنفسهم، وهكذا كان الملأ من

---

(١) القصص القرآني: ٢٥٥.

بني إسرائيل يَحولون بين ذرياتهم وبين الإيمان لموسى مع أن فرعون هو الذي عَلاَ في الأرض وكان من المسرفين. كان يسومهم سوء العذاب فما يَجني هؤلاء المُستضعفون من وقوفهم معه؟ ولكنها التبعية الذليلة التي لن تُحلّهم إلا دار البوار، ويلتفت موسى ـ عليه السلام ـ إلى هؤلاء الذين آمنوا به وهم بين نارين وخوفين، فرعون من جهة، ومَلَئِهم من جهة أخرى» يُعَرّفهم بربهم الحق القوي المتين..

وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف، ويُطَمْئِن القلوب، ويُثَبّتها على الحق الذي تنحاز إليه:

﴿وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس: ٨٤]..

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه. وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي فإذا هي أقوى وأثبت. وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام. وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك.. مقتضى الاعتقاد في الله، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد..

واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم: **﴿فقالوا: على الله توكلنا﴾**..

ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء: **﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾** [يونس: ٨٥]..

والدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يُمَكِّن القوم الظالمين منهم، فيظن القوم أن تَمَكّنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهُزم المؤمنون! ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم. فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من

تَسَلُّط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين. والآية الثانية أصرح في النتيجة المطلوبة:

﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ [يونس: ٨٦]..

ودعاؤهم الله ألّا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين، لا ينافي الاتكال على الله والتقوِّي به. بل هو أدلّ على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى الله. والمؤمن لا يتمنى البلاء، ولكن يثبت عند اللقاء.

وعقب هذا التميز، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى، وإيمان من آمن بموسى، أوحى الله إليه وإلى هارون أن يتخذ لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم، وذلك لِفَرْزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار؛ وكَلَّفهم تطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، والاستبشار بنصر الله:

﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءآ لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قِبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين﴾ [يونس: ٨٧]..

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية. وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات. ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تُنبىء بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لهما فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة.

وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عَمَّت الفتنة وتجبَّر الطاغوت، وفَسَد الناس، وأَنْتَنَتْ البيئة ـ وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة ـ وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

ـ اعتزال الجاهلية بِنَتَنِها وفَسادها وشَرّها ـ ما أمكن في ذلك ـ وتَجمّع العصبة المؤمنة الخيّرة النَّظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.

ـ اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد. تحسّ فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي؛ وتُزاول فيها عبادتها لربها على نَهج صحيح، وتُزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيمْ في جو العبادة الطَهور.

اللمسة الموقظة والآيات البيّنات:

لقد مضى فرعون وملؤه إذن في جَبَروتهم؛ ونَفَّذ فرعون وعيده وتهديده، فَقَتَل الرجال واستحيا النساء.. ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب، ويرجون فَرَج الله، ويصبرون على الابتلاء.. وعندئذ.. عندما تمحّض الموقف: إيمان يقابله الكفر. وطغيان يقابله الصبر. وقوة أرضية تتحدّى الله.. عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين المُتَجَبِّرين والصابرين:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يَذَّكَّرون﴾ [الأعراف: ١٣٠]..

إنها إشارة التحذير الأولى.. الجَدب ونقص الثمرات.. و«السنين» تُطلق في اللغة على سني الجدب والشدّة والقحط. وهي في أرض مصر، المُخصبة المُثمرة المِعطاء، تبدو ظاهرة تلفت النظر، وتهزّ القلوب، وتُثير القلق، وتدعو إلى اليقظة والتفكر؛ لولا أن الطاغوت والذين يستخفّهم الطاغوت ـ بفسقهم عن دين الله ـ فيطيعونه، لا يريدون أن يَتَدَبَّروا ولا أن يَتَفكّروا، ولا يريدون أن يروا يد الله في جدب الأرض ونقص الثمرات؛ ولا يريدونَ أن يَتَذَكَّروا سُنن الله وَوَعْده وَوَعيده؛ ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية.. لأن هذه العلاقة من عالم الغيب.. وهم أغلظ حساً وأجهل قلباً من أن يروا وراء الواقع

المحسوس ـ الذي تراه البهائم وتُحسّه ولا ترى غيره ولا تُحسّه ـ شيئاً! وإذا رأوا شيئاً من عالم الغيب لم يَتَفَطَّنوا إلى سُنّة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة، وإنما نسبوه إلى المصادفات العابرة، التي لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة[١].

وكذلك لم يَنتبه آل فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالّة على رحمة الله بعباده ـ حتى وهم يكفرون ويَفجرون. كانت الوثنية وخرافاتها قد أفسدت فطرتهم؛ وقطعت ما بينهم وبين إدراك النواميس الدقيقة الصحيحة التي تُصرّف هذا الكون، كما تُصرّف حياة الناس؛ والتي لا يراها ولا يُدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً. الذين يُدركون أن هذا الوجود لم يُخلق سُدى، ولا يَمضي عبثاً، إنما تحكمه قوانين صارمة صادقة..

وهذه هي «العقلية العلمية» الحقيقية. وهي عقلية لا تُنكر «غيب الله» لأنها لا تعارض بين «العلمية» الحقيقية، و«الغيبية»؛ ولا تُنكر العلاقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة، لأن وراءها الله الفَعّال لما يريد؛ الذي يريد من عباده الإيمان وهو يريد منهم الخلافة في الأرض، والذي يَسنّ لهم من شريعته ما يتناسق مع القوانين الكونية ليقع التناسق بين حركة قلوبهم وحركتهم في الأرض..

لم يَنتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله، وبَغْيهم وظُلمهم لعباد الله.. وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات.. في

---

(١) عندما نقصت الغلات في روسيا الشيوعية وفي المعسكر الشيوعي كله في أواخر الخمسينات من القرن العشرين.. لم يجد خروشوف رئيس روسيا إلا أن يقول: إن «الطبيعة» تعاكسنا! وهو الرجل الذي يدعي «الاشتراكية العلمية»! وينكر الغيبية! إنه العمى عن رؤية يد الله القاهرة.. وإلا فما هي هذه «الطبيعة» التي لها إرادة «تعاكس» بها البشر؟.

وفي مطلع التسعينات من القرن العشرين انهارت الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وانهار هذا البنيان الذي أنشأه الوهم المُؤيّد بالحديد والنار..

مصر التي تفيض بالخصب والعطاء، **ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون!.**

لقد أراد الله تنبيه فرعون ومَلَئِه، وقد طغوا، وأسرفوا في الغفلة والعناد فأخذهم بسنين من الجوع والقحط وضيق العيش.. فنقصت ثمراتهم، وقلّت زروعهم.. أصابهم الله بهذه المِحَن لعلهم يتذكرون..

ومصر بلاد الخصب والنماء الخضراء.. بلاد الخيرات والبركات.. بلاد الأثمار والحبوب..

ومصر قد أنجدت بلاداً بعيدة أيام المجاعة في عهد يوسف ـ عليه السلام ـ. أنجدت أهل الشام وأهل كنعان..

والنيلُ وفروعه هو الذي يروي أرض مصر ويسقي زروعهم وهو منبع السعادة والخير لأهلها..

وكان فرعون وملئه يظنون أن النيل هو مفتاح الرزق وأن مصر غنية بالنيل عن المطر وعن كل شيء.. فها هو ذا الطاغية يقول: **﴿قال: يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون﴾** [الزخرف: ٥١]..

إنه عَمى الطغيان.. والطاغية المُتَجَبِّر مُعطِّل الحواس، مُغلق المشاعر. مطموس الضمير..

فالله وحده عنده مفاتيح الرزق، وهو يَبسط الرزق لمن يشاء ويَقدر.. وأن النيل يجري بأمره ويفيض بأمره..

فهو سبحانه الذي شَقّ الأنهار وأجراها **﴿أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾** [النمل: ٦١].. **﴿وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾** [الرعد: ٣].. **﴿وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾** [إبراهيم: ٣٢]..

فـالأمر لله الخـالق المسخِّـر. . أَمَـر النيـل ففـاضَ مـاؤه وذهب في الأرض. . ونَقَصَت حبوبُهم وكانت مجاعة بعد مجاعة.

لقد عَمِيَت عليهم الآيات البَيِّنات. . وأراد الله لهم الهُدى فاستحبوا العمى على الهدى. . إنه العناد والإصرار الذي يقعد بهم عن النظر والتدبر.

لم ينتبهـوا لهذه الـظاهرة التي شـاءت رحمة الله بعبـاده أن تُبرزهـا لأعينهم. ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبـوها حقـاً طبيعياً لهم! وإذا أصابتهم السَّيئة والجدب نسبوا هـذا إلى شُؤم موسى ومن معـه عليهم.

﴿فإذا جاءتهم الحسنـة قالـوا: لنا هـذه! وإن تُصبهم سيئة يَـطَّيَروا بموسى ومن معه﴾ [الأعراف: ١٣١]. .

وحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله، فإنها لا ترى يده ـ سبحانه ـ في تصريف هذا الوجود؛ ولا ترى قَدَره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث. وعندئذ تفقد إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية الثابتة النـافذة. فَتُفَسِّـر الحوادث تفسيرات مُنفصلة منعزلة. لا صلة بينها ولا قاعدة ولا ترابط؛ وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة؛ لا تلتقي عند قاعدة، ولا تجتمع وفق نظام ـ وذلك كالذي قـاله خـروشوف صـاحب الاشتراكيـة «العلمية»! عن معاكسة «الطبيعة!» لهم في تعليل نقص الثمرات والغلّات! وكما يقول الذين يمضون مع هذه «العلمية» المُدَّعاة في تعليل مثل هـذه الأحداث. . وهم يُنكرون قَدَر الله. . وفيهم من يَـدّعي بعد استنكـار غيب الله وقَدَر الله أنـه «مُسلم» وهو ينكر أصول الإيمان بالله!.

وهكذا مضى فرعون وآله يُعلِّلون الأحداث الحسنة التي تُصيبهم هي من حُسن حَظّهم وهم يستحقونها. والسيئة التي تُصيبهم هي بشؤم موسى ومن معه عليهم، ومن تحت رأسهم! وأصل «التَطَيّر» في لغة العرب ما كان الجـاهليـون في وثنيتهم وشـركهم وبُعـدهم عن إدراك سنن الله وقـدره

يزاولونه.. فقد كان الرجل منهم إذا أراد أمراً، جاء إلى عش طائر فَهَيَّجه عنه، فإذا طار عن يمينه ـ وهو السانح ـ استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يُريده. وإذا طار الطائر عن شماله ـ وهو البارح ـ تشاءم به ورجع عما عَزَمَ عليه! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي؛ وأحل محله التفكير «العلمي» ـ العلمي الصحيح ـ وأرجع الأمور إلى سُنن الله الثابتة في الوجود؛ وإلى قَدَر الله الذي يحقق هذه السنن في كل مرة تتحقق فيها، وأقام الأمور على أسس «علمية» يُحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده؛ وتوضع في موضعها الصحيح، في إطار المشيئة الإلهية الطليقة، وقدره النافذ المحيط: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله، ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ [الأعراف: ١٣١]..

إن ما يقع لهم مصدره كله واحد.. إنه من أمر الله.. ومن هذا المصدر تُصيبهم الحسنة للابتلاء.. وتُصيبهم السيئة للابتلاء: ﴿**ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون**﴾ [الأنبياء: ٣٥].. ويصيبهم النكال للجزاء.. ولكن أكثرهم لا يعلمون.. كالذين يُنكرون غيب الله وقَدَره في هذه الأيام باسم «العقلية العلمية»! وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم «الاشتراكية العلمية» كذلك!!! وكلهم جُهّال.. وكلهم لا يَعلمون!.

ويمضي آل فرعون في عُتوّهم، تأخذهم العزّة بالإثم؛ ويزيدهم الابتلاء شماساً وعناداً:

﴿**وقالوا: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**﴾ [الأعراف: ١٣٢]..

فهو الجموح الذي لا تُروِّضه تَذْكرة؛ ولا يَردّه برهان؛ ولا يريد أن ينظر ولا أن يَتدبَّر، لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان ـ قطعاً للطريق على البرهان! ـ وهي حالة نفسية تُصيب المُتَجَبّرين حين يدفعهم الحق؛ وتَجْبههم البَيّنة، ويُطاردهم الدليل.. بينما هواهم ومصلحتهم ومُلكهم وسلطانهم.. كله في جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل!.

عندئذ تتدخل القوة الكبرى سافِرَة بوسائلها الجبارة: ﴿**فأرسلنا عليهم الطُّوفان، والجراد، والقُمّل، والضّفادع والدمّ.. آيات مفصلات..**﴾ [الأعراف: ١٣٣]..

للإنذار والابتلاء.. آيات مُفصلات.. واضحة الدلالة، مُتّسقة الخطوات، تتبع الواحدة منها الأخرى، وتصدق اللاحقة منها السابقة.

ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المُفَصّلة، التي جاءتهم مفرقة. واحدة واحدة. وهم في كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو لهم ربّه لينقذهم منها؛ ويَعِدُونه أن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها، وإذا رفع عنهم هذا «الرجز»، أي العذاب، الذي لا قِبَل لهم بدفعه:

﴿**ولما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك ـ بما عَهِدَ عندك ـ لئن كشفت عَنّا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾ [الأعراف: ١٣٤]..

وفي كل مرة ينقضون عهدهم، ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل رَفْع العذاب عنهم وفق قَدَر الله في تأجيلهم إلى أجلهم المقدور لهم:

﴿**فلما كشفنا عنهم الرجز ـ إلى أجل هم بالغوه ـ إذا هم ينكثون**﴾ [الأعراف: ١٣٥]..

جمع السياق الآيات كلها، كأنما جاءتهم مرة واحدة.. وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة. ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة، وكانت نهايتها واحدة كذلك. وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص يجمع فيها البدايات لِتَماثُلها؛ ويجمع فيه النهايات لِتَماثُلها كذلك.. ذلك أن القلب المغلق المطموس يتَلَقّى التجارب المُنوّعة وكأنها واحدة؛ لا يفيد منها شيئاً، ولا يجد فيها عبرة..

فأما كيف وقعت هذه الآيات، فليس لنا وراء النص القرآني شيء، ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عنها شيئاً. ونحن

نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة. وذلك تَحَرُّزاً من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها؛ والتي تَسرَّبت ـ مع الأسف ـ إلى التفاسير القديمة كلها، حتى ما ينجو منها تفسير واحد من هذه التفاسير، وحتى أن تفسير الإمام ابن جرير الطبري ـ على نفاسة قيمته ـ وتفسير ابن كثير كذلك ـ على عظيم قدره ـ لم ينجوا من هذه الظاهرة الخطيرة..

وقد وردت روايات شَتَّى في شأن هذه الآيات عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن ابن إسحاق.. رواها أبو جعفر ابن جرير الطبري في تاريخه وفي تفسيره. وهذه واحدة منها:

«حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأَبَى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فصبّ عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم يُنْبِتْه قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى! فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي الزرع. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل! فداسوا[1] وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا! فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذي يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة[2]. فقالوا:

---

(١) داسوا: درسوا.

(٢) الجريب والقفيز، مكيالان للحبوب، والجريب أربعة أقفزة.

يـا موسى، ادع لنـا ربك يكشف عنـا القمل، فنؤمن لـك ونـرسـل معـك بني إسرائيل! فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينا هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟! فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فَتِثب الضفادع في فِيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنـا هذه الضفـادع، فنؤمن لك ونرسل معـك بني إسرائيـل! فكشف عنهم فلم يؤمنوا. فـأرسل الله عليهم الدمّ، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً[1]. فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ٱبتلينا بالدم، وليس لنا شراب! فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل».

والله أعلم أي ذلك كان.. والصورة التي جاءت بها هذه الآيات لا يُؤثّر اختلافها في طبيعة هذه الآيات. فالله ـ سبحانه ـ أرسلها بقَـدَره، في وقت معين، ابتلاء لقوم مُعَيَّنين؛ وفق سُنته في أَخْذ المُكذبين بالضراء لعلهم يتضرعون.

ولقـد كان قـوم فرعـون على وثنيتهم وجاهليتهم؛ وعلى استخفـاف فرعون بهم لفسقهم، يلجأون إلى موسى ـ عليه السلام ـ ليدعو ربه بما عَهِدَ عنده، ليكشف عنهم البلاء.. وإن كانت السلطات الحاكمة بعد ذلك تنكث ولا تستجيب.. لأنها تقوم على ربوبية فرعون للبشر؛ وتفزع من ربوبية الله لهم. إذ أن ذلك معناه هَدْمِ نظام الحكم الذي يقوم على حاكمية فرعون لا حاكمية الله!.. أما أهل الجاهلية الحـديثة فـإن الله يُسلّط الآفات على

(١) عبيطاً: طرياً.

زروعهم؛ فلا يُريدون أن يرجعوا إلى الله ألبتة! وإذا أحسّ أصحاب الزروع من الفلاحين بيد الله في هـذه الآفات، ـ وهـو الشعور الفـطري حتى في النفوس الكافرة في ساعات الخطر والشدة! ـ واتجهوا إلى الله بالدعاء أن يكشف عنهم البلاء، قال لهم أصحاب «العلمية!» الكاذبة: هـذا الاتجاه خرافة «غيبية!» وتَنَدَّروا عليهم وسخِروا منهم! لِيَردّوهم إلى كُفر أشد وأشنع من كفر الوثنيين!.

نعمـة ورحمـة:

إن نعمة وجود الرسول والنبي موسى ـ عليه السلام ـ يدعوهم إلى الله، ويُخاطبهم بكلامه.. نعمة فوق التصور.. ما لهم لا يؤمنون؟.

يا حسرة عليهم تُتاح لهم فُرص النجاة، وآيات الله البيّنات عليهم تَتْرى وهم مستكبرون!!.

والله يعلم حقيقة فرعون وملئه قبل الابتلاء؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، فيحاسبهم. وقد شاءت رحمة الله ألّا يأخذ فرعون وقومه على ظُلمهم وطغيانهم وكفرهم.. إنما أرسل لهم رسولاً ليوقظ أفئدتهم ومعه الآيات والمعجزات الباهـرات ﴿**وما كنـا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥].. وهي رحمة من الله إلى فرعون وملئه أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر.

﴿**ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون، وجاءهم رسول كريم: أن أدُّوا إليّ عباد الله، إني لكم رسول أمين**﴾ [الدخان: ١٧، ١٨]..

إنها لمسة قوية لإيقاظ القلوب إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنـة وابتلاء. والإمـلاء للمكذبين بين فتـرة من الزمـان، وهم يستكبـرون على الله، ويُؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء. وأن

إغضاب الرسول واستنفاذ حلمه على أذاهم ورجائه في هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد.

﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بيّنات قالوا: ما هذا إلا سِحر مُفترَى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ [القصص: ٣٦]..

وكأنما هي ذات القولة التي يقولها المشركون لمحمد - ﷺ - في مكة يومذاك: **﴿ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾**.. فهي المُماراة في الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه. المماراة المكرورة حيثما واجَه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب. إنهم يدَّعون أنه سحر، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم، لم يسمعوا به في آبائهم الأولين!.

وهم لا يناقشون بحجة، ولا يَدْلون ببرهان، إنما يُلْقون بهذا القول الغامض الذي لا يحقّ حقاً ولا يبطل باطلاً ولا يدفع دعوى.

فأما موسى - عليه السلام - فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله. فما أَدْلُوا بحجة ليناقشها، ولا طلبوا دليلاً فيعطيهم، إنما هم يمارون كما يماري أصحاب الباطل في كل مكان وفي كل زمان. فالاختصار أولى والإعراض أكرم، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله:

﴿وقال موسى: ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ [القصص: ٣٧]...

وهو ردّ مؤدب مهذب، يُلمِّح فيه ولا يُصرح. وفي الوقت ذاته ناصع واضح، مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل. فَرَبّه أعلم بصدقه وهُداه، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى، والظالمون في النهاية لا يُفلحون. سُنّة الله التي لا تتبدل. وإن بَدَتْ ظواهر الأمور أحياناً في غير هذا الاتجاه. سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبي قومه.

﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ [الدخان: ١٧].. وابتليناهم بالنعمة والسلطان، والتمكين في الأرض، والإملاء في الرخاء، وأسباب الثراء والاستعلاء.

﴿وجاءهم رسول كريم﴾ [الدخان: ١٧].. وكان هذا طرفاً من الابتلاء، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم، الذي لا يطلب منهم شيئاً لنفسه؛ إنما يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شيء لله، وإلا يستبقوا شيئاً من ذوات أنفسهم يضنون به على الله:

﴿أن أدُّوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين. وألا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين. وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ [الدخان: ١٨ ـ ٢١]..

إنها كلمات قصيرة تلك التي جاءهم بها رسولهم الكريم موسى ـ عليه السلام ـ:

إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية. والأداء الكامل. والاستسلام المطلق[١]. الاستسلام المطلق لله. الذين هم عباده. وما ينبغي للعباد أن يَعلوا على الله. فهي دعوة الله يحملها إليهم الرسول، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم. البرهان القوي والسلطان المبين، الذي تذعن له القلوب. وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطو عليه وأن يرجموه. فإن استعصوا على الإيمان فهو يُفاصلهم ويعتزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه. وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة. ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة، فهو يَرهب من وجود الحق طليقاً..

لقد أرسل الله موسى بالآيات مزوّداً بقوة من الله وسلطان، إلى فرعون

---

(١) هناك تفسير آخر لقوله تعالى: **﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾** أي: أعطوني بني إسرائيل عباد الله. وأدوهم إليّ ولا تحجزون للسخرة والعذاب. وذلك كقوله: **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾**.

ذي السلطان وكبراء قومه: ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه**﴾ [الزخرف: ٤٦] . .

وتلقى فرعون وملئه آيات الله ورسوله بالعناد والإصرار والاستكبار: ﴿**ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين**﴾ [يونس: ٧٥، ٧٦] . .

ويشير القرآن إلى ما أَخَذَ الله به فرعون وملئه من الابتلاءات المفصَّلة في سور عديدة: ﴿**في تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوماً فاسقين. فلما جاءتهم آياتنا مُبصرة قالوا: هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلماً وعُلُوّاً. فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ [النمل: ١٢ ـ ١٤] . .

هذه الآيات الكثيرة العدد، الكاشفة عن الحق، حتى ليبصره كل من له عينان. ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة، فهي تُبَصِّر الناس وتقودهم إلى الهدى. ومع هذا فقد قالوا عنها: إنها سحر مبين!.

﴿**فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين**﴾ [يونس: ٧٦] . . بهذا التحديد. . ﴿**من عندنا**﴾ . . ليصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هذا الحق الصادر من عند الله . .

بهذا التوكيد المتبجح الذي لا يستند مع هذا إلى دليل. . ﴿**إن هذا لسحر مبين**﴾ . . كأنهما جملة واحدة يتعارف عليها المكذِّبون في جميع العصور! فهكذا قال مشركو قريش، كما حُكي عنهم في القرآن، على تباعد الزمان والمكان، وعلى بُعد ما بين معجزة موسى ومعجزة القرآن!.

﴿**قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم. أسحر هذا؟ ولا يفلح الساحرون**﴾ [يونس: ٧٧] . .

وقد حذف من استنكار موسى الأول ما دلّ عليه الثاني. فكأنه قال لهم: أتقولون للحق لما جاءكم: هذا سحر؟ أسحر هذا؟.

وفي السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر، وفي السؤال الثاني تعجيب من أن يقول أحد عن هذا إنه سحر. فالسحر لا يستهدف هداية الناس، ولا يتضمن عقيدة، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق؛ ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة. فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس. وما كان الساحرون ليؤدوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغراض، ويحقق مثل هذا الاتجاه؛ وما كانوا ليفلحوا.

لقد قالوا عن آيات الله المبصرة إنها سحر مبين. قالوا ذلك لا عن اقتناع ولا عن شبهة. إنما قالوه: ﴿ظُلماً وعُلُواً﴾ وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه: ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾. قالوا جحوداً ومكابرة، لأنهم لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان. استعلاء على الحق وظلماً له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم.

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن، ويستيقنون أنه الحق، ولكنهم يجحدونه، ويجحدون دعوة النبي - ﷺ - إياهم إلى الله الواحد. ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم، لما وراءها من أوضاع تسندهم، ومغانم تتوافد عليهم. وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة، التي يُحسّون خَطَر الدعوة الإسلامية عليها، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم، وترتج في ضمائرهم. ومطارق الحق المبين تدفع الباطل الواهي المريب!.

وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه. بل لأنهم يعرفونه! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم، لأنهم يحسُّون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على أوضاعهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم. فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين.

وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدي موسى ـ عليه السلام ـ مدعاة إيمان، وهي تأخذهم متتابعة. كل آية أكبر من أختها: **﴿وما نُريهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾** [الزخرف: ٤٨] مما يصدق قول الله تعالى في مواضع كثيرة، وفحواه أن الخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهل للهدى، وأن الرسول لا يُسمع الصُمّ ولا يهدي العُمي!.

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئهم: **﴿وقالوا: يا أيها الساحر ادعُ لنا ربك بما عَهِدَ عندك إننا لمهتدون﴾** [الزخرف: ٤٩]..

فهم أمام البلاء، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء. ومع ذلك يقولون له: **﴿يا أيها الساحر﴾** ويقولون كذلك: **﴿ادع لنا ربك بما عَهِدَ عندك﴾** وهو يقول لهم: إنه رسول **﴿ربّ العالمين﴾** لا ربّه هو وحده على جهة الاختصاص! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مسّ قلوبهم، ولا خالطتها بشاشة الإيمان على الرغم من قولهم: **﴿إننا لمهتدون﴾**، **﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾** [الزخرف: ٥٠]..

إن حلقة قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون، يبدو فيها اعتزاز فرعون بالقيم الزائفة، وهوانها على الله، وهوان فرعون الذي اعتزَّ بها، ونهايته التي تنتظر المعتزّين بمثل ما اعتزّ به..

لقد كان الله ـ سبحانه ـ يُمهلهم رحمة بهم، ويُؤخر عنهم الهلاك، ولكنه لن يُهملهم..

ويكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التي تصدّهم عن التسليم بآيات الله:

﴿قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء في الأرض؟ وما نحن لكما بمؤمنين﴾ [يونس: ٧٨]..

وإذن فهو الخوف من تحطيم مُعتقداتهم الموروثة، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي. وهو الخوف على السلطان في الأرض، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة.

إنها العلّة القديمة الجديدة، التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات، وانتحال شتى المعاذير، ورمي الدعاة بأشنع التهم، والفجور في مقاومة الدعوات والدعاة.. إنها هي «الكبرياء في الأرض» وما تقوم عليه من معتقدات باطلة يحرص المتجبرون على بقائها مُتحَجّرة في قلوب الجماهير، بكل ما فيها من زيف، وبكل ما فيها من فساد، وبكل ما فيها من أوهام وخرافات. لأن تفتح القلوب للعقيدة الصحيحة، واستنارة العقول بالنور الجديد، خَطَر على القيم الموروثة، وخطر على مكانة الطغاة ورهبتهم في قلوب الجماهير، وخطر على القواعد التي تقوم عليها هذه الرهبة وتستند. إنها الخوف على السلطان القائم على الأوهام والأصنام! وعلى تعبيد الناس لأرباب من دون الله..

ودعوة الإسلام ـ على أيدي الرسل جميعاً ـ إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين؛ وتنحية الأرباب الزائفة التي تغتصب حقوق الألوهية وخصائصها، وتزاولها في حياة الناس. وما كانت هذه الأرباب المُستَخِفّة للجماهير لتدع كلمة الحق والهدى تصل إلى هذه الجماهير. ما كانت لتدع الإعلان العام الذي يحمله الإسلام بربوبية الله وحده للعالمين وتحرير رقاب البشر من العبودية للعباد..

ما كانت لتدع هذا الإعلان العام يصل إلى الجماهير؛ وهي تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبيتهم، والانقلاب على سلطانهم، والانقضاض على مُلكهم، والانطلاق إلى فضاء الحرية الكريمة اللائقة بالإنسان!.

إنها هي العلة القديمة الجديدة كلما قام مَنْ يدعو إلى الله ربّ العالمين!.

وما كان رجال من أذكياء قريش مثلاً ليخطئوا إدراك ما في رسالة محمد ـ ﷺ ـ من صدق وسمو، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد. ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة، القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد. كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض، فقالوا مُتَبَجِّحين: ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾.. ﴿وقالوا: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ [الأعراف: ١٣٢]..

إن كثرة الخوارق لا تُنشىء الإيمان في القلوب الجاحدة. وها هو ذا موسى قد أُوتي تسع آيات بَيِّنات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيِّنات، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ [الإسراء: ١٠١]..

والآيات التسع المشار إليها هنا هي: اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السِّنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم.. ﴿فَاسْأَل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون:

﴿فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾.. فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول!.

فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدّث عنها وهو يملك لقواه العقلية!.

لقد لجَّ فرعون في عتوٍّ ونُفور.. ها هو ذا الطاغية في هَيئة مُتَبجِّحة بين مَلئه.. وهم بَعد هذه الآيات البيِّنات عاتون مُعرضون وُقحاء!.

فأما موسى فهو قويّ بالحق الذي أُرسل به مشرقاً منيراً؛ مُطمئنّ إلى نصرة الله له وأَخْذه للطغاة:

﴿قـال: لقد علمتَ مـا أنـزل هؤلاء إلا ربّ السمـاوات والأرض. بصائر. وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢]..

هالكاً مُدمَّراً، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق. وإنها لواضحة مكشوفة مُنيرة للبصائر، حتى لكأنها البصائر تكشِف الحقائق وتجلوها.

وعندئذ يلجأ الطاغية إلى قُوته المادية، فهو يَخشى أن يظل الحق طليقاً، يحاول أن يصل إلى الناس في سلام وهدوء. ومن ثُم يُحارب الحق بالبطش ولا يُسالمه أبداً. فمعنى المسالمة أن يزحف الحق، ويستولي في كل يوم على النفوس والقلوب. ومن ثم يبطش الباطل ويَرجم ولا يَعتزل الحق ولا يَدعه يَسلم أو يَستريح!.

لقد عزم فرعون أن يُزيلهم من الأرض ويبيدهم، **﴿فأراد أن يستفزّهم من الأرض﴾** [الإسراء: ١٠٣] فكذلك يفكر الطغاة في الرد على كلمة الحق..

دعـاء.. وإجابـة:

أحسَّ موسى ـ عليه السلام ـ أن القوم لن يُؤمنوا له ولن يَستجيبوا لدعوته؛ ولن يُسالموه أو يعتزلوه.. لقد عَظُم شأنهم في نَظَر أنفسهم، فاستكبروا وطغوا طُغياناً كبيراً. لقد تضخَّم شعورهم بأنفسهم حتى شَغَلهم عن تقدير القيم الحقيقية وَوَزْنها وزناً صحيحاً. لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كَبُرت في أعينهم وتضخَّمت وعَظُمت، حتى قال فرعون تلك الكلمة النكراء: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** [النازعات: ٢٤]..

واتَّجه موسى النبي الكريم إلى ربه، وقد يَئِسَ من فرعون ومَلئه أن يكون فيهم خير، وأن تكون قد بَقيت فيهم بَقيَّة، وأن يُرجى لهم صلاح. اتَّجه إليه يَدعو على فرعون ومَلَئه، الذين يملكون المال والزينة، تَضعف

إزاءهمـا قُلوب الكثيرين، فتنتهي إلى التهـاوي أمام الجـاه والمال، وإلى الضلال. . اتّجه موسى إلى ربه يدعوه أن يُدَمِّر هذه الأموال، وأن يشدّ على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان. فاستجاب الله الدعاء:

﴿وقال موسى: ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا. ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أمـوالهم، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال: قد أُجيبت دعـوتكما، فاستقيما، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. .

﴿ربنـا إنك آتيت فـرعون ومـلأه زينة وأمـوالاً في الحياة الـدنيا﴾ [يونس: ٨٨]. .

ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إمَّا بالإغراء الذي يُحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين. وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم. ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة.

وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عـامة النـاس. ويطلب لوقف هذا الإضلال، ولتجريد القوة الباغية من وسائل البغي والإغراء، أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بهـا، بحيث لا ينتفع بهـا أصحابها. أما دعاؤه بأن يشدّ الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فهو دعاء من يَئِسَ من صلاح هذه القلوب، ومن أن يكون لها توبة أو إنابة.

دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب، وعندئذ لن يُقبل منهم الإيمان؛ لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يُقبل، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان.

﴿قال: قد أجيبت دعوتكما﴾.. كتبت لها الإجابة وقُضي الأمر.

﴿فاستقيما﴾.. في طريقكما وعلى هداكما حتى يأتي الأَجَل:

﴿ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾.. فيخبطوا على غير علم، ويترددوا في الخطط والتدبيرات، ويَقْلقوا على المصير، ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون في الطريق الهادي أم هم ضلوا السبيل.

لقد انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير، وعَلِمَ الله أن القوم لا يُؤمنون؛ وعَمَّت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهي في خيلاء، وعَشَت عن الآيات البيِّنات والنور. وبَدا أن إجرامهم أصيلاً عميقاً لا أَمَلَ في تَخلِّيهم عنه.. ها هو ذا موسى مستغيثاً: ﴿فدعا ربَّه أن هؤلاء قومٌ مجرمون﴾ [الدخان: ٢٢]..

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التي جَنَتْها يداه؟ وإلا أن ينفض أمره بين يديه، ويدع له التصرف بما يريد؟.

وتحققت كلمة الله وتحقق النذير.. وتَلَقَّى موسى الإجابة إقراراً من ربه لما دَفَعَ به القوم.. حقاً إنهم مجرمون.. ﴿فَأَسْرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتَّبعون. واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾ [الدخان: ٢٤]..

والسرى لا يكون إلا ليلاً، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد، مشهد السرى بعباد الله ـ وهم بنو إسرائيل ـ ثم الإيحاء بجوّ الخفية، لأن سراهم كان خفية عن عون فرعون ومن وراء علمه.

الحلقة الرابعة:

عاقبة الطغيان وانتصار الإيمان

انتصار الحق وخروج بني إسرائيل من مصر:

﴿وأوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي إنكم مُتَّبعون.. فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٥٤]..

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يَسري بعباده، وأن يرحل بهم ليلاً، بعد تدبير وتنظيم. ونبَّأه أن فرعون سيتبعهم بجنده؛ وأَمَره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات).

وعَلِمَ فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأمر بما يسمى «التعبئة العامة» وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود، ليدرك موسى وقومه؛ ويفسد عليهم تدبيرهم، وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير!.

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند.. ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله ـ بزعمه! ـ إلى التعبئة العامة. ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين: **﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾**!.

ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!.

﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ [الشعراء: ٥٥]. . فهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يغيظ ويُغضب ويُثير!.

وإذن فلهم شأن وخَطَر على كل حال! فليقل العملاء: إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد:

﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ [الشعراء: ٥٦]. . مستيقظون لمكائدهم، محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور!.

إنها حيرة الباطل المتجبر دائماً في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين!.

لقد أسرى موسى بعباد الله، بوحي من الله وتدبير. فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبَطَر. ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته. والمعركة تصل إلى ذروتها. . ويرفع القرآن الستار على المشهد المثير: **﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي. فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَساً، لا تخاف دركاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده. .﴾** [طه: ٧٧، ٧٨]. .

وقبل أن يعرض المشهد الأخير، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع. ووراثة بني إسرائيل المستضعفين:

﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك، وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]. .

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويَقْفون أَثَرَهم. فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة. وكانت إخراجاً لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يَقْفُون أثرَ المؤمنين. تعجيلاً بالجزاء على الظلم والبطر والبغي الوخيم.

﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعرا: ٥٩]. .

ولا يُعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة؛ وورثوا مُلك مصر وكنوز فرعون. لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه. فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم.

وبعد هذا الاعتراض يجيء المشهد الحاسم الأخير: **﴿فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون. .﴾** [الشعراء: ٦٠، ٦١]. .

وتبرز في المشهد صورة الخوف الهائج. ها هم أولاء موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفن ولا هم يملكون خوضه وما هم بِمُسَلَّحين. وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون!.

وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفرّ والبحر أمامهم والعدو خلفهم: **﴿قال أصحاب موسى: إنا لمدركون﴾**. .

وبلغ الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!.

ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون. فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه.

﴿قال: كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعرا: ٦٢]. .

كلا. في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مُدْرَكين. كلا لن نكون هالكين. كلا لن نكون مفتونين. كلا لن نكون ضائعين **﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾**. بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون:

﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ [الشعراء: ٦٣].. ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر. فهذا مفهوم. إنما يعجل بالنتيجة:

﴿فانفلق. فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣].. ووقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول عنه الناس: مستحيل. لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور. والله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد.

وقعت المعجزة وانكشف بين فرقي الماء طريق. ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم. واقتحم بنو إسرائيل...

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتاً مشدوهاً بذلك المشهد الخارق، وذلك الحادث العجيب.

ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتاً فأطال الوقوف ـ وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف ـ قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم في ذلك الطريق العجيب.

وقد أَمَرَ الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يمرّ هو وقومه وأن يَدع البحر وراءه ساكناً على هيئته التي مرًّ هو وقومه فيها، لإغراء فرعون وجنده بإتباعهم، ليتم قَدَر الله لهم كما أراده: **﴿واترك البحر رهواً[1] إنهم جندٌ مُغْرَقون﴾** [الدخان: ٢٤]..

---

(١) الرهو: الساكن. وقد أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يضرب بعصاه البرّ فيعود بحراً كما كان ولكن الله أوحى إليه اترك البحر ساكناً..

فهكذا ينفذ قَدَر الله من خلال الأسباب الظاهرة. والأسباب ذاتها طرف من هذا القَدَر المحتوم.

ويرفع القرآن الكريم الستار على مشهد مُثير وحلقة من القصة مُعبِّرة..

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة. فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود. والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول. فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن..

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظل الإيمان مَظْهراً لم يتجسم في القلب، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يَغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه. ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في القرآن:

﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم..﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٨]..

وإن هو إلا الإيحاء لموسى فيضرب لبني إسرائيل طريقاً في البحر يَبَساً

بدون تفصيل ولا تطويل ـ فنعرضه نحن كذلك كما جاء ـ مُطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يُدركه فرعون وجنوده، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه!.

﴿**فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم**﴾.. هكذا يُجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه، ولا يُفصله، ليبقى وَقْعه في النفس شاملاً مهولاً، لا يحدده التفصيل، وقادَ فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر. وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار ﴿**وأضلَّ فرعون قومه وما هدى**﴾ [طه: ٧٩]..

وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة.. ﴿**وجاوزنا بني إسرائيل البحر**﴾ [يونس: ٩٠].. بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا. ولهذا الإسناد في هذا الموضع دلالته..

﴿**فأتبعهم فرعون وجنوده**﴾.. لا اهتداءً وإيماناً، ولا دفاعاً مشروعاً. ولكن: ﴿**بَغْياً وعدواً**﴾ [يونس: ٩٠].. وتجاوزاً للحد وطغياناً..

وتمَّ تدبير الله.. فخرج بنو إسرائيل من الشاطىء الآخر، بينما كان فرعون وجنوده بين فَرقي الماء. وقد قَرّبهم الله لمصيرهم المحتوم.. ﴿**وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومَن معه أجمعين**﴾.. ﴿**ثم أغرقنا الآخرين**﴾!!! [الشعراء: ٦٤ ـ ٦٦]..

ويرفع الستار على مشهد البحر: مشهد فرعون وآله، يأخذهم الله بعاقبة الظلم والطغيان؛ ويحقق وعد موسى لقومه، ورجاءه في ربه، ويصدق النذير، وتساق القصة كلها لتصديقه.

وتجيء الخاتمة ـ وفق سنة الله في أخذ المكذبين بعد الابتلاء بالضرّاء والسرّاء ـ. وتقع الواقعة. ويدمر الله على فرعون ومَلَئه ـ بعد إذ أمهلهم

وأَجَّلَهم إلى أجل هم بالغوه ـ ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين:

﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم، بأنهم كذبوا بآياتنا، وكانوا عنها غافلين. وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

ضربة واحدة، فإذا هم هالكون. ومن التعالي والتطاول والاستكبار، إلى الهويّ في الأعماق والأغوار، جزاءً وفاقاً **﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾** [الأعراف: ١٣٦].. فيربط بين التكذيب بالآيات والغفَلة عنها، وبين هذا المصير المقدور..

ويقرر أن الأحداث لا تجري مصادفة، ولا تمضي فلتات عابرة، كما يظن الغافلون.. **﴿فأغرقناه ومَن معه جميعاً. وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض. فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾** [الإسراء: ١٠٣، ١٠٤]..

إيمـــان عقيـــم:

إن الله ـ سبحانه ـ يَرى ويَحسب ويُحاسب ويُجازي، وفق ميزان دقيق لا يُخطئ ولا يَظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء.. فأما الإنسان فتخطىء موازينه وتضلّ تقديراته، ولا يرى إلا الظواهر، ما لم يتصل بالله..

لقد علا فرعون واستكبر وعَمي عن آيات الله البيِّنات، وبَنى الأوتاد الشاهقات وقال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**.. عندئذ حَقّت على الطاغية كلمة الله، وجرت سُنّته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين..

وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات. وهكذا أورث الله الأرض للذين

كانوا يُستضعفون، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم..

ثم يكلهم وأعداءهم إلى جزاء الآخرة، **﴿فإذا جاء وَعْد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾**..

حقاً إنه لمشهد مهيب! مشهد التنفيذ من المنتقم الجبَّار الفَعَّال لما يُريد.. **﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعَدْواً، حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنتُ أن لا إلّه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآنَ وقد عصيتَ وكنتَ من المفسدين﴾** [يونس: ٩٠، ٩١]..

إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي والتكذيب.. والسياق يعرض هذه الخاتمة.. بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه، الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة.. وهو مصداق قوله تعالى في سورة يونس من وعيد للمكذبين:

﴿ولكل أمة رسول، فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون. ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل: لا أملكُ لنفسِي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله. لكل أمة أَجَل، فإذا جاء أَجَلهم فلا يَستأخرون ساعةً ولا يستقدمون. قل: أرَأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً، ماذا يستعجل منه المجرمون؟ أثم إذا ما وقع آمنتُم به؟ آلآنَ وقد كنتم به تَستعجلون؟﴾ [يونس: ٤٧ ـ ٥١]..

فهنا يأتي القصص ليصدق ذلك الوعيد.. **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً، فقلنا: اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، فدمرناهم تدميراً﴾** [الفرقان: ٣٥، ٣٦]..

إنها قصة فرعون في مَثَل مُختصر سريع يرسم مصائر المكذبين.. فهذا موسى ومعه أخوه هارون وزيراً ومعيناً. يُؤمر بمواجهة القوم: **﴿الذين**

كذبوا بآياتنا﴾. . ذلك أن فرعون وملأه كانوا مكذبين بـآيات ـ حتى قبل إرسال موسى وهارون إليهم ـ فآيات الله قائمة دائمة، والرُسل إنما يُذَكِّرون بها الغافلين. . ثم يرسم مصيرهم في عنف وإجمال: ﴿فدمرناهم تدميراً﴾.

والله ـ سبحانه ـ يتحدث عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير؛ إظهاراً لغضبه ولجبروته في هذا المقام. فيقول: ﴿فلما آسفونا﴾ أي أغضبونا أشد الغضب. . ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ [الزخرف: ٥٥]. . يعني فرعون وملأه وجنده. . الذين أغرقهم الله وجعلهم سلفاً يتبعه كل خَالِف ظالم، ﴿ومَثَلاً للآخرين﴾ الذين يجيئون بعدهم، ويعرفون قصتهم، فيعتبرون. .

وينقلنا مشهد الغرق إلى صورة مُذهلة مخيفة يُسجلها ربّ العالمين: ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾. . وعاين الموت، ولم يملك نجاة. . في وَمْضة من البَغي والعَدْوِ والاستكبار. . إلى الغَرَق ﴿قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [يونس: ٩٠]. .

لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي. . كل أَرْدِيَته التي تنفخ فيه فَتُظْهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى. فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. فيزيد في استسلام. . ﴿وأنا من المسلمين﴾. . المسلِّمين!.

﴿آلآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين﴾؟! آلآنَ حيث لا اختيار ولا فرار؟ آلآن وقد سبق العصيان والاستكبار، والتطاول الوقح والطغيان البشع؟!.

آلآنَ؟! فهذا إيمان عقيم في لحظة نَحِسة! وأَوْبَة المضطر، لجت به الكبرياء، وأحاط به الظلم والفساد. توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه مُتسع لارتكاب الآثام والتكذيب بالآيات البيِّنات، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة بالعلو والاستكبار. وهذه التوبة لا يقبلها الله، لأنها لا تُنشيء صلاحاً في القلب ولا

صلاحاً في الحياة، ولا تدلّ على تبدّل في الطبع ولا تَغَيُّر في الاتجاه..

إن التوبة التي يقبلها ربّ العالمين، والتي تفضَّل فكَتَبَ على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى. قد هزّها الندم من الأعماق، ورجَّها رجاً شديداً حتى استفاقت فثابت وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل، واستحدثت رغبة حقيقية في التطهر، ونيّة صادقة في سلوك نهج جديد، وتعديل أساسي في الشخصية والكينونة والوجهة والطريق..

الذين يتوبون من قريب هم الذين يثوبون إلى الله قبل أن يتبيَّن لهم الموت، ويدخلوا في سكراته، ويحسُّوا أنهم على عتباته. فالتوبة المقبولة هي توبة النَدَم، والانخلاع من الخطيئة والاستعلاء والكبرياء، والنية على العمل الصالح والتكفير.. فهي إذن نشأة جديدة في النفس، ويقظة جديدة للضمير. فأولئك يتوب عليهم..

آلآنَ وقد حقَّت كلمة الحق بالعذاب ومضت سُنّة الله بأن يكون عذاب الاستئصال والتدمير حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يُؤمن المكذبون؟!.

إنها سُنَّة الله في المكذبين **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [هود: ٨].. فلما عاينوا بأس الله، سقط عنهم القناع، وأدركوا مدى الغرور، واعترفوا بما كانوا ينكرون، وأقروا بوحدانية الله. ولكن الأوان كان قد فات:

﴿فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا..﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]..

ذلك أن سنة الله قد جرت على أن لا تُقبل التوبة بعد ظهور بأس الله: فهي توبة الفَزَع لا توبة الإيمان:

﴿سُنة الله التي قد خلت في عباده﴾ وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا

تختلف ولا تحيد عن الطريق ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٥] آلآنَ؟!.

﴿فاليوم نُنجِّيك ببدنك﴾ لا تأكله الأسماك ولا يذهب مُنكراً مع التيار لا يُعرف للناس. ذلك ليُدرك من ورائك الجماهير كيف كان مصيرك:

﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ [يونس: ٩٢].. يتعظون بها ويعتبرون، ويرون عاقبة التصدّي لقوة الله ووعيده بالتكذيب: ﴿ولقد جاء آل فرعون النُّذر. كذّبوا بآياتنا كلها، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ [القمر: ٤١، ٤٢]..

الحقيقة في طَرفيها: مجيء النُّذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التي جاءهم بها رسولهم. وأَخْذهم بعد ذلك أَخْذَ عزيز مقتدر. والإشارة إلى العزّة والاقتدار تُلقي ظلَّ الشدّة في الأَخذِ؛ وفيها تَعريض بعزّة فرعون واقتداره على البغي والظلم. فقد ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم. وأَخَذه الله ـ هو وآله ـ أَخْذَ عزيز حقاً مُقتدر صِدْقاً. أَخَذهم أَخْذاً شديداً يُناسب ما كانوا عليه من ظُلم وبَطش وجَبروت، فلقد عَلَوا علواً كبيراً ﴿فَأَخَذهم أَخْذَةً رابية﴾ [الحاقة: ١٠].. والرابية العالية الغامرة الطامرة.. مصير في تعبير يلقي الهول والحسم الرعيب.. ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ [يونس: ٩٢].. أَجَلْ، لقد غَرِق فرعون وأُزهقت روحه، ولكن أمواج البحر بِأَمْر الله قَذَفَت به إلى الشاطىء جسداً هامداً.. وتكون المعجزة ننجيك ببدنك هيكلاً لا حِراك فيها. ليرى مَن بقي من أنصارك وأعوانك مصير المكذبين، ولتكون للقرون من بعدك آية فما أكثر الآيات وما أعظمها!.

لقد نَبَذَ البحر هذا الجسد المحطَّم، وذلك السلطان المهدَّم.. وانْهارَ صَرْح الطاغية المستعلي المتكبر ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ [القصص: ٤٠].. هكذا في جزم وحسم. أَخْذُ شديد ونَبْذُ في اليم.. نبْذ كما تحذف الحصاة أو كما يُرْمَىٰ بالحجر. اليم الذي أُلقي في مثله موسى

الطفل الرضيع، فكان مأمناً وملجأً، وهو ذاته الذي يُنبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافَة ومَهلكة. فالأمن إنما يكون في جناب الله، والمخافة إنما تكون في البُعد عن ذلك الجناب.

ولا نزال نتملى مشهد البحر وقد تلاطمت أمواجه واشتد عبابه.. نقف في سكون ورهبة وقد أطبقت مياه البحر الغاضب على المُلك والسلطان الجائر الخاسر.. وإذا بموجة عالية مُزمجرة مرعبة ترمي جسداً لا حراك فيه.. إنه مشهد انتقام الجبار تعرضه الآيات القرآنية لوحات ناطقة وصور متحركة تستجيش الوجدان وتوقظ الإيمان، حتى لا يقع الإنسان في مصيدة الشيطان..

المشهد المروّع الهائل القاصم الحاسم.. بدأ هوناً؛ ولكن العاصفة كانت تتمشى فيه شيئاً فشيئاً، فإذا كان قبيل إسدال الستار دَمْدَمت العاصفة، فدمرت كل شيء، وعصفت بكل شيء، وخَلاَ وجه الأرض من الطاغية وذيول الطاغية، وعلمنا أن بني إسرائيل قد صبروا فلقوا جزاء صبرهم الحُسنى. وأن فرعون وآله فَجَروا فلقوا جزاء فجورهم الدمار، وصدق وَعْد الله ووعيده، وجرت سُنة الله في أخذ المكذبين بالهلاك بعد أخذهم بالضرّاء والسَّراء.. فحَقَّت كلمة الله وتحقَّق النذير.

ويمضي سياق القصة بعد حكاية مشهد الغرق.. يمضي إلى التعقيب عليه، تعقيباً يشي بهوان فرعون الطاغية المتعالي ومَلَئِه الممالىء له على الظلم والطغيان. هوانه وهوانهم على الله، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه، فيطأطىء له الملأ المفتونون به، وهو أضأل وأزهد من أن يحسّ به الوجود، وهو يُسْلَب النعمة فلا يمنعها من الزوال، ولا يرثي له أحد على سوء المآل:

﴿كم تركوا من جَنَّاتٍ وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذي كانوا فيه يرفلون. . جنات. وعيون. وزروع. ومكان مرموق، ينالون فيه الاحترام والتكريم. ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين.

ثم يُنزع هذا كله منهم أو يُنزعون منه. ويرثه قوم آخرون ـ وفي موضع آخر قال: ﴿**كذلك وأورثناها بني إسرائيل**﴾ ـ وبنو إسرائيل لم يرثوا مُلك فرعون بالذات. ولكنهم ورثوا ملكاً مثله في الأرض الأخرى. فالمقصود إذن هو نوع المُلك والنعمة. الذي زال عن فرعون وملئه، وورثه بنو إسرائيل!.

ثم ماذا؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض: ذهبوا فلم يَأْسَ على ذهابهم أحد، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض؛ ولم يُنظَروا أو يُؤجلوا عندما حل الميعاد: ﴿**فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**﴾ [الدخان: ٢٩]. .

وهو تعبير يلقي ظلال الهوان، كما يلقي ظلال الجفاء. . فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء. ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء. وذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه!.

ولو أحسّ الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله. ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قطعت آصرة الإيمان.

إنه لا يتولى عن إتباع الرسول إلا ظالم. ولا يتولى عن الإيمان بآيات الله إلا فاسق. ولا يتولى عن دين الله إلا شاذ. شاذ منبوذ في هذا الوجود الكبير. ناشز في وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب. . ﴿**وله أَسْلَمَ**

من في السماوات والأرض طَوْعاً وكرهاً وإليه يُرجعون﴾ [آل عمران: ٨٣]. .

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام. صورة كونية تأخذ بالمشاعر، وترتجف لها الضمائر. . صورة الناموس القاهر الحاكم، الذي يردّ الأشياء والأحياء إلى سنن واحدة وشرعة واحدة، ومصير واحد ﴿وإليه يُرجعون﴾ [آل عمران: ٨٣]. .

فلا مناص لهم في نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبّر الجليل. .

ألَا إنه الاضطراب والتخبُّط الذي يُصاب به الطغاة ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ [الحشر: ١٩]. . وهي حالة عجيبة. ولكنها حقيقة. . فالذي يَنسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشدّه إلى أفق أعلى. يتخبّطه الشيطان. . أولئك هم الفاسقون. . المنحرفون.

نسوا الله. . مالك الملك، المهيمن على الكون، القابض على ناصيته، المتصرف فيه. . ﴿وهو على كل شيء قدير﴾. . فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يحول دون إرادته شيء، ولا يحدّ مشيئته شيء، يفعل ما يريد، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره، لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود ﴿فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٦]. .

لقد حاول فرعون الطاغية أن يرفض الاستسلام لآيات الله ومشيئته. . ولكن ناموس الله وقَدَره أخضعه كُرهاً. .

أين فرعون وأمثاله من الطغاة. . في عَجَلة الكون الهائل من السماء والأرض فقد خاطبهم الخالق: ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١]. .

هذا الإنسان... هذا المخلوق. وهو هَباءة في عجلة الوجود العظيم. فهو يطغى حين يحاول أن يتفلَّت وينحرف عن إرادة الله.. فيبتليه الله بالسّراء والضرّاء لعله يهتدي ويعود.. فإذا عمي قلبه وانطفأت رؤيته ولجَّ في طغيانه حقّت عليه كلمة الله. فتُحطِّمُه القدرة الإلهية وتسحقه وتدمره تدميراً.. **﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين﴾** [الدخان: ٢٩]..

مات فرعون غرقاً. مات الطاغية الجبار. مات بعيداً عن عَرْشه بعيداً عن قصره، بعيداً عن سلطانه، لا صديق يُواسيه، ولا عين تَبكيه.. إنما هو منبوذ ممقوت. أمواج البحر ترميه. العيون تراه. والقلوب ترميه بِشذَر وتزدريه.

وكانت جثته آيةً للناظرين وعِبْرَةً للمُتَعَبِّدين.. لقد خلَّف مِصرَ وراءه ولم يجد في أرضها الواسعة ذراعاً لمدفن يُواريه وهو الذي قال لقومه: **﴿يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تُبصرون؟﴾** [الزخرف: ٥١]..

لقد قال الطاغية مقالته هذه وهو آمن في قصره، مُطمئن إلى مكانه وجبروته، طمأنينة الغافل عن قُدرة الله وقَدره..

ألَا إنه الغرور الخادع فيما كان فيه من مظاهر المكانة والسلطان، والنعمة والوجدان.. إنه الباب الذي يفتحه الشيطان فيجيء الشرُّ كله فلا يرى الطاغية فيه موضع للنقصان! فهو ربٌّ وليس إنسان. وهذا هو البلاء الذي يصبّه الشيطان، وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال. فإلى البوار والخسران!.

إنه باب الشر. ونافذة السوء. ومفتاح الضلال إلى الطغيان والفساد.

هذا هو الغرور الذي يُصيب الآلهة المزيفة والأرباب الكاذبة. ويدفعها إلى الضلال الهالك البائر الصائر إلى شرّ مصير...

﴿فلا يغررك تقلّبهم في البلاد﴾ [غافر: ٤].. فمهما تَقلَّبوا،

وتحركوا، ومَلَكوا، واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار..

ها هو ذا الطاغية فرعون الذي لجأ إلى منطق الطغيان الغليظ، ومَوّه على الجماهير بالباطل ليغلب به الحق.. ثم ها هي ذي القدرة الباطشة، تأخذه أَخْذاً أليماً، يستحقّ التعجيب والاستعراض **﴿فكيف كان عقاب؟﴾** [الرعد: ٣٢]..

لقد كان عقاباً مُدمراً قاضياً عنيفاً شديداً.. لا يزال آيةً على صفحات الأيام، تنطق به الأحاديث والأقلام..

لا بد من بَصَر ينظر وبَصيرة تَتَدبَّر.. أَلا إنها لآية تُوقظ القلوب الخامدة الساهية.. إنها تلمس عالم النوايا المضمرة، وتهزّ الخفايا المستِترة.. فلتفعل هذه القصة فعلها في النفوس، وقد رأت عاقبة تلك الشخوص، في ذلك اليوم القمطرير العبوس.. **﴿فاقصص القصَصَ لعلهم يتكفرون﴾** [الأعراف: ١٧٦]..

عِبْرَة ونَظَر:

وهكذا يسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار في جانب؛ وعلى مشهد النجاة والاستخلاف والعمار في الجانب الآخر. وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه أثراً بعد عَين، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عُمد وأركان، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار.. إذا هذا كله حُطام، في وَمضة عَين، أو في بضع كلمات قصار! **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعُفُون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون[1]﴾** [الأعراف: ١٣٧]..

---

(١) أي يبنون، وقد يُراد بها ما كانوا يعرشون من الحدائق وأكثر ما يكون في إقامة كروم العنب على عرائش.

مَثل يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة، المطارَدة من الشرك وأهله؛ ورؤيا في الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته، ما لَقيه الذين كانوا يُستضعفون في الأرض، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة ـ بما صبروا ـ لينظر كيف يعملون! .

ومَضت عاقبة فرعون آية في الزمان، تتحدث عنها القرون . . **﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [الأعراف: ١٠٣] . .

هذه العاقبة لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه . . توقظهم قبل أن يأخذهم الله ما أخذ المفسدين . .

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان . . **﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾** [القصص: ٣٩] . . فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق، وكذبوا بالآيات والنُّذر . .

ونقف قليلاً لنتملَّى هذا الدرس في قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه. من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين، إلى حلقة إغراقهم أجمعين. وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة. وغلبة الحق على الباطل. وإيمان السحرة بربِّ العالمين رب موسى وهارون. وتوعُّد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل. واستِعلان الحق في نفوسهم على هذا التوعُّد وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة. ثم ما تلا ذلك من التنكيل ببني إسرائيل. وأخْذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات، وما أرسله عليهم من الآفات فأخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب. حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه؛ وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . .

لقد واجهوا هذا كله بالعناد والمراوغة والإصرار في النهاية على ما هم فيه. حتى حقَّت عليهم كلمة الله في النهاية وأهلكهم ربُّهم فأغرقوا في اليم جزاء تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه ـ وفق السنة الجارية في أَخْذ المكذبين بالضرّاء والسرّاء قبل أَخْذهم بالدمار والهلاك ـ ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاءً على صَبْرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة.. لتعقبها فتنة الرخاء..

من خلال عرض هذا كله يتبين مدى إصرار الطاغوت على الباطل في وجه الحق. ومدى مقاومته للدعوة إلى «رب العالمين».. ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هي حرب عليه، بإنكار شرعية قيامه من أساسه!.

وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان لا إله إلا الله. أو أن الله هو رب العالمين. إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي، وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها.. وهي في مثل هذه الحالة لا تُؤذيه! لأنها لا تعنيه! فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جَدّاً بمدلولها الحقيقي، فإن الطاغوت الذي يزاول الربوبية ـ بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم لله ـ لا يطيق هذه العصبة. كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين، وإعلان السحرة أنهم آمنوا بربّ العالمين. وكما ظلّ هو والملأ من قومه مُصرِّين على ردّ هذه الدعوة، والآيات تتوالى عليهم، والنكبات كذلك تتوالى عليهم من الجرب والآفات والجوع والبلاء.. ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية لله للعالمين. لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم هم عن مزاولة هذا السلطان المغتصَب، الذي يُعَبِّدون به الناس لغير رب العالمين!.

كذلك يتجلى من خلال العرض خطوات قَدَر الله بالمكذبين.. من أَخْذهم بالبأساء والضراء. ثم أخذهم بالرخاء والسراء. ثم أَخْذَهم أَخْذَ عزيز

مقتدر في نهاية المطاف! والتمكين للمؤمنين الذي كانوا يُستضعفون **﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** [القصص: ٤٠]..

.. لقد ظَلُم فرعون وملئه بآيات الله ورسالته ـ أي كفروا وجحدوا ـ والتعبير القرآني يُكثر من ذكر كلمة «الظلم» وكلمة «الفسق» في موضع كلمة «الكفر» أو كلمة «الشرك».. وهذه في القصة من تلك المواضع التي يكثر ورودها في التعبير القرآني. ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم، كما أنه هو أشنع الفسق..

كذّب فرعون وملأه بآيات الله فحلّ بهم الهلاك جميعاً **﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مُليم﴾** [الذاريات: ٤٠].. أي مستحقاً لِلَّوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب. وواضح في التعبير فِعْل الله المباشر في أَخْذه وقومه، وفي نَبْذهم في اليمّ، وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله في موسى **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾** [النازعات: ٢٦].. فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين.

وفيها عبرة للمعتبرين، ونذير للمكذبين. وفيها يَدُ القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين في مثل لمح البصر.

وكانت النهاية.. تتدخل يد الله تدخلاً مباشراً سافراً فألقت فرعون في اليمّ هو وجنوده فكان من المغرقين.. ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة.. لقد تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عَجِزَ الناس عن الوقوف للبغي والفساد. تَدخُّل يد القدرة بلا ستار من البشر. تضرب ضربتها الحاسمة..

طال بنا النَظَر في خوف شديد للمشهد المروّع الذي أَخَذَ الله به فرعون وجنوده.. ونقف أمام العبرة التي يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه في القلوب..

لقد تَولَّت يَد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطُّغيان فلم يتكلَّف أَصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اِتِّباع الوحي والسَرى ليلاً. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع.. موسى وقومه ضعاف مُجردون من القوة، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها.

فلا سبيل إلى خَوض معركة مادية أصلاً. هنا تولت يَد القدرة إدارة المعركة. ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها. بعد أن استعلن الإيمان في وَجْه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده..

يقول الطغيان: **﴿فَلأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾** [طه: ٧١].. فيقول الإيمان: **﴿فاقضِ ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾** [طه: ٧٢].. عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولَّت يَد القدرة راية الحق لترفعها عالية، وتُنَكِّس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان.

وعبرة أخرى..

إنه حين كان بنو إسرائيل يُؤدُّون ضريبة الذلّ لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يُؤدّون هذه الضريبة إلا ذُلاً واستكانة وخوفاً. فأما حين استعلن الإيمان، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدّوا لاحتمال التعذيب. وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب..

هذه هي العبرة التي تبرزها آيات القرآن الكريم ليستيقنها أصحاب الدعوات، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مُجردون من عدّة الأرض، والطغاة يملكون المال والجند والسلاح.

ومقاطع القصة هي مشاهد حيّة، تموج بالحركة وبالحوار، وتزخر بالانفعالات والسمات، وتتخلَّلها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى «رب العالمين» وبين الطواغيت المُتَسلِّطة على عباد الله، المُدَّعية للربوبية من دون الله، كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن، فلا تخشى سلطان الطواغيت، ولا تحفل التهديد والوعد الشديد. .

لقد دلَّت هذه القصة على أنه حين يتمحض الشرّ ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزاً والصلاح حسيراً، ويخشى من الفتنة بالبأس. عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع حد للشر والفساد.

﴿**فاليوم نُنجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية**﴾ [يونس: ٩٢]. . مضت آية في أحاديث الأيام وحركة الزمان حتى يومنا هذا. . فهل آمَنَ بها الكثيرون؟.

﴿**إن في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ [الشعراء: ٦٧ ـ ٦٨]. . فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتماً. وإن خَضَع لها الناس قسراً. إنما الإيمان هدي في القلوب. . ﴿**وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ [يونس: ٩٢]. .

لا يُوجِّهون إليها قلوبهم وعقولهم، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم. . فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا. . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون. . ﴿**أولئك كالأنعام، بل هم أضل**﴾ [الأعراف: ١٧٩]. .

والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يَد الله. . أولئك كالأنعام. بل هم أضلّ. .

والناس زُوِّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة. فإذا

لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا. إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغايتها؛ ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها؛ ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها.. فإنهم يكونون أضلّ من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية.. ثم هم يكونون من ذَرء جهنم! يجري بهم قَدَر الله إليها. فكانوا حَصَب جهنم بهذه الغفلة المُنتكسة الهابطة..

هؤلاء الذين عن آيات الله غافلون ﴿**أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**﴾ [يونس: ٨]..

وبئس المأوى وبئس المصير!.

صور ومشاهد:

إن المعاني والأغراض الذي يرسمها مشهد الهلاك والتدمير تُخاطب الحسّ والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء..

والمشهد يرسمه القرآن بصور متحركة، تموج وتضطرب.. مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب.. هذا الطاغية في غمرات الموت وسكراته..

إنها صفحة الاحتضار في لوحة شاخصة.. والموت أشدّ ما يحاول المخلوق البشري أن يَروغ منه، أو يُبعد شبحه عن خاطره. ولكن أنَّى له ذلك. والموت طالب لا يَملّ الطَلَب، ولا يُبطىء الخطى، ولا يُخلف الميعاد..

﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق**﴾ [قٓ: ١٩].. ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق.. وهي تُوحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت. تراه بلا حجاب، وتُدرك منه ما كانت تجهل

وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان، حين لا تَنفعُ رؤية، ولا يُجدي إدراك، ولا تُقبل توبة، ولا يُحسب إيمان.

ويبرز مشهد هلاك فرعون. وهو يعاني من ضيقٍ وكربِ غمراتِ الموت.. تبرز صورة قاتمة حزينة يملؤها ظلّ مكروب مرعوب مذهول.. وقد بسطت الملائكة إليه أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون روحه للخروج..

إنه مَشهد مُذهل مخيف يرسمه القرآن بكل تفصيلاته تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المُضمرة وتلتقي فيه الصورة الحسّية بالصورة النفسية بروعة مُؤثّرة في الكيان الإنساني: **﴿حتى إذا أدْرَكَه الغرق قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾** [يونس: ٩٠]..

إنه مشهد مكتمل السمات والحركات.. مشهد الخشوع والخنوع والذلّة.. وتبرز في المشهد صورة الهَول النفسي يُظلّلها كَمَد في اللون والحركة. فالمشهد يُعبر بالصورة المُحسّة المُتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية لفرعون وهو يُعاني ما يُعاني! وقد عَرَف ما عَرف! ورأى ما رَأى! **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾**..

هذه الصورة الحزينة الكئيبة التي يرسمها المشهد يمنحها القرآن الحياة الشاخصة والحركة.. ها هو ذا فرعون في لحظات الحياة الأخيرة ترسمه الكلمات في هَيئة وحركة، واضطراب نفسي أليم عاجز.. صورة الفَزَع والرهبة من المصير المحتوم والاستسلام الذي لا مفرّ منه.. يُجلِّلها ظلّ كئيب ساهم.

إنها الفطرة الإنسانية أمام الهول والكرب.. إنه مشهد واضح حاسم ومُؤثِّر.. الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائص..

والخوف الشديد المُرعب الذي يُزلزل الكيان والوجدان.. في هذا

المشهد المهين تبرز صورة فرعون المكروب في لحظة الضيق العميق.. وحيثما نَظَر فرعون وهو في هذه اللحظات لم يجد في نفسه إلا الله وحده لا شريك له..

يدعوه مُتضرعاً، ويناجيه مُستغيثاً، ويرجوه متوسلاً.. لقد سَقَط كل شيء.. هذه حقيقة الألوهية، يلتجىء الإنسان إلى إلهه الحق في ساعة الشدة..

ها هو ذا فرعون لما رأى الجَدّ بحدّته زالت سَكْرته وصَحَتْ فطرته.. والفطرة تتعرى حينئذ من الركام فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها.. حقيقة الألوهية الواحدة.. وَتَتّجه إلى الله الحق بلا شريك، لأنها تُدرك وقتئذ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك!.

وتبقى الملامح النفسية الأخرى يصورها المشهد القرآني.. ها هو ذا فرعون في هذا الموقف العصيب وقد سقط عنه غطاء الغفلة. يرى الحق لا يحجبه حجاب. الموقف الذي لم يَحسب حسابه، والنهاية التي لم يكن يَتَوقَّعها..

فهو يُواجه الحق بذاته مجردة، ومفردة كذلك. ولقد ندَّ عنه كل شيء، وتفرّق عنه كل أحد.. جنوده غَرقى! وما عاد يقدر على شيء مما مَلّكه الله.. ترك كل شيء من مال وزينة، ونساء وأولاد ومتاع، وجاه وسلطان.. لا يقدر على شيء قليل أو كثير! يرسمه المشهد في وَهْلة وذُهول وقد أيقن بالخسارة والوبال..

ها هي ذي ملائكة العذاب تطلب روحه للخروج.. هذه لحظة لم يَحسب حسابها، ولم يُقَدّم لها زادها، وأحسَّ بالخسران الخالص، فاهتزَّ هزَّة الخوف والوَجَل والرعب، وأدرك وأحسَّ الحقيقة فنادى مرتعشاً، وقال: **﴿آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾**..

ها هو ذا فرعون يستغيث فلا يُغاث، وقد تخلى عنه الاستكبار وأدركته الذلّة. تخلى عن الشقاق والتكذيب ولجأ إلى الاستعطاف ولكن بعد فوات الأوان ﴿**ولاتَ حين مناص**﴾ [صَ: ٣].

إيمانٌ لا مَعنى له، ولا مَدلول وراءه، ولا تَنبغي العناية به أو بقائله.. إنها كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمة تُقال في لحظة الضيق والعُسر الخانق، ليس لها في القلب من رصيد..

إن غَبرة الحزن والحَسرة تُجَلِّل صورة فرعون وهو في غمرات الموت وسكراته في مشهد الاحتضار والغرق.. ويعلن الإيمان عند مواجهة الملائكة: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم: أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون**﴾ [الأنعام: ٩٣]..

وجزاء الاستكبار العذاب المهين، وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح.. وكله مما يُضفي على المشهد ظلالاً مكروبة، تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق!.

ها هو ذا فرعون بين يدي الموت وقد تجرّع المَرارة والشقوة فتكدّر لونُه، ورَجَف قلبه، وتَزلزل كيانه.. إذا هو أمام الحقيقة!.

قد خَسِر كل شيء. وخَسِرَ نَفْسه التي بين جَنْبيه، فكأنما لم يكن له وجود.. إنها صورة تُلقي ظلال الرهبة والندم في الموقف الرعيب الشديد..

ها هو ذا فرعون بين يدي الملائكة تُنزع روحه.. ﴿**ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظَلَّام للعبيد. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله، فأخذهم الله بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب**﴾ [الأنفال: ٥٠ ـ ٥٢]..

خطاب من الله موجهاً لكل من يَرى. . والتعبير يرسم صورة مُنكرة للذين كفروا، والملائكة تستلّ أرواحهم في مشهد مَهين، يضيف المهانة والخزي، إلى العذاب والموت.

إنه مشهد الاحتضار، يرسمه النص القرآني كأنه حاضر، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة!.

ويرتسم في المشهد صورة الطاغية في مواجهة الحقيقة القاسية المريرة، التي لا دافع لها ولا رادّ، ويرتسم معها الجَزَع والحيرة. . وتَلَوِّي المكروب من السكرات المُذهلة والنزع الشديد. . وبَطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يُساق إليه كل حي في نهاية المطاف ﴿**إلى ربك يومئذ المساق**﴾. .

ها هو ذا فرعون يجد الله أمامه! يغشاه سواد الذلّ والانقباض. . المفاجأة المُرعبة التي تُقطّع الأوصال، وتورث الخَبَال. . الله الذي كَفَر به وجَحَده، وخاصَمَه وعاداه. . أين المفر؟!.

لا ملجأ ولا وقاية، ولا مفرّ من قَهر الله وأَخْذه، والرجعة إليه، والمُستقر عنده، ولا مستقرّ غيره. والبُعد عن الله في الدنيا ينتهي للرجعة إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه. والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة. فلا مَهرب ولا فكاك!.

﴿**قل: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم. ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ [الجمعة: ٨]. .

فلا جدوى في الفرار من الموت، فهو حَتْم لا مهرب منه، وما بعده من رجعة إلى الله، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه. .

ويُخيّم الجلال والعَظَمة على الموقف. . ويتحرك البحر بأمر الله في

صَخَب شديد، وتَنْبذ الأمواج جثة الكبرياء الكاذب.. وتطرح بَدَن الاستعلاء الكافر.. **﴿فاليوم نُنَجيك بِبَدَنك لتكون لمن خلفك آية﴾** [يونس: ٩٢]..

نقف أمام هذا المشهد وقد خيَّم عليه صمت جليل، ويغمر الموقف رهبة وخشوع.. هذه جثة ذلك الإله الكاذب الموهوم **﴿وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾** [القصص: ٣٨]..

لقد خَرِس وسكت ذلك الهيكل المُتعالي.. وأُلقي حطاماً على الساحل بارزاً تراه العيون.. هذه نهاية التَقَلُّب في الأرض، والاستعلاء بغير الحق، والتَجَبُّر والتَكَبُّر والثراء والمتاع والسلطان..

إنه لمشهد يهزّ القلب البشري هزّاً عنيفاً.. ويلقي ظلاله على النفس، ويسكب إيحاءاته في القلب، ظلاله الرعيبة المكروبة، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة!.

ألا إنها لَعِبْرة بالغة سَطَّرتها القُدرة القادِرَة على صفحة الزمان الغابرة، وجَبهة الأيام السالفة.. عبرة وسلفاً لكل خلف ظالم **﴿ومثلاً للآخرين﴾** [الزخرف: ٥٦].. الذين يجيئون بعدهم ويعرفون قصتهم، فَيَعْتبرون!..

ويسدل الستار على المشهد النهائي في المأساة. مأساة البغي والفساد والتحدي والعصيان..

تلك صفحة العذاب في الحياة الدنيا، ووراءها في جزاء الله صفحات أخرى أشد وأبقى **﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة أَدْخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٥، ٤٦:]..

لقد طويت حياة فرعون وقومه وعرضت أول صفحة بعدها وقد حاق بآل فرعون سوء العذاب.. والنص يُلهم أن عرضَهم على النار غُدُّواً وعشياً، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة. وقد يكون هذا هو عذاب

القبر. إذ أنه يقول بعد هذا: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعـون أشد العذاب﴾.. فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة. وهذا عذاب سيء. عَرْض على النار في الصباح وفي المساء. إما للتعذيب برؤيتها وتَوَقُّع لذعها وحرّها ـ وهو عذاب شديد ـ وإما لمزاولتها فعلاً. فكثيراً ما يُستعمـل لفظ العرض للمسّ والمزاولة. وهذه أدهى وأقسى..

وفي حديث طويل روته السيدة عائشـة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ قال: «.. وإذا كان الرجل السوء أُجلس في قبره فزعاً مشعوفاً[١]، فيقال له: فما كنتَ تقول؟ فيقول: سمعتُ الناسَ يقولون قـولاً فقلتُ كما قالوا، فيُفرج له فُرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صَرَف الله عنك، ثُم يُفرج له فُرجة قِبَل النـار، فينظر إليهـا يحطم بعضها بعضاً، ويُقال: هذا مَقعدك منها، على الشـكّ كنتَ، وعليه متّ، وعليه تُبعث إن شاء الله، ثم يُعذّب»[٢].

وفي حديث آخر سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ـ ﷺ ـ عن عذاب القبر فقال: «نعم، عذاب القبر حق»، قالت: فما رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ بَعْدُ صلّى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر[٣].

وعن هانىء مولى عثمان بن عفان، قال: كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبـر فتبكي؟ فقال: إني سمعتُ رسـول الله ـ ﷺ ـ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بَعْده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد»، قال: وسمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما رأيت منظراً قطّ إلا والقبر أفظع منه»[٤].

---

(١) الشعف: هو الفزع حتى يذهب بالقلب.
(٢) الحديث رواه أحمد بإسناد صحيح.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه الترمذي وإسناده حسن.

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه[1] ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يُلحد، فجلس رسول الله ـ ﷺ ـ، وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكث به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ»، ثم قال: «. . . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المُسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيءُ مَلك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سَخَط من الله وغضب، فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن جيفة وُجِدَت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الخبيثة، فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا ـ حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فَيُستفتح له فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: **﴿لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يَلج الجمل في سَمّ الخياط﴾** [الأعراف: ٤٠]. . فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتابه في سجِّين في الأرض السفلى، ثم تُطرح روحه طرحاً ثم قرأ: **﴿ومن يُشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾** [الحج: ٣١]. . فتعادُ روحه في جسده، ويأتيه مَلَكان فيقولان له: مَن رَبّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، قال: فيقولان له، ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، قال: فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم، فيقول: هاه هاه لا أدري، . فينادي مناد من السماء: أن كَذَب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها، ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف

(١) رواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح. قال الحافظ: هذا الحديث حديث حسن، رواته محتج بهم في الصحيح.

فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، مُنتن الريح، فيقول: أبشر بالـذي يسؤوك، هذا يومك الذي كنتَ تُوعد، فيقول: من أنت؟ فوجهـك القبيح يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تقم الساعة».

وفي رواية له بمعناه، وزاد: «فيأتيه آتٍ قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم، فيقول: بشَّرك الله بالشرّ، مَن أنت، فيقول: أنا عملك الخبيث، كنتَ بطيئاً عن طـاعة الله، سريعاً في معصيته، فجزاك الله شراً، ثم يُقَيض له أعمى أصم أبكم في يده مزربة لو ضُربَ بها جبل كان تراباً، فَيُضْرب ضربةً فيصير تراباً ثم يعيده الله كما كان، فيضرب ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين، قال البراء: ثم يُفتح له باب من النار، ويُمَهد له من فرش النار».

﴿النار يُعرضـون عليها غـدواً وعشياً﴾.. فـرعون وقـومه في النـار والعذاب.. ما هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة. إنما هم في عذاب مريع في ذلك البرزخ بَيْن بَيْن ﴿ومن وراءهم برزخ إلى يوم يُبعثون﴾ [المؤمنون: ١٠٠]..

ويُسدَل الستار على المشهد الفاجع.. عَرض على النار في الصباح والمساء.. يُسدل الستار على العذاب الطويل، وفي العَين دَمعة ساخنة، وفي القلب لوعة محرقة، وفي النفس أنين حزين..

ويجتاز سياق القصة الحياة الدنيا، ويقف بفرعون وجنوده في مشهد عجيب.. يَدعون إلى النار، ويقودون إليها الأتباع والأنصار ﴿وجعلناهم أئمة يَدْعون إلى النار﴾ [القصص: ٤١].. فَيا بئساها دعوة! ويا بئساها إمـامة! ﴿ويوم القيامة لا يُنصرون﴾..

فهي الهـزيمة في الـدنيا، وهي الهـزيمة في الآخـرة، جـزاء البغي والاستطالة. وليست الهزيمة وحـدها، إنمـا هي اللعنة في هـذه الأرض،

والتقبيح في يوم القيامة: ﴿**وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين**﴾ [القصص: ٤٢]..

ولفظة «المقبوحين» ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع، وجو التقزّز والاشمئزاز. ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه، والتطاول على الله وعلى عباد الله.

لقد قاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة والغرق في البحر. قادهم إلى الخسران والهلاك في الدنيا، وأوردهم النار والعذاب المقيم في الآخرة ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه**﴾ [هود: ٩٧].. ﴿**وأضلّ فرعون قومه وما هدى**﴾ [طه: ٧٩]..

ها هم أولاء يتبعون أمر فرعون، ويعصون أمر الله. على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط: ﴿**فاتبعوا أمر فرعون. وما أمر فرعون برشيد**﴾ [هود: ٩٧]..

ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر، يَمشون خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تَدَبُّر ولا تفكر، ودون أن يكون لهم رأي، مستهينين بأنفسهم، مُتَخلّين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق.. لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً: ﴿**يقدم قومه يوم القيامة**﴾ [هود: ٩٨]..

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل، إذا المشهد ينقلب، وإذا المستقبل ماض قد وقع، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى:

﴿**فأوردهم النار**﴾!! أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم. أَلَم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير؟ أَلَم يتنازلوا عن أخصّ خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار؟ فأوردهم النار. ويا بئساه من وِرْد لا يروي غلة،

ولا يشفي صدى، إنما يشوي البطون والقلوب:

﴿**وبئس الورد المورود**﴾ [هود: ٩٨]..

وإذا ذلك كله. قيادة فرعون لهم، وإيرادهم موردهم.. إذا ذلك كله حكاية تروى، ويُعلَّق عليها: ﴿**وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة**﴾ [هود: ٩٩]..

ويُسخر منها ويُتهكم عليها: ﴿**بئس الرفد المرفود**﴾ [هود: ٩٩].. وهكذا تتسق الصورة: يَؤُمهم في الدنيا إلى الضلال، ويؤمهم في الآخرة إلى النار. فهذه النار هي الرفد والعطاء والمنّة التي رَفَد بها فرعون قومه!! ألَم يَعِد السحرة عطاءً جزيلاً ورفداً مرفوداً.. فها هو ذا رفده لمن اتبعه.. النار.. وبئس الورد المورود. وبئس الرفد المرفود!.

وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا القرآن العجيب..

موْقف مكروب:

ويلتقط السياق القرآني موقفاً في النار! وهم يتحاجّون فيها: ﴿**فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كُنا لكم تبعاً. فهل أنتم مُغنون عنا نصيباً من النار**﴾ [غافر: ٤٧]..

إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا. لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمّعات! ولم يُخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تُساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار!.

لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسانية. وكرامة التبعة الفردية. وكرامة الاختيار والحرية. ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً. تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية. لم يقولوا لهم: لا. بل لم يُفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال.. ﴿**إنا كنا لكم تبعاً**﴾.. وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم

الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله. فهم في النار. ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة. سوق الشياة! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم: ﴿فهل أنتم مُغنون عنا نصيباً من النار﴾؟.. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنهم يحمونهم من الفساد، وأنهم يمنعونهم من الشرّ والضرّ وكيد الأعداء!.

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استُضعفوا، ويُجيبونهم في ضيق وبرم وملالة. وفي إقرار بعد الاستكبار:

﴿قال الذين استكبروا: إنا كُلٌّ فيها إن الله قد حَكَمَ بين العباد﴾ [غافر: ٤٨]..

﴿إنّا كُلٌّ فيها﴾.. إنا كلٌّ ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً. إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء. فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟.

﴿إن الله قد حَكَمَ بين العباد﴾.. فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قُضي الأمر، وما من أحد من العباد يُخَفّف شيئاً من حكم الله.

وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ إلى الله إلا إليه، اتَّجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلّة تعمّ الجميع، وفي ضراعة تسوّي هؤلاء بهؤلاء:

﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم: ادعوا ربكم يُخفف عنا يوماً من العذاب﴾ [غافر: ٤٩]..

إنهم يستشفعون حُراس جهنم، لِيَدْعوا ربهم. في رجاء يكشف عن شدة البلاء.. يوماً. يوماً فقط. يوماً يلتقطون فيه أنفاسهم ويستريحون. فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خَزَنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة

الملهوفة. فهم يعرفون الأصول. ويعرفون سُنة الله، ويعرفون أن الأوان قد فات. وهم لهذا يزيدون المعذّبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب:

﴿قالوا: أولم تك تأتيكم رُسلكم بالبينات؟.. قالوا: بلى﴾ [غافر: ٥٠]..

وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار. وعندئذ نَفَض الخزنة أيديهم منهم، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار: **﴿قالوا: فادعوا﴾**.. إن كان الدعاء يُغيّر من حالكم شيئاً، فتولوا أنتم الدعاء.

وتعقب الآية على هذا الدعاء: **﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾** [غافر: ٥٠]..

لا يبلغ. ولا يصل. ولا ينتهي إلى جواب. إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء.

إنها حلقات عذاب رهيبة لاهثة مكروبة. تنتظر فرعون وقومه **﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٦]..

ويل لهم من ذلك اليوم العظيم، وقد أعدَّ الله لهم أشد العذاب **﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾** [غافر: ٧١]..

إنها الإهانة والتحقير في العذاب. لا مُجرّد العذاب.. بهذه المهانة كما تُسحب الأنعام والوحوش! وعلام التكريم؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم؟!.

وبعد السحب والجرّ في هذا العذاب وفي هذه المهانة، ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار وإلى نار: **﴿في الحميم ثم في النار يُسجرون﴾** [غافر: ٧٢]..

أي يُربطون ويُحبسون، على طريقة سجر الكلاب. أي يملأ لهم

المكان ماءً حاراً وناراً موقدة. وإلى هذا ينتهون.

وبينما هم في هذا العذاب المهين يُوجَّه إليهم التبكيت والترذيل والإحراج والإعنات: **﴿ثم قيل لهم: أين ما كنتم تُشركون من دون الله؟﴾** [غافر: ٧٣، ٧٤]..

فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته. وهو يائس حسير: **﴿قالوا: ضلُّوا عنا. بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾** [غافر: ٧٤]..

غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقاً، وما عادوا يعرفون لنا طريقاً. بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً. فقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل! وعلى إثر الجواب البائس اليائس يجيء التعقيب العام: **﴿كذلك يضلُّ الله الكافرين﴾** [غافر: ٧٤]..

ثم يوجه إليهم التأنيب في هذا الموقف العصيب وهم يُعانون العذاب المذهل والفزع والهلع: **﴿ذلك بما كنتُم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون. ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾** [غافر: ٧٥، ٧٦]..

يا مغيث! وأين إذن كان السحب في السلاسل والأغلال، وكان الماء الحار والنار؟ يبدو أنها كانت مُقدمة للدخول في جهنم للخلود.. **﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾**.. فَعَن الكِبر والعلو نشأت هذه المهانة.. وجزاء على الكبر والعلو كان هذا التحقير!.

إنه مشهد الذلّ والمهانة والعذاب الرعيب.. إنه مشهد مؤثر. مشهد مُذلّ مرعب مخيف **﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفسدون﴾** [النحل: ٨٨]..

إنه العذاب الدائم. عذاب الخلود **﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون، لا يُفتَرُّ عنهم وهم فيه مُبلسون﴾** [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

عذاب مستمر وفي زيادة. . وفي ألم شديد عصيب، لا يُفترَّ لحظة، ولا يبرد هنيهة. ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص، ولا كُوَّة من رجاء بعيد. فهم يائسون قانطون. ثم تناوح في الجو صيحة من بعيد. صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق ﴿**ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك**﴾ [الزخرف: ٧٧]. . إنها صيحة متناوحة من بُعد سحيق. من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم. إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغيث.

فهم مُبلسون يائسون. إنما يصيحون في طلب الهلاك. الهلاك السريع الذي يُريح. وحسب المنايا أن يَكُنَّ أمانيا، وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب، وأجساماً تجاوز الألم بها حدّ الطاقة، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ﴿**يا مالك ليقضي علينا ربك**﴾. . .

والجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام. ﴿**قال: إنكم ماكثون**﴾ [الزخرف: ٧٧]. . فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء، إنكم ماكثون، ﴿**إنه من يأت ربه مجرماً فإن لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيا**﴾ [طه: ٣٤]. . فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حيّ فيتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة. فهم متروكون في جهنم لا يخرجون ولا يُطلب إليهم اعتذار ولا عتاب ﴿**فاليوم لا يخرجون منها ولا يستعتبون**﴾ [الجاثية: ٣٥]. . ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور**﴾ [فاطر: ٣٦]. .

إنه عذاب الجبار القهار القوي المتين ﴿**فيومئذ لا يُعذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد**﴾. .

إنه الله العزيز القادر. الذي يُعذِّب يومئذ عذابه الفذّ الذي لا يملك

مثله أحد. والذي يوثق وثاقهُ الفذ الذي لا يوثق مثله أحد. إنه عذاب متفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم. أو من عذاب الخَلْق جميعاً ووثاقهم. وذلك مقابل ما أسلفوا من طغيان وفساد كبير.. إنه جزاء تلك الكبرياء المنكرة للسلطان الضائع حين قال فرعون للسحرة الذين آمنوا وخروا سُجَّداً لرب العالمين ﴿**ولتعلمن أيُّنا أشد عذاباً وأبقى**﴾ [طه: ٧١]..

. لقد عذَّبوا الناس في الأرض وربطوهم بالقيود والأغلال.. فها هو ذا ربّ العالمين يُعذِّب ويوثق من كانوا يُعذِّبون الناس ويوثقونهم. ولكن شتان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق.. وهان ما يملكه الخَلْق من هذا الأمر، وجَلَّ ما يفعله صاحب الخلق والأمر. فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون. فسيعذَّبون ويوثقون، عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون!.

هذا العذاب يعرضه القرآن في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة.. ﴿**ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦].. أشد العذاب!!.

يا لله. يا مغيث. ها هم أولاء الذين كفروا ﴿**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بَدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. إن الله كان عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: ٥٦]..

إنه مشهد لا يكاد ينتهي. مشهد شاخص متكرر. يشخص له الخيال، ولا ينصرف عنه! إنه الهول. وللهول جاذبية آسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد.. ﴿**كلما**﴾.. ويرسمه كذلك عنيفاً مفزعاً بشطر جملة.. ﴿**كلما نضجت جلودهم**﴾.. ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف بتكملة الجملة.. ﴿**بدلناهم جلوداً غيرها**﴾.. ويجمل الهول الرعيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد!.

ذلك جزاء الكفر ـ وقد تهيأت أسباب الإيمان بالآيات البينات ـ وهو

مقصود. وهو جزاء وفاق ﴿ليذوقوا العذاب﴾ ذلك، أن الله قادر على الجزاء حكيم في توقيعه ﴿إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾..

وبعد الجولة المروعة لمشاهد العذاب المخيفة التي تنتظر الطغاة. فرعون وملأه. ومن ساروا على نَهجهم من الكافرين ﴿جزاء وفاقاً﴾ [النبأ: ٢٦].. يوافق ما أسلفوا وما قدّموا، فمن العدل والرحمة أن يجد الشرّ جزاءه وألا يتساوى مع الخير في مصيره ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟﴾ [القلم: ٣٥]..

إن الله ـ سبحانه ـ في غِنى عن عذاب العباد. فَمَا به ـ سبحانه ـ من نَقمة ذاتية عليهم يصبّ عليهم من أجلها العذاب. وما به ـ سبحانه ـ من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق. وما به ـ سبحانه ـ من رغبة ذاتية في عذاب الناس، كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات.. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله. وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس: ﴿ما يفعل الله بعذابكم ـ إن شكرتم وآمنتم؟ ـ وكان الله شاكراً عليماً﴾ [النساء: ١٤٧]..

إنها اللمسة العجيبة، الموحية المؤثرة العميقة، اللفتة الرائعة إلى استغناء الله ـ سبحانه ـ عن تعذيب العباد. فهو لا يطلب منهم إلا أن يُؤمنوا ويَشكروا. وهو ـ سبحانه ـ غني عن إيمانهم وشكرهم. ولكن ذلك إنما هو لصلاح حالهم، وارتقاء مستواهم، حتى يتأهَّلُوا لحياة الآخرة، ومستوى النعيم في الجنة. فإذا هم ارتكسوا وانتكسوا فإنما يُؤَهِلُون أنفسهم لمستوى العذاب في الجحيم ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس. لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام، بل هم أضل.. أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].. ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ [المائدة: ٨٦]..

هؤلاء خَلق جهنم! وهم مُهيَّأون لها. الذين يغفلون عن آيات الله وما يجري من الأحداث ويمر بهم والغير فلا يرون فيها يد الله.. هؤلاء حَصب جهنم بما كفروا وفسقوا وكانوا من الظالمين. فهم وقود النار ﴿**وقودها الناس والحجارة**[1]﴾ [التحريم: ٦]..

نعم! ما يفعل الله بعذاب الخلق إن شكروا وآمنوا؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران؛ وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان.. إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل؛ ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان.. تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.. فمن اتقى بالشكر والإيمان؛ فله الغفران والرضوان.

﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم. ولا يرضى لعباده الكُفر. وإن تشكروا يرضه لكم. ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون. إنه عليم بذات الصدور**﴾ [الزمر: ٧]..

والله ـ سبحانه ـ غني عن العباد الضعاف المهازيل. إنما هي رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته. وهُم مَنْ هُم من الضعف والهزال!.

﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم**﴾.. فإيمانكم لا يزيد في ملكه شيئاً.

---

(١) هؤلاء الناس وقود النار. نار فظيعة متسعرة.. الناس فيها كالحجارة سواء. في مهانة الحجارة. وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة، دون اعتبار ولا عناية. وما أفظعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة!.

قال عبد الله بن أبي الهذيل من سادات التابعين في وعظه القصصي: «أن موسى ـ عليه السلام ـ سألَ ربّه: يا ربّ خلقتَ خلقاً وهم عبادك ثم تحرقهم بالنار!.

فقال الله: يا موسى، اذهب فازرع زرعاً، قال: قد فعلت، قال: فاحصده، قال: قد فعلت، قال: فاجعله في كدوسة، قال: قد فعلت، قال: فلا تدع منه شيء إلا رفعته، قال: قد فعلت، قال: فلعلَّك قد تركتَ منه شيئاً، قال: لا! إلا ما لا خير فيه، قال: فمثل أولئك أدخل من عبادي النار».

وكفركم لا ينقص منه فتيلاً[1]. . ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾. .

---

(١) عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجَعلتُه بينكُم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كُلُّكم ضالٌ إلى من هَدَيتُه فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمتُه، فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوتُه، فاستكسوني أكسُكم، يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنْسَكُم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رَجُلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما نَقَص ذلك من مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته، ما نَقَص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً، فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسه» رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة وعبد الرزاق والخطيب في تاريخه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال الإمام أحمد عن هذا الحديث: هو أشرف حديث لأهل الشام. ورواه الإمام النووي في آخر كتاب الأذكار بإسناده. وقال: ورجال إسناده مني إلى أبي ذر ـ رضي الله عنهم ـ كلهم دمشقيون، ودخل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ دمشق، فاجتمع في هذا الحديث جُمل من الفوائد منها ما اشتمل عليه من البيان لقواعد عظيمة في أصول الدين وفروعه والآداب، ولطائف القلوب وغيرها ولله الحمد.

قال الإمام الحافظ ابن رجب: «إن العباد لا يقدرون أن يُوصِلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً، فإن الله تعالى في نفسه غنيٌّ حميد، لا حاجةَ له بطاعات العباد، ولا يعود نفعُها إليه، وإنما هم ينتفعون بها، ولا يتضرَّر بمعاصيهم، وإنما هم يتضرَّرون بها، قال الله تعالى: ﴿ولا يَحزنك الذين يُسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ [النساء: ١٣١]، وقال حاكياً عن موسى: ﴿وقال موسى: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم: ٨]. .

إن مُلك الله لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلُّهم بَررة أتقياء، قلوبهم على قلب =

﴿وإن تشكروه يرضه لكم﴾.. ويُعجبه منكم، ويحبه لكم، ويجزيكم عليه خيراً. وكل فرد مأخوذ بعمله، محاسب على كسبه؛ ولا يحمل أحد عبء أحد. فلكل حمله وعبؤه.. والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه؛ ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره. ولا يخفى عليه من أمركم شيء..

هذه هي العاقبة. وهذا هو مفرق الطريق.. ولِكُلّ أن يَختار. عن بيّنة. وعن تَدَبُّر. وبعد العلم والتفكير..

امـــرأة فرعـــون:

لقد طويت صفحة من ليالي الظلم والطغيان، وتناثرت غيوم الكفر والشرك والعصيان. وأشرقت شمس الحق وضّاءة تحمل العظة والبيان.. ودارت دورة الأيامِ وتقلبات الزمان.. ومضت قصة فرعون وقد خلّفت العِبَر والعَبرات.. في كل مشهد مَعْلم بارز وآيات بَيِّنات. يقف أمامها الناس في فِكر ونَظَر وتأمُّلات..

في القصة نرى موسى الرسول الكريم يقف أمام فرعون يدعوه إلى الحق وإلى صراط مستقيم فيستكبر الطاغية، ويُحاول صَرْف الناس عن دراسة الفكرة بحيلة من التَرف والغنى ويُنادي هامان وزير السوء: **﴿يا هامان ابنِ لي صَرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأَطَّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾** [غافر: ٣٦]..

= أتقى رجل منهم، ولا يَنقُصُ مُلكه بمعصية العاصين، ولو كان الجنُّ والإنس كلهم عصاة فَجَرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم، فإنه ـ سبحانه ـ الغني بذاته عمَّن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فَمُلكُه مُلك كامل لا نَقص فيه بوجه من الوجوه على أيّ وجه كان. لا يزداد ولا يكمل بالطاعات، ولا يَنقُص بالمعاصي ولا يؤثر فيه شيء..»..

وهكذا وَجَد موسى نفسه أمام حركة بارعة من فرعون وهامان. . وشاهَدَ الناس حجارة تُجْمَع وصرحاً عالياً يُقام.

ومن المنتظر جداً أن يكون حديثهم حول الصَّرح وصعود فرعون والنتائج المتوقعة وما يستطيع موسى أن يردّ به ويُدافع عن دعوة الله.

وشَغل فرعون قومه بقصة الصّرح وراح يفتك بالأبرياء ويصلب الكهنة المؤمنين على جذوع النخل. . وتتابعت النكبات على الأمة العزلاء حين اشتغل حكامها بمحاربة الدعوة إلى رب العالمين فظهرت الأوبئة التي أرسلها الله من الجراد والقُمَّل والضفادع والدم ونقص الثمرات. . كل هذا والصّرح يَرتفع وتُنفق فيه الأموال بدلاً من إنفاقها في صالح الناس. ونادى بنو إسرائيل نبيَّهم موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿**أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾ فكان ردُّ النبي: ﴿**عسىٰ ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾ [الأعراف: ١٢٩]. .

وفي هذه الموجة العاتية من الظلم والإرهاب كانت تعيش امرأة أقرب ما تكون إلى فرعون لأنها زوجته. أبعد ما تكون عنه لأنها مؤمنة!.

ولقد قامت هذه المرأة المؤمنة المخلصة بدور خطير في القصة. . فهي التي استقبلت موسى حين كان وليداً. .

استقبلته بروحها الزكية، استقبلته بالحبّ الحاني في قلب طاهر رقيق شفيف. وقالت لفرعون الطاغية ـ الذي سلَّط الذَّبح والقتل على ذكور بني إسرائيل ـ: ﴿**قُـرّة عَين لي ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. .**﴾ [القصص: ٩]. .

لقد ضَمَّته إلى صدرها وليداً، وربّته في حُجرها اِبناً، ثم آمنت به نبياً ورسولاً، وأسلمت لله ربّ العالمين. .

ها هي ذي ترى الإيمان يُمتَحن أمامها فلا تملك دفع الضرّ وتمدّ

عينيها فلا ترى إلا الفساد الشامل، فيضيق من حولها الفضاء العريض. ويضيق القصر الفسيح فلا ترى فيه إلا قيداً يَحول بينها وبين الحياة الطاهرة: هل إلى المستضعفين؟! وهم أضعف من أن يَحموا أنفسهم فتجرّ عليهم غضباً جديداً يصبّه فرعون.

والمأثور عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة عابدة في قصره ـ ولعلها كانت آسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى ـ وقد أحسَّت المرأة غربتها في هذه الأرض والمؤمنون في كل عصر غرباء.. وقلّبت وجهها وروحها إلى ربّ السماء.

ها هي ذي امرأة فرعون، لم يصدّها طوفان الكفر الذي تعيش فيه.. في قصر فرعون.. عن طلب النجاة وحدها.. ورفعت عينيها إلى السماوات العُلى حيث الخلود. وإلى الجوار الذي لا يغلب. وتَطَلَّعت إلى الأفق الأعلى وتمنَّت على ربّها أن تهجر بيت الظلم على ما فيه من فخامة وعظمة زائلة. وفَضَّلَت جوار النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين فناجت ربها من قلب مخلص: **﴿ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾** [التحريم: ١١]..

يقول الإمام ابن القيِّم في تعليقه على هذه الآية: «إنها طلبت الجار قبل الدار» حين قالت ربِّ ابن لي عندك بيتاً ولم تقل ربّ ابن لي بيتاً عندك..

لقد تَبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة. وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: **﴿ونجني من فرعون وأهله﴾**.. وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: **﴿ونجني من القوم الظالمين﴾**..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مَثَل للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره. فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ. في قصر

فرعون أمتع مكان تجد فيه امـرأة ما تشتهي. . ولكنهـا استعلت على هذا بالإيمان. ولم تُعرض عن هذا العَرَض فحسب، بل اعتبرته شرّاً ودَنَساً وبَلاءً تستعيذ بالله منه، وتتفلّت من عقابيله، وتطلب النجاة منه!.

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية. . وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته.

وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حسّ المرأة أضعـاف ضغطه على حسّ الرجل!. ولكن هذه المرأة. . وحدها. . في وسط ضغط المجتمـع، وضغط القصـر، وضغط الملك، وضغط الحـاشيـة، والمقـام الملوكي. في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السمـاء. . وحدهـا. . في خضم هذا الكفر الطاغي!.

وهي نمـوذج عال في التجـرد لله من كل هـذه المؤثرات وكـل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد. الذي تتردد كلماته في جنبـات الكون وهي تَـتَنَزَّل من الملأ الأعلى:

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون، إذ قالت: ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة، ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين. ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيـه من روحنا، وصـدّقت بكلمات ربه وكتبه. وكانت من القانتين﴾ [التحريم: ١١، ١٢]. .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذِّكر. وهما الاثنتان نموذجان للمـرأة المُتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله للمؤمنات في كل جيل إلى قيام الساعة. .

وتسير قصة فرعون فنرى أمر الـطاغية ينتهي إلى الغَـرَق ولا يعصمه

جنده ولا قوته ويقول له الله: **﴿فاليوم نُنجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾** [يونس: ٩٢].. ثم إلى المصير المشؤوم المهين.. **﴿النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٦]..

بينما يقول عن زوجته الطاهرة: **﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾** [التحريم: ١١]..

ونعود فنسأل أين الصَّرح الذي اشترك فيه فرعون وهامان ومَن تبعهما من عصبة السوء؟.

بل أين المجد الكاذب الذي قام على محاربة الحق؟ لنستمع إلى القرآن وهو يقول: **﴿ودَمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾** [الأعراف: ١٣٧]..

ووسط الصورة التي رسمها الذهن للتدمير نستطيع أن نتلمس كلمة طيبة تتصاعد من امرأة فرعون تدعو ربها أن يَبني لها عنده بيتاً.. لقد وَصَلَتْ قلبها بالله في السرّ والخفية، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون.. إن إيمانها الكبير، وإدراكها البصير هو الذي أَهَّلَها لهذا الجزاء العظيم. ولقد بقيت هذه المؤمنة آية في عالم الجهاد وبقي بيتها في عالم الجزاء..

وهذه هي القاعدة الأساسية في بناء الدعوات في أن يزول صرح الظلم والطغيان ويبقى بيت امرأته في الجنة..

وتسير القصة في رحلة مديدة.. وتنتهي هنالك في الآخرة يوم القيامة: **﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٦]..

ها هو ذا فرعون في مشهد كئيب في عذاب رعيب.. وينتهي الموقف بتقرير أشد العذاب ومضاعفته **﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾** [النحل: ٨٨].. ثم يجيء التأنيب

الميئس من كل رجاء في تغيير أو تخفيف: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ [النبأ: ٣٠]..

إنه العذاب المروّع الهائل. وهو عذاب مُملّ لا يؤدي إلى موت ولا يبقى على حياة ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ [الأعلى: ١٣]..

وهي صورة محسوسة من جانب، تلقي ظلاً غير محسوس من الجانب الآخر. فأما الصورة فهي هذه النار المخيفة المحرقة، والمعذبون فيها لا يجدون الموت ولا يذوقون الحياة. وأما الظلّ فهو الحالة النفسية لهذا المجرم الذي لا يموت فيستريح، ولا يحيا فيستمتع؛ ولكنه يبقى هكذا إلى أمد معلوم.. ﴿إنكم ماكثون﴾ [الزخرف: ٧٧]..

وفي مقابل السعير المتأجج. وفي مقابل الجلود الناضجة المشوية المعذّبة.. كلما نضجت بُدّلَت. ليعود الاحتراق من جديد. ويعود الألم من جديد. في مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف لفرعون وملئه.. نجد امرأة فرعون في بيتها في جَنّات نَدّية.. ها هي ذي تتقلب في عَطف ولُطف إلهي، في روحانية وتكريم. ويغمر بيتها ونفسها الرضا والتعاطف والوداد..

فرعون في عذاب مقيم.. ﴿إن المجرمين في ضلال وسُعر. يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سَقَر﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٨]..

إنَّها صورة للعذاب هائلة مزلزلة.. صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية، والهول هنا كامن في الصمت الرهيب، والخشوع المهيب.. إنه العذاب الشديد. أدهى وأَمَرّ من كل عذاب. فالمجرمون في ضلال وسُعر. في ضلال يُعذِّب العقول والنفوس، وفي سُعر يكوي الجلود والأبدان. يَلْقون العذاب الشديد، ويَلْقون فيها تحقيراً وهواناً ويُعانون حيرةً وضلالاً..

في وسط هذا الهول المروع. وفي مقابله.. ها هي ذي امرأة فرعون

عند الله في بيتها هادئة ناعمة مطمئنة مكرّمة.. الجو كله يُسر وراحة ونعيم. تَعيش في جناب الله في جناته في دار المقامة..

إنَّهما لصورتان متقابلتان: صورة الأمن والراحة.. صورة الجنة.. صورة امرأة فرعون في بيتها العلوي في الجو الحالم الراضي في سلام وأمن وسرور.. فهي في نعيم لطيف، قوامه الودّ السامي مع الله الذي كانت معه في الدنيا.. وهو في ذاته نعيم لا يُماثله نعيم.. ونسمع من بيتها في الجنة نغمة الشكر والدعاء والسرور: ﴿ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة..﴾ [التحريم: ١١].

وفي صورة مقابلة.. مشهد رهيب ومنظر عجيب.. صورة جهنم.. صورة فرعون في هيئة مَهينة يجتمع فيها التحقير المعنوي إلى التعذيب النفسي ﴿الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ [الفرقان: ٣٤].. فصورته مع قومه وهم يُسحبون في النار ووجوههم مكبوبة فيها، صورة حِسِّية بَشعة، وهي كذلك تُوحي بالمهانة والزراية.. ثم إلى سَموم وحميم في جهنم.. فالهواء شواظ ساخن يَنفذ إلى المسام ويَشويها، والماء مُتَناه في الحرارة.. يتقلبون في ظلال الدخان اللافح الخانق. ظلّ.. لا ظليل ولا يُغْني من اللَّهب..

وهذا العذاب، عذاب السعير، في جهنَّم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور، عذاب شديد مروّع حقاً. والله لا يَظلم أحداً. ونحسب ـ والله أعلم ـ أن النفس التي تكفر بربها ـ وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله ـ هي نفس فرغت من كل خير. وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار، إلى غير نجاة منها ولا فرار..

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه، حتى تنتهي إلى صورة بشغة مسيخة شنيعة، صورة مُنكرة جهنَّمية نكيرة. صورة لا يُماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومَسخها

وشناعتها. . إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة، الحارقة، المُهْدِرة لكل معنى ولكل كرامة؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا كرامة. .

إنهم في جهنم ماكثون. . في عذاب مقيم ﴿**ومأواهم جهنم**﴾. . هذه هي النهاية، لا تَبرد ولا تَفتر ﴿**كلما خبت زدناهم سعيراً**﴾ [الإسراء: ٩٧]. .

وفي المقابل صفحة المؤمنين الذين قَدِمُوا على ربهم بقلب سليم. بقلبِ خالص. بقلب يخشى ويتوقَّى، اتجهوا لله وحده، بقلوب تسجد لله حقاً، وتتصل به على مدار الليل والنهار. . فهم هناك في نعيم مقيم في جنات وعيون ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾. . هذا الرضا من الله هو أعلى وأندى من كل نعيم. . هذا الرضا في نفوسهم عن ربهم. الرضا عن قَدَره فيهم. الرضا عن إنعامه عليهم. الرضا بهذه الصِلَة بينه وبينهم. الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق. .

إنهما صورتان متقابلتان: صورة الكفر والطغيان والفسوق والعصيان. . فرعون وملئه ﴿**ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦]. .

وصورة الإيمان الصادق والصلة بالله الدائمة. . والمَثَل الخالد. . امرأة فرعون ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين**﴾ [التحريم: ١١]. .

إن عَرْض صورة فرعون وملئه. هذه الصورة المروعة لكفيل بإثارة الخوف والإشفاق، والتفكير مرة ومرة قبل العصيان والإباق!.

ويُسدل الستار على العذاب المقيم لفرعون وقومه. كما يُسدل الستار في الصورة المقابلة على النعيم الخالد لامرأة فرعون. .

يُسدَل الستار. . وفي العين منه صُور، وفي الحسّ منه أثر، وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب.

إن هذا الحشد من الصور والظلال في هـذه القصة لتستجيش كـل خالجة في كيان الإنسان للتأمل والتـدبُّر والتـأثُّر **﴿إن في ذلـك لعبرة لمن يخشى﴾** [النازعات: ٢٦]. .

فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يُدرك ما في حادث فـرعون من العبرة لسواه. أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فَبَيْنَه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب. حتى يصطدم بالعاقبة اصطداماً. وحتى يأخذه الله نَكالَ الآخرة والأولى.

إن في ذلـك لآيـة لمن عَلَوا في الأرض. لعلهم حين يتملّون هـذه المشاهد أن يُطامنوا من كبـريائهم وأن يـرجعوا عن شِقـاقهم. وأن يتمثَّلوا أنفسهم في موقف فرعون في مشهد الخـزي والمهانـة والعذاب الأليم. . ينادون ويَستغيثون. . في الوقت أمامهم فسحة، قبل أن يُنـادوا ويستغيثوا، ولاتَ حين مناص، ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخَلاص!.

وكلٌّ مُيسَّر لنهج، وكلٌّ مُيسَّر لعاقبة. والعبرة لمن يخشى. . **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، بصائر للناس، وهدى ورحمة، لعلهم يتذكرون﴾** [القصص: ٤٣]. .

هذا نصيب موسى. وهو نصيب عظيم. وهـذه عاقبـة موسى. وهي عاقبة كريمة. . كتاب من الله يُبصِّر الناس كأنه بصائرهم التي بها يهتدون، **﴿وهدى ورحمة﴾**. . **﴿لعلهم يتذكرون﴾** يتذكرون كيف تتدخل يد القدرة بين الـطغـاة والمستضعفين، فتختم للطغـاة بـالهـلاك والتـدميـر، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين.

وهكذا تنتهي قصة موسى وفرعون. شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا في جانب الله. وأن المخافة لا تكون إلا في البُعد عن الله. ذلك إلى تَـدَخُّل القدرة سافرة متحدية للطغيان والطغاة، حين تصبـح القوة فتنـة يعجز عن

صَدّها الهداة. وهي المعاني التي كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المُستضعفة في مكة في حاجة إلى الاطمئنان إليها. وكان المشركون المُستكبرون في حاجة إلى تدبّرها. وهي المعاني المُتجدِّدة الدائمة حيثما كانت دعوة إلى الهدى، وحيثما كان طغيان يقف في وجه الهدى.

فقصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون تلتقي بحلقة مشابهة لها من قصة العرب في مواجهة رسولهم الكريم. فَتُثَبِّتْ الرسول محمد ـ ﷺ ـ والمؤمنين معه؛ وتُحذِّر المشركين المعترضين، وتُنذرهم مصيراً كمصير الأولين.. ﴿فجعلناهم سَلَفاً ومَثَلاً للآخرين﴾ [الزخرف: ٥٦].. وتُصبح القصة بهذا أداة للتربية في المنهج الإلهي الحكيم.

وهكذا يجيء القصص في القرآن عبرة لمن يعقل. ومادة تربية وتوعية للنفوس، وتقرير لحقائق وسُنَن في الوجود ﴿لعلهم يتذكرون﴾.

تلك النهاية والعاقبة.. نهاية من يُسلم وجهه إلى الله وهو مُحسن. وهذه نهاية من يكفر ويطغى ويتعالى ويَخْدعه متاع الحياة. وهو في قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله.. والعاقبة بعد ذلك مروّعة فظيعة ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان: ٢٤].. ووصف العذاب بالغلظ يُجَسِّمه ـ على طريقة القرآن ـ والتعبير يُلقي ظل الهول الذي يحاول الكافر ألاّ يواجهه، مع العَجز عن دَفعه، أو التلكؤ دونه! فأين هذا ممن يُسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى، ويصير إلى ربه في النهاية هادىء النفس مطمئن الضمير، فَرِح بما أعدّه الله من نعيم مقيم؟.

ماشطة ابنة فرعون ،

الإيمان نعمة. نعمة لا يعرفها إلا مَن ذاقها. نعمة ترفع العمر وتُباركه. نعمة تتجه بالروح إلى الخالق الواحد في خشوع وأُنس.. نعمة تأخذ بالنفس إلى مسارب الهدوء والاطمئنان.. نعمة تربط على القلب فيرى يَدَ الله في كل حادث وفي كل أمر..

والقلب المؤمن يُدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال. قيمة الرؤية الواضحة بعد الغَبَش. قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده. قيمة الاهتمامات الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة.. ويُدرك أن الله مَنَحه بالإيمان كل هذا الزاد.. ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال، كما يشفق السائر في الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التَخَبُّط في المنعرجات المظلمة، وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى الهجير القائظ والشواظ!.

وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يُدركها إلا من ذاق جفاف الشرك والإلحاد وشقاوتهما المريرة. وفي طمأنينة الإيمان حلاوة لا يُدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال!.

قد أعطى الإسلام المرأة مكانها إلى جانب الرجل فيما هما فيه من العلاقة بالله، ومن تكاليف العقيدة في العبادة والجهاد والسلوك القويم في

الحياة.. الرجال والنساء سواء في الجهاد في سبيل العقيدة وإعلاء كلمة الله..

والقصة النبوية تعرض مواقف نسائية نبيلة.. امرأة.. أم.. تُسجِّل موقفاً خالداً تنتصر فيه العقيدة على الحياة.. امرأة فاحَ من إيمانها عطراً شذياً. انتشر رائحة طيبة خالدة، فَيَتَنَسَّم برائحتها المسلمون، فَتُحَرِّك دوافع الإيمان قوة تَنْتَصِب، وتَصَلُّباً بالعقيدة في القلوب التي عرفت ربها..

وتُثبت القصة أن المرأة ليست ضُعفاً دائماً، فهي قادرة على أن تَتحَمَّل مسؤوليتها، وأن تُثبت وجودها في أصعب الظروف، وأن تقف راسخة في أحلك المحن، وأن تتمسك بمبادئها مهما كلفها ذلك من ثمن، حتى ولو كان هذا الثمن باهظاً جداً.

امرأة وَقَفتْ بعزم وتصميم، وصلابة ويقين لتقول كلمة «الإيمان» التي تَعتقدها، تقولها في شجاعة، وتَحَدّ في وجه الظلم والطغيان لا تُبالي بالموت. وتعذيب الطغاة العتاة!.

ولنقرأ البيان النبوي يقص علينا من خَبرها:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل! ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلتُ: وما شأنها؟ قال: بينما هي تَمْشُط ابنةَ فرعون ذات يوم، فوقع المُشْطُ من يَدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنةُ فرعون: أَبي؟ قالت: لا، ولكن ربِّي وربُّك وربّ أبيك، قالت: أُخبره بذلك؟ قالت: نعم، فَأَخْبَرَته، فَدَعاها، فقال لها: أَلَكِ من ربٍّ غيري؟ قالت: ربِّي وربُّك الذي في السماء ـ وفي رواية ـ: قالت: نعم، ربّي وربك الله، فأمر بِبَقَرَةٍ[1] من نحاس، فأُحْميتْ، ثم أُمر بها أن

(١) في رواية ابن حِبان: «نقرة». قال ابن الأثير: قِدْر يُسخَّن فيه الماء وغيره.

تُلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إنَّ لي إليكَ حاجةً، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحبُّ أن تَجمِع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لكِ لما لَكِ علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبيٍّ لها مُرضع، وكأنها تقاعست من أَجله، فقال: يا أُمتاه فإنك على الحق. يا أمة اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[1].

تُعد هذه القصة من الحالات النادرة في القصص النبوي في بنائها الأدبي والفني، فهي نموذج مما يُسمَّى بالبناء الدائري[1]، وهو أن تُسرد القصة من نقطة متأخرة في أحداث القصة، بحيث تبدأ من النهاية، ثم تعود إلى الوراء من أجل عرض تفاصيل القصة إلى أن تصل إلى النهاية التي ابتدأ منها مرة أخرى.

إن هذا الأسلوب في بناء هذه القصة هو عظيم الدلالة، ففيه تَشويق السامع أو القارىء لمعرفة الأحداث التي أدت إلى هذه النهاية، وكذلك بيان أهميته ومكانة مثل هذه النهاية العظيمة الخالدة. فالقصة تبدأ بتمهيد يتضمن نهاية القصة من استشهاد الماشطة ودفنها مع أولادها، وانتشار الرائحة الطيبة

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه بإسناد قوي، وأخرجه أحمد ٣١٠/١، والبيهقي ٣٨٩/٢، وأخرجه البزار (٥٤)، وأورده ابن كثير في تفسيره من رواية البيهقي. وقال: إسناده لا بأس به، والطبراني في الكبير (١٢٢٧٩/١١، ١٢٢٨٠)، المسند (شاكر) ٢٩٥/٤، وإسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد (١٥/١)، انظر الإحسان (٢٩٠٣ و ٢٩٠٤).

قال ابن عباس: أربعة تكلموا وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وصبيٌّ جريج، وعيسى بن مريم، والرابع لا أحفظه. (وهذا الأخير هو ابن المرأة في قصة أصحاب الأخدود).

انظر محمد رشيد ثابت، البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام ص ٤١، الدار العربية للكتاب. مطبعة شركة فنون الرسم والنشر ـ تونس ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م. وانظر القصص في الحديث النبوي للدكتور محمد بن حسن الزبر ص ١٥٩.

في الملأ الأعلى تخليداً سامياً لهذا الموقف الجليـل السامي من الله ربِّ العالمين الذي آمنت به المرأة الشهيدة، وهي نهاية الأحداث في القصة، وبعد هذا التمهيد يبدأ عرض أحداث القصة، إلى أن تصل مرة أخرى إلى النهاية الجليلة المؤثرة.

لقد حرص الـرسول ـ ﷺ ـ على أن يُضمِّن القصـة كثيراً من القِيَم الإسـلامية، وهي قيم ذات جـوانب متعـددة. والقـاعـدة التي تقـوم القيم الإسلامية، هي قضية الثبات على العقيدة والاستمساك بها، وعدم التنازل عن مبادئها، مهما كَلَّف صاحبهـا ذلك من متـاعب، ومهما اعتـرضته من صعاب ربما أدَّت بـه إلى التضحية بحيـاته، وهي أغلى شيء يملكـه في وجـوده، في سبيل أن يبقى وفيـاً لعقيدتـه، مخلصاً صـادقـاً في إيمـانـه، لا ينحرف ولا يحيد، وهذه القضية ذات أهميـة بالغـة، وهي ذات حيويـة خاصة بالنسبة لما كان يواجهه المسلمون من مشكلات في إزاء استمساكهم بدينهم، وثباتهم عليه، وبخاصة في الأيام الأولى من ظهور المسلمين في مجتمع مكة، ومن هنا حرص الرسول ـ ﷺ ـ على أن يعالج هذه القضية بعرض قصة تتناول هذه الناحية من مواقف أصحاب الدعوات والمبادىء، وهم يواجهون ظروفاً مشابهة تماماً، أو قريبة مما يواجهه المسلمون في مكة في بداية عهد الإسلام، فكانت هذه القضية محور الموضوع في القصة، فقد آثرت ماشطة ابنة فرعون أن تموت بأبشع وأقسى صور الموت على أن ترجع عن دينها(١)..

.. «بينما هي تَمْشُط ابنة فرعون ذات يوم، فوقع المُشْطُ من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربّي وربُّك وربّ أبيك، قالت: أُخبره بذلك؟ قالت: نعم». وفي رواية: «قالت: أقول له؟ قالت: قولي!».

---

(١) القصص الديني في الحديث النبوي ص ٣٩٠.

«قولي!!» إنها كلمة العقيدة.. بهذه الصورة الناصعة الرائعة: صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة ابنة فرعون وتخويفها لها.. إنها الصورة الرفيعة لتلك الحقيقة الكبيرة، في تلك النفس الكبيرة. النفس التي لا تعرف إلا الله ربّاً لها ولفرعون وللخلق جميعاً، لقد رضيت به رباً وكفى، فزادها الله إيماناً في ساعة الشدة، فها هي ذي تقول لابنة فرعون في مواجهة تخويفها لها بأبيها الطاغية: «قولي!!».. نعم.. قولي! ودونك وما يَملكه فرعون وملئه. ولتكن العاقبة ما تكون.. وامتلأت نفسها بالعزم والتصميم، ولتواجه بإيمانها مصدر الخوف والرعب، تواجه الطاغية بقوته وهيبته. ففيم تخاف وفيم تخشى؟! وربّ العالمين وحده القوي القاهر القادر، الذي ينبغي أن يُخاف، وفرعون وطغاة الأرض إن هم إلا عبيد من خَلْق الله وهم أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته..

إن القوة الوحيدة التي تُخشى وتُخاف هي القوة التي تملك النفع والضر. هي قوة الله. وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها أقوى الأقوياء..

إن القصة تتناول حقيقة التوحيد من جانب عظيم الأهمية في لمسة جليلة واضحة.. إنه تصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة، واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة.

«قولي!!» هذه الكلمة تُصوّر منطق الإيمان الصحيح، في بساطته وقوته، ووضوحه وعمقه، كما هو في قلب هذه الشهيدة الخالدة وكما ينبغي أن تكون في قلب كل مؤمن برسالة الله، وكل قائم بدعوته: **﴿فلا تخافوهم. وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**...

وتمضي القصة في حلقاتها فها هي ذي ابنة فرعون وقد أخبرت أباها خَبَر هذه المؤمنة في قصر الظلم والكفر والطغيان.. «فأخبرته، فدَعَاها،

فقال لها: أَلَكِ من ربٌ غيري؟ قالت: ربّي وربُّك الذي في السماء ـ وفي رواية ـ: قالت: نعم، ربي وربُّك الله . . » . .

إن كلماتها تلقي ظلال الإيمان والطمأنينة بقَدَر الله والراحة والثقة. استقام تفكيرها واطمأن قلبها على ما هي قادمة عليه، وارتاحت مشاعرها وأعصابها، ورضيت بما تدفع هنا في الدنيا لتأخذ هناك حيث القرار والبقاء والخلود. .

أَلَا إنه الأفق المشرق الوضيء لنور العقيدة حين تستعلي على كل شيء. . لم تفكر فيم تدفع ولِمَ تدفع، ولِمَ كان هذا وكان ذاك؟ إنه الابتلاء. وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين والمؤمنات أكرم ما في النفس البشرية من طاقات. فليس أكرم في النفس من أن يعزّ عليها الحق الذي تؤمن به حتى تُقَدّم نفسها وأولادها قرباناً لما هو أثمن وأغلى! لقد علم الله من هذه النفس المؤمنة أنَّها خُيِّرت فاختارت وأنها لا تندفع بلا وعي ولكنها تُقدِّر وتختار. ولأنها تَتطلّع إلى وجه الله ورضاه. .

هذه المرأة التي صبرت على الشظف والذلّ الفرعوني انتفض فيها الإيمان شاخصاً واثقاً من عَون الرحمن وَوَعْده. .

إن الإيمان هبة ضخمة لا يعدلها في هذا الوجود شيء؛ والحياة رخيصة رخيصة، حين يوضع الإيمان في كفة، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه. .

ها هي ذي ماشطة ابنة فرعون تقف قوية بإيمانها أمام أعتى وأقوى طغاة الأرض تقول له بعزة الله: «ربي وربُّك الله» . .

إنها كلمة الثقة واليقين. فمن ذا يخيفها، وماذا يخيفها؟ إذا كان الله معها. . فليفعل ما يشاء. . وإرادة الله هي النافذة، ومشيئته هي الغالبة. . ودونك وما تملكه في الأرض. . إنك إن تُهدِّد بالعذاب والموت إنما تقضي

هذه الحياة الدنيا، وما لَكَ من سلطان علينا في غيرها. . وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة. . وأن العدالة المطلقة في انتظاره.

هنا استشاط الطاغية غضباً وقد امتلأ كيانه حقداً «فأمر بِبَقَرةٍ من نحاس، فأُحميت، ثم أَمَرَ بها أن تُلقىٰ هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليكَ حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحبّ أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لَكِ لما لَكِ علينا من الحق. .».

إنه موقف رهيب! ومشهد جليل عظيم! تُصوّره الكلمات فإذا هو مشهد حيّ يكشف عن خطوط النفس المؤمنة المُتوهّجة باليقين. . إنه يكشف عن حقيقة الإيمان في الأعماق الإنسانية. . هذه المرأة لم يَعُدْ لَها من نفسها وعلائقها الأرضية منها من شيء. . لم تستبق بقية لا تبذلها في سبيل الله ربّ العالمين. لم يعد لها في أعماقها خيار في أن تبذل أو تمسك. . كلا. . فهي لا تتلفت، ولا تتخيَّر، ولا تُفكر ولا تناقش ولا تجادل. . ها هي ذي قادمة على الله بثقة وإيمان تقول لفرعون: «إن لي إليكَ حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أُحبُّ أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا»!!!.

عَوْنَك اللهم! لقد باعت نفسها وأولادها لله. . انتهى الأمر، وأمضت العَقْد. . لا رجعة فيه ولا خيار. . إنها الجنة التي تنظر إليها فهي قادمة على طريقها. . ها هي ذي سائرة. لم تتخاذل، ولم تتراجع. ولم تخاف. . ولم ترجوه العفو والصَّفح. . لقد كانت تستيقن أن الموت كأس يشربها كل حي. . فلتشربها في مَجْد وعرس إيماني كبير يشهده ربّ العالمين. . وصَغر عندها الابتلاء والأذى، ومضت في عزيمتها وإيمانها إلى الأمل المنشود. . في صبر متين. . وفي عزم أكيد. .

لقد شاء الله أن أراح قلبها المؤمن على صدر الحقيقة الثابتة. .

فازدادت طمأنينة وراحة فأحبَّت لقاءَ الله واشتقات لما أعدّه الله لها من الرحمة والرضوان والأمن والأمان في جوار الرحمٰن. .

ويكفي أن نَتصَفَّح هذه الصورة الوضيئة الرائعة، لنعرف أي نور كان يملأ قلبها. وأي تَصَوُّر كان يملأ كيانها وهي في الأرض! ذلك أن العقيدة أمر عظيم، لا هَوادة فيه ولا ترخُّص، وثمن الاحتفاظ به فادح، ولكنها ترجحه في نفسها المؤمنة. .

والقصة تقدم صورة رائعة للمرأة، ذات المبدأ الراسخ المتين، الذي لا تهزّه عاديات الحياة كلها، حين تقف في صلابة الحق وقد انعقد في نسيج قلبها، وسرى في عروقها مندفعاً لا يوقفه أي شيء. . فهي تقف بعزّة الإيمان غير مُبالية بما أعدّه فرعون. . لا تُبالي قوله وفعله، وإنذاره ووعيده. فإذا شئتَ فامض في تهديدك فإنا ماضون على طريق الله. . وافعل ما أنت فاعل. . ولو أحميت هذا القِدر النحاسي وَوهَّجته بالنار فلن يُخيفنا العذاب الذي تُهدّدنا به. .

«فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، وكأنَّها تقاعست من أجله، فقال: يا أمتاه فإنك على الحق. يا أمة اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت».

يا لعظمة الصبر والاحتمال والإيمان والتسليم. . الصبر الطويل الصعب. . ثم هو التسليم والرضى والقبول والقدوم على الله!.

إن النهوض بواجب الدعوة في مواجهة الطواغيت أمر شاق. . ولكنه أمر عظيم. . إنه الإسلام لله الذي تتوارى معه الذات. . إنها درجة عظيمة. . وهي في حاجة إلى الصبر، والتسليم لقدر الله. .

وترسم الكلمات النبوية صورة الإيمان الواثق المطمئن؛ وصورة المرأة

المؤمنة المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفي لقاء العذاب الشديد.. لقد كان العذاب الذي امتُحنت فيه هذه الشهيدة الصابرة من الضخامة ما يُروِّع، وكان الكرب الذي واجهته من الشدة ما يُفْزِع.. وهي امرأة من البشر. وللبشر طاقة. لا يُكلِّف الله ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتها بالله، فإن الهول اشتدّ وَقْعه عليها حين انتهى العذاب إلى صبي لها مرضع، وكأنها تقاعست من أجله...

وهنا وقعت المعجزة الإلهية حين ثَقُل الكرب على القلب.. «فقال: يا أمتاه فإنك على الحق. يا أمة اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة..».. ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها كلام الصبي في روح أُمِّه؛ وأي نور يقذفه فيتلألأ في كيانها الرضى بالله والثقة به والمضي في الثبات على الحق.. إنه يضاعف المقدرة في الأم الشهيدة، بما يبعثه من إحساس بالاطمئنان، ويزيدها قوة بالعزم والإصرار..

إنها صورة مُشرِّفة للمرأة بعامة، تعلقها على هام الزمن، هذه المرأة الشجاعة، ذات المبدأ والعقيدة، فهي برغم الضغوط العنيفة التي واجهتها وهي تُشاهد فلذات أكبادها يُرمَىٰ الواحد تلو الآخر في النار، وبرغم ذلك لا تنكص ولا تتراجع عن رأيها في أن فرعون ليس رَبّاً، وإنما هو عبد من عبيد الله، وفي سبيل ذلك تقتحم الجحيم انتصاراً للعقيدة والمبدأ هاتفة بلسان حالها: نموت وتحيا العقيدة!.

إنه شرف رفيع مجيد يحق لكل امرأة من بنات حواء أن تفاخر به ما شاءت، وشاء لها الفخر[1]!!.

وثمة ملاحظة جديرة بالإشارة والبيان، ونحن بصدد الحديث عن هذه الشخصية، وهي أن الرسول ـ ﷺ ـ يختار مواقف لهذه الشخصية، تتفق مع

---

(١) القصص النبوي: ص ٢٧٣.

أحوال المسلمين الذين يواجهون مواقف مماثلة.. وهم يتبعون الرسول ـ ﷺ ـ ويستجيبون لدعوة الإسلام، فيشهدون تجارب مماثلة لتجاربهم في عنفها وقسوتها وشدتها، تواجهها هذه الشخصية التي تضرب أروع الأمثلة في الثبات أمام المحن والشدائد التي تواجه المؤمنة أو المؤمن وهو يستمسك بدينه وعقيدته لا يبغي بها بدلاً مهما كلّفه ذلك من تضحيات جسام، ومن هنا تكون الشخصية ليست بمعزل عن القراء أو السامعين، بل هناك ارتباط قوي بها، نابع من الإحساس بقيمتها، لأنها تمرّ بتجارب ومواقف، يمكن أن تحدث لنا، أو يحدث لنا ما يشبهها، أو يقرب منها(١).

نقف أمام هذه الحقيقة المشرقة الخالدة التي تقدمها القصة. هذه الشهيدة وأولادها هي في حياة عند الله.. لم تمت إلا في صورة ما يظهر للناس ولكنها عند الله ترزق وفي الأحياء.. **﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾** [البقرة: ١٥٤].. **﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله..﴾** [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]..

ها هي ذي عند ربها يتعهدها وقد صعدت إليه. في حياة مستمرة لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون.. يزيدها ربها صفاءً وإشراقاً وإكراماً. وهي في ظلال الله ورعايته.. هذه رائحتها الزكية تفوح على أهل السماء كما أخبر النبي ﷺ في مطلع القصة: «مررتُ ليلة أُسري بي برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل! ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون..».

لقد سجلت القصة انتصاراً رائعاً للحق، ذلك الانتصار الخالد الذي

---

(١) انظر د. شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير ص ١٧ وسواها، دار المعرفة، القاهرة، ط. الثانية ١٩٧١ م. وانظر القصص النبوي.

يتمثل في الثبات على المبدأ، وعدم الرضوخ إلى رغبة الباطل وأهوائه، برغم ما يملكه من وسائل الإرهاب والعنف.

إنها تسجل أروع انتصار يحققه الإنسان؛ انتصار على الألم والضعف، ولذّة الحياة وحبّها.. تسجله امرأة بمشهد وصورة وحركة حيّة تنبعث منها الحياة في أعماق النفوس إلى يوم القيامة.

لقد قالت كلمتها لفرعون: «ربي وربك الله» وأعلنت ربوبية الله.. عقيدة في الضمير، ومنهجاً للحياة. فله العبادة، وإليه الاتجاه. ومنه الخشية وعليه الاعتماد.. ولا سلطان إلا لشريعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

«ربي وربك الله» ليست كلمة تُقال. تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.. وبهذا يدل أن الكلمات الاعتقادية في الدين ليست مجرد ألفاظ تقال باللسان ولكنها منهج كامل للحياة..

لقد دفعت هذه المرأة روحها في سبيل إعلان هذه الحقيقة، كما سبق للسحرة الذين سجدوا لله ربّ العالمين. رب موسى وهارون أن قُطِّعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصُلبوا على جذوع النخل.

إن القصة تصور لوحة الإنسانية بأدقّ مشاعرها.. فهذه أم.. فهي المُعَلّم.. وهي التي تَلِد الرجال وتُربّيهم.. هي التي تُرسخ في قلوبهم معنى الجهاد.. فهي امرأة وإن تعتريها العواطف التي تتأرجح خوفاً على أولادها ولكنها تسجل موقف رائع.. فهي مدرسة للإيمان تُعَلّم أبناءها في البشرية درس العقيدة ومعنى الشهادة وطعم الآخرة الذي يتذوقه الكبار..

وشخصية المرأة في هذه القصة[1]، ذات وظيفة، إنها تبرز على

---

(١) في القصة شخصيتان رئيستان: هما الماشطة، وفرعون، وأشخاص ثانوية تبدو في «ابنة فرعون» و «أولاد الماشطة» ورضيعها. ونجد شخصية المرأة ظاهرة في القصة، ومستمرة في العرض حتى النهاية، ولها الدور البارز في القصة التي نَسَجت صلابة العقيدة بصورة معبّرة جداً. =

مساحة القصة مُحقّقة هدفاً معيناً، وهو جانب التضحية والفداء في سبيل الله.

فإلى جانب الوظيفة الفنية للشخصية هناك وظيفة موضوعية لا تقل أهمية ولا أثراً في تحقيق بنائية متكاملة لكيان القصة النبوية شكلاً ومضموناً، ذلك أن الشخصية تُستخدم في القصة كوعاء للمعاني والأفكار التي تسعى القصة إلى تصويرها وتجسيدها أمام السامع أو القارىء، وهذا الاستخدام الإيجابي يُثري ولا شك قضية التعبير عن القيم المعنوية في القصة بما تُمثله هذه القيم من جوانب الإنسان المختلفة، كما أن هذه الشخصية بما تحمله من قيم معنوية تُمثل أيضاً نموذج بشري من خلال ما تمارسه من سلوك[1]..

لقد رسمت القصة ذلك النموذج الرائع في تاريخ العصور، وعلينا أن ندرك أنها كانت امرأة من البشر، لم تتخلَ عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف. كانت امرأة من نساء العالمين تفزع وتخاف، وتضيق بالشدة، وتُزَلْزَل للخطر الذي يتجاوز الطاقة. ولكنها كانت ـ مع هذا ـ مرتبطة بالعروة الوثقى التي تشدّها إلى الله.. ذلك هو الإيمان.. هذا السرّ العجيب.. هذا النور الإلهي الذي يُرقق القلب ويُطهره ويرتفع به إلى آفاق النور العلوية، ويدفع النفس إلى الاستعلاء والشفافية والإشراق.. ومن ثم يبقى هذا المخلوق في واقعيته الإنسانية الكاملة..

بهذا النور. وهذا الضياء. وهذا الإيمان يرتفع الكيان البشري الغليظ

= وشخصية فرعون كانت المحور المحرك لمجرى القصة، والدافع لها في طريق النمو. فهو الذي يبطش، وهو الربُّ المُصطنع، وهو الذي قام بإعدام المرأة وأولادها في صورة عنيفة ووحشية.

أما بقية أشخاص القصة فكانت أدوارهم ثانوية، بحيث تنتهي شخصياتهم بنهاية الدور الذي يقومون به، فهي عناصر مُساعدة في تحقيق نمو القصة، وتعضيد شخصيات القصة الرئيسة، وتحقيق مسارها نحو النمو والاكتمال. (انظر القصص في الحديث النبوي ص ٢٨٩).

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٢٩٥.

الثقيل، فيشرق بالنور وهو يتطلع إلى الأفق الوضيء، ويستشرق النور الكبير في ملكوت السماوات، فيغمر الإنسان الفيض الشامل من الإشراق والنور. .

فالإيمان هو الذي وضع هذه المرأة الشهيدة في الذروة السامقة الوضّاءة في لوحة القَدَر، وقد فاحَ عَبيرها واتصل ذكرها في الأرض والسماء. .

ونقف أمام هذا الإيمان نتدبره بقلوبنا ونتملاه في كياننا. .

إنه يحدد التصور الإلهي الواضح للقيم؛ ويرسم الطريق الشعوري للإحساس بالدنيا والآخرة. فهو يحسم في القلب المؤمن كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة؛ بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء. ويُخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة وزينة أرضية تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه.

هذا من جانب، ومن الجانب الآخر تُصوِّر لنا هذه القصة أن الشهيد الذي يدفع أغلى ما يملك هو إنسان من البشر، لم يتجرد من بشريته ومشاعره وسماته الإنسانية. مع تلك العظمة البالغة التي ارتفع إليها؛ ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه. فالمشاعِر الإنسانية والعواطف البشرية في المرأة الشهيدة لم تمت في تلك النفس المطمئنة. ولكنها ارتفعت. وصفت من الأوشاب. ثم بقيت لها طبيعته البشرية التي تؤهلها للخلود بجوار الرحمن. وقد ارتفعت إلى أقصى درجات الكمال المقدّر للإنسان. .

هذا النموذج الإيماني لا ينقطع في جيل ولا في قبيل. فهو موجود دائماً. . فهو نور من نور الله. . **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم. والله مُتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾** [الصف: ٨]. .

وصَدَق وعد الله. . أتمّ نوره في حياة الرسول ﷺ فأقام الجماعة

الإسلامية صورة حيَّة واقعة من المنهج الإلهي المختار. . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتمَّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يُحبونه، ويُجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلْقَى في النار ولا يعود إلى الكفر. فَتَمَّت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم ـ من كل ما جُرِّدَ على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لا يمكن أن تُطفئه الأفواه، ولا أن تُطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خُيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالِغُوا هذا الهدف البعيد!.

هذا النموذج الرائع للمرأة، والشخصية التي تبرز في هذه الوظيفة الموضوعية تظهر بوضوح في هدف القصة النبوية بشكل كبير، بحيث يلمسها كل من يطالع القصة أو يستمع إليها، فهي تهدف إلى ترسيخ وتعميق الإيمان في القلوب، وكانت رسالته تنبض بالحياة ترسم في القلوب المؤمنة التي تَلْقَىْ الأذى والعذاب، صورة رائعة لثبات الحق إذا جَلى، وقوة للعزم إذا اكتوى فيما يكابده المؤمن من البطش والتنكيل ويَلْقى.

فالقصة النبوية تُوظف بصورة إيجابية تُحمَّل بالمعاني والأفكار والقيم الإسلامية التي يُراد نشرها بين الناس، وتعميقها في نفوسهم. . وتأكيدها في سلوكهم في واقع الحياة. . وطبعها في تصوراتهم التي تقود أعمالهم وجهادهم على طريق الجنة والخلود. .

والقصة تكشف عن ناحية مهمة، فهي قصة مُلتزمة وهادفة، والالتزام سمة أساسية في المنهج الإسلامي، والقصة النبوية تنقل ذلك المضمون، فهي تُعمق جذور العقيدة في القلوب، وهي صورة من صور الالتزام في المضمون.

والطغيان والجبروت هو الذي يقف دوماً في وجه الحق حين يَسفر

وينبلج، ويطارد المؤمنين في كل مكان وفي كل زمان، وقد رسمت القصة الماشطة ذلك النموذج الإنساني الذي حقق في واقعه انتصار العقيدة، وقد سجلت ذلك الموقف، موقف الشهادة الذي يحقق فيه الإنسان سموه ورفعته، موقف الإيمان الصلب بالعقيدة والثبات عليها والتضحية في سبيل الله[1].

إنه لربح ضخم هائل أن يُعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة.. إنها لأربح تجارة **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم..﴾** [الصف: ١٠ ـ ١٢].

إنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة ـ حتى حين يفقد هذه الحياة كلها ـ ثم يُعوَّض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم.. وحقاً.. **﴿ذلك الفوز العظيم﴾**..

ميزان الإيمان والعقيدة:

إن الطريق الأمثل في فَهْم القرآن وتفسيره، وفي التصور الإسلامي وتكوينه.. أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يَبني مقرراته كلها حسبما يُصوّر القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح. ومن ثم لا يُحاكم القرآن لغير القرآن.. ولا ينفي شيئاً يُثبته القرآن ولا يُؤوله! ولا يُثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يُبطله.

والمنهج القرآني يؤكد دوماً على الكلية الكبرى للعقيدة: **﴿تبارك**

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٤٦٠.

الذي بيده الملك﴾.. فهو المالك لهذا الكون العريض، المهيمن عليه، القابض على ناصيته، المتصرف فيه.. وهي حقيقة. حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير، وتَخَلِّيه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد، والسيد الفريد!.. ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [الملك: ١].. فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يحول دون إرادته شيء، ولا يحدّ مشيئته شيء، يفعل ما يريد، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود.. وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تُطلق تَصَوّره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يَرِد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال.. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينها المحدود تجعلهم أَسْرَىٰ لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود. فهذه الحقيقة تُطلق حِسّهم من هذا الإسار. فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود. ويَكِلون لقدرة الله كل شيء بلا قيود. وينطلقون من أَسْر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود..

إن الإيمان بهذه الحقيقة. وهي من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة، المحيطة بكل شيء، المهيمنة على كل شيء.. هو قاعدة العقيدة في القلوب، فيهزّها هزاً، ويأخذها أَخْذاً، وهو يجول بها في مسيرة الحق في مواجهة الظلم والطغيان فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تحس بغير الله، ولا مرجع إلا إليه، ولا مُتوجه إلا لوجهه الكريم. فمشيئته المطلقة تمضي بغير حد ولا قيد. وتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء. وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع ومن أي لون هو تصور باطل، ناشىء من طبيعة العقل البشري المحدود..

والقرآن يولي هذه الحقيقة عناية كبيرة، فينص عليها في كل مناسبة بما

يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي. لتبقى هذه الحقيقة واضحة، ويبقى تصورها غير مشوب. فقد وَعَد الله المؤمنين بالنصر والتأييد والتمكين.. **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا..﴾** [غافر: ٥١].. **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** [محمد: ٧].. **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾** [آل عمران: ١٦٠].

هذا الوعد صادر من المشيئة. وهي طليقة في إرادتها.. ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لمقرراته في هذا المجال. وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن، لا من مَعين آخر غير القرآن..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم «النبوة والأنبياء».. عن هذه الحقيقة المضيئة في التاريخ كله.. مشيراً إلى المنهج القرآني وقوته وفضله ونتائجه الباهرة للعقول..

«يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة قد انطبقت على بني إسرائيل كل الانطباق، وسدّت في وجوههم المنافذ والأبواب: حاضر شقي، ومستقبل مظلم؛ قلة عدد، وفقر وسائل، وذِلّه نفوس؛ عدو قاهر، وسخرة ظالمة؛ لا قوة تدافع، ولا دولة تحمي؛ أمة مصيرها معلوم محتوم، قد خُلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى، وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء: أراد فرعون أن لا يولد، فَوُلِد، وأراد أن لا يعيش فعاش؛ يعيش في صندوق خشبي مسدود، في ماء النيل الفائض، وينشأ في حضانة العدو، ورعاية القاتل..».

في هذا الجو المُلَبّد المكفهر، بدأ موسى ـ عليه السلام ـ كفاحه!.

بدأه ثائراً على الطغيان، غاضباً لقومه المعذّبين، ودفعته ثورته

وغضبه، على ما آتاه الله من علم وحكمة، إلى نجدة رجل من قومه، استغاثه في معركة، فأغاثه وقَتَل عدوه.

وندم موسى على ذلك واستغفر ربه، فغفر له، وأصبح خائفاً يترقب، ثم جاءه خبر المؤامرة عليه: ﴿**فخرج منها خائفاً يترقب، قال: ربِّ نجني من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢١]..

واستجاب الله دعاءه ونجّاه، فتوجه تلقاء مدين، ومنها سار مع أهله تجاه الجانب الأيمن من الطور ثم اتجه إلى البقعة المباركة حيث نودي: ﴿**يا موسى إني أنا الله رب العالمين**﴾ [القصص: ٣٠].. وأُلْقِيَت عليه أمانة السماء وأَمَره ربُّه بالتوجه إلى فرعون..

صَدَع موسى بما أُمر، وسار إلى المعركة وهو على بيِّنة من طريقه وما يعترضه فيه.. كان يعلم أنه مقبل على قوم ظالمين فهو يخاف أن يُكذِّبوه، وأنه بينه وبينهم ثأر الفرعوني الذي قتله فهو يخشى أن يقتلوه، وأن صدره يضيق ولسانه يثقل وقد يمنعهم ذلك أن يفهموه؛ فكان جواب ربِّه على هذه الثالثة أن أَرْسَلَ معه أخاه هارون، فهو أفصح منه لساناً وأقوى حجة، وكان جوابه على الأول والثانية: كلا، ثم خاطب الاثنين معاً: ﴿**فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون**﴾ [الشعراء: ١٥]؛ وكانت طليعة المعركة هذه الوحدة التامة بين موسى وهارون والتي يقررها القرآن بهذا الأسلوب الرائع: ﴿**إنّا رسول رب العالمين**﴾ [الشعراء: ١٦]..

ودخل موسى على فرعون، فدعاه إلى الله، وطالبه أن يرفع يده عن قومه بني إسرائيل.. ولكن فرعون أبى واستكبر ورفض دعوة الحق، وجمع سحرته وتحدى موسى بما أتوه من سحر عظيم، فاستقبل موسى ذلك بإيمان راسخ بالحق الذي جاء به، وما أسرع ما قال في قوة ـ بعد أن أوجسَ في نفسه خيفة بادي الرأي ـ: ﴿**ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله**

لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس: ٨١، ٨٢]..

قال ذلك ثم ألقى عصاه **﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون. فوقع الحق وبَطَل ما كانوا يعملون. فَغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وأُلقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾** [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢]..

فاستشاط فرعون غضباً، وأخذته العزة بالإثم، وعمد إلى القتل والتنكيل، فما كان من موسى إلا أن قال لقومه: **﴿استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾** [الأعراف: ١٢٨]. ولكن قومه تململوا تحت هذا العذاب الأليم، والبلاء الذي لا يرون له نهاية **﴿قالوا: أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾** [الأعراف: ١٢٩]، فلم يجبهم موسى بأكثر من قوله: **﴿عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾** [الأعراف: ١٢٩]..

وجدير بقارىء القرآن أن يتأمل هذا الجواب من موسى لقومه[1]، فإن فيه حقيقتين كبيرتين تميزان كفاح أهل الحق وتحددان طبيعة هذا الكفاح، فإن في قوله: **﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾** [الأعراف: ١٢٩] تجرداً واضحاً لله، تجرداً حتى من التشبث بالنصر العاجل في معركة قامت من أجله: **﴿وما النصر إلا من عند الله﴾** [آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠].. وذلك لا يعني مثقال ذرة من الشك في أن العاقبة للحق مهما بغى أعداؤه، فموسى الذي قال: **﴿عسى﴾**، هو الذي قال الله له يوم أرسله وأخاه إلى فرعون: **﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** [القصص: ٣٥]. وإنما هو التفويض المطلق لله، بعد أن بذل في سبيله ما يستطيع، وجهر بالحق كما أراد.

(١) انظر «المسلمون» المجلد السابع ص ٧٣٤.

إن هذه الحقيقة الصريحة في كلام موسى ـ عليه السلام ـ هي التي تُجنِّب المكافحين في سبيل الله دائماً خطل الرأي الذي يُزينه استعجال النصر، وعوامل التململ ومرارة اليأس حين يبطىء النصر عنهم، وهي التي تجعلهم في الحالين أنقياء أعزاء لا يُطغيهم نصر ولا تذلهم هزيمة.

والحقيقة الثانية من كلام موسى ـ عليه السلام ـ، هي في قوله: ﴿**ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾. ووصف النصر بأنه «استخلاف» تأكيد ثانٍ للحقيقة الأولى، فإن المستَخلِف هو الله، والمنتصر هو الذي يستخلفه سبحانه، وذلك يعني، مرة أخرى، أن زمام النصر بيد الله وحده، لأنه هو الذي يستخلف من ينصره؛ ولكن القرآن لم يترك هذا الاستخلاف مطلقاً، بل ربطه بالعمل في الآية ذاتها، وأعلن أنه رقيب على ذلك ناظر إليه: ﴿**فينظر كيف تعملون**﴾.

فحقيقة النصر هي دائماً بمقدار العمل الذي يعمله المُنْتَصِر بعد النصر، ويترتب على ذلك أن طريقه إلى النصر يعتمد على أمرين: على عمله الذي يُرشحه له، وعلى ما يعلم الله من نيته وعزمه وقدرته حين يأذن له به، ويترتب على ذلك أيضاً: أن كل غَلبة لا ترتبط بالعمل الذي يرضاه الله ليست في ميزان السماء نصراً يبالي به المؤمنون، بل قد يَعقد الناس لأصحاب هذا النوع من الغلبة ألوية النصر وهم عند الله ملعونون. وقد يتركهم الله يمدون مظاهر غلبتهم ويعتدون ويبطشون، ويكون ذلك منه استدراجاً لهم إلى عاقبة أنكى وهزيمة أعم، ويكون وراءه إعداد لجنده أوفى وتهيئة لنصر مُرجأ، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون، فَقُطِع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

وهذا الذي كان مع فرعون، فإنه استطاع رغم الحق الذي مع موسى،

ورغم الحجة الواضحة التي تجلَّت في إيمان السحرة على أعين الناس جميعاً، أن يُشيع جواً من الإرهاب في مصر، بما ارتكب من المظالم، وبما سفك من الدماء، وسكت المصريون جميعاً فلم يعد أحد منهم ينطق بحق، وخرج أرباب المصالح من جُحورِهم يتلمسون الزُلفى عند فرعون، ويُزينون له ما هو فيه.

وبلغ من طغيان فرعون واضطهاده للناس، وخوف الناس منه، أن أَمَر موسى أتباعه بالتربّص والتخفي، وبأن يلزموا بيوتهم ويؤدوا صلواتهم فيها.. وظل الأمر كذلك، حتى جَأرَ موسى إلى الله بالدعاء: **﴿ربنا إنك آتيتَ فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال: قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾** [يونس: ٨٨، ٨٩]..

ولكن هذه الدعوة المُجابة لم يظهر أثرها إلا بعد مدة.. ونحن في غنى عن تحديد المدة ما دام القرآن قد سكتَ عنه، وحسبنا أن نفهم أن تَأَخُّر الفرج لا يعني عدم الإجابة، وأن الإجابة لا تعني أن يصرف أمور الناس وفق ما يريدون، ولو كانوا أحبَّ خلقه إليه، ولكن وفق ما يُريده هو لهم، وفي المواقيت التي تقتضيها سُنَنه، فإنه أرحم بهم وأعرف بما يُصلحهم!.

وكان مطلع الإجابة أن أَذِنَ الله لموسى وقومه بالرحيل، فخرجوا من مصر جميعاً، فأهاج ذلك فرعون وأثار حنقه، وكَبُر عليه أن لا يستسلم هؤلاء لِظُلمه وطغيانه، وأن يعمدوا إلى الهجرة نجاة بأنفسهم من الهول الذي يعيش فيه المصريون، أو لعله خشي أن يكون من وراء خروجهم كرَّة عليه يعدّون عدتها، أو يكون من ذلك إثارة لحفيظة المصريين على ظلمه، والطاغية يعيش دائماً في وَساوس مما اقترفت يداه تجعله يخاف من ظلّه؛ فاستنفر جيشه بكل عَدَده وعُدَده، وخرج في جمع هائل يتقدمه هو وجلّادوه

وحاشيته، وأدركوا موسى وقومه عند ساحل البحر ساعة الشروق، والتفت أصحاب موسى فرأوا هذا الهول يتبعهم، ثم التفتوا فلم يروا إلا البحر بأمواجه المرتطمة أمامهم، فظنوا أنه الهلاك لا ريب، إلا موسى الذي أشرق يقينه إشراقة الحق فلم يَرَ غير وجه الله في كل ما حوله.

وقَصَّ القرآن قصة هذه الساعة الرائعة من تاريخ البشرية.. وحدثت المعجزة بعد أن انقطعت أسباب البشر، واقتحم موسى وأصحابه البحر، ثم جاء فرعون وقومه على أثرهم بعد أن استكبروا أن يرجعوا من الساحل، ولم يكفهم جلال وَجْه المعجزة فدفعهم العمَى إلى غمرتها الفاتكة: ﴿**وأزلفنا ثَمّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ [الشعراء: ٦٤ ـ ٦٨]..

ويشاء الله أن يجمع هذا المشهد الأخير في قصة فرعون، إلى العبرة الخالدة في تنكيل الله بكل طاغية، العبرة الأخرى: وهي أن الطغاة لا يردّهم إلى الحق إلا بأس شديد، ولا يَرتدّون عادة إلا حين يفلت الأمر من أيديهم..

هذه قصة المعركة بين موسى وفرعون.. فليس مع موسى إلا ذرية خائفة من بطش فرعون وحاشيته، وَعَدُوّه فرعون عالٍ في الأرض لا يتطاول عليه أحد، مُسرف في طغيانه لا يقف عند حدّ: ﴿**فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعال في الأرض، وإنه لمن المسرفين**﴾ [يونس: ٨٣]..

فالقرآن يقرر أنها معركة غير متكافئة القوى في موازين المادة ومظاهر الأشياء.. وقد بدأت المعركة في ظل هذا الطغيان المتعالي المستقر، واستعمل لها فرعون أسلحة من كل نوع بسلطان البطش الرهيب على الشعب المستضعف.. ودعا فرعون أعوانه وجنوده ليعلن فيهم أن موسى

وقـومه عصـابة ضئيلة تُـزعج الأمن وتُثيـر الإرهاب وتُهـدّد حياة النـاس. . واستعمل كل ما دفعه إليه طغيانه من أساليب المكر والقهر والتنكيل!.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن القصة أنها كلهـا تحدٍّ لفلسفـة الأسباب، ومنطق الأشياء. . فبعد أن قَتَل موسى رجلاً من عَدُوّه وخرج من مصر خائفاً: «ويَجدُّ به الطَلَب القوي الساهر فيفلت وينجو ويأوي إلى ظلّ شجرة كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة والزواج الحبيب، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي، فيجد نوراً يُسعد به بنو إسرائيل ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمـدد لامرأة واحدة فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها، ويُكْرَم بالنبوة والرسالة. .

ويدخل على فـرعون في أُبَّهتـه وسلطانه، وفي ملئـه وأعوانـه، وهو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية، وتوجهت إليه الـدعوى، وفي لسانه حُبسة وفي موقفه ضعف، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه، وحجته وبيانه. .

ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بِفَنّهم معجزة موسى التي ظَنَّها فَنّاً وسحراً، فإذا السحرة خاضعون خاشعون، يقولون: ﴿**آمنا بـربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون**﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨]. .

ويُؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة، ويتبعه فرعون بجنوده، ويصبح موسى والبحر أمامه والعدو من ورائه، ويخوض البحر فينفلق كل فِرق كالطَّود العظيم، ويَعبُر موسى وقومه، ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج.

وهكذا يَهلك فرعون وقومـه الأغنياء الأقـوياء، ويملك بنـو إسرائيـل الضعفاء الفقراء، ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشـارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما**

صبروا. ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ [الأعراف: ١٣٧]..

ما هي القوة التي قَهَر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره؟ وما سرّ انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟ وما كان سلاحهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر وأخضعوا به المحيط الحانق الثائر؟.

لقد كان السلاح الذي واجّه به موسى فرعون وقومه وانتصر به بنو إسرائيل وتبوّأوا الإمامة والزعامة في مصر وحولها هو «الإيمان» و «الطاعة» و «الدعوة إلى الله»، ويتجلى هذا الإيمان وهذه الطاعة والدعوة في تضاعيف القصة ومطاويها، وقد تجلّى هذا الإيمان النبوي في دعوة فرعون وقومه، وبه تغلَّب موسى على حِجاج فرعون ودَهائِه، هو يريد أن يُشغله عن موضوعه ويثير عليه الملأ، وهو ثابت على دعوته، ثابت في إيمانه لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يتحول ولا يتغير، **﴿قال فرعون: وما ربُّ العالمين، قال: ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله: ألا تستمعون، قال: ربكم وربّ آبائكم الأولين، قال: إن رسولكم لمجنون، قال: ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾** [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨]..

ويسأله فرعون عن الأجيال التي مضت، وهو موضوع شائك وسؤال مُحرج، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بإيمانه الراسخ وحكمته النبوية، فيقول: **﴿عِلْمُها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾** [طه: ٥٢]..

ويفيض في الحديث عن الإله الواحد ـ الذي يفرّ منه فرعون ـ فيقول: **﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبلاً وأنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾** [طه: ٥٣]..

وتجلّى هذا الإيمان في أبرز مظاهره لما رأى موسى أمامه البحر ومن

ورائه العدو الهائج، فلا مُتَقدَّم ولا مُتأخَّر، وهو وقومه بين طبقتي الرحى، ويناديه بنو إسرائيل في جزع وفي فزع: ﴿إنا لَمُدْرَكون﴾ [الشعراء: ٦١].. ولكنه ثابت الجأش، قوي الإيمان، يعرف أن الله ناصر عَبْده ومُنجز وَعْده، يقول في صرامة وثقة: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢]..

ويعيش بنو إسرائيل في مصر حياة ذُلٍّ وشقاء، وبؤس وفقر، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد؛ وأقسى أساليب الحكم والاستبداد، ولا يُؤمرون ـ وهم في أشد الحاجة ـ باللجوء إلى الأسباب المادية بل يُؤمرون بالإنابة إلى الله وتقوية الإيمان وتحسين الصلة بالله ليستحقوا نصره، ويُوجِدوا في أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة في الأرض ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبلة وأقيموا الصلاة وبَشِّر المؤمنين﴾ [يونس: ٨٧]..

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى وانقياده واستسلامه للأمر الإلهي، يُؤمر بالتوجه إلى أعظم ملوك عصره ـ وهو الثائر الموتور، وهو شديد البطش عظيم السلطان ـ فيقال وقد جاء يبحث عن قَبَس من النار ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤]..

ويتوجّه إلى بلاط جبَّار يدَّعي الربوبية فيدعوه إلى الله الواحد القهار، ويستمر في دعوته وجهاده، وفي وَعْظه وإرشاده، حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين.

لقد كان الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله، القوة التي واجَه بها موسى «مشاكل عصره» وقَهَر بها أعظم امبراطورية على وجه الأرض، أرقاها مدنية وأوسعها مملكة، وأغناها أسباباً، وأعظمها جبروتاً.

لو كان موسى ـ كزعيم لبني إسرائيل ـ يُفَكِّر تفكير الزعماء السياسيين ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي يملكها قومه، ويَزن كل شيء في

ميزان الواقع والحكمة العملية، ولو نَظَرَ ـ وهو الذي نَشأ في البلاط الملكي ـ إلى العَدَد والعُدّة والمنعة والجنود والبنود والثروة والذخائر التي كان يملكها فرعون، وقارَن بين قومه وقوم فرعون، لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يواجه فرعون بما يسوؤه، ولتَحَتَّم عليه أن يقنع بنصيبه ونصيب قومه، ويرضى بالوضع السائد، فلا إيمان، ولا صلاح، ولا عدل، ولا أخلاق، ولا تقوى، ولا إنسانية.

قصة موسى في تَحدِّيها الصارخ للعقل المادي الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبيعته لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يُحكم عليها، جاءت محنةً وبلاءً للذين ضاق تفكيرهم وكلَّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما وراء الأسباب وإلى مَن هو فوق الأسباب..

ولكنه نبيٌّ يرشده الوحي، ولكنه مؤمن، يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصر الله، ولكنه داعية يفكر تفكير الدعاة، وإنَّ هذا **المنهج من التفكير والعمل هو الذي غيَّر مجرى التاريخ**، وأتى بالمعجزات وأدهش العقول، وحيَّر الألباب..

وهكذا كان النبي الأعظم محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ وصحابته الكرام الذين غُذُّوا بمعاني القرآن.. ولو كان الرسول ـ ﷺ ـ يفكر تفكير الزعماء ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي كانت تملكها قريش، ولو أنه نَظَر إلى الامبراطوريتين العظيمتين اللَّتين توزعتا العالم المتمدن المعمور، الإمبراطورية الرومية والإمبراطورية الفارسية، وما تتمتعان به من حَول وطَول، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعي ـ لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يتوجَّه بدعوته إلى الإنسانية جميعاً، ويكتب إلى سَيِّدي العالم المعاصر ورئيسي الإمبراطوريتين الغربية والشرقية، يدعوهما إلى الإسلام، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون، فمتى تملك هذه

الحفنة البشرية التي آمنت به القوة التي تُضارع قوة الإمبراطوريتين بل تفوقهما حتى تهزمهما وتدحرهما؟ وإلى متى كان يجب عليه أن ينتظر؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الإنسانية لو اتَّجهَ هذا الاتجاه وفكَّر هذا التفكير؟ لقد شقيت الإنسانية إذن شقاءً طويلاً، وتأخر أو تَوقَّف طلوع الصبح الصادق، ولكان للإنسانية تاريخ غير هذا التاريخ!.

ولكنه - ﷺ - نبيٌّ يؤمر فيعمل، ويتلقى التوجيه والإرشاد من السماء فينفِّذ؛ ولكنه مؤمن، يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصره، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوي، والقوي بخذلانه ضعيف، ويؤمن بقوله تعالى: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم. وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ويؤمن بقوله: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ويؤمن بمواعيد الله على النصر والإيمان والعمل الصالح والتوحيد والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته..

«إنني لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب والتوكل السلبي، ولستُ ممن يعيش في عالم الخيال والأحلام، ولست ممن ينكر الحاجة إلى الاستعداد وممن يقرأ قوله تعالى: ﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ [الأنفال: ٦٠]..

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تُصاحب فريضة الجهاد؛ والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها.

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها.. بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها. والمسلمون مُكَلَّفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض؛ ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

ولكني أُعارض هذا التفكير الذي تسلَّط على عقلية العالم الإسلامي

في العهد الأخير، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ كَكُتلٍ بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى، التي لا رسالة لها في العالم، ولا دعوة لها للأمم، تُوزَن في ميزان «الإمكانيات» والوسائل والاستعداد المادي، وتقوَّم بما تملكه من ثروة وذخائر، والتناسي أو الإعراض عن قوتها الكبرى «الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله»[1].

لقد نشأنا في زمن وقد ترامت العصور بيننا وبين آبائنا المجاهدين فَبَعُدَ مَنْطق الجهاد عن واقع حياتنا وأصبحنا نربط الحوادث ربطاً مادياً لا يمت إلى النهج القرآني بصلة. .

لقد كان الصحابة الكرام الذين رَبَّاهم الإسلام في مدرسة القرآن قد امتلأت قلوبهم يقيناً بِوَعْد الله وقَدَر الله. . وغداة غزوة أحد دعاهم الله إلى الخروج كَرّة أخرى للجهاد في سبيله. غداة المعركة المريرة وهم مُثخَنون بالجراح. وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فَقَدوا، فَقَلَّ عددهم، فوق ما هم مُثْخَنون بالجراح!.

ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ دعاهم. ودعاهم وَحدهم. ولم يأذن لأحد تخلَّف عن الغزوة أن يخرج معهم ـ ليقويهم ويُكثر عددهم كما يمكن أن يُقال! ـ فاستجابوا. . استجابوا لدعوة الرسول ـ ﷺ ـ وهي دعوة الله: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٣].

---

(١) النبوة والأنبياء ص ٩٣ وما يليه. وانظر المسلمون «ثورة في التفكير» المجلد السادس ص ٨٣٢ وما يليه.

استجابوا لله والرسول ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾، ونزل بهم الضرّ، وأثخنتهم الجراح. .

لقد شاء رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُشعر الدنيا كلها بحقيقة الإيمان. . حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها. ليس لهم من أَرَب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها، ولا يُقدّمونها فداها. .

تلك النفوس الكبيرة. النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلاً، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيماناً به في ساعة الشدة. . إنه العزم والمضي في الجهاد. مع التوكل والاستسلام لقَدَر الله، ولا مجال للتردّد والتأرجح. . فهم ينظرون إلى ما وراء الأسباب. وإلى من هو فوق الأسباب. . وإلا فهو الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي. .

فَهُم في عَزم ومضاء. وتَوكُّل على الله. . وهذه الخلّة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون. بل هي التي تُميز المؤمنين ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ [آل عمران: ١٥٩]. .

بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله، صورتهم هذه، وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم: ﴿الذين قال لهم الناس: إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. .

إنهم لم يقولوا: نحن قلة ضعيفة في كثرة باغية؛ فلنصبر على الذل، ولنرضَى بالهوان، ولنُحامل الشرّ، ولنتّق الطغيان. . حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. . فالمؤمن يوقن ﴿إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]. وأن أَمْر الله إنما يتم بعباده الذين يُنفذون أمره، وأن السماء

لا تُمطر على الناس عزّاً ولا نصراً؛ إنما هم يَصلون قلوبهم بجبَّار السماء فتهون عليهم قوى الأرض، وتهون معها حياة الأرض. وعندئذ ينقلبون بنعمة من الله وفضل لم يَمسسهم سوء. وعندئذ يُمكِّن الله لهم في الأرض، لأنهم صَدَعوا بكلمة الله، ولم يخشوا غير الله.

إنها دبلوماسية الأقزام التي يُزاولها الناس في هذه الأيام، في ميدان الصراع مع الشرّ والعدوان وأعداء الدين، الصراع ضد الطغيان وضدّ الشر كله وهو ألوان.

إنهم يسترون الضعف دائماً بستار «العقل» ويسترون الهزيمة بستار «المناورة» ويسترون حبّ السلامة دائماً بستار «المصلحة العامة»!.

إنها لكبيرة كبيرة. فالإسلام الذي يقول ربه لرسوله: **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** [الحجر: ٩٤]، ويُيئسه من رضى مُخالفيه مهما جامَلَ وحاسَن، لأنهم لن يرضوا عنه إلا إذا تَرك دينه جملة وعقيدته: **﴿ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملَّتهم﴾** [البقرة: ١٢٠].

إن أعداء الدين يعرفون قوة الله حين يستند إليها المؤمنون. فقد ذكرت كتب السيرة عن غزوة بدر: أن خفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري ـ أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري ـ بعث إلى قريش، حين مروا به، ابناً لهم بجزائر أهداها لهم؛ وقال لهم: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فَعَلْنا. قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم! قد قضيتَ الذي عليك. فلعمري لئن كنا إنما نُقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم. ولئن كنا إنما نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة.

هذا هو تصور أعداء الدين للحقيقة الإلهية.. فهم يبذلون كل غال ورخيص لنزع عقيدة الجهاد، وطمس الإيمان، وتغييب التوكل على الله من قلوب المسلمين..

إن الذين نُداورهم أمهر منا في المداورة، والذين نحسب أنفسنا

نخدعهم، أكثر منا يقظة وأشد خداعاً. فلم يبق إلا ذلك الطريق الواضح الصريح النظيف: أن نقول كلمة الحق الذي نُريد، وأن ندعها تقرع الأسماع، وأن نؤمن بالله الذي يقول: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** [الحج: ٤٠].

إن الإسلام لا يعيش في الظلام، فهو نور يعيش في النور. وإن الإسلام لا يُخادع ولا يُداور، فهو كلمة الحق التي تكره المداورة والخداع. وإن الإسلام حقيقة واقعة تعيش في الأرض، لا سرّ ولا مؤامرة تتوارى عن الأنظار.

والتوكل على الله، وردّ الأمر إليه في النهاية؛ هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية. وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة: حقيقة أن مردّ الأمر كله لله، وأن الله فعّال لما يريد.. لا قوة إلا قوة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا مشيئة إلا مشيئته. وعنها تصدر الأشياء والأحداث.. ولكن هذه الحقيقة الكبيرة لا تعفي المسلمين من إتباع المنهج، وطاعة التوجيه، والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد، وإعداد العدة، والتوكل بعد هذا كله على الله.

فالتوكل على الله هو بيّنة الإيمان ودلالته. وعنصر القوة المتين الذي يُضاف إلى رصيد القلة المُستضعفة أمام الطاغوت المستعلي، والجبروت المتكبر العالي فإذا هي أقوى وأشد وأثبت.. هذا ما يُعلمه القرآن للأمة المسلمة من قصة موسى وقومه الذين واجهوا بإيمانهم ذلك الطوفان الضخم من الظلم والتنكيل والطغيان المسرف الذي لا يقف عند حد.. **﴿وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾** [يونس: ٨٤ ـ ٨٦]..

لقد عملت الآيات القرآنية عملها في تربية الجماعة المسلمة، حتى

أتت بالعجب العجاب، وحتى أنشأت جيلاً من الناس يتمثل فيهم الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله. تتصل قلوبهم مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود. يتوكلون على الله وحده في إحداث النتائج، وتحقيق المصائر، وتدبير الأمر بحكمته، وتقبُّل ما يجيء به قَدَر الله في اطمئنان أيًّا كان..

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يُعلمها للجماعة المسلمة، وهي تواجه الكفر والطغيان والفساد في كل زمان ومكان..

وبعد، فقد أورد البخاري عن ابن عباس، أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين قَدِمَ المدينة المنورة وَجَد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظَهَر فيه موسى على فرعون! فقال الرسول لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم فصوموه!».

نعم لقد كان ظهور موسى ـ عليه السلام ـ وتدمير الطغيان الفرعوني ميراثاً أسمى للمسلمين ومَعْلماً وضّاءً للإسلام. كان يوماً مشهوداً في تاريخ البشرية. كان فرقاناً بين الحق والباطل.. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته؛ حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يُسمون أنفسهم مسلمين!.

فمن بديهيات الإيمان الأولى أن يوقن القلب الإنساني أن الله سبحانه مالك الملك وهو على كل شيء قدير..

وفي هذا اليوم مَثَل من قُدرته تعالى على كل شيء.. مَثَل لا يُجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممار. مَثَل من الواقع المشهود، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله. وأن الله على كلِّ شيء قدير.

فإذا كان أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أحقّ بموسى وبالاحتفال بيوم انتصاره على فرعون، فإن حَمَلة رسالة الإسلام والمجاهدين في سبيله في كل عصر جديرون أن يتأمَّلوا هذه القصة الخالدة التي ذُكرت فيما يزيد عن

ثلاثين موضعاً في كتاب الله، وأن يُردِّدوا كلما غَشيتهم موجة من ظلم ظالم أو طغيان طاغية، قول الله سبحانه: **﴿إن فرعونَ عَلا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾** [القصص: ٤]..

وأن يطالعهم الأمل المشرق دائماً من خلال قوله تعالى: **﴿ونُريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكِّن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾**..

والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مَدْعُوة أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأن ترى بنور الله وهداه، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة، وألا تَستهين بقوتها وَوَزْنها فإنها مع الله. **﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾** [الأنفال: ٤٩]..

هذا ما تُدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه؛ وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرجح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان.

قصة موسى عليه السلام

القسم الثاني

موسى وبني إسرائيل

موسى وبني إسرائيل

المحتوى	ص
ـ صَبر مَرير وجُهد مُضاعف	٢٦٩
ـ الموقف الفريد	٢٧٦
ـ ارتكاس وانتكاس	٢٨٦
ـ موسى ـ عليه السلام ـ في مُواجهة الفِتْنة والزَّيغ والضَّلال	٢٩١
ـ تَأديب عَنيف وكَفَّارة صَارمة	٢٩٨
ـ التَعَنُّت والمُعَاجزة	٢٩٩
ـ نَبأٌ عَظيم	٣٠٣
ـ الميثاق الغليظ	٣٠٦
ـ انحراف ومَعصية وجُحود	٣١٣
ـ اللَّجاجَة والتَعنُّت	٣١٥
ـ النعمة بين الكُفر والشُكر	٣٢٤
ـ موسى والخضِر	٣٤١
ـ مُفاجآت غَيبية	٣٤٩
ـ ما أعجب الحقائق إذا ظَهرت	٣٥٣
ـ على أبواب أرض الميعاد	٣٦٦
ـ شخصية موسى ـ عليه السلام ـ	٣٧٨
ـ أذىٰ وصَبْر	٣٨١

ـ قصة قارون	٣٨٧
الردّة الفاجرة المغرورة	٣٩٥
زِينة وفتنة	٣٩٨
القِيَم الظاهرة الجوفاء	٤٠٧
ـ قصة صاحب الجَنّتين	٤١٧
عرض وتقديم	٤١٩
ما شاء الله لا قوة إلا بالله	٤٢٣
في ميزان الله	٤٢٧
مرآة الحق	٤٣٢
ـ قصة الابتلاء والجزاء	٤٣٩
عرض وتقديم	٤٤١
بين الكفر والإيمان	٤٤٨
ـ قصة لقمان عليه السلام	٤٥٥
تقديم	٤٥٧
الحكمة	٤٥٧
قصّة التوحيد	٤٦١
توصية وحَنان	٣٦٢
قضية الآخرة	٤٦٧
عِدَّة المؤمن	٤٦٩
سِمَة المؤمن	٤٧٩
ـ مَشهد مُفْزِع ـ مَسخ وانحراف	٤٨٧
ـ مَسخ وانتكاس	٤٩٣
جُرم عظيم وفعل قبيح	٥٠٣

- النُّبوءة الصادقة والوَعْد المفعول ٥١٣
- رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ ٥٢١
- اللعنة الأبدية ٥٣٤

القسم الثاني

صَبر مرير وجُهد مُضاعَف:

ويمضي سياق القصة قُدماً مع رحلة بني إسرائيل مع موسى ـ عليه السلام ـ، بعد خروجهم من مصر ناجين. فلنتابع حياة بني إسرائيل في فصل آخر.. في غداة النصر والتأييد والتمكين.. ها هم أولاء في الصفحة المقابلة في مشهد النجاة والتكريم والاختيار..

﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المُهين من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين. وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ [القصص: ٣١ ـ ٣٤]..

ويذكر هنا نجاة بني إسرائيل من العذاب «المهين» في مقابل الهوان الذي انتهى إليه المُتجبرون المُتَعالون المُسرفون في التَجَبّر والتعالي: **﴿من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين﴾**..

ثم يذكر اختيار الله لبني إسرائيل ـ على عِلْم ـ بحقيقتهم كلها، خيرها وشرها، اختيارهم على العالمين في زمانهم بطبيعة الحال، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقّهم بالاختيار والاستخلاف؛ على ما قصَّه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء. مما يشير إلى أن اختيار الله ونَصْره قد يكون لأفضل أهل زمانهم؛ ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان

العالي، إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة.

ويعرض القرآن الكريم إرادة الله في استخلاف المُستضعفين ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صَبَروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾ [الأعراف: ١٣٧]..

إن هذا الاستخلاف لم يتركه القرآن الكريم مطلقاً، بل رَبَطه بالعمل ﴿**ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾ [الأعراف: ١٢٩].. ﴿**وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين**﴾ [الدخان: ٣٣]..

فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات، التي آتاهم الله إياها للابتلاء. حتى إذا تَمّ امتحانهم، وانقضت فترة استخلافهم، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم، فَضَربَهم بمن يُشرّدهم في الأرض، وكَتب عليهم الذلّة والمسكنة، وتوعَّدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا في الأرض إلى يوم الدين.

وهكذا وفي حلقة أخرى تمضي قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع قومه بني إسرائيل بعد إذ أنجاهم الله من عدوّهم؛ وأغرق فرعون وملأه؛ ودمَّر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون.. إن موسى ـ عليه السلام ـ لا يواجه اليوم طاغوت فرعون ومَلَئِه، فقد انتهت المعركة مع الطاغوت..

ولكنه يواجه معركة أخرى ـ لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً ـ إنه **يواجه المعركة مع «النفس البشرية!»** يُواجهها مع رواسب الجاهلية في هذه النفس؛ ويواجهها مع رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل؛ وملأها بالالتواء من ناحية؛ وبالقسوة من ناحية؛ وبالجبن من ناحية؛ وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية. وتركها مُهَلْهَلة بين هذه النزعات جميعاً.. فليس أفْسَد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً؛ عاشوا في ظلّ

الإرهاب؛ وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك. عاشوا يَقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نساءهم. فإذا فَتَر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذلّ والسخرة والمطاردة على كل حال.

وفسدت نفوسهم، وفسدت طبيعتهم؛ والتوت فطرتهم؛ وانحرفت تصوراتهم؛ **وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر**.. وهما جانبان تتلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطُغيان..

لقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ينظر بنور الله، فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبيعتها؛ وهو يقول لِعُمَّاله على الأمصار موصياً لهم بالناس: «ولا تضربوا أبشارهم فَتُذِلُّوهم»..

كان يعلم أن ضرب البشرة يذلّ الناس. وكان الإسلام في قلبه يريد منه أَلاَّ يذلّ الناس في حكومة الإسلام وفي مملكة الله. فالناس في مملكة الله أعزاء، ويجب أن يكونوا أعزاء؛ وألاَّ يضربهم الحكام فَيُذِلُّوهم، لأنهم ليسوا عبيداً للحكام.. إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله..

ولقد ضربت أبشار بني إسرائيل في طاغوت الفرعونية حتى ذلُّوا. بل كان ضرب الأبشار هو أخفّ ما يتعرضون له من الأذى في فترات الرخاء!.

ولقد ضُربت أبشار المصريين كذلك حتى ذَلّوا هم الآخرون واستخَفَّهم فرعون! ضُربت أبشارهم في عهود الطاغوت الفرعوني؛ ثم ضُربت أبشارهم في عهود الطاغوت الروماني.. ولم يستنقذهم من هذا الذلّ إلا الإسلام، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لربّ البشر..

فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص ـ فاتح مصر وحاكمها المسلم ـ ظَهْر ابن قبطي من أهل مِصر ـ لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره

ما تزال ـ غَضِبَ القبطي لِسَوط واحد يُصيب ابنه ـ من ابن فاتح مصر وحاكمها ـ وسافر شهراً على ظهر ناقة، ليشكو إلى عمر بن الخطاب ـ الخليفة المُسلم ـ هذا السوط الواحد الذي نال ابنه ـ وكان هو يَصبر على السياط منذ سنوات قلائل في عهد الرومان ـ وكانت هذه هي معجزة البعث الإسلامي لنفوس الأقباط في مصر، وللنفوس في كل مكان ـ حتى لمن لم يَعتنقوا الإسلام ـ كانت هذه هي معجزة هذا البعث الذي يستنقذ الأرواح من ركام آلاف السنين من الذلّ القديم، فَتَنْتَفض هكذا انتفاضة الكرامة التي أطلقها الإسلام في أرواحهم؛ وما كان غير الإسلام ليطلقها في مثل هذه الأرواح.

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذلّ الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى ـ عليه السلام ـ في هذه الحلقة ـ بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوُزه بهم البحر ـ وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس، وهي تُواجه الحرية بكل رواسب الذلّ؛ وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية؛ وتواجه موسى ـ عليه السلام ـ بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجَهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل!.

وسنرى متاعب موسى ـ عليه السلام ـ في المحاولة الضخمة التي يُحاولها؛ وثقلة الجبلّات التي أَخْلَدت إلى الأرض طويلاً، حتى ما تريد أن تنهض من الوَحل الذي تَمرَّغت فيه طويلاً، وقد حَسِبَتْه الأمر العادي الذي ليس غيره!.

وسنرى من خلال متاعب موسى ـ عليه السلام ـ متاعب كل صاحب دعوة، يواجه نفوساً طال عليها الأَمَد، وهي تستمرىء حياة الذلّ تحت قهر الطاغوت ـ وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها، ثم طال عليها الأمد، فبهتت صورتها، وعادت شكلاً لا روح فيه!.

إن جهد صاحب الدعوة ـ في مثل هذه الحال ـ لهو جهد مضاعف. ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك.. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات؛ ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يُفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة!.

ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة، في هذه الصورة المُفَصّلة المُكرّرة. لنرى فيها هذه التجربة. كما قلنا من قبل. ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل.

ويعرض القرآن مشهداً مثيراً ـ مشهد بني إسرائيل بعد تجاوز البحر ـ ونحن فيه وجهاً لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم؛ بما ترسَّب فيها من ذلك التاريخ القديم.. إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يُسامون الخَسف في ظل الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه؛ ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى ـ عليه السلام ـ باسم الله الواحد ـ ربّ العالمين ـ الذي أهلك عدوهم؛ وشق لهم البحر؛ وأنجاهم من العذاب الوحشي الفظيع الذي كانوا يُسامون.. إنهم خارجون للتّو واللحظة من مصرِ وَوَثَنِيّتَها؛ ولكن ها هم أولاء ما إن يُجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وَثنيين، عاكفين على أصنام لهم، مُستغرقين في طقوسهم الوثنية؛ وإذا هم يطلبون إلى موسى ـ رسول ربّ العالمين ـ الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد، أن يتخذ لهم وَثَناً يعبدونه من جديد!.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ [الأعراف: ١٣٨]..

إنها العَدوى تُصيب الأرواح كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية. وطبيعة بني إسرائيل ـ كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات ـ طبيعة

مُخَلْخَلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس... ذلك إلى غلظ في الكبد، وتَصَلُّب عن الحق، وقَساوة في الحس والشعور! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ بالتوحيد ـ فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم المخروج من مصر مجتازاً ببني إسرائيل البحر ـ بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين! وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلوهم ـ حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم: ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**﴾ [الأعراف: ١٢٧].. ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نَبِيِّهم: رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه.. آلهة! ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول ربّ العالمين أن يتخذ لهم آلهة... ولكنها هي إسرائيل!..

ويغضب موسى ـ عليه السلام ـ غضبة رسول رب العالمين، لرب العالمين ـ يغضب لربه سبحانه ـ ويغار على ألوهيته أن يُشرك بها قومه! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب: ﴿**قال: إنكم قوم تَجهلون**﴾ [الأعراف: ١٣٨]..

ولم يقل تجهلون ماذا؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل.. الجهل من الجهالة ضد المعرفة، والجهل من الحماقة ضد العقل! فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة؛ وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد؛ وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلى غير هذا الطريق..

إن العلم والعقل يُواجهان هذا الكـون بنواميسـه التي تشهد بـوجود الخالق المدبر؛ وبوحدانية هذا الخالق المدبر. فعنصر التقدير والتدبير بارز في هذه النواميس، وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفي آثارها التي يكشفها النظر والتدبر ـ وفق المنهج الصحيح ـ وما يغفل عن ذلك كله، أو يعرض عن ذلك كله، إلا الحمقى والجهال. ولو ادعوا «العلم» كما يدعيه الكثيرون!.

ويمضي موسى ـ عليه السلام ـ يكشف لقومه عن سوء المغبـة فيما يطلبون، بالكشف عن سوء عُقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم، فأرادوا أن يقلدوهم: ﴿**إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه، وباطل مـا كانـوا يعلمون**﴾ [الأعراف: ١٣٩]..

إن ما هم فيه من شرك، وعكوف على الآلهة، وحياة تقوم على هذا الشرك، وتتعدد فيها الأرباب، ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة، ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط.. إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد في التصورات وفساد في الحياة.. إن هذا كله باطل، ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية المطاف!.

ثم ترتفع نَغمة الغيرة في كلمات موسى ـ عليـه السلام ـ على ربـه والغضب له ـ سبحانه ـ والتَعَجُّب من نسيان قومه لنعمـة الله عليهم ـ وهي حاضرة ظاهرة ـ: ﴿**قال: أغير الله أبغيكم إلَهاً وهو فَضَّلكم على العالمين؟**﴾ [الأعراف: ١٤٠]..

والتفضيل على العالمين ـ في زمانهم يتجلّى في اختيارهم لـرسالـة التوحيد من بين المشركين. وليس وراء ذِلك فضل ولا مِنّة. فهذا ما لا يعدله فضل ولا مِنّة. كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة ـ التي كانت إذ ذاك في أَيْدٍ مشركة ـ فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله، وهم في نعمته وفضله يَتَقلَّبون؟!.

وعلى طريقة القرآن الكريم في وَصْل ما يحكيـه عن أولياء الله بمـا

يحكيه عن الله ـ سبحانه ـ يستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى ـ عليه السلام ـ مُوجَّه كذلك لقومه:

﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يُقتِّلون أبناءكم ويَستحيون نساءكم. وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ [الأعراف: ١٤١]..

وفي مثل هذا الوصل في القرآن الكريم، بين كلام الله ـ سبحانه ـ وما يحكيه من كلام أوليائه، تكريم أي تكريم لهؤلاء الأولياء لا ريب فيه!.

وهذه المِنّة التي يمتنها الله على بني إسرائيل ـ في هذا الموضع ـ كانت حاضرة في أذهانهم وأعصابهم. ولقد كانت هذه المِنّة وحدها كفيلة بأن تُذكر وتُشكر.. والله سبحانه وتعالى يُوجّه قلوبهم لما في ذلك الابتلاء من عبرة.. ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة. الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء.. **﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**..

فما كان شيء من ذلك كله جزافاً بلا تقدير. ولكنه الابتلاء للموعظة وللتذكير. وللتمحيص والتدريب. وللإعذار قبل الأخذ الشديد. إن لم يفلح الابتلاء في استصلاح القلوب!.

الموقف الفريد:

ويرفع القرآن الستار على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن..

لقد واعد الله موسى ـ عليه السلام ـ على الجَبل ميعاداً ضَربَه به ليلقاه بعد أربعين يوماً، لِتَلَقِّي التكاليف: تكاليف النصر بعد الهزيمة. وللنصر تكاليفه، وللعقيدة تكاليفها، ولا بد من تَهيُّؤ نفسي واستعداد للتلقي..

ويصور القرآن اللوحة الرائعة من هذا المشهد الجليل.. الاستعداد للقاء الله. مشهد تَهَيُّؤ موسى ـ عليه السلام ـ للقاء ربّه العظيم، واستعداده

للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا؛ ووصيته لأخيه هارون ـ عليه السلام ـ قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم:

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة، وأتممناها بعشر، فَتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة.. وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: ١٤٢]..

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أُرسل لها، انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذلّ والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة، في طريقهم إلى الأرض المقدسة.. ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى.. مهمة الخلافة في الأرض بدين الله..

ولقد رأينا كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم؛ وتَخَلْخَلَت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ ولم يمضِ إلا القليل! فلم يكن بدّ من رسالة مُفصَّلة لتربية هؤلاء القوم، وإعدادهم لما هم مُقبلونَ عليه من الأمر العظيم..

ومن أجل هذه الرسالة المُفَصَّلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويَتَلَقَّى عنه. وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى لنفسه، كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم، ويستعدّ لتلقيه.

وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة، أُضيفت إليها عشر، فبلغت عِدَّتها أربعين ليلة، يُروّض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود؛ وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليَستغرق في هواتف السماء؛ ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل؛ وتصفو روحه وتشفّ وتستضيء؛ وتَتَقَوّى عزيمته على مواجهة الموقف المُرتقب وحَمل الرسالة الموعودة..

وألقى موسى إلى أخيه هارون ـ قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه ـ بوصيته تلك:

﴿وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾..

ذلك وموسى يعلم أن هارون نبي مرسل من ربه معه. ولكن المسلم للمسلم ناصح. والنصيحة حقّ وواجب للمسلم على المسلم.. ثم إن موسى يُقدّر ثقل التبعة، وهو يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل!.. وقد تلقى هارون النصيحة. لم تَثقل على نفسه! فالنصيحة إنما تَثقل على نفوس الأشرار لأنها تُقَيّدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه؛ وتَثقل على نفوس المُتَكَبّرين الصغار، الذين يحسون في النصيحة تنقصاً لأقدارهم!.. إن الصغير هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده؛ ليظهر أنه كبير!!.

فأما قصة الليالي الثلاثين وإتمامها بالعشر الليالي فقال عنها ابن كثير في التفسير: «فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة؛ قال المفسرون: فصامها ـ عليه السلام ـ وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين».

ثم يأتي السياق القرآني. المشهد الفذّ الذي اختصّ الله به نبيه موسى ـ عليه السلام ـ مشهد الخطاب المباشر بين الجليل ـ سبحانه ـ وعَبْد من عباده. المشهد الذي تتصل فيه الذرّة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الأبدي بلا وساطة؛ ويطيق الكائن البشري أن يَتَلَقّى عن الخالق الأبدي، وهو بعد على هذه الأرض.. ولا ندري نحن كيف.. لا ندري كيف كان كلام الله ـ سبحانه ـ لِعَبْده موسى. ولا ندري بأية حاسّة أو جارحة أو أداة تَلَقّى موسى كلمات الله. فتصوير هذا على وجه الحقيقة مُتَعَذِّر علينا نحن البشر. المحكومين في تصوراتنا بنصيبنا المحدود من الطاقة المدركة، وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة. ولكننا نملك بالسرّ اللطيف المُستمد من روح الله الذي في كياننا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق السامق الوضيء. ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نُفسده بسؤالنا

عن الكَيفية، نريد أن نَـتَصوَّرها بإدراكنا القريب المحدود!:

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكَلَّمه ربُّه، قال: ربِّ أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣]..

إننا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد في خيالنا وأعصابنا وفي كياننا كله.. في حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تَصَوّره؛ ولنشعر بشيء من مشاعر موسى ـ عليه السلام ـ فيه..

إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه؛ وروحه تَـتَشَوَّف وتستشرف وتشتاق إلى ما يُشَوِّق! فينسى مَن هو، وينسى ما هو، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض، وما لا يُطيقه بشر في هذه الأرض.. يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود.. حتى تُنَبِّهه الكلمة الحاسمة الجازمة: **﴿قال: لن تراني﴾**..

ثم يترفق به الربّ العظيم الجليل، فيعلمه لماذا لن يراه.. إنه لا يُطيق.. **﴿ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾**..

والجبل أَمْكَن وأثبت. والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثُّراً واستجابة من الكيان البشري.. ومع ذلك فماذا؟ **﴿فلما تَجلَّى ربُّه للجبل جعله دكاً﴾**.. فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن نُدركه. ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حين تشف أرواحنا وتصفو، وتتجه بكليتها إلى مصدرها. فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً.. لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نُصوِّر هذا التجلي.. ونحن أميل إلى اطراح كل الروايات التي وردت في تفسيره؛ وليس منها رواية عن المعصوم ـ ﷺ ـ والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً.

﴿فلما تجلَّى ربُّه للجبل جَعله دكاً﴾.. وقد ساخت نتوءاته فبدا مُسوّىً

بالأرض مدكوكاً. . وأدركت موسى رهبة الموقف وسَرَت في كيانه البشري الضعيف: ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾. . مغشياً عليه، غائباً عن وعيه.

﴿فلما أفاق﴾. . وثاب إلى نفسه، وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله: ﴿قال: سبحانك!﴾. . تَنَزَّهْتَ وتَعاليتَ عن أن تُرى بالأبصار وتُدرَك. . ﴿تبتُ إليك﴾. . عن تجاوزي للمدى في سؤالك! ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣]. .

والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله، وبما يُنزله عليهم من كلماته. . وربهم يأمرهم أن يُعلنوا هذا، والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الإعلان في مواضع منه شتى.

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى؛ فإذا هو يَتَلَقّى منه البشرى. . بشرى الاصطفاء، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص. . وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من أجل هذا الخلاص:

﴿قال: يا موسى، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ [الأعراف: ١٤٤]. .

ونفهم من قول الله سبحانه لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي﴾. . أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه ـ فالرسل كانوا قبل موسى وبعده ـ فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة.

أما الكلام فهو الذي تَفَرَّد به موسى ـ عليه السلام ـ أما أَمْر الله تعالى لموسى بأَخْذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تُقابل به نعمة الله.

والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قدوة للناس؛ وللناس فيهم أسوة؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من

النعمة؛ وإصلاحاً للقلب؛ وتحرزاً من البطر؛ واتصالاً بالله . .

ثم يُبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة، وكيف أُوتيها موسى: **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾** [الأعراف: ١٤٥] . .

وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح؛ ويصفها بعضهم أوصافاً مُفَصّلة ـ نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير ـ ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه.

وما تزيد تلك الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح. أما ما هي وكيف كُتبت فلا يعنينا هذا في شيء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء. والمهم هو ما في هذه الألواح. إن فيها من كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمد سواء!.

﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ [الأعراف: ١٤٥] . .

والأمر الإلهي الجليل لموسى ـ عليه السلام ـ أن يأخذ الألواح بقوة وعزم، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم. . هذا الأمر على هذا النحو فضلاً على أنه يشي بضرورة هذا الأسلوب في أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية، التي أفسدها الذل وطول الأمد، بالعزم والجد، لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة، فإنه ـ كذلك ـ يوحي بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها.

إن العقيدة أمر هائل عند الله ـ سبحانه ـ وأمر هائل في حساب هذا الكون، وقَدَر الله الذي يُصرّفه، وأمر هائل في تاريخ «الإنسان» وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك. . والمنهج الذي تُشرعه العقيدة في

وحدانية الله ـ سبحانه ـ وعبودية البشر لربوبيته وحده، منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها، ويقيم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية، حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله ـ سبحانه ـ، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة..

وأَمْر له هذه الخطورة عند الله، وفي حساب الكون، وفي طبيعة الحياة وفي تاريخ «الإنسان».. يجب أن يُؤخذ بقوة، وأن تكون له جدّيته في النفس، وصراحته وحَسْمه. ولا ينبغي أن يُؤخذ في رَخاوة، ولا في تميع، ولا في ترخُّص، ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلاً على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها مَن طبيعته الرخاوة والتميُّع والترخُّص، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر..

وليس معنى هذا ـ بطبيعة الحال ـ هو التَشَدُّد والتَعَنُّت والتعقيد والتَقَبُّض! فهذا ليس من طبيعة دين الله.. ولكن معناه الجدّ والهمة والحسم والصراحة. وهي صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض!.

ولقد كانت طبيعة بني إسرائيل ـ بصفة خاصة ـ بعدما أفسدها طول الذلّ والعبودية في مصر، تحتاج إلى هذا التوجيه. لذلك نلحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية، على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة..

ومثل طبيعة بني إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ما تعرضوا له من طول العبودية والذل، والخضوع للإرهاب والتَعَبُّد للطواغيت، فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال، والأخذ بالأسهل تَجَنُّباً للمشقة.. كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا،

والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها، وتسير مع القطيع، لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئاً!.

وفي مقابل أَخْذ هذا الأمر بقوة يَعد اللّهُ موسى وقومه أن يُمَكّن لهم في الأرض، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه: **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾** [الأعراف: ١٤٥]..

والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت ـ في ذلك الزمان ـ في قبضة الوثنيين، وأنها بشارة لهم بدخولها.. وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى ـ عليه السلام ـ لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قُوّمت، فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم: **﴿يا موسى إن فيها قوماً جبارين. وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾** [المائدة: ٢٢]..

ثم ألح عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله، في الدخول والاقتحام! أجابوا موسى بتوقح الجبان ـ كالدابة التي ترفس سائقها! ـ: **﴿قالوا: يا موسى! إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون!﴾** [المائدة: ٢٤].. مما يُصوّر تلك الطبيعة الخائرة المُفَكّكة الملتوية التي كانت تُعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ، وأمر هذا الأمر الإلهي الجليل أن يأخذها بقوة، وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة..

وفي نهاية المشهد والتكليم يجيء بيان لعاقبة الذين يَتكَبّرون في الأرض بغير الحق، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته، يتضمن تصويراً دقيقاً لطبيعة هذا الصنف من الناس، في نصاعة وجمال التصوير القرآني الفريد لأنماط الطبائع ونماذج النفوس:

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير حق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها..﴾ [الأعراف: ١٤٦]..

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض.. إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها.. آياته في كتاب الكون المنظور، وآياته في كُتبه المنزلة على رسله.. ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين.

وإن هذا النموذج من الناس ليرتسم من خلال الكلمات القرآنية، كأنما نراه بسماته وحركاته! **﴿الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾** [الأعراف: ١٤٦].

وما يتكبر عبد من عبيد الله في أرضه بالحق أبداً. فالكبرياء صفة لله وحده. لا يقبل فيها شريكاً. وحيثما تَكَبَّر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق! وشرّ التكبر ادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله؛ وتعبيدهم لهذا التشريع الباطل، ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر. فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث. ومن ثم تجيء بقية الملامح:

﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦]..

فهي جِبلّة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته، وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح؛ كأنما بآلية في تركيبها لا تتخلف! وهذه هي السمة التي يرسمها التعبير، ويطبع بهذا هذا النموذج المُتَكَبّر، التي قضت مشيئة الله أن يُجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبداً!.

وإن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الخلق بوصفه هذا وسمته وملامحه، فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه، ودون تفكير ولا تدبير! فهو يعمى عن طريق الرشد ويتجنبه، وينشرح لطريق الغي ويتبعه! وهو في الوقت ذاته مصروف عن آيات الله لا يراها ولا يتدبرها ولا تلتقط أجهزته إيحاءاتها وإيقاعاتها!.

وسبحان الله! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصاً بارزاً حتى ليكاد القارىء يصيح لتوِّه: نعم. نعم. أعرف هذا الصنف من الخلق.. إنه فلان!!! وإنه للمعنيّ الموصوف بهذه الكلمات!!!.

وما يظلم الله هذا الصنف من الخَلق بهذا الجزاء المُرْدِي المؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.. إنما هو الجزاء الحق لمن يُكَذِّب بآيات الله ويغفل عنها، ويتكبر في الأرض بغير الحق، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه، ويهرع إلى سبيل الغي حيثما لاح له! فإنما بعمله جوزي؛ وبسلوكه أُورِدَ موارد الهلاك **﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾** [الأعراف: ١٤٦]..

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١٤٧]..

وحُبوط الأعمال مأخوذ من قولهم: حبطت الناقة.. إذا رعت نباتاً ساماً، فانتفخ بطنها ثم نفقت.. وهو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الذي يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة. فهو ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة! ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام!.

وإنه لجزاء كذلك حق أن تَحبط وتَهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة.. ولكن كيف تحبط هذه الأعمال؟.

من ناحية الاعتقاد.. نحن نؤمن بصدق وعيد الله لا محالة؛ أياً كانت الظواهر التي تخالف هذه العاقبة المحتومة. فحيثما كَذَّب أحد بآيات الله ولقائه في الآخرة حبط عمله وبطل، وهلك في النهاية وذهب كأن لم يكن..

ومن ناحية النظر.. نحن نجد السبب واضحاً في حياة البشر.. إن الذي يكذب بآيات الله المبثوثة في صفحات هذا الكون المنشور، أو آياته

المصاحبة للرسالات، أو التي يحملها الرسل؛ ويكذب تبعاً لهذا بلقاء الله في اليوم الآخر. .

إن هذا الكائن المسيخ روح ضالة شاردة عن طبيعة هذا الكون المؤمن المسلم ونواميسه. . لا تربطه بهذا الكون رابطة. وهو منقطع عن دوافع الحركة الصادقة الموصولة بغاية الوجود واتجاهه. وكل عمل يصدر عن مثل هذا المسخ المقطوع هو عمل حابط ضائع، ولو بدا أنه قائم وناجح. لأنه لا ينبعث عن البواعث الأصيلة العميقة في بُنية هذا الوجود؛ ولا يَتّجه إلى الغاية الكبيرة التي يتجه إليها الكون كله. شأنه شأن الجَدول الذي ينقطع عن النبع الأول؛ فمآله إلى الجفاف والضياع في يوم قريب أو بعيد!.

والذين لا يرون العلاقة الوثيقة بين تلك القيم الإيمانية وحركة التاريخ الإنساني؛ والذين يغفلون عن قَدَر الله الذي يجري بعاقبة الذين يتنكرون لهذه القيم. . هؤلاء إنما هم الغافلون الذين أعلن الله ـ سبحانه ـ عن مشيئته في أمرهم، بصرفهم عن رؤية آياته، وتدبُّر سُننه. . وقَدَر الله يَتَربَّص بهم وهم عنه غافلون. .

والذين يخدعهم ما يرونه في الأمد القصير المحدود، من فلاح بعض الذين يغفلون عن تلك القيم الإيمانية ونجاحهم، إنما يخدعهم الانتفاخ الذي يصيب الدابة وقد رعت النبت السام؛ فيحسبونه شحماً وسمنة وعافية وصحة. . والهلاك يترصدها بعد الانتفاخ والحبوط! والأمم التي خلت شاهد واقع. ولكن الذين سكنوا مساكنهم من بعدهم، لا يأخذون منهم عبرة، ولا يرون سنة الله التي تعمل ولا تتخلف؛ وقدر الله الذي يجري ولا يتوقف. . والله من ورائهم محيط. .

ارتكاس وانتكاس:

وبينما كان موسى ـ عليه السلام ـ في حضرة ربه، في ذلك الموقف

الفريد، الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار. . كان قوم موسى من بعده يرتكسون وينتكسون، ويتخذون لهم عِجْلاً جَسَداً له خوار ـ لا حياة فيه ـ يعبدونه من دون الله!.

فحين صعد موسى إلى الجبل، ترك قومه في أسفله، وترك عليهم هارون نائباً عنه. .

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه، والوقوف بين يديه، وقد ذاق حلاوتها من قبل، فهو إليها مشتاق عجول. ووقف في حضرة مولاه، وهو لا يعلم ما وراءه، ولا ما أحدث القوم بعده؛ حين تركهم في أسفل الجبل.

وهنا يُنبئه ربه بما كان خلفه. . فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار: **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى؟ قال: هم أولاء على أثري، وعجلتُ إليك ربِّ لترضى. قال: فإنا قد فَتَنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾** [طه: ٨٣ ـ ٨٥]. .

وهكذا فوجىء موسى. . إنه عجلان إلى ربه، بعدما تهيأ واستعد أربعين يوماً ليلقاه، ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة. وقد استخلصهم من الذل والاستعباد، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة، وذات تكاليف.

كذلك يفاجئنا سياق القصة بنقلة بعيدة. . نقلة هائلة من الجو العلوي السامق المشرق بسبحاته وأشواقه وابتهالاته وكلماته إلى الجو الهابط المتردي بانحرافاته وخرافاته وارتكاساته وانتكاساته: **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عِجلاً جسداً له خوار﴾** [الأعراف: ١٤٨].

إنه الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية الذي كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه؛ وترك في كيانهم النفسي خَلْخَلة واستعداداً

للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويَبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار . . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي . وكان أول ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري : ﴿**قال : فإنا قد فَتَنَّا قومك من بعدك ، وأضلهم السامري**﴾ [طه : ٨٥] . . ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء ، حتى لقي ربه ، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى ، وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناءً يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها .

إنها طبيعة إسرائيل التي ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوي عن الطريق ؛ والتي ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية في التصور والاعتقاد ؛ والتي يسهل انتكاسها كلما فَتَر عنها التوجيه والتسديد .

لقد راوَدُوا نَبيَّهم من قبل أن يجعل لهم إلهاً يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم! فَصَدّهم نبيهم عن ذلك الخاطر ورَدّهم ردّاً شديداً . فلما خَلوا إلى أنفسهم ، ورأوا عجلاً جسداً من الذهب ـ لا حياة فيه كما تُفيد كلمة جسد ـ صنعه لهم السامري ـ رجل من السامرة كما في تفصيل قصته في سورة طه ـ واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يُخرج صوتاً كصوت خوار الثيران . . لما رأوا ذلك العجل الجَسَد طاروا إليه ، وتهافتوا عليه حين قال لهم السامري : ﴿**هذا إلهكم وإله موسى**﴾ [طه : ٨٨] . . الذي خرج موسى لميقاته معه ، فنسي موسى موعده معه ـ ربما لزيادة الليالي العشر الأخيرة في الميقات التي لم يكن القوم يعلمونها ، فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامري : لقد نسي موسى موعده مع إلهه فهذا إلهه! ـ ولم يتذكروا وصية نَبيّهم من قبل بعبادة ربهم الذي لا تراه الأبصار ـ رب العالمين ـ ولم يتدبروا حقيقة هذا العِجل الذي صنعه لهم واحد منهم! وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التي كان يُمثلها القوم . صورة يعجب منها القرآن الكريم ؛ وهو يعرضها على المشركين في مكة وهم يعبدون الأصنام! .

﴿ألم يروا أنه لا يُكلِّمهم ولا يهديهم سبيلاً؟ اتخذوه وكانوا ظالمين!﴾ [الأعراف: ١٤٨]. .

وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدي البشر. والله خلقهم وما يصنعون؟!.

وكان فيهم هارون ـ عليه السلام ـ فلم يملك لهم رَدّاً عن هذا الضلال السخيف. وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل الجسد ـ وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل!.

وأخيراً هدأت الهيجة، وانكشفت الحقيقة، وتبيَّن السخف، ووضح الضلال، وجاءت نوبة الندم والإقرار:

﴿ولما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف: ١٤٩]. .

يقال: سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر. ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا ـ بهذه النكسة ـ إلى موقف لا يملكون دَفْعه فقد وقع منهم وانتهى! قالوا قولتهم هذه: **﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾**. .

وهذه القولة تدل على أنه كان فيهم ـ إلى ذلك الحين ـ بقية من استعداد صالح. فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد ـ فهي كالحجارة أو أشد قسوة كما يصفهم من هو أعلم بهم! ـ فلما أن تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا يُنقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تُدركهم رحمة ربهم ومغفرته. . وهذه علامة طيبة على بقية من استعداد في الفطرة للصلاح. .

كل ذلك وموسى ـ عليه السلام ـ بين يدي ربه، في مناجاة وكلام، لا يدري ما أحدث القوم بعده. . إلا حين أنبأه ربُّه. .

وينهي سياق القصة موقف المناجاة ويطويه، ليصور انفعال موسى ـ عليه السلام ـ مما علم من أمر الفتنة، ومسارعته بالعودة، وفي نفسه حزن وغضب، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية، ومَنَّ عليهم بالرزق الميسَّر والرعاية الرحيمة في الصحراء؛ وذكَّرهم منذ قليل بآلائه، وحذّرهم الضلال وعواقبه. ثم ها هم أولاء يَتَّبعون أول ناعق إلى الوثنية، وإلى عبادة العجل!.

لقد عاد موسى غضبان أسِفاً يُوبِّخ قومه ويُؤنِّب أخاه. فلا بد أنه كان يعلم شناعة الفعلة التي أقدموا عليها:

﴿فرجع موسى إلى قومه غَضْبان أسفاً. قال: يا قوم: ألَم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟ أفَطَال عليكم العهد؟ أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؛ قالوا: ما أخلفنا موعدك بملكنا، ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم، فكذلك ألقى السامري..﴾ [طه: ٨٦، ٨٧]..

لقد عاد موسى إلى قومه غضبان أشد الغضب. يبدو انفعال الغضب في قوله وفِعله.. **﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً. قال: بئسما خلفتموني من بعدي! أعجلتم أمر ربكم؟ وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه..﴾** [الأعراف: ١٥٠].. ويبدو هيجان الغضب في فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ويُعنّفه **﴿وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه!﴾**..

وحقّ لموسى ـ عليه السلام ـ أن يغضب فالمفاجأة قاسية. والنقلة بعيدة: **﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾**..

تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال، وتركتكم على عبادة الله فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خوار!.

﴿أعجلتم أمر ربكم؟﴾.. أي استعجلتم قضاءه وعقابه! أو ربما كان يعني: استعجلتم موعده وميقاته!.

﴿وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾.. وهي حركة تدل على شدة الانفعال.. فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه. وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه.. وكذلك أخذه برأس أخيه يجرّه إليه. وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب!.

موسى ـ عليه السلام ـ في مواجهة الفتنة والزيغ والضلال:

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه؛ وقد أخَّر كشفها عن موقف المناجاة، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى..

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون: هذا إلهكم وإله موسى. وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر! فراح موسى يسألهم في حزن وغضب: **﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟﴾** [طه: ٨٦].. وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت. ويُؤنبهم في استنكار: **﴿أفطال عليكم العهد؟ أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم؟﴾** فعملكم هذا عمل من يريد أن يحلّ عليه غضب من الله كأنما يَتَعمَّد ذلك تعمداً، ويقصد إليه قصداً!.. أفطال عليكم العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب **﴿فأخلفتم موعدي﴾** [طه: ٨٦].. وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم، لا تُغَيِّرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري؟.

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي: **﴿قالوا: ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾** فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا! **﴿ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها﴾** [طه: ٨٧].. وقد حملوا معهم أكداساً من حلي المصريات

كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن. فهم يشيرون إلى هذه الأحمال. ويقولون: لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام. فأخذها السامري فصاغ منها عِجلاً ـ والسامري رجل من «سامراء» كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب ـ، وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ـ ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه ـ فما كادوا يرون عِجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل، وعكفوا على عجل الذهب؛ وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا: ﴿**هذا إلٰهكم وإلٰه موسى**﴾ [طه: ٨٨].. راح يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا. وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه! وهي قولة تُضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده. اتِّهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه!.

ذلك فضلاً على وضوح الخدعة: ﴿**أفلا يَرون ألا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؟**﴾ [طه: ٨٩].. والمقصود أنه حتى لم يكن عجلاً حياً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية! فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية. وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صورة. فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية!.

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون، وهو نبيهم كذلك، والنائب عن نبيهم المنقذ. ونبَّههم إلى أن هذا ابتلاء. قال: ﴿**يا قوم إنما فُتنتم به وإن ربكم الرحمن**﴾ [طه: ٩٠].. ونصحهم بإتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل.. ولكنهم بدلاً من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته، وقالوا: ﴿**لن نَبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾ [طه: ٩١].

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، فسمع منهم حجتهم التي تكشف

عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل، وأصاب تفكيرهم من فساد.

فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة: ﴿**قال: يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن؟ أفعصيت أمري؟**﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

يُؤَنِّبه على تَركهم يعبدون العجل، دون أن يُبطل عبادته، اتباعاً لأمر موسى ـ عليه السلام ـ بألا يُحدث أمراً بعده، ولا يسمح بإحداث أمر، ويستنكر عليه عدم تنفيذه، فهل كان ذلك عصياناً لأمره؟.

وقد قرر سياق القصة القرآني ما كان من موقف هارون. فهو يُطلع أخاه عليه؛ محاولاً أن يُهدّىء من غضبه، باستجاشة عاطفة الرحم: ﴿**قال: يا ابنَ أُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي. إني خشيت أن تقول: فرّقت من بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي**﴾ [طه: ٩٤]..

ها هو ذاهارون ـ عليه السلام ـ يستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، لِيُسَكِّن من غَضَبه، ويكشف له عن طبيعة موقفه، وأنه لم يُقَصِّر في نُصح القوم ومحاولته هدايتهم: ﴿**قال: ابن أُمّ، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني!**﴾ [الأعراف: ١٥٠]..

وهنا نُدرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب؛ حتى لهمّوا بهارون إذ حاول ردّهم عن التردّي والانتكاس: ﴿**ابن أم**﴾.. بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة.

﴿**إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**﴾ بهذا البيان المُصَوّر لحقيقة موقفه.

﴿**فلا تُشمت بي الأعداء**﴾ [الأعراف: ١٥٠].. وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون!.

﴿**ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾ [الأعراف: ١٥٠]. . القوم الذين ضلّوا وكفروا بربهم الحق؛ فأنا لم أضلّ ولم أكفر معهم، وأنا بريء منهم!.

وهكذا نجد هارون أهدأ أعصاباً وأملك لانفعاله من موسى، فهو يلمس في مشاعره. ويجيء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية، ويُبين له موقفه، ويعرض له وجهة نَظَره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره؛ وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره بأن يُحافظ على بني إسرائيل ولا يُحدث فيهم أمراً. فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى. .

عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان. تهدأ ثائرة موسى من موقف أخيه. . وعندئذ يتوجه إلى ربه، يطلب المغفرة له ولأخيه، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين: ﴿**قال: ربِّ اغفر لي ولأخي، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين**﴾ [الأعراف: ١٥١]. .

وبعد ذلك يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء، لأن القوم هم المسؤولون ألا يَتَّبعوا كل ناعق، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هَمُّوا بذلك وهو قائدهم المُؤْتَمن عليهم. فأما السامريّ فذنبه يجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونُصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولاً وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً.

اتجه موسى إلى السامري!.

﴿**قال: فما خطبك يا سامري؟**﴾ [طه: ٩٥]. . أي ما شأنك وما قصّتك. وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر، وعِظَم الفعلة.

﴿**قال: بَصُرْتُ بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثَر الرسول**

فنبذتها. وكذلك سولت لي نفسي﴾ [طه: ٩٦]..

وتتكاثر الروايات حول قول السامريّ هذا. فما هو الذي بَصُر به؟ ومن هو الرسول الذي قَبَض قبضة من أثره فنبذها؟ وما علاقة هذا بعجل الذهب الذي صنعه؟ وما أثر هذه القبضة فيه؟.

والذي يتردد كثيراً في هذه الروايات أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض؛ فقبض قبضة من تحت قدمه، أو من تحت حافر فرسه، فألقاها على عجل الذهب، فكان له هذا الخوار. أو أنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلاً له خوار..

والقرآن لا يُقرر هنا حقيقة ما حدث، إنما هو يحكي قول السامري مُجرد حكاية.. ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامريّ وتَمَلُّصاً من تَبِعة ما حدث. وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تُصَوّت في فراغه فَتُحدث صوتاً كالخوار. ثم قال حكاية أَثَر الرسول يُبرّر بها موقفه، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول!.

وعلى أية حال فقد أَعْلَمَهُ موسى ـ عليه السلام ـ بالطرد من جماعة بني إسرائيل. مدة حياته. وَوَكل أمره بعد ذلك إلى الله. وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده. ليرى قومه بالدليل المادي أنه ليس إلهاً، فهو لا يحمي صانعه، ولا يدفع عن نفسه:

﴿قال: فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول: لا مساس. وإن لك موعداً لن تُخْلَفه. وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً، لنُحَرقَنَّه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾ [طه: ٩٧]..

اذهب مطروداً لا يمسّك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحداً ـ وكانت هذه هي إحدى العقوبات في ديانة موسى ـ عقوبة العزل، وإعلان

دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً.

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله.. وفي حنق وعنف أمر أن يهوي على عجل الذهب، فَيُحْرَق ويُنْسَف ويُلقىٰ في الماء. والعنف إحدى سمات موسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا غضبة لله ولدين الله، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة. وعلى مشهد الإله المزيف يُحرق ويُنسف، يعلن موسى ـ عليه السلام ـ حقيقة العقيدة.

﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو. وسع كل شيء علماً﴾ [طه: ٩٨]..

وهنا يجيء الحكم الفاصل ممن يملكه سبحانه! ويتصل كلام الله سبحانه بما يحكيه القرآن الكريم من كلام عبده موسى على النَسَق الذي يتكرر في السياق القرآني: **﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غَضَب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا. وكذلك نجزي المفترين. والذين عملوا السيئات، ثم تابوا من بعدها وآمنوا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾** [الأعراف: ١٥٢، ١٥٣]..

إنه حُكم وَوَعْد.. إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا.. ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته.. وإذن فقد عَلِمَ الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا تَوْبةً موصولة؛ وأنهم سيرتكبون ما يُخرجهم من تلك القاعدة.. وهكذا كان. فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة؛ ويُسامحهم الله المرة بعد المَرّة، حتى انتهوا إلى الغَضَب الدائم واللعنة الأخيرة: **﴿وكذلك نجزي المفترين﴾**..

كُلُّ المفترين إلى يوم الدين.. فهو جزاء مُتكرر كلما تكررت جريمة

الافتراء على الله، من بني إسرائيل، ومن غير بني إسرائيل. .

وَوَعْد الله صادق لا محالة. وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة. . وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يَسومهم سوء العذاب. فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض؛ ويستعلون بنفوذهم على الأمميين ـ أو كما يقولون عنهم في التلمود: «الجوييم»! ـ وأنهم يملكون سلطان المال، وسلطان أجهزة الإعلام؛ وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تُنفذ لهم ما يريدون؛ وأنهم يَستذلُّون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية؛ والدول الضالة تُساندهم وتُؤيدهم. . إلى آخر ما نراه في هذا الزمان. . فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم، ولا لما كتبه عليهم. .

فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر؛ ويُهيئون الرصيد الذي يُدمِّرهم من السخط والغضب. . إنما هم يستطيلون على الناس في فلسطين مثلاً لأن الناس لم يَعد لهم دين! ولم يعودوا مسلمين! . . إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية؛ ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية! وهم من ثم يخيبون ويفشلون؛ وتأكلهم إسرائيل!.

غير أن هذه حال لن تدوم! إنها فترة الغيبوبة عن السلاح الوحيد، والمنهج الوحيد، والراية الوحيدة، التي غلبوا بها ألف عام، والتي بها يَغلبون، وبغيرها يُغلَبون! إنها فترة الغيبوبة بحكم السموم التي بَثّتها اليهودية والصليبية في كيان الأمة «الإسلامية»! والتي تحرسها بالأوضاع التي تقيمها في هذه الأرض «الإسلامية». . ولكن هذا كله لن يدوم. . ستجيء الصحوة من هذه الغيبوبة. . وسَيَفِيء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين. . ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يوماً على طغيان اليهود! لِتُحَقِّق وَعيد الله لهم، وتَردّهم إلى الذلّة التي كَتَبها الله عليهم. . فإن لم تصحُ البشرية فَسَيَصْحوا أخلاف المسلمين. . هذا عندنا يقين. .

تأديب عنيف وكَفَّارة صارمة :

إنَّ قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ عندما ذهب إلى ميعاد ربه هي هبوط إلى الشرك والوَثنية. . والشرك ظلم عظيم. . ويصف موسى ـ عليه السلام ـ موقف قومه بانحدارهم إلى عبادة العجل بعد غيبة نبيهم الذي أنقذهم باسم الله، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب. يصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة بالظلم: ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**﴾ [البقرة: ٥١]. .

ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيّه ليعبد عجلاً جسداً، وقد أنقذه الله ممن كانوا يُقدّسون العجول!.

ومع هذا فقد عفا الله عنهم، وأتى نبيهم الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيه فرقان بين الحق والباطل، عسى أن يهتدوا إلى الحق البيّن بعد الضلال. . ﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون**﴾ [البقرة: ٥٣]. .

ولم يكن بدّ من التطهير القاسي؛ فهذه الطبيعة المُنهارة الخاوية لا تُقوّمها إلا كفَّارة صارمة، وتأديب عنيف. عنيف في طريقته وفي حقيقته:

﴿**وإذ قال موسى لقومه: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم**﴾ [البقرة: ٥٤]. .

اقتلوا أنفسكم. ليقتل الطائع منكم العاصي. لِيُطَهْره ويُطَهِّر نفسه. . هكذا وردت الروايات عن تلك الكَفَّارة العنيفة. . وإنه لتكليف مُرهق شاق، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه. ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوّارة، التي لا تتماسك عن شرّ، ولا تتناهى عن نكر. ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عَبَدوا العجل. وإذ لم يتناهوا بالكلام

فليتناهوا بالحسام؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتُربّيهم!.

وهنا تُدركهم رحمة الله بعد التَطَهُّر: **﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾** [البقرة: ٥٤]..

وكانت هذه وقفة للتعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله، تتوسط المشهد ثم يمضي السياق يكمل المشهد:

﴿ولما سكت عن موسى الغضبُ أخذ الألواح، وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ [الأعراف: ١٥٤]..

والتعبير القرآني يشخص الغضب، فكأنما هو حي، وكأنما هو مُسلَّط على موسى، يدفعه ويحركه.. حتى إذا «سكت» عنه، وتركه لشأنه! عاد موسى إلى نفسه، فأخذ الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه.. ثم يُقرر السياق مرة أخرى أن في هذه الألواح هُدى، وأن فيها رحمة، لمن يَخشون ربهم ويرهبونه؛ فَتَتَفَتَّح قلوبهم للهدى وينالون به الرحمة.. والهدى ذاته رحمة. فليس أشقى من القلب الضال، الذي لا يجد النور. وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذي لا يجد الهدى ولا يجد اليقين.. ورهبة الله وخشيته هي التي تفتح القلوب للهدى؛ وتوقظها من الغفلة، وتُهيئها للاستجابة والاستقامة.. إن الله خالق هذه القلوب هو الذي يقرر هذه الحقيقة، ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب؟.

التعنت والمعاجزة:

ويمضي السياق بالقصة، فإذا نحن أمام مشهد جديد.. مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه:

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا. فلما أخذتهم الرجفة قال: ربِّ لو شِئْتَ أهلكتهم من قبل وإياي أَتُهلكنا بما فعل السفهاء منا؟﴾ [الأعراف: ١٥٥]..

وتختلف الروايات في سبب هذا الميقات. وربما كان لإعلان التوبة، وطلب المغفرة لبني إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة ـ وقد تبين في السياق أن التكفير الذي فرض على بني إسرائيل هـو: أن يقتلوا أنفسهم، فيقتل المطيع منهم من عصى، وقد فعلوا حتى أَذِنَ لهم بالكف عن ذلك، وقَبِلَ كفارتهم ـ وهؤلاء السبعون كانوا من شيوخهم ومن خيرتهم، أو كانوا هم خلاصتهم التي تُمثلهم، فصيغة العبارة: **﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً.. لميقاتنا﴾**.. تجعلهم بدلاً من القوم جميعاً في الاختيار..

ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين؟ لقد أخذتهم الرجفة فَصُعقوا. ذلك أنهم كما ورد في سورة البقرة(1) طلبوا إلى موسى أن يَروا الله جهرة، لِيُصَدّقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح.. وهي شاهدة بطبيعة بني إسرائيل، التي تشمل خيارهم وشرارهم، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار. وأعجب شيء أن يقولوها وهم في مقام التوبة والاستغفار!.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! هي كثافة حسّ، ومادية فكر، واحتجاباً عن مسارب الغيب.. فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يَروا الله عياناً.

والقرآن يواجه بني إسرائيل في عصر محمد ـ ﷺ ـ بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم، لينكشف تعنتهم القديم الذي يُشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم، وطلبهم الخوارق منه، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتَثَبُّت من صدقه:

﴿وإذ قلتم: يا موسى لن نُؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٥٥]..

---

(1) والظاهر من سياق القصة أن حادثة سورة الأعراف هي هي ما ورد في سورة البقرة. وليست حادثة أخرى في تاريخ بني إسرائيل مع موسى.

إن الحسّ المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة.. أم لعله التَعَنُّت والمعاجزة..

والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تُغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تُجادل وتُماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً. وليس أشد إفساداً للفطرة من الذلّ الذي يُنشئه الطغيان الطويل، والذي يُحطّم فضائل النفس البشرية، ويُحلّل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طِباعِ العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يرفع عنها السوط، وتبطّراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين..

ومن ثم يجدفون هذا التجديف. ويتعنتون هذا التعنت: **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نُؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**..

ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف، وهم على الجبل في الميقات المعلوم: **﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾**..

ومرة أخرى، تُدركهم رحمة الله، وتُوهَب لهم فرصة الحياة عسىٰ أن يذكروا ويشكروا، ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة:

﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ [البقرة: ٥٦]..

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فقد توجّه إلى ربه، يتوسّل إليه، ويطلب المغفرة والرحمة، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة:

﴿فلما أخذتهم الرجفة قال: ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ [الأعراف: ١٥٥]..

فهو التسليم المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد، يقدمه موسى

بين يدي دعائه لربه أن يكشف عن القوم غَضَبه؛ وأن يردّ عنهم فِتْنَتَه، وألا يُهلكهم بفعلة السفهاء منهم: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟﴾ [الأعراف: ١٥٥]. .

وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام. زيادة في طلب استبعاد الهلاك. . أي: ربِّ إنه لمُستبعد على رحمتك أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا.

﴿إن هي إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ [الأعراف: ١٥٥]. .

يعلن موسى ـ عليه السلام ـ إدراكه لطبيعة ما يقع؛ ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء؛ فما هو بغافل عن مشيئة ربّه وفِعْله كالغافلين!.

وهذا هو الشأن في كل فتنة: أن يهدي الله بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين. وأن يضلّ بها من لا يُدركون هذه الحقيقة ومن يَمرون بها غافلين، ويخرجون منها ضالين. . وموسى ـ عليه السلام ـ يقرر هذا الأصل تمهيداً لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء:

﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ [الأعراف: ١٥٥]. . فامنحنا عونك ومددك لاجتياز فتنتك، ونَيل مغفرتك ورحمتك. .

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، وإنّا هُدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦]. . رجعنا إليك، والتجأنا إلى حماك، وطلبنا نصرتك.

وهكذا قَدَّم موسى ـ عليه السلام ـ لطلب المغفرة والرحمة؛ بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه. فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حقّ الرب الكريم؛ ونموذجاً لأدب الدعاء في البدء والختام.

ثم يجيئه الجواب: ﴿**قال: عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ [الأعراف: ١٥٦]..

تقريراً لطلاقة المشيئة، التي تضع الناموس اختياراً، وتُجريه اختياراً: وإن كانت لا تُجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً، لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف في كل ما تجري به مشيئته، لأنه هكذا أراد.. فالعذاب يُصيب به من يستحق عنده العذاب.. وبذلك تجري مشيئته.. أما رحمته فقد وَسِعَتْ كل شيء؛ وهي تَنال من يستحقها عنده كذلك.. وبذلك تجري مشيئته، ولا تجري مشيئته ـ سبحانه ـ بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

نبـأ عظيـم:

وبعـد تقريـر القاعـدة يُطلع الله نبيـه موسى **على طَـرف من الغَيب المقبل، إذ يُطلعه على نبأ المِلّة الأخيرة**، التي سيكتب الله لها رحمته التي وسعت كل شيء.. بهذا التعبير الذي يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خَلَقه، والذي لا يُدرك البشر مداه.. فيا لها من رحمة لا يُدْرِك مداها إلا الله!.

﴿**فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحلّ لهم الطيبات، ويُحرّم عليهم الخبائث، ويَضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونَصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾ [الأعراف: ١٥٧]..

وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى ـ عليهما السلام ـ منذ أمد

بعيد. جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص مِلّته. فهو «النبي الأمي»، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو يُحلّ لهم الطيبات، ويُحرّم عليهم الخبائث، وهو يضع عمن يُؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي عَلِمَ الله أنها سَتُفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به. وأتباع هذا النبي يَتّقون ربهم، ويُخرجون زكاة أموالهم، ويُؤمنون بآيات الله.. وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي، ويُعظّمونه ويُوقّرونه، وينصرونه ويُؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾..

وبذلك البلاغ المُبَكّر لبني إسرائيل - على يَد نبيهم موسى - عليه السلام - كشف الله - سبحانه - عن مُستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مُستقر رحمته.. فلم يبق عذر لأتباع الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المُبَكّر بالخبر اليقين.

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى - عليه السلام - وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به. وفيه التخفيف عنهم والتيسير، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين!.

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً. فقد سَجّل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم أَلأم خَلْق وَقَف لهذا النبي وللدين الذي جاء به.. اليهود أولاً والصليبيون أخيراً.. وأن الحرب التي شَنُّوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً خبيثة ماكرة لئيمة قاسية؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا؛ وما يزالون يصرون ويدأبون!.

والذي يراجع - فقط - ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين يطلع على المدى الواسع المتطاول الذي أداروا فيه

المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم!.

والذي يراجع التاريخ بعد ذلك ـ منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة، وقامت له دولة ـ إلى اللحظة الحاضرة، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة مَحوه من الوجود!.

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية.. وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة.. لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها ـ بالإضافة إلى ما استحدثته منها ـ جملة واحدة!.

وذلك في الوقت الذي يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون في غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار المادية والإلحاد! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من يَنتسبون إلى الإسلام في كل مكان؛ ويَشنُّون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس ـ سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد (المستقلة) لتحلَّ محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية!.

تُنكر «الغيبية» لأنها «علمية»! و«تطوّر» الأخلاق لتصبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في «حرية!»، و«تُطَوِّر» كذلك الفقه الإسلامي، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره. كما يحل الربا والاختلاط الجنسي وسائر المحرمات الإسلامية!!.

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين،

الذين بُشِّروا به وبِنَبيِّه منذ ذلك الأمد البعيد. ولكنهم تلقوه هذا التلقي اللئيم الخبيث العنيد!.

ثم تمضي القصة في سياقها بعد الرجفة التي أخذت رجالات بني إسرائيل.. وقد ذكر عنهم القرآن أن الله أحياهم بعد الرجفة، فعادوا إلى قومهم مؤمنين.

ويقرر القرآن الكريم **حقيقةً عن قوم موسى**.. أنهم لم يكونوا جميعاً ضالين: ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف: ١٥٩]..

هكذا كانوا على عهد موسى؛ وهكذا كانت منهم طائفة تهدي بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى.. ومن هؤلاء من استقبلوا رسالة النبي الأمي في آخر الزمان بالقبول والاستسلام، لما يعرفونه عنها في التوراة التي كانت بين أيديهم على مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ **وفي أوّلهم الصحابي الجليل: عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ**. الذي كان يُواجه يهود زمانه بما عندهم في التوراة عن النبي الأمي، وما عندهم كذلك من شرائع تصدقها شرائع الإسلام.

الميثاق الغليظ:

ثم يمضي سياق القصة في استعراض نفوس بني إسرائيل، وتعنتهم وتقلبّهم، ويُصوّر جبلّتهم وغلظ حسّهم فلا يُسلمون إلا تحت الشدة القاهرة والضغط الثقيل.. فهم هم في كل جيل وقبيل لا يُفلح معهم إلا القهر والخوف:

﴿**وآتينا موسى سُلطاناً مبيناً. ورَفعنا فوقهم الطور بميثاقهم. وقلنا لهم: ادخلوا الباب سُجَّداً. وقلنا لهم لا تعدوا في السبت. وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ [النساء: ١٥٣، ١٥٤]..

والسلطان الذي آتاه الله موسى هو ـ في الغالب ـ الشريعة التي تضمنتها الألواح، فشريعة الله سلطان من الله؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان؛ وما جعل فيها من سطوة على القلوب. لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التي يسنّها البشر لأنفسهم، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد. فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع؛ ولها في النفس مهابة وخشية..

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أَبَوْ الاستسلام لما في الألواح.. وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعته الغليظة. ويذكر القرآن كيف كان الله قد أَخَذَ على بني إسرائيل الميثاق:

﴿وإذ نَتَقْنَا الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم. خذوا ما آتيناكم بقوة، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ [الأعراف: ١٧١]..

إنه ميثاق لا يُنسى.. فقد أُخذ في ظرف لا يُنسى! أُخذ وقد نَتَقَ الله الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق، فأعطوه في ظل خارقة هائلة إذ نظروا فرأوا الصخرة مُعلَّقة فوق رؤوسهم؛ تُهدِّدهم بالوقوع عليهم؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد؛ وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح.. عندئذ فقط استسلموا؛ وأخذوا العهد؛ وأعطوا الميثاق في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس.

ولقد أُمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق. وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي. وتظل موصولة بالله لا تنساه!.

لقد أعطوا الميثاق في ظل خارقة هائلة.. ميثاقاً غليظاً.. مؤكداً وثيقاً.. **﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾**.. يذكره ـ بهذه الصفة ـ ليتناسق

المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذي في صدورهم، ثم يُعطي إلى ـ جانب التناسق ـ معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وبالتخييل الحسي والتجسيم. . .

﴿وإذا أخذنا ميثاقكم، ورفعنا فوقكم الطور: خذوا ما آتيناكم بقوة، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ [البقر: ٦٣، ٦٤]. .

هنا يبرز للخيال مشهد شاخص لبني إسرائيل في ظل الجبل المعلَّق فوقهم. . والموقف مُؤَثِّر يجمع بين التناسق النفسي والتعبيري بين قوة رَفْع الجبل فوق رؤوسهم وقوة أَخْذ العهد، وأَمَرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة. وأن يعزموا فيه عزيمة. فأَمْر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة. . إنه عهد الله مع المؤمنين. . وهو جدّ وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق. . وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته. إنه أمر عظيم. أعظم من كل ما في هذا الوجود. فلا بد أن تُقبل عليه النفس إقبال الجادّ القاصد العارف بتكاليفه، المُتَجَمِّع الهَمّ والعزيمة المُصَمِّم على هذه التكاليف.

ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يُودِّع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقد نودي للتكليف: «مضى عهد النوم يا خديجة». . وكما قال له ربه: **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** [المزمل: ٥]. . وكما قال لبني إسرائيل:

﴿خذوا ما آتيناكم بقوة. واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٦٣]. .

ولا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم. . لا بد مع هذا من تَذَكُّر ما فيه، واستشعار حقيقته، والتَكَيُّف بهذه الحقيقة، كي لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة. فَعَهْد الله منهج حياة، منهج

يستقر في القلب تصوراً وشعوراً، ويستقر في الحياة وَضْعاً ونظاماً، ويستقر في السلوك أدباً وخلقاً، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير.

ولكن هيهات! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها، وغلبت عليها جِبلّتها: **﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾**..

ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى وشملها فضله العظيم، فأنقذها من الخسار المبين:

﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾..

إنه ميثاق الله مع بني إسرائيل.. هذا الميثاق العظيم لا ينقطع بغيبة الرسول والنبي. وقد أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وبعثنا منهم اثنىٰ عَشر نقيباً..﴾ [المائدة: ١٢]..

لقد كان ميثاق الله مع بني إسرائيل ميثاقاً بين طرفين؛ متضمناً شرطاً وجزاء. والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده كما سيأتي.

لقد كان عقداً مع نقباء بني إسرائيل الإثني عشر، الذين يُمَثّلون فروع بيت يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وهم ذرية الأسباط ـ أحفاد يعقوب ـ وعدتهم اثنا عشر سبطاً.. وكان هذا نصه:

﴿وقال الله: إني معكم. لئن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسلي، وعَزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً.. لأكفرن عنكم سيئاتكم، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم، فقد ضلّ سواء السبيل﴾ [المائدة: ١٢]..

.. **﴿إني معكم﴾**.. وهو وعد عظيم. فمن كان الله معه، فلا شيء

إذن ضده. ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود ـ في الحقيقة ـ له ولا أثر. ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله ـ سبحانه ـ تهديه ـ كما أنها تكفيه. ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده.

وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم.

ولكن الله ـ سبحانه ـ لم يجعل مَعيّته لهم جزافاً ولا محاباة؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده.. إنما هو عقد.. فيه شرط وجزاء.

شرطه: إقامة الصلاة.. لا مجرد أداء الصلاة.. إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم؛ وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر!.

وإيتاء الزكاة.. اعترافاً بنعمة الله في الرزق؛ وملكيته ابتداء للمال؛ وطاعة له في التصرف في هذا المال وفق شرطه ـ وهو المالك والناس في المال وكلاء ـ وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن، وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة سبباً في الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئه؛ كما يفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع بشتى ألوانه..

كل هذا الشرّ الذي تحول دونه الزكاة؛ ويحول دونه منهج الله في توزيع المال؛ وفي دورة الاقتصاد..

والإيمـان برسـل الله.. كلهم دون تفـرقـة بينهم. فكلهم جـاء من عند الله؛ وكلهم جاء بدين الله. وعدم الإيمان بواحد منهم كُفر بهم جميعاً، وكُفر بالله الذي بعث بهم جميعاً..

وليس هو مجرد الإيمان السلبي، إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل، وشد أزرهم فيما ندبهم الله له، وفيمـا وقفوا حيـاتهم كلها لأدائه..

فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن بـه، وليقيمه في الأرض، وليحققه في حياة الناس. فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي، ولا مجرد شعائر تعبدية. إنمـا هو منهـج واقعي للحياة. ونـظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة. والمنهج والنظام في حاجة إلى نصـرة، وتعزير، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه.. وإلا فما وَفى المؤمن بالميثاق.

وبعد الزكاة إنفاق عام.. يقول عنه الله ـ سبحانه ـ إنه قـرض لله.. والله هو المالك، وهو الواهب.. ولكنه ـ فضلاً منه ومِنّة ـ يسمي ما يُنفقه الموهوب له ـ متى أنفقه لله ـ قرضاً لله..

لقد تضمن ذلك الميثاق القواعد الثابتة لدين الله. هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً، فَتَنكَّروا لها وأنكروها...

﴿وإذ أخـذنا ميثـاق بني إسرائيـل لا تعبدون إلا الله، وبـالـوالـدين إحساناً، وذي القربى واليتامى والمساكين؛ وقولوا للناس حُسنـاً، وأقيموا الصـلاة، وآتوا الـزكـاة.. ثم تـوليتم إلا قليـلاً منكم وأنتم معـرضـون﴾ [البقرة: ٨٣]..

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبـدوا إلا الله.. القاعـدة الأولى للتـوحيد المـطلق. وتضمن الإحسان إلى الـوالدين وذي القـربى واليتامى

والمساكين. وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة. وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه..

ومن ثم تتقرر حقيقتان:

الأولى: هي وحدة الدين، وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله.

والثانية: هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق..

ذلك كان الشرط. فأما الجزاء فكان:

تكفير السيئات.. والإنسان الذي لا يَنِي يُخطىء، ولا يَنِي يَندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة.. تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره..

وجنة تجري من تحتها الأنهار.. وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق..

وكان هناك شرط جزائي في الميثاق: **﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾**..

فلا هدى له بعد ذلك، ولا أوبة له من الضلال. بعد إذ تبين له الهدى، وتحدد معه العقد، ووضح له الطريق، وتأكد له الجزاء..

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل.. عمن وراءهم. وقد ارتضوه جميعاً، فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم.. فماذا كان من بني إسرائيل!.

كان في هذا الميثاق أن يدخلوا بيت المقدس سُجَّداً. وأن يُعظّموا السَبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيداً..

ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم؛ وغياب القهر لهم، تملَّصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وفسقوا وجحدوا، وظلموا وانتكسوا.. **﴿وما ظلمونا ولكن أنفسهم يظلمون﴾**.. وإن كانت عاقبة ذلك عليهم، فما ظلموا إلا أنفسهم!.

انحراف ومعصية وجحود:

والآن فلننظر كيف سارت خطوات بني إسرائيل المنحرفة: **﴿وإذ قيل لهم: اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا: حِطّة، وادخلوا الباب سُجَّداً، نغفر لكم خطيئاتكم، سنزيد المحسنين﴾** [الأعراف: ١٦١]..

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل. ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم.. وأخذ عليهم الميثاق.. ثم ها هم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق! ها هم أولاء يعصون الأمر ويُبَدِّلون القول!.

ويواجههم القرآن بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود: **﴿وإذ قلنا: ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حيث شئتم رغداً، وادخلوا الباب سُجَّداً، وقولوا: حِطّة. نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء، بما كانوا يفسقون﴾** [البقرة: ٥٨، ٥٩]..

تذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس، التي أمر الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها، ويُخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها.. ولكن القرآن لم يعين اسمها ـ لأنه لا يزيد

في مغـزى القصة شيئاً ـ ونقف عند بيـان القرآن الكـريم. . ها هم أولاء يُؤمرون بدخول قرية بعينها ـ أي مدينة كبيرة ـ، وتُباح لهم خيراتها جميعاً، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها؛ وعلى أن يدخلوا بابهـا سجداً، إعلان الخضوع لله في ساعة النصر، والاستعلاء، فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة. . على أن يدخلوها في هيئة خشوع وخضوع، وذلـك كما دخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة في عام الفتح ساجـداً على ظهر دابتـه ـ وفي مقابل طاعة الأمر، وَعَدهم أن يغفر لهم خطاياهم، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته. فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود. .

فبدلاً من أن يدخلوها سُجَّداً كما أمرهم الله، علامة على التـواضع والخشوع، ويقولوا: حِطَّة. . أي حطّ عنا ذنوبنا واغفر لنا. . فإذا فريق منهم يُبدلون صيغة الدعاء التي أُمروا بها، وقالوا قولاً آخر. ويُبدلون الهيئة التي كُلِّفوا أن يدخلوا عليها. . لماذا؟ تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة: **﴿فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾**. .

ويخص الذين ظلموا بالذكر. إما لأنهم كانوا فريقاً منهم هو الذي بدَّل وظلم. وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعاً، إذا كان قد وقع منهم جميعاً. .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً. . السماء التي تنزل عليهم منها المَنّ والسَّلْوى وظللهم فيها الغمام!. .

﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾. . وهكذا كان ظلم فريق منهم ـ أي كفرهم ـ ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله. .

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الـذي أصابهم في هـذه المرة. لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه. فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله، وتحقيق النذر، ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة. . **﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾** [البقرة: ٥٩]. .

والرجز: العذاب. والفسوق: المخالفة والخروج.. وكانت هذه واحدة من أفاعيل بني إسرائيل!.

اللجاجة والتعنت:

ونتابع قصة بني إسرائيل.. والقرآن حين يعرض القصة يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب... لقد وردت القصة في سور كثيرة.. ففي السور المكية كانت هناك تُذكر ـ مع غيرها ـ لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة.. موكب الأنبياء والرسل، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة.. وأما في السور المدنية فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود.

وسورة البقرة من أوائل ما نزل من السور في المدينة وتتضمن كشف حقيقة اليهود وأفاعيلهم فيما تتضمن من بيان المنهج الرباني. منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة. وسميت السورة بالبقرة تأكيداً على أهمية قصتها..

وقصة البقرة.. تجيء مُفصلة وفي صورة حكاية، وهي ترسم سِمَة اللجاجة والتعنت والتلكُّؤ في الاستجابة، وتحمل المعاذير، التي تتسم بها إسرائيل:

﴿وإذ قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. قالوا: أتتخذنا هزواً؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.. ﴾ [البقرة: ٦٧]..

وفي **هذه القصة القصيرة** ـ التي يعرضها القرآن الكريم في سورة البقرة ـ مجال للنظر في جوانب شتى.. جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجِبلّتهم الموروثة. وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة

البعث، وطبيعة الموت والحياة. ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق. .

إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتَلَمُّس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان!.

لقد قال لهم نبيهم: ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾. . وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ. فَنَبِيّهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو يُنبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أَمْر الله، الذي يسير بهم على هداه. . فماذا كان الجواب؟.

لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلاً على أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس: ﴿**قالوا: أتتخذنا هزواً؟**﴾.

وكان ردّ موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله؛ وأن يردّهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جلّ عُلاه، وأن يُبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقَدْر الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه: ﴿**قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾. .

وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، ويُنَفِّذوا أَمْر نبيهم. . ولكنها إسرائيل!.

نعم. لقد كان في وسعهم ـ وهم في سعة من الأمر ـ أن يمدوا أيديهم

إلى أية بَقَرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، مُنَفّذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ تُدركهم، فإذا هم يسألون: **﴿قالوا: ادع لنا ربك يُبين لنا ما هي؟﴾** [البقرة: ٦٨]..

والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئاً فيما أنهى إليهم!.

فَهُم أولاً: يقولون: **﴿ادع لنا ربك﴾**.. فكأنما هو ربّه وحده لا ربّهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربّه!.

وهم ثانياً: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: **﴿ما هي؟﴾** والسؤال عن الماهية في هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصِّفَة ـ إنكار واستهزاء.. ما هي؟ إنها بقرة. وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سِمة.. بَقرة وكفى!.

هنا كذلك يردهم موسى إلى الجادة، بأن يسلك في الإجابة طريقاً غير طريق السؤال. إنه لا يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جَدَل شكلي.. إنما يُجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يَبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين.. يُجيبهم عن صفة البقرة: **﴿قال: إنها بقرة لا فَارِض ولا بِكر، عَوان بين ذلك﴾**..

إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة، وسط بين هذا وذاك. ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة جازمة:

﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ [البقرة: ٦٨]..

ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية؛ وكان حسبهم وقد ردَّهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولَمّح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي. أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن، فَيَخلِّصوا بها ذمتهم، ويُنفّذوا بذبحها أَمْر ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقة

التعقيد والتضييق. . ولكن إسرائيل هي إسرائيل!.

لقد راحوا يسألون: ﴿**قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟**﴾ [البقرة: ٦٩]. .

هكذا مرة أخرى: ﴿**ادع لنا ربك!**﴾. . ولم يكن بد ـ وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ـ أن يأتيهم الجواب بالتفصيل:

﴿**قال: إنه يقول، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين**﴾ [البقرة: ٦٩]. .

وهكذا ضَيَّقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر في سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة. . مجرد بقرة. . بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها؛ وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء: ﴿**تسرّ الناظرين**﴾. .

وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة؛ فهذا هو الشائع في طباع الناس: أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويُسَرُّوا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويَشمئزوا.

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم، يُعقِّدون الأمور، ويُشددون على أنفسهم، فَيُشدِّد الله عليهم. لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

﴿**قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون**﴾ [البقرة: ٧٠]. .

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مُشكِل. . وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة. فهم يقولون: ﴿**وإنا إن شاء الله لمهتدون**﴾. . ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيداً، وأن

تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصراً وضيقاً، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في سعة منها وفي غِنى عنها:

﴿قال: إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تُثير الأرض ولا تسقي الحرث، مُسلّمة لاشية فيها﴾ [البقرة: ٧١]. .

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر. صفراء فاقع لونها فارهة فحسب. بل لم يعد بد أن تكون ـ مع هذا ـ بقرة غير مُذلَّلة ولا مُدَرَّبة على حرث الأرض أو سقي الزرع؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة.

هنا فقط. . . وبعد أن تَعقَّد الأمر، وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار:

﴿قالوا: الآن جئت بالحق﴾. .

الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً. أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة! **﴿فَذَبحوها وما كادوا يفعلون!!﴾** [البقرة: ٧١].

عندئذ ـ وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف ـ كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف:

﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها، والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا: اضربوه ببعضها. كذلك يُحيي الله الموتى، ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣]. .

وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة. جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة. وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة:

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة. . لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه.

ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يُظهر الحق على لسان القتيل ذاته؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله؛ وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين.

ولكن. فيم كانت هذه الوسيلة، والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة، ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث؟.

إن البقر يُذبح قرباناً كما كانت عادة بني إسرائيل.. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل. وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء.. إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله، التي لا يعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و: ﴿**كذلك يحيي الله الموتى**﴾.. كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع؛ وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس. ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟..

هذا ما لا أحد يدريه. وما لا يمكن لأحد إدراكه.. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانين! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها: ﴿**ويريكم آياته لعلكم تعقلون**﴾..

ونجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق..

هذه قصة قصيرة نَبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه. نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا

بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.

وتعقيباً على هذا المشهد الأخير من القصة، الذي كان من شأنه أن يستجيش في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى؛ وتعقيباً كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعِبَر والعِظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشد قسوة. وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وإن منها لما يهبط من خشية الله. وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة: ٧٤]..

والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى.. هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندكّ حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى.. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة.. ومن ثم هذا التهديد: **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**.

إن القلوب حين تقسو تفسد وتتحجر، فهي قلوب تشي بجفاف الإيمان، وقد نضبت فيها عروق اليقين، وهلكت فيها بذور الخير، فهي تنضح بالشرّ والالتواء والانحراف.. وهي تنبض بالهوى وتفيض بالفساد..

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾..

وتصور هذه الآية حقيقة القلوب حين تقسو، فينعدم فيها الصلاح، وقد انقطعت عن نور الحق فانتكست وارتكست وأظلمت وغارت في ضلال مبين **﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾** [الزمر: ٢٢]..

فالقلوب القاسية تتلقى آيات الله وهداه كما تتلقى الصخرة القاسية

الماء، فلا حياة فيها ولا نداوة! فحين يقسو القلب يغلظ ويجف ويموت، وتحيط به عتمة سوداء، ويغطيه ظلام كثيف، وبرنّة عتاب يحذر الله ـ سبحانه ـ المؤمنين هذا المآل النكد الهابط الذي هوى في ظلامه ووقع في فساده اليهود: ﴿أَلَم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله(١) وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب مِن قبلُ فَطَالَ عليهم الأمدُ فَقَسَتْ قلوبهم(٢) وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذِكْرِ الله تعالى قسوة للقلب! وإن أبعد الناس من الله القلبُ القاسي» رواه الترمذي (٢٤١٣) عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر وحسّنه. قال ابن حبان: إبراهيم بن عبد الله، مستقيم الحديث، وباقي رجاله ثقات.

(٢) أخرج مسلم في كتاب الإيمان (١٤٤) عن حذيفة بن اليمان قال: كنا عند عُمر فقال: أيكم سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يذكر الفِتَن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تُكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي ـ ﷺ ـ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال: حذيفة. فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنتَ، لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشْرِبَها نُكتَ فيه نكتةٌ سوداء. وأي قلب أنكرها نكتَ فيه نكتةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصَّفا. فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً. إلا ما أُشرب من هواهُ».

قال حذيفة: وحدَّثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يُكسر. قال عمر: أكسراً، لا أبالَكَ! فلو أنه فُتِحَ لعله كان يُعاد. قلتُ: لا. بل يُكسر. وحدثته؛ أن ذلك الباب رجلٌ يُقْتل أو يموت. حديثاً ليس بالأغاليط. قال أبو خالد: فقلتُ لسعد: يا أبا مالك! ما أسود مرْبادّاً؟ قال: شدة البياض في سواد. قال: قلت: ما الكوز مجخياً؟ قال: منكوساً.

وقوله: (التي تموج موج البحر) أي تضطرب ويدفع بعضها بعضاً وشبهها بموج البحر لشدة عظمها وكثرة شيوعها.

وقوله: (فأسكت القوم) أي صمتوا. قال الأصمعي: سكت، صمت. وأسكت، أطرق. وإنما سكت القوم لأنهم لم يكونوا يحفظون هذا النوع من الفتنة. وإنما حفظوا النوع الأول.

تلويح بما كان من أهل الكتاب من قسوة في القلوب، وفسق في الأعمال، وتحذير من هذا المآل الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد. .

إنها جولة مع بني إسرائيل في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب، والالتواء واللجاجة، والكيد والدس، والقسوة والجدب، والتمرد والفسوق. .

لقد كانت حملة ضرورية أولاً وقبل كل شيء لتحطيم دعاوى يهود، وكشف كيدها، وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها في الدس للإسلام والمسلمين. . كما كانت ضرورية لتفتيح عيون المسلمين وقلوبهم لهذه

= وقوله: (لله أبوك) كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها.

وقوله: (تُعرض الفتن) أي تلصق بعرض القلوب أي جانبتها كما يُلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به.

وقوله: (عوداً عوداً) قال النووي: هذا الحرفان مما اختلف في ضبطه على ثلاثة أوجه: أظهرها وأشهرها عوداً عوداً، والثاني: عَوداً عَوداً، والثالث: عَوذاً عوَذاً.

وقوله: (فأي قلب أشربها) أي دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب. ومنه قوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي حب العجل. ومنه قولهم ثوب مشرب بحمرة أي خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها.

وقوله: (نكت فيه نكتةٌ) أي نَقَط نقطةٌ. قال ابن دريد وغيره كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت.

وقوله: (أنكرها) أي ردها.

وقوله: (مثل الصفا) قال القاضي عياض: ليس تشبيهاً بالصفا بياناً لبياضه لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وإن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

وقوله (مُجخياً) معناه مائلاً كذا قال الهروي وغيره، وفسره الراوي كما تقدم بقوله منكوساً وهو قريب من معنى المائل قال القاضي عياض: قال لي ابن سرّاج ليس قوله كالكوز مجخياً تشبيهاً لما تقدم من سواد، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قُلِبَ ونُكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة ومثله بالكوز المجخي وبيّنه بقوله لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

الدسائس والمكايد التي تُوَجّه إلى مجتمعهم الجديد، وإلى الأصول التي يقوم عليها؛ كما توجه إلى وحدة الصف المسلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه.

ومن جانب آخر كانت ضرورية لتحذير المسلمين من مزالق الطريق التي عثرت فيها أقدام الأمة المستَخْلَفة قبلهم، فَحُرِمَت مقام الخلافة، وسلبت شرف القيام على أمانة الله في الأرض، ومنهجه لقيادة البشر. وقد تَخلَّلَت هذه الحملة توجيهات ظاهرة وخفية للمسلمين لتحذيرهم من تلك المزالق.

وما كان أحوج الجماعة المسلمة في المدينة إلى هذه وتلك. وما أحوج الأمة المسلمة في كل وقت إلى تَمَلّي هذه التوجيهات، وإلى دراسة هذا القرآن بالعين المفتوحة والحس البصير، لتتلقى منه تعليمات القيادة الإلهية العلوية في معاركها التي تخوضها مع أعدائها التقليديين؛ ولتعرف منها كيف ترد على الكيد العميق الخبيث الذي يوجهونه إليها دائبين، بأخفى الوسائل، وأمكر الطرق.

وما يملك قلب لم يهتد بنور الإيمان، ولم يتلق التوجيه من تلك القيادة المطلعة على السر والعلن والباطن والظاهر، أن يدرك المسالك والدروب الخفية الخبيثة التي يتدسس فيها ذلك الكيد الخبيث المريب..

النعمة بين الكفر والشكر:

لقد حبا الله بني إسرائيل بالخير، وأفاض عليهم النعمة، وآثرهم بالبركات. وقد نجّاهم من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهراً، فجعلهم بعد ذلك أحراراً، بعد أن كانوا عبيداً أذلّاء.. وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير، كي لا ينسوا ولا يبطروا؛ ولا يتجرّدوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح:

﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم، وواعدناكم جانب الطور الأيمن، ونزَّلنا عليكم المنَّ والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم. . ﴾ [طه: ٨٠، ٨١]. .

ويمضي القرآن يعدد آلاء الله عليهم، وكيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق. وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم. . يستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم كأنه حاضر:

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠]. .

إنه يعيد على خيالهم ويستحيي في مشاعرهم صورة الكرب الذي كانوا فيه. . يخاطب بني إسرائيل بهذه النعم إلى قيام الساعة ـ باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد ـ ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب.

يقول لهم: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم، (من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائماً) وكأن العذاب كان هو العذاب الدائم الذي يطعمونهم إياه!! ثم يذكر لوناً من هذا العذاب. هو تذبيح الذكور واستحياء الإناث. كيف يضعف ساعد بني إسرائيل وتثقل تبعاتهم.

وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم. ليلقي في حسّهم ـ وحسّ كل من يصادف شدة ـ أن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وبلاء، واختبار وفتنة. وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة، ويعتبر بالبلاء، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ.

والألم لا يذهب ضياعاً! إذا أدرك صاحبه أنه يمرّ بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها. والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله، وبالتضرّع لله وبانتظار الفَرَج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثم هذا التعقيب الموحي: **﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**..

فإذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب.. **﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾**..

لقد جازوا منطقة الخطر، وانطلقوا ناجين ناحية الطور. وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى، وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير. ولكنه إعلان التسجيل. والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها.

ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أَمْر وقع؛ وكانت مواعدة لموسى ـ عليه السلام ـ بعد خروجهم من مصر، أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربّه. ليسمع ما يُوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة، المُنَظِّمة لهذا الشعب الذي كتب له دوراً يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر.

وَلَم تزل نِعَم الله تتوالى على بني إسرائيل بعد معجزة العبور من البحر. لم تزل تتوالى عليهم تلك النعم، كلما قسا عليهم الجو، أو مسَّهم اللّغوب أو عضّهم الجوع، فتنزل على قلوبهم برداً وسلاماً، وتعيد إلى نفوسهم السكينة والطمأنينة.

ولم تكن هذه النعم التي أفاضها الله على بني إسرائيل نتيجة لأسباب عادية، أو مقدمات طبيعية، ولكنها كانت معجزات عجيبة، أيَّدَ الله بها نبيَّه

موسى ـ عليه السلام ـ، وآيات ربانية كرَّمه الله بها وأغدقها على قومه . .

ويُذكرهم القرآن برعاية الله لهم في الصحراء الجرداء . . **﴿وظللنا عليهم الغمام﴾** . . فحينما اشتدَّ عليهم الحر، ولم يجدوا في صحراء سيناء أشجاراً يتفيأون ظلالها، أو أكناناً تقيهم لفح الهجير، جأروا بالشكوى إلى موسى، فدعا موسى ربه، فساق إليهم الغمام . .

وتذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة . . والصحراء بغير مطر ولا سُحب، جحيم يفور بالنار، ويقذف بالشواظ . وهي بالمطر والسحاب رضية ندية تصحّ فيها الأجسام والأرواح . .

﴿وظللنا عليكم الغمام، وأنـزلنا عليكم المنَّ والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [البقرة: ٥٧] . .

وتنزيل المَنْ . وهو مادة حلوة . وتذكر الروايات كذلك أن الله سخَّره لهم يجدونه على الأشجار يتجمع على أوراقها حلواً كالعسل، وسخّر لهم «السلوى» وهو طائر السّماني يساق إليهم في الصحراء يجدونه بوفرة قريب المنال والمتناول، سهل التناول، كان نعمة من الله ومظهراً لعنايته في الصحراء الجرداء . وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد .

وهو ـ سبحانه ـ يُذكرهم بهذه النعم . . **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه . .﴾** . . يُذكرهم ليأكلوا من الطيبات التي يَسَّرها لهم ويحذرهم من الطغيان فيها . بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذي هم خارجون له، والتكليف الذي يعدهم ربهم لتلقيه . ويسميه طغياناً وهم قريبو العهد بالطغيان، ذاقوا منه ما ذاقوا، ورأوا من نهايته ما رأوا . . **﴿ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي . ومن يَحلل عليه غضبي فقد هوَى﴾** [طه: ٨١] . .

ولقد هوى فرعون منذ قليل. هوى عن عرشه وهوى في المـاء.. والهويّ إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالي. والتعبير ينسق هذه المقابلات في اللفظ والظلّ على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة.

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التي من أجلها خرجوا؛ كي لا تبطرهم النعمة، ولا يترفوا فيها فيسترخـوا.. وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يُخطىء ويرجع: **﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾** [طه: ٨٢]..

والتوبة ليست كلمة تُقال، إنما هي عزيمة في القلب، يتحقق مدلولها بـالإيمان والعمـل الصالـح. ويتجلّى أثرهـا في السلوك العملي في عالم الواقع. فإذا وقعت التوبة وصحَّ الإيمان، وصَدّقه العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق، على هدى من الإيمان، وعلى ضمانـة من العمل الصـالح. فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل..

وكما يَسَّر الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيّه موسى ـ عليه السلام ـ والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام:

﴿وإذ استسقى مـوسى لِقَـوْمـه، فقلنـا: اضـرب بعصـاك الحَجـر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. قد عَلِمَ كل أُناسٍ مشربهم. كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة: ٦٠]..

وهكـذا يتحدث القـرآن الكريم عن رعـاية الله التي مـا زالت تُظَلِّل بني إسرائيل ـ بعد أن كفروا فعبـدوا العجل، ثم كفَّـروا عن الخطيئـة كما أمرهم الله، فتاب عليهم. وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة، فأخذتهم الرجفة، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم.. تتجلى هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمة ـ أي جماعة كبيرة ـ ترجع كل جماعة منها

إلى حفيد من حفداء جدّهم يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية: **﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾** [الأعراف: ١٦٠]..

لقد طلب موسى لقومه السُّقيا. طلبها من ربه فاستجاب له. وأمره أن يضرب حجراً معيناً بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدّة أسباط بني إسرائيل، وكانوا يرجعون ـ كما قلنا ـ إلى اثنتي عشرة سبطاً بعدة أحفاد يعقوب ـ عليه السلام ـ الذي ينتسبون إليه. وأحفاد يعقوب هم المعروفون باسم الأسباط، والذين يرد ذكرهم مكرراً في القرآن، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل. وكانوا ما يزالون يتبعون النظام القبلي، الذي تنسب القبيلة إلى رأسها الكبير.

ويبدو في تنظيمهم تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتَعيينها لهم، فلا يعتدي بعضهم على بعض:

﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه. أن اضرب بعصاك الحجر، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً. قد علم كل أناس مشربهم﴾ [الأعراف: ١٦٠]..

وقيل لهم على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد: **﴿كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** [البقرة: ٦٠]..

لقد كانت رعاية الله لبني إسرائيل نعمة عظيمة فوق نعمة.. تبدو في تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة، وإنزال المن والسلوى، وتفجير العيون لهم من الصخر بضربة من عصا موسى..

والرعاية واضحة في هذا كله، ولكن هذه الجِبلّة ما تزال بعد عَصِيّة على الهدى والاستقامة كما يبدو..

كذلك تبدو في إباحة كل هذه الطيبات لهم، حيث لم يكن قد حُرِّم عليهم بعد شيء بسبب عصيانهم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم..﴾ [الأعراف: ١٦٠]..

إن هذه النِعَم لتملأ القلب بفيض غامر من الشعور برعاية الله، حيثما توجَّه، وحيثما تلفَّت.. وإنها لجديرة بالشكر الدائم.. فتؤوب القلوب الشاردة وتستريح الأرواح المتعبة.

إن نظرة إلى نعمة واحدة بقلب مفتوح كافية لتهزّ الوجدان الإنساني وتَنفض عنه كل حاجز وران تبعده عن الخشوع الصامت لله رب العالمين، وأن تطبع الحسّ البشري بحبّ الله وطاعته بقلوب ملأتها السكينة الجَلِيلَة.

ولو استعرضت الإنسانية فيوض نعمة واحدة لَمَلأْتها الخشية لله رب العالمين ﴿وإن تَعدّوا نِعمة الله لا تُحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، فَضلاً على أن تشكروها. وأكثر النعم لا يدريها الإنسان لأنه يَأْلفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها.. وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يُدركه المرض فيحسّ بالاختلال..

إن الاستقامة على منهج الله وطاعته هو أكمل البرّ، وهو المظهر العملي للشكر، وهو حديث القلب الصامت النافع الرائع..

وفي ظلال آيات الله ونِعَمه تابع موسى مهمته بأمر الله وتوجيهه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا: أن أُخرج قومك من الظلمات إلى النور وذَكِّرهم بأيام الله﴾ [إبراهيم: ٥]..

وكل الأيام أيام الله. ولكن المقصود هنا أن يُذكّرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة، كما سيجيء في حكاية تذكير موسى لقومه. وقد ذَكَّرهم بأيام لهم، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. فهذه هي الأيام.

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ [إبراهيم: ٥]..

ففي هذه الأيام ما هو بؤسىٰ فهو آية للصبر، وفيها ما هو نعمىٰ فهو آية للشكر. والصبَّار الشكور هو الذي يدرك هذه الآيات، ويدرك ما وراءها، ويجد فيها عبرة له وعظة؛ كما يجد فيها تسرية وتذكيراً.

وراح موسى يؤدي رسالته، ويُذكِّر قومه: ﴿وإذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم﴾ [إبراهيم: ٦]..

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم. نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون، لا يفتر عنهم ولا ينقطع. فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تُذكر. وتُذكر لِتُشْكَر.. ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾.

بلاء بالعذاب أولاً، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له. فليس الصبر هو احتمال الذلّ والعذاب وكفى. ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تَضَعْضُع ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان. وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان.

وبلاء بالنجاة من فرعون ثانياً لامتحان الشكر، والاعتراف بنعمة الله، والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة..

ويمضي موسى في البيان لقومه. بعدما ذكَّرهم بأيامه. ووَجَّههم إلى الغاية من العذاب والنجاة. وهي الصبر للعذاب والشكر للنجاة..

ومضت آلاء الله ونِعَمه تَتْرى على بني إسرائيل.. فقد ساق لهم ـ كما تقدّم ـ الغَمام ظلاً ظليلاً في الصحراء المحرقة، وأنزل عليهم المَنّ والسلوى طعاماً سهلاً طيباً، وفجَّر لهم من الحجر ماءً سلسبيلاً هنيئاً مريئاً.. لقد

مضت نعمة الله على بني إسرائيل بلا جهد من القوم ولا مشقة.. نعمة تسوقها الرحمة والقدرة الإلهية فتلقي على القوم ظل الرعاية والنعمة من هذا الفيض المدرار.

ويمضي موسى ـ عليه السلام ـ ليبين لهم ما رتّبه الله جزاء على الشكر والكفران: **﴿وإذ تأذّن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** [إبراهيم: ٧]..

إن الإنسان في حياته يَتَقَلَّب في الابتلاء.. يُبتلى بالشدّة، ويُبتلى بالرخاء والنعمة.. والابتلاء بالشدة قد يَستحثّ المقاومة ويُجنّد الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها. أما الرخاء بالنعمة فيرخي الأعصاب وَيُنِيمها ويفقدها القدرة على اليقظة إلا من عصم الله واستمسك بهديه. فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أمر عظيم.. حتى تشكر المنْعِم فتحافظ على النعمة وتزيدها.

إن التوسعة بالنعمة والإكرام بفيضها هو الابتلاء، تمهيداً للجزاء.. الابتلاء ليظهر الإنسان الشكر على النعمة أو البطر والطغيان. إنه سبحانه يُعطي ليبتلي. غير أن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لا يُدرك حكمة الفيض بالنعمة والعطاء ولا حقيقة النعمة في ميزان الله.. فإذا عمّر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء.

نمضي مع موسى ـ عليه السلام ـ وهو يوجّه قومه ويُربِّيهم: **﴿وإذ تأذّن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**..

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر.

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أوَّل وهلة لأنها وَعْد من الله صادق. فلا بد أن يتحقق على أية حال.. فإذا أَرَدْنا أن نرى مِصْداقها

في الحياة، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب.

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة. .

هذه واحدة. . والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بَطَر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشرّ والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يُزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما يُنمّيها ويُبارك فيها؛ ويُرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً؛ ويُصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وَعْد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يُدركها، فهو حقّ واقع لأنه وَعْد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكدّ الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكِبَر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد. . وكله كفر بنعمة الله. . والعذاب الشديد قد يتضمن مَحق النعمة. عَيناً بذهابها. أو سحق آثارها في الشعور. فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين! وقد يكون عذاباً مُؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله. ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء.

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره. فالله غني بذاته محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه.

﴿وقال موسى: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم: ٨]. .

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله، وتستقيم بشكر الخير، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم، فلا تَخْشَىٰ نفاد النعمة وذهابها، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها. فالمنعم موجود، والنعمة بشكره تزكو وتزيد.

ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه. ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذِّبة بالرسل والرسالات. وذلك من بدائع الأداء في القرآن، لإحياء المشاهد، ونقلها من حكاية تُروى إلى مشهد يُنظر ويُسمع، وتتحرك فيه الشخوص، وتتجلى فيه السمات والانفعالات. .

والآن إلى الساحة الكبرى التي يتلاشى فيها الزمان والمكان: **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟ جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أُرسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾** [إبراهيم: ٩]. .

هذا التذكير من قول موسى. ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها. قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان. . وكأن موسى «راوية» يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى. ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون. . وهي طريقة من طُرق العرض للقصة في القرآن، تُحوّل القصة المَحْكِيّة إلى رواية حَيّة كما أسلفنا. وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان، يواجهون البشرية متجمعة في جاهليتها. حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها.

وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الـزمان والمكـان، كما هي في حقيقـة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان:

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟﴾.

فهم كثير إذن، وهناك غير من جاء ذكرهم في القرآن. ما بين ثمود وقوم موسى. والسياق هنا لا يعني بتفصيل أمرهم، فهناك وُحدة في دعـوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به:

﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾.. الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم.

﴿فَرَدُّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أُرسلتم به؛ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾..

رَدُّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد؛ بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصـوت ويُسمـع. يرسم السيـاق هذه الحـركة التي تـدل على جهرهم بـالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحـركة الغليـظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر..

وبعد عرض مشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان نمضي قُدماً في رحلة بني إسرائيل وقد أكرمهم الله بنعمه وآلائه من فيض المنعم الوهَّاب..

والآن فلننظر كيف تَلقَّى بنو إسرائيل رعاية الله لهم؛ وكيف سـارت خطواتهم الملتوية على طول الطريق.. **﴿وما ظلمونا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** [البقرة: ٥٧]..

ها هم أولاء في الصحراء بجـدبها وصخـورها، والسمـاء بشواظهـا ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم

منها المَنّ والسلوى: عسلاً وطيراً. . ولكن البنية النفسية المُفَكَّكة، والجِبلّة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أُخرجوا من مصر، ومن أجلها ضَربوا في الصحراء. .

لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ من الذل والهوان ليُورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضَعة. . وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يُؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. حتى بأن يُغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يُكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة.

إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي أَلِفُوها في مصر. يريدون العَدس والثُوم والبَصل والقثاء. . وما إليها وهذا ما يُذَكّرهم القرآن به. وهم يَدّعون دَوْماً دعاواهم العريضة:

﴿وإذ قلتم: يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. . ﴾.

ولقد تلقى موسى ـ عليه السلام ـ طلبهم بالاستنكار: **﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟﴾** [البقرة: ٦١]. .

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية؟.

﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾ [البقرة: ٦١]. .

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء، فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها.

وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أُخرجتم منها. . عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة. إلى حياتكم الخانعة الذليلة. . حيث تجدون

العدس والبصَل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها. . ويكون هذا من موسى ـ عليه السلام ـ تأنيباً لهم وتوبيخاً. .

ونُرجّح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسدين، نرجحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى: **﴿وضُربت عليهم الذلّة والمَسكنة وباءوا بغضب من الله﴾** [البقرة: ٦١]. .

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن ـ من الناحية التاريخية ـ في هذه المرحلة من تاريخهم؛ إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها:

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [البقرة: ٦١]. .

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال. إنما عجل السياق بذكر الذلّة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم: **﴿اهبطوا مصراً﴾** هو تذكير لهم بالذلّ في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان!.

ويلتفت سياق القصة لفتة عجيبة. فيخاطب النبي ـ ﷺ ـ يُكلفه أن يسأل بني إسرائيل ـ وهم نموذج التلكؤ في الاستجابة لنداء الإيمان ـ: كم آتاهم الله من آية بَيِّنة ثم لم يستجيبوا! وكيف بدّلوا نعمة الله، على مختلف ألوانها من بعد ما جاءتهم:

﴿سَلْ بني إسرائيل: كم آتيناهم من آية بَـيِّنة، ومن يُبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ [البقرة: ٢١١]. .

وهنا تحذير من موقف بني إسرائيل! موقف التلكؤ دون الاستجابة؛ وموقف النشوز والفسوق، وموقف التعنت وسؤال الخوارق ثم الاستمرار في

العناد والجحود.. وهذه هي مزالق الطريق التي يُحذِّر الله الجماعة المسلمة منها، كي تنجو من عاقبة بني إسرائيل المنكودة.

﴿سَلْ بني إسرائيل: كم آتيناهم من آية بيِّنة﴾ [البقرة: ٢١١]..

والسؤال هنا قد لا يكون مقصوراً على حقيقته. إنما هو أسلوب من أساليب البيان، للتذكرة بكثرة الآيات التي آتاها الله بني إسرائيل، والخوارق التي أجراها لهم.. إما بسؤال منهم وتعنت، وإما ابتداء من عند الله لحكمة حاضرة.. ثم ما كان منهم ـ على الرغم من كثرة الخوارق ـ من تردد وتلكؤ وتعنت ونكوص عن الاستسلام الخالص لقيادة الله وشريعته الذي يظلل كنف الإيمان.

ثم يجيء التعقيب عاماً: **﴿ومن يُبدل نعمة الله من بَعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾**..

ونعمة الله المشار إليها هنا هي نعمة إسلام النفس لله رب العالمين. أو نعمة الإيمان. فهما مترادفتان. والتحذير من تبديلها يجد مصداقه أولاً في حال بني إسرائيل، وحرمانهم من السلم والأمان والطمأنينة والاستقرار، منذ أن بدَّلوا نعمة الله، وأبوا الطاعة الراضية، والاستسلام لتوجيه الله. وكانوا دائماً في موقف الشاك المتردد، الذي يظل يطلب الدليل من الخارقة في كل خطوة وكل حركة؛ ثم لا يؤمن بالمعجزة، ولا يطمئن لنور الله وهداه، والتهديد بشدة عقاب الله مصداقه أولاً في حال بني إسرائيل، ويجد مصداقه أخيراً فيما ينتظر المُبدِّلين للنعمة المُتَبَطِّرين عليها في كل زمان.

وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة. وها هي ذي البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض كلها تعاني العقاب الشديد، وتجد الشقوة النكدة، وتعاني القلق والحيرة؛ ويأكل بعضها بعضاً؛ ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه، ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة، وبالخواء القاتل الذي يحاول

المتحضرون أن يملأوه تارة بالمسكرات والمخدرات، وتارة بالحركات الحائرة التي يُخيل إليك معها أنهم هاربون تطاردهم الأشباح!.

ونظرة إلى صورهم في الأوضاع العجيبة المتكلفة التي يظهرون بها: من مائِلة برأسها، إلى كاشفة عن صدرها، إلى رافعة ذيلها، إلى مُبتدعة قبعة غريبة على هيئة حيوان! إلى واضع رباط عنق رسم عليه تيتل أو خيل! إلى لابس قميص تَربَّعت عليه صورة ثعلب أو دبّ!.

ونظرة إلى رقصاتهم المجنونة، وأغانيهم المحمومة، وأوضاعهم المتكلفة وأزيائهم الصارخة في بعض الحفلات والمناسبات؛ ومحاولة لفت النظر بالشذوذ الصارخ، أو ترضية المزاج بالتميز الفاضح..

ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصداقات والأزياء بين فصل وفصل، لا بين الصباح والمساء!.

كل أولئك يكشف عن الحيرة القاتلة التي لا طمأنينة فيها فلا سلام. ويكشف عن حالة الملل الجاثم التي يفرون منها، وعن حالة «الهروب» من أنفسهم الخاوية وأرواحهم الموحشة، كالذي تطارده الجِنَّة والأشباح.

وإن هو إلا عقاب الله، لمن يحيد عن منهجه، ولا يستمع لدعوته، ويُبدِّل نعمته.. **﴿ومن يُبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾**..

وإن الإيمان الواثق لنعمة الله على عباده، لا يُبدلها مُبدّل حتى يحيق به ذلك العقاب.. والعياذ بالله..

ولقد آتى الله بني إسرائيل من نعمته، ورزقهم من فضله، وآتاهم ما لم يؤت أحداً قبلهم وفضَّلهم على العالمين.. وهذا كله إنما يعطيه الله للناس ابتلاءً منه وامتحاناً، لينظر أيشكرون أم يكفرون؟.

والقرآن يستحضر أمام خيال بني إسرائيل مشهد النعم التي ظَلَّت

تتوالى عليهم من نجاتهم من العذاب المسلَّط عليهم، وإغراقِ عدوهم، إلى تظليل الغمام إلى المن والسلوى إلى تفجير الصخر بالماء.. ثم يُذَكِّرهم بما كان منهم من انحرافات متوالية، ما يكاد يردّهم عن واحدة منها حتى يعودوا إلى أخرى، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة، وما يكادون ينجون من عَثرةٍ حتى يقعوا في حفرة.. فقد كفروا بالنعمة ولم يشكروا، وطغوا وبغوا بما أُعطوا.. ونفوسهم هي هي في التوائها وعنادها وإصرارها على الالتواء والعناد، كما أنها هي هي في ضعفها عن حمل التكاليف، ونكولها عن الأمانة، ونكثها للعهد، ونقضها للمواثيق مع ربها ونبيها..

إنه حال عجيب. حال بني إسرائيل الذين وُهِبُوا نعمة الله.. فإذا هم قد بدّلوا النعمة كفراً وفسوقاً.. وعندئذ حقت عليهم سُنّة الله **﴿ذلك بأن الله لم يك مُغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [الأنفال: ٥٣].. وعندئذ غيَّر الله النعمة وأخذهم بشديد العقاب..

لقد ظلموا وجحدوا. وكانت عاقبة ذلك عليهم، فما ظلموا إلا أنفسهم.. **﴿وما ظلمونا ولكن أنفسهم يظلمون﴾** [البقرة: ٥٧]..

قصة موسى والخضر

وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب، لا ينفذ إليه علمه، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل، إلا بقدر ما يكشف له منه عَلاَّم الغيوب. وكـان الخير في هـذا الذي أراده الله، فلو علم الله أن في كَشف هذا الستر المسبل خيراً لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه!.

لقـد شاءت حكمـة الله في خَلقه أن حُجَب عنهم الغيب، واختص ـ سبحانه ـ بعلم الغيب **﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب. ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورُسله. وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾** [آل عمران: ١٧٩]..

فهو سبحانه ما كان من شأنه أن يُطلع البشر على الغيب، الذي استأثر به، فهم ليسوا مُهيئين بطبيعتهم التي فَطَرهم عليها للاطلاع على الغيب، وجهازهم البشري الذي أعطاه الله لهم ليس «مُصَمَّماً» على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار، وهو مُصَمم هكذا بحكمة. مصمم لأداء وظيفة هذه الخلافة في الأرض. وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب. ولو فُتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم. لأنه ليس مُعَداً لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه، ويصل كيانه بكيان هذا الكون. وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها، ألاَّ يُحرك يَداً ولا رِجلاً في عمارة الأرض، أو يَظلّ قلقاً

مشغولاً بهذه المصائر، بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض! .

من أجل ذلك لم يكن من شأن الله ـ سبحانه ـ، ولا مقتضى حكمته، ولا من مجرى سنته أن يُطلع الناس على الغيب فهو **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** [الأنعام: ٧٣]. .

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يُحقق به الخلافة في الأرض، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم. . ولا زيادة. . وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يُعينه في هذه المهمة. بل إن انطباق أهدابه دونه لما يثير تطلعه إلى المعرفة، فينقب ويبحث ويعمل لعمارة هذه الأرض، ويُحقق وَعْد الله بخلافة هذا المخلوق الإنساني فيها. وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينسئوا ويُخَلِّفوا ما وراءهم ما بدؤوه يُتِمُّه الخلف حتى يأتيهم ما خبيء لهم خلف الستار الرهيب.

وأمام هذه الحقيقة المتجلية البسيطة المريحة، يتجه الله ـ سبحانه ـ إلى الذين آمنوا ليحققوا في ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه **﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾**. .

وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً! وليس لديه العلم بالغيب، ولا إمكان العلم. . فهو سبحانه **﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾** [الأنبياء: ٢٣]. .

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يُسأل؛ ومن ذا الذي يسأله؛ وهو القاهر فوق عباده، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذه حاكماً لنظام الوجود؟ .

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المُتَعجِّب: ولماذا صَنَع الله كذا. وما الحكمة في هذا الصنيع؟ وكأنما

يريدون ليقولوا: إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع!.

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حَيِّزه المحدود..

إن الذي يعلم كل شيء، ويدبر كل شيء، ويسيطر على كل شيء، هو الذي يُقدر ويُدبّر ويحكم، فهو ـ سبحانه ـ العليم بكل شيء، المحيط بكل شيء، ويرسم القرآن الكريم صورة فريدة لهذا العلم:

﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقه إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس، إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩]..

إنه المشهد الشامل الواسع العميق الرائع.. المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده؛ المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء، الذي تتعلق مشيئته وقَدَره بكل شيء.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب..

وقصة موسى والخضر هي من قصص القرآن الكريم الرائعة، فهي مَعرض لحكمة الله وعلمه وتدبيره الخفي اللطيف. فهي «قصة هذه الحياة وقصة هذا الكون الذي نعيش فيه. إنها قصة تثبت في صورة عملية واضحة رائعة أن وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة، وإن ما يجهله الإنسان ـ وأعظم إنسان في عصره ـ أكثر مما يعلمه، وإنه دائماً يبني حكمه على ما يشاهد ويشعر، ولذلك يُخطىء كثيراً ويتعثر كثيراً، وإنه لو انكشفت له حقائق الحياة وبواطن الأمور وعواقبها لتغيَّر حكمه كثيراً ونقض ما أبرم، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته وميوله

وانطباعاته، وأن لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم والإلحاح على سوانح الآراء، فإن الحياة غامضة ملتوية، وأن الكون واسع فسيح، وكثيراً ما يختلف الباطن عن الظاهر والآخر عن الأول، وأن في هذه الحياة ألغازاً لم يستطع الإنسان ـ على ذكائه وعلمه وحرصه ـ أن يحلّها، وأن في هذا الكون عُقداً وغوامض لم يستطع العلم البشري مهما اتسع وارتفع أن يكشفها، وأن حياتنا اليومية مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهورة، والآراء المُرتجلة، وأنه لو أُسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح ومُنحَ الحرية التامة والتصرف المطلق لأفسد العالم وأهلك الحرث والنسل، لأن نظره قاصر وعلمه محدود وقد خُلق من عَجَل وفُطر على السرعة وقلة الصبر»[1].

لقد اختار الله ـ سبحانه ـ لتقرير وتأكيد هذه الحقيقة العظيمة ـ التي هي أساس الأديان والإيمان بالغيب ـ أعظم شخصية في عصره، أوتي علماً كثيراً وخيراً عميماً هو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحد أُولي العزم من الرسل، والذي اختصَّه الله واصطفاه وقرّبه نجياً **﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾** [النساء: ١٦٤]..

عن أُبي بن كعب، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قام موسى في بني إسرائيل خطيباً، فقيلَ له: أيُّ الناس أعلم؟ قال: أنا، قال: فعتبَ الله عليه، إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فقال: عَبْدٌ لي بِمَجْمَعِ البحرين هو أعلمُ منك. قال: أي ربِّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً، فتجعله في مِكْتَل[2]، فحيثما ما فقدتَ الحوتَ، فهو ثَمَّ. قال: فأخذ الحوتَ، فجعله في المِكْتَل، فدفعه إلى فتاه، فانطلقا حتى أتيا الصخرة، فرَقَد موسى، فاضطربَ الحوت في المِكْتَل، فخرج، فوقع في البحر، فأمسك الله عليه جَرْيَةَ الماء فصار مثل

(١) أبو الحسن الندوي ـ تأملات في سورة الكهف ـ «المسلمون» المجلد السادس: ٢٢٨.
(٢) المكتل: هو القفة والزنبيل، يَسع خمسة عشر صاعاً.

الطاق[1]، فكان البحر للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً فانطلقا يمشيان. فلما كان من الغد وجد موسى النَّصب. . »[2].

---

(١) الطاق: عقد البناء، وجمعه طيقان وأطواق، وهو الأزج، وما عقد أعلاه من البناء، وبقي ما تحته خالياً (النووي في شرح مسلم ١٣٨/٥).

(٢) وفي تتمة حديث أبي: «فلما كان من الغد، وجد موسى النَّصب فقال: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾. قال: ولم يجد النَّصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله جلَّ وعلا، فقال له فتاه: ﴿أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ قال: ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً﴾، فجعلا يَقُصَّان آثارهما حتى أتيا الصخرة، فإذا رجل مُسَجَّى بثوب، فسلَّم، فقال: وأنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: يا موسى، إني على عِلم من علم الله، عَلَّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علَّمكه لا أعلمه. قال: إني أريد أن أتبعك على أن تُعلمني مما عُلمتَ رُشْداً، ﴿قال: إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبراً﴾. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدِثَ لك منه ذكراً﴾.

قال: فانطلقا يمشيان على الساحل، فمرت به سفينة، فعرفوا الخَضِر، فحملوه بغير نول. قال: فلم يفجأ موسى إلا وهو يُنْزِل لوحاً من ألواح السفينة، فقال له موسى: ما صنعتَ؟ قوم حملوك بغير نَوْل عمدتَ إلى سفينتهم، فخرقتها ﴿لتغرق أهلها، لقد جئتَ شيئاً إمراً. قال: ألَمْ أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال: فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور، فوقع على حُرف السفينة، فَنَقَر بمنقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما نقص عِلمي وعِلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

قال: ومروا على غِلمان يلعبون، فقال الخضر لغلام منهم بيده هكذا، فاقتلع رأسه، فقال له موسى: ﴿أقتلتَ نفساً. . . [إلى قوله سبحانه]: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدني عُذراً﴾.

قال: فأتيا ﴿أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن يَنْقَضَّ﴾ فقال الخضر بيده هكذا، فأقامه، فقال له موسى: استطعمناهم، فأبوا أن يطعمونا، واستضفناهم فأبوا أن يضيفونا، عمدتَ إلى حائطهم، فأقمتهُ! ﴿لو شئت لاتَّخذتَ عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وَدِدْنَا أن موسى كان صَبَر حتى يقص علينا من أمرهم».

وكان ابن عباس يقرأ: «وأما الغلام كان كافراً وكان أبواه مؤمنين، ويقرأ: وكان أمامهم =

﴿وإذ قال موسى لفتاه: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقباً. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً. فلما جاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجباً. قال: ذلك ما كنّا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدُنّا علماً. قال له موسى: هل أتبعك على أن تُعَلِّمن مما عُلِّمت رُشداً..﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٦٦]..

هذه الحلقة من سيرة موسى ـ عليه السلام ـ لا تُذكر في القرآن كله إلا في موضعها في سورة الكهف.

والقرآن لا يحدد المكان الذي وقعت فيه إلا بأنه «مَجمع البحرين» ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى، هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل أم بعد خروجه منها؟ ومتى بعد الخروج: قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة، أم بعدما ذهب بهم إليها فوقعوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين؟ أم بعد ذهابهم في التيه، مُفرقين مُبددين؟ كذلك لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح الذي لقيه موسى من هو؟ ما اسمه؟ **هل هو نبي أو رسول**(١)؟.

= مَلك يأخذ كل سفينة غصباً». أخرجه البخاري ومسلم، ورواه ابن حبان في صحيحه، وإسناده صحيح على شرط مسلم والنص لابن حبان. انظر الإحسان ٦٢٢٠ و١٠٢.

(١) وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنه «الخَضِر». وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنما سُمّي الخَضِر خَضِراً، لأنه جَلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء». والفَروة: أرض بيضاء ليس فيها نبات. (أخرجه أحمد ٢/٣١٢ و٣١٨، والترمذي ٣١٥١، وابن حبان في صحيحه، وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر الإحسان ٦٢٢٢).

وقد اختلف أهل العلم: هل كان الخَضِر نبياً ولياً، والذي تدعمه الأدلة أنه كان نبياً. وقد قال الثعالبي: هو نبي في سائر الأقوال. انظر الفائدة الشافية حول الخضر في الإحسان ١٤/١٠٩.

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس[١] وغيره في هذه القصة. ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن. ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به، دون تحديد للمكان والزمان والأسماء، حكمة خاصة. فنقف نحن عند النص القرآني نتملاه..

﴿وإذ قال موسى لفتاه: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً﴾..

والأرجح ـ والله أعلم ـ أنه مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم، أي البحر الأبيض والبحر الأحمر. ومجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المُرّة وبحيرة التمساح. أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر. فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. وعلى أي فقد تركها القرآن مجملة فنكتفي بهذه الإشارة[٢].

ونفهم من سياق القصة فيما بعد ـ أنه كان لموسى ـ عليه السلام ـ هَدف من رحلته هذه التي اعتزمها، وأنه كان يقصد من ورائها أمراً، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول. وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن

---

(١) عن ابن عباس، أنه تمارى هو والحُرّ بن قيس بن حِصْن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو الخَضِر. فمرَّ بهما أُبَيّ بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: يا أبا الطفيل! هلُمَّ إلينا، فإني قد تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لُقيِّه، فهل سمعتَ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فيه شيئاً؟ فقال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟....» وكان من شأن القصة ما تقدم. انظر الإحسان (رقم ١٠٢)، وانظر ما أورده البخاري عند الكلام عن هذه القصة في القرآن..

(٢) ورد أن قتادة وغير واحد قال: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة ـ يعني في أقصى بلاد المغرب ـ. ونحن نستبعد القولين..

من قوله: ﴿أو أمضي حقباً﴾ والحقب قيل: عام، وقيل: ثمانون عاماً. على أية حال فهو تعبير عن التصميم، لا عن المدة على وجه التحديد.

﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً. فلما جاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجباً..﴾.

والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشوياً، وأن إحياءه واتخاذه سبيله في البحر سرباً كان آية من آيات الله لموسى، يعرف بهما موعده، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص في البحر ما كان في هذا عجب. ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية. فهذه إحداها.

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه للقاء عبده الصالح. وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه:

﴿قال: ذلك ما كنا نبغ. فارتدا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾..

ويبدو أن ذلك اللقاء كان سرّ موسى وحده مع ربه. فلم يطلع عليه فتاه، ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح في المشاهد التالية للقصة:

﴿قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلِّمْتَ رُشداً؟﴾..

بهذا الأدب اللائق بنبي، يستفهم ولا يجزم، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم.

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح الأسباب القريب النتائج، إنما هو جانب من العلم اللّدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده، للحكمة التي أرادها. ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل

وتصرفاته ولو كان نبياً رسولاً. لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي، وبالأحكام الظاهرة، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المُغَيَّبة؛ وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار. لذلك يخشى العبد الصالح الذي أُوتي العلم اللَّدني على موسى ألَّا يَصبر على صحبته وتصرفاته:

﴿قال: إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟﴾ [الكهف: ٦٧]..

ويعزم موسى على الصبر والطاعة، ويستعين بالله، ويُقدِّم مشيئته: ﴿قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ [الكهف: ٦٩]..

فيزيد الرجل توكيداً وبياناً، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة، وهو أن يصبر فلا يَسأل ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها:

﴿قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً﴾ [الكهف: ٧٠]..

مفاجــآت غيبيـــة:

ويرضى موسى.. وإذا نحن أمام المشهد الأول لهما: ﴿فانطلقا حتى إذا ركبا السفينة خرقها﴾ [الكهف: ٧١]..

سفينة تحملهما وتحمل معهما ركاباً، وهم في وسط اللجّة؛ ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة!.

إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تُعرِّض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدي بهم إلى هذا الشر، فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر؟.

لقد نسي موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه، أمام هذا التصرف

العجيب الـذي لا مُبرر لـه في نظر المنـطق العقلي! والإنسان قـد يتصور المعنى الكلي المجرد، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعاً غير التصور النظري.

فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد. وها هو ذا موسى الذي نُبّه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبراً على ما لم يُحط به خبراً، **فاعتزم الصبر واستعان بـالمشيئة** وبَـذَل الوعـد وقَبِلَ الشـرط، ها هـو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مُستنكراً.

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته.. منذ أن وَكَز الرجـل المصري الـذي رآه يقتتل مـع الإسرائيلي فقتله في اندفاعة من اندفاعاته. ثم أناب إلى ربه مستغفراً معتذراً حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يَقْتَتِل مع مصري آخر، همَّ بالآخر مرة أخرى!.

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة. ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذي قطعه أمام غرابتهـا. ولكن الطبيعـة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وَقْعاً وطعماً غيـر التصور النظري. ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها.

ومن هنا اندفع موسى مُستنكراً: ﴿**قال: أخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً**﴾ [الكهف: ٧١]..

وفي صبر ولطف يُذكّره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البدايـة: ﴿**قال: ألم أقل: إنك لن تستطيع معي صبراً؟**﴾ [الكهف: ٧٢]..

ويعتذر موسى بنسيانه، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عُذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير: ﴿**قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تـرهقني من أمري عسراً**﴾ [الكهف: ٧٣]..

ويقبل الرجل اعتذاره، فنجدنا أمام المشهد الثاني: ﴿**فانطلقا. حتى إذا لقيا غلاماً فقتله**..﴾ [الكهف: ٧٤]..

وإذا كانت الأولى خَرْق سفينـة واحتمال غَـرَق مَن فيها؛ فهـذه قتل نفس. قَتْل عَمْد لا مُجرد احتمال. وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تَذَكُّره لِوَعْده: ﴿**قال: أَقَتَلْتَ نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نُكراً**﴾ [الكهف: ٧٤]..

فليس ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً، ولكنه قاصد. قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسباباً؛ والغلام في نظره بريء. لم يرتكب ما يوجب القتل، بـل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخَـذاً على ما يصدر منه.

ومرة أخرى يردّه العبد الصالح إلى شرطه الذي شرط ووعـده الذي وعد، ويذكره بما قال له أول مرة. والتجربة تصدقه بعد التجربة:

﴿**قال: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع معي صبراً**﴾ [الكهف: ٧٥]..

وفي هذه المرة يعين أنه قال لـه: ﴿**ألم أقل لـك**﴾؟ لك أنت على التعيين والتحديد. فلم تقتنع وطلبتَ الصحبة وقبلت الشرط.

ويعود موسى إلى نفسه، ويجد أنه خالف عن وعـده مرتين، ونسي ما تعهد به بعد التذكير والتفكير. فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويجعلها آخر فرصة أمامه: ﴿**قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني**[١]. **قد بلغتَ من لدني عذراً**﴾ [الكهف: ٧٦]..

---

(١) عن أُبيّ بن كعب، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه، وإنه قال ذات يوم: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صَبَر مع صاحبه لرأى العَجَب الأعـاجيب، ولكنه قال: ﴿**إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني**﴾..

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث:

﴿فانطلقا. حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضَيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ [الكهف: ٧٧].

إنهما جائعان، وهما في قرية أهلها بخلاء، لا يُطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً. ثم يجد أن جداراً مائلاً يهم أن ينقض.

والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول: **﴿يريد أن ينقض﴾** فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل!!!.

وهنا يشعر موسى بالتناقض في الموقف. ما الذي يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جداراً يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما؟ أفلا أقل من أن يطلب عليه أجراً يأكلان منه؟ **﴿قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً!﴾** [الكهف: ٧٧].

وكانت هي الفاصلة. فلم يعد لموسى من عذر، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال:

﴿قال: هذا فراق بيني وبينك. سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٧٨].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن قصة موسى هذه: «وتبدأ رحلته مع الرجل الذي آتاه الله من عنده رحمة وعَلَّمه من لدنه علماً فيصطدم علمه وفهمه بالحقيقة الراهنة، ويتعارض حكمه ورأيه واتجاهه ـ وهو الاتجاه الذي يقرره الظاهر ـ مع واقع الأمر الذي يجهله، ثلاث مرات: إن الخضر يخرق السفينة التي حملتهما وأركبهما صاحبها من غير نولٍ، ولكن الخضر يكافىء يده بضدها ويتسبب ـ على ما كان يظهر لموسى ـ في غرق ركابها الوادعين، ويقتل غلاماً زكياً لم يسيء إليهما ولم يسيء أبواه، وبالعكس من ذلك، يقيم جداراً يريد أن ينقض من غير أجرة يتقاضاها وذلك في قرية لم يضيِّفهما

أهلها ولم يعرفوا حقهما. هذه كلها تصرفات غريبة من الخضر تثير في موسى الاستغراب والدهشة وتحمله على الإنكار والسؤال مرة بعد مرة، فقد كان من حق السفينة التي حملتهما أن يحتفظ بها ويحرص عليها وقد كان من حق صاحب السفينة الذي أسدى إليهما المعروف أن ينصح له ويعرف له الفضل، وقد كان من حق الغلام الزكي الوسيم أن يُحب ويُحرس، وقد كان من حق القرية التي تَنَكَّرت لهما وجَفَتْهما وقسى عليهما أهلها وشَحُّوا بفضول طعامهم وأزوادهم أن لا يُحسن إليهم ولا يُحرَص على أموالهم، ولكن الخضر يعاكس المعقول، المعروف المنتظر، ويتخذ في جميع هذه القضايا الثلاث موقفاً لا يقره العقل ولا يؤيده المنطق ولا يسيغه الذوق ولا يملك موسى نفسه ـ وهو المؤمن الغيور والنبي المرسل ـ أمام هذه التصرفات الغريبة، فينسى وعده ويسرع إلى الإنكار والتساؤل، ويقول: ﴿**لقد جئت شيئاً نكراً**﴾ . . ».

وانتهت هذه الرحلة العجيبة . . ﴿**قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً**﴾ . .

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت:

وإلى هنا كان موسى ـ ونحن الذين نتابع سياق القرآن ـ أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سراً. وموقفنا منها كموقف موسى. بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم يُنبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا. وما قيمة اسمه؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة. فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يُمثلها. وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها.

فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود. فيمضي في طريقه؛ ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة، وكأنما نسيه ليعودا. فيجد هذا الرجل هناك. وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى.. كل الجو غامض مجهول، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن.

ثم يأخذ السر في التجلي: **﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعيبها؛ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾** [الكهف: ٧٩]..

فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصباً. وكان الضرر الصغير الذي أصابها اتقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها.

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]..

فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزاً وتحققاً.. فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه. فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفاً خيراً منه، وأرحم بوالديه.

ولو كان الأمر موكولاً إلى العلم البشري الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق

عليه القتل شرعاً. وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس. ولا أن يرتب على هذا العلم حكماً غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة. ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد.

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، رحمة من ربك وما فعلته عن أمري.. ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٨٢]..

فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، ولم يطلب عليه أجراً من أهل القرية ـ وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما ـ كان يخبىء تحته كنزاً، ويغيب وراءه مالاً لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه.. ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «ويُؤَجِّل الخضر الإجابة عن أسئلة موسى وإقناعه، ويمضي في خطته بتؤدة وأناة حتى تنتهي هذه الرحلة إلى غايتها المقدرة فيكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى ـ ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن ـ مرة واحدة فيتجلى أن الخضر كان مصيباً محسناً حكيماً في تصرفاته الثلاثة، وأنه لم يكن مسيئاً في موضع إحسان ولا محسناً في موضع إساءة، وقد أحسن إلى صاحب السفينة بخرقها إذ حفظها من الاغتصاب، فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة ـ صالحة سليمة ـ غصباً، فكافأه بذلك على إحسانه ومعروفه، وقد أحسن إلى أبوي الغلام بقتله إذ كان هذا الغلام فتنة لهما، كان يخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً، فرأى أن بكاء ساعة أفضل من بكاء

طول الحياة وبعد الحياة، ورأى أن الغلام عنه عَوض، ولا عوض عن الدين والعافية. وقد أصلح الجدار وأقامه لأنه كان ليتيمين من أبوين صالحين وكان تحته كنز لو تهدم وانقضَّ هذا الجدار لانكشف هذا الكنز الدفين واختطفه السُّرَّاق والناهبون، وبقي الغلامان من غير مال ولا رصيد، وهكذا ظهر أن صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات وأن الله لم يرد أن يضيع أولاد الرجل الصالح فكيف يضيع الرجل الصالح، **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** [هود: ١١٥].. **﴿فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾** [آل عمران: ١٩٥].. وإن البذور الصالحة تظهر نتيجتها كما أن البذور الفاسدة تظهر نتيجتها..

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت! وما أبعد الشقة بين الصورة والحقيقة، والظاهر والباطن، وما أعقد هذه الحياة، وما أغمض هذا الكون، وما أكثر ألغاز الحياة، وما أجرأ الإنسان في ادعائه أنه أحاط بكل شيء علماً، ووصل إلى الحقيقة في كل قضية! ما أبعد الخضر عن الصواب وسبيل الرشاد في أوائل الأمور؛ وما أقربه إليه وما أرشده في عواقب الأمور!.

لقد تحقق أن هذه الحياة لا تزال تطلع بكل جديد وتهجم بكل غريب، وتحقق أن العلم البشري لم ينته إلى الحد الأخير، وفوق كل ذي علم عليم..»[1].

وتمضي هذه الرحلة الغيبية إلى غايتها: **﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويلُ ما لم تسطع عليه صبراً﴾** [الكهف: ٨٢]..

ثم ينفض الرجل يده من الأمر. فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف. وهو أمر الله لا أمره. فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما

---

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

قبلها، وَوَجَّهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه **﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾** . .

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى.

وفي دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفي الرجل من السياق كما بدا. لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول. فالقصة تمثل الحكمة الكبرى. وهذه الحكمة لا تكشِف عن نفسها إلا بمقدار. ثم تبقى مغيبة في علم الله وراء الأستار.

تسير الحوادث في القصة وفق ترتيب خاص بحيث يكون كل حَدَث في مكانه، كما أنه يوجد في الوقت المناسب، وينمو ويكتمل ويتوقف حسب ميزان دقيق.

نجد أن موسى وصاحبه يدركهما النوم عند الصخرة، مما ترتب عليه خروج الحوت من مكتلهم، وهم لا يشعرون، وسقوطه في البحر، وهو أمر له ما بعده في بنية القصة، حيث نجدهم بعد أن سارا يوماً وليلة يدركهم التعب ويحسون بالجوع وحاجتهم إلى الطعام، فيقول موسى: **﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً﴾** [الكهف: ٦٢]. . وهنا يتذكر صاحب موسى أنه نسي الحوت عند الصخرة، وكان لا بد أن يحصل ذلك ليتأتى منهم الرجوع إلى المكان؛ ليلتقيا فيه بالرجل الذي علّمه الله من لدنه، وليبدأ موسى معه رحلة يتعلم فيها منه مما عَلّمه الله.

وتعرض القصة النبي في موقف يحمل العبرة والدرس، ذلك الموقف الذي عاتب الله فيه موسى حين ادّعى العلم[1]، فليس هذا الموقف سوى درس تعليمي وتربوي، كما تعرض جانب من شخصية موسى ـ عليه السلام ـ من حدة الطبع وسرعة الانفعال. . فنرى موسى ـ عليه السلام ـ

متعجلاً، سريع الغضب، لا يطيق صبراً على ما يرى من أفعال مثيرة يقوم بها الخضر طوال الرحلة.

ونجد في القصة إبراز مركز الشخصية وموضعها، فيوصف الخضر بما يحدد مكانته في العلم «إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك».

ونرى في القصة شخصية حيوانية وهو الحوت له صلة بالحدث في اجتماع الشخصيتان الرئيستان بالقصة موسى والخضر، وأما بقية الشخصيات من «بني إسرائيل» و «يوشع بن نون» و «أصحاب السفينة» و «الغلام» و «أهل القرية» وكذلك «الحوت» و «العصفور» فكلها شخصيات ثانوية ذات أدوار محدودة.

وتعرض القصة أحداثاً غير مألوفة، بحيث تبدو في نظر السامع أو القارىء غريبة، من خرقه للسفينة، وقتله للغلام، وإقامته للجدار الذي يريد أن ينقض، وكانت هذه الأحداث مثار عجب موسى واستغرابه، ولذلك كان يستنكر على الخضر في كل مرة.

ويبرز الحوار في القصة حيث تحتوي على خمسة مقاطع حوارية، تشكل العنصر المهم والجانب الحيوي في بناء القصة، وهو يأتي في سياق العرض في صورة طبيعية، ويساعد في رسم الشخصية، ويجعلها كاملة الوضوح بما تحمل من مشاعر وعواطف وأحاسيس، فهو يعكس نفسية موسى ـ عليه السلام ـ وما تنطوي عليه من مزاج حاد وسرعة في الغضب والانفعال.

كذلك يسعى الحوار إلى تطوير الحدث ودفعه إلى مواقف جديدة في خط سير القصة إلى أن تصل إلى النهاية، وذلك بعد أن يعمق الحَدَث في نفس المتلقي، ويرسم المواقف وما تنطوي عليه النفس الإنسانية من تأثر وانفعال.

وترشد القصة أن الله هو الواسع العليم، العليم الخبير، وأنه فوق كل

ذي علم عليم. . والله هو الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار[1]. .

وأمر الغيب كله لله، فللّه وحده علم هذا الغيب. لا يطلع على شيء منه إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء، في الوقت الذي يشاء. . لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. . فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم، ولكن عاقبته تكون هي الضرّ لهم. وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم، ولكن عاقبته هي الضر: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾** [البقرة: ٢١٦]. .

والشاعر الذي يقول:

أَلاَ من يريني غايتي قبل مذهبي! ومن أين والغايات بعد المذاهب[2]

إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول. ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم، فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد، وأمام ستر الغيب المسدل، سيظل يُذكّره ببشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب. . ذلك أن حقيقة الغيب من «مقومات التصور الإسلامي»[3] الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، ومن قواعد «الإيمان» الرئيسية.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: «إننا نعلم بالنظر في الكون والتفكر في نظامه المنسجم أنه من اللازم أن يكون الموجد لمعمل هذا الكون الكبير والمدبر لشؤونه المتعددة، وجوداً بالغاً الكمال في العلم

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٢٥٦، ٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣١١، ٣١٤.

(٢) من قصيدة لابن الرومي.

(٣) يراجع ما جاء في الجزء السابع عند تفسير قوله تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾** في ظلال القرآن ص ١١١٣ ـ ١١٢١، كما يراجع بتوسع كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» بقسميه.

والحكمة والخبرة، ومن المستحيل ألبتة أن يكون غافلاً عن رغباتنا وأماني نفوسنا مَنْ قد أوجدها فينا، أو جاهلاً بأحاسيسنا وخيالاتنا مَنْ قد أودعنا إياها، أو أنه لا يعلم كيفية أَلَم الطفل وَوَجع والديه بموته مَنْ قد خَلَقه وألقى حبه في قلوب والديه، ولكنه إذا شاء، على علمه بكل هذا ـ ومن أوسع منه علماً ـ أن يبتلي والديه بموته، وإذا رضي أن يبتلي أحاسيسنا على علمه بها، وإذا أبى أن يحقق آمالنا وأمانينا على عدم غفلة عنها، فلنعلم أن كل ما قد فعل، كان ممن لا مندوحة عنه ولا كان في علمه شيء أفضل منه بحقنا، وأنه لو كان لاختاره بدلاً منه، لأنه العليم الحكيم، ولا يجوز أن يُظَنَّ أن يفضل شيئاً لا مصلحة فيه على شيء فيه المصلحة.

ولا مراء أننا لا نعرف ما في أفعاله من الأسرار والحكم لأن نظرنا لا يحيط بالكون كله، ومن المتعذر علينا أن نعلم أي شيء هو اللازم المناسب ولأي الأوقات.

أما إذا اعتقدنا على الوجه الإجمالي اعتقاداً صحيحاً بحكمة الله عز وجل وعلمه وخبرته بكل شيء، فسنعلم علم اليقين عند نزول كل آفة أن حكمة الله هي التي لا بد أن تكون مقتضية لنزولها بنا، وتكون هذه الآفة هي المناسبة لأحوالنا في علمه، فإذن لا بد أن نستسلم لمشيئته ونرضى بمرضاته.

وحقيقة أخرى نعلمها بالتفكر هي أن الله الذي يُسيِّر نظام الكون ويدبر شؤونه، نصب عينه الخير الكلي دائماً، وأن كل ما قد نراه شراً من أفعاله، لا يجوز أن يقال إنه شر إلا باعتبار نسبته إلى الأفراد والآحاد وما هو في حقيقة الأمر إلا للخير الكلي، وأن وقوعه وسيلة لازمة لحصول الخير الكلي، وأنه لو لم يكن لازماً وأمكن حصول الخير الكلي بدونه، لما كان له وجود في أفعال الله العليم الخبير ولاختار لأفعاله نظاماً غير النظام الحاضر.

ونعلم كذلك عندما نمعن النظر في الكون ونظامه، على كل ما فينا من

مكامن الضعف والعجز، أن هذا الكون ما كان ليصلح له نظام أحسن من نظامه الحاضر، وأنه ليس في الإمكان أن يُقتَرح له نظام آخر لا يكون فيه أثر لنوع من الشرور الجزئية ولا النسبية، بل الحق أن النظام الحاضر للكون إذا انعدمت فيه الشرور، فلا بد أن يكون انعدامها شراً أكبر من شر وجودها لأنه سيحول دون ظهور كثير من الخيرات لأجل خير جزئي واحد.

تأمَّل ـ على سبيل المثال ـ الموت، وهو الذي يفرّ منه الإنسان ويخافه أكثر من كل شيء آخر، كم من أفراد البشر يتيسر عليهم سلوك طريق الحياة بموت واحد منهم؟.

ولا معنى لأن يُعَمَّر أحد إلى الأبد إلا أن يُضيق باب الحياة على عدد كبير منهم. وإذا كانت حياته إلى الأبد خيراً فإنما هي كذلك لذاته فقط لا للخير الكلي. وعلى العكس من ذلك أن موته إن كان شراً لذاته فهو الوسيلة المحتومة الوحيدة لحصول كثير من الخير الجزئي. أما بالنسبة للخير الكلي، فلا يقع أي نقص بموت هذا الفرد لأنه لا يُحدث شيئاً من الاختلال في نظام الكون.

ولك أن تعرف بالقياس على هذا المثال أن كل ما يحل بالأفراد من المصائب والنكبات والآفات، هو شر من ناحية ووسيلة لحصول الخير من ناحية أخرى، ولا بد للخير الكلي من وقوعه. فأحياناً ندرك بقليل من التأمل جهة كونه وسيلة للخير، ويثبت لنا أحياناً أخرى بالتجربة أن شيئاً كنا نحسبه شراً كان في الحقيقة سبباً للخير. فالذي يجب علينا، إذا لم ندرك جهة الخير في شرّ ما، أن نؤمن، على الوجه الإجمالي، بأن الله لا يفعل إلا خيراً وأنه لا خير لنا إلا في أن نستسلم لِقَدَره المقدور سواء أدركنا السر في فعله أو لم ندركه»[1].

فرحمة الله هي التي تتصرف بمقدور الإنسان ﴿رَحمةً من ربّك وما

(١) قصور النظر الإنساني: مجلة المسلمون ـ المجلد السادس: ٣٠ ـ ٣٢.

فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تَسطِع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٨٢]. .

إن وراء الغيب حكمة، فعندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور يفتح الله نافذة للمؤمن ليطلّ منها على حقيقة الأمر. نافذة تهب منها ريح رخية **﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** [البقرة: ٢١٦]. . إنه مَن يدري فلعل وراء المكروه خيراً. ووراء المحبوب شراً.

إن العليم بالغايات البعيدة، المُطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده. حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة. . إن هذه النافذة الربانية تَسكب في النفس المؤمنة حقيقة السلام والاستسلام فتتيقن أن الخِيرة فيما اختاره الله.

وبعد فإن قصة موسى والخضر «وما تشتمل عليه من روح ومغزى، تَتَحدّى التفكير المادي الذي يُلح على أن الحياة هي التي فهمها الإنسان، وعلى أن هذا الكون هو الذي أحاط به علماً، وأن ليست الحقيقة إلا ما تتراءى للعيون، وأن الظواهر هي التي يصح عليها الحكم، وأن الإنسان يستحق أن تُسند إليه إدارة هذا العالم، ويخوَّل حق التشريع، فقد اكتمل عقلاً وعلماً ودراسة، وبلغ إلى أغوار الحقيقة وأعماق العلم وحقائق الكون.

لقد قامت الفلسفات المادية على هذا الأساس، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة، وقصة موسى والخضر تنقض هذا الأساس وتهدم هذا البناء وتنتهي القصة بقول الخضر لموسى: **﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾** [الكهف: ٨٢]. . والتأويل في اصطلاح القرآن هو الحقيقة[1]، وهكذا يتعجل الإنسان ويُنكر ويُخطىء حتى تتجلى له الحقيقة، ويأتي التأويل»[2].

---

(١) راجع تفسير سورة الاخلاص لابن يتيمة.

(٢) الندوي ـ المسلمون، المجلد السادس: ٢٣٢.

على أننا قبل أن نغادر هذه التأمُّلات الموحية من القصة القرآنية، ينبغي أن نقول كلمة عن طبيعة «الغيب» في العقيدة الإسلامية، وفي التصور الإسلامي، وفي العقلية الإسلامية.

إن القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تُنشىء التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية ـ يقرر أن هناك عالَماً للغيب وعالَماً للشهادة. فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولاً..

إن هنالك سُنناً ثابتة لهذا الكون؛ يملك «الإنسان» أن يعرف منها القَدَر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها..

وإلى جانب هذه السنن الثابتة ـ في عمومها ـ مشيئة الله الطليقة؛ لا تقيدها هذه السنن وإن كانت من عملها. وهناك قَدَر الله الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها. فهي ليست آلية بحتة، فالقَدَر هو المسيطر على كل حركة فيها؛ وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله إياها. وهذا القَدَر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها «غيب»، لا يعلمه أحد علم يقين؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و«الاحتمالات».. وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضاً.

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة؛ وكلها «غيب» بالقياس إليه، وهي تجري في كيانه! ومثلها ملايين ملايين العمليات التي تتم في الكون من حوله؛ وهو لا يعلمها!.

وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضي الكون. وحاضره وحاضر الكون.

ومستقبله ومستقبل الكون.. وذلك مع وجود السنن الثابتة، التي يعرف بعضها، وينتفع بها انتفاعاً علمياً منظماً في النهوض بعبء الخلافة.

وإن «الإنسان» ليجيء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه! وإنه ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله! وكذلك كل شيء حي.. ومهما تعلم ومهما عرف، فإن هذا لن يُغيِّر من هذا الواقع شيئاً!.

إن العقلية الإسلامية عقلية «غيبية علمية»، لأن «الغيبية» هي «العلمية» بشهادة «العلم» والواقع.. أما التنكر للغيب فهو «الجهلية» التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة!.

وإن العقيدة الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة.. فلا يفوت المسلم «العلم» البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة، وهي أن هنالك غيباً لا يُطلع الله عليه أحداً، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود؛ وفي إحساسه بالكون، وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض. فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه؛

ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وَعْيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون.. ظاهره وخافيه.. حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العقول.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة. ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان ـ كجماعة الماديين في كل زمان ـ يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى.. إلى عالم البهيمة، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية»! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها. فجعل صفتهم المميزة هي صفة: ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾ [البقرة: ٣].. والحمد لله على نعمائه؛ والنكسة للمتنكسين والمرتكسين.

والذين يتحدثون عن «الغيبية» و«العلمية» يتحدثون كذلك عن «الحتمية التاريخية» كأن كل المستقبل مستيقن! و«العلم» في هذا الزمان يقول: إن هناك «احتمالات» وليست هناك «حتميات»!.

ولقد كان ماركس من المتنبئين «بالحتميات»! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم!.

لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في انجلترا، نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر.. فإذا الشيوعية تقوم في أكثر الشعوب تخلفاً صناعياً.. في روسيا والصين وما إليها.. ولا تقوم قط في البلاد الصناعية الراقية!.

ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي.. وها هي ذي الشيوعية قد سقطت في ما كان يسمى الاتحاد السوفيتي وتناثرت أشلاؤه ذلاًّ، كما تنكست أعلام الشيوعية وأنظمتها

من أوربا الشرقية، وانطلقت روسيا تلهث جائعة مستجدية مساعدات الغرب الرأسمالي!.

ولا نمضي طويلاً مع هذه «الحتميات» التنبؤية! فهي لا تستحق جدية المناقشة أو بالأَوْلَى النظر إليها!.

إن هناك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب، وكل ما عداها احتمالات.. وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره. وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو. وإن هنالك ـ مع هذا وذلك ـ سنناً للكون ثابتة، يملك الإنسان أن يتعرف إليها، ويستعين بها في خلافة الأرض، مع ترك الباب مفتوحاً لقدر الله النافذ، وغيب الله المجهول.. وهذا قوام الأمر كله.. ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ [الإسراء: ٩].

على أبواب أرض الميعاد:

لا يزال القرآن في استعراض مواقف بني إسرائيل من ميثاقهم وعهدهم مع الله، واستعراض ما حلَّ بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذا الميثاق؛ لتكون هذه ـ من جانب ـ تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ، ومن واقع بني إسرائيل قبلهم، وليكشف الله ـ من جانب ـ عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً. ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة اليهود وحقيقة موقفهم؛ وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم، وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم؛ التي يلبسونها ثوب التمسُّك بدينهم؛ وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه..

ويتحدث القرآن عن موقف بني إسرائيل مع رسولهم ومنقذهم موسى ـ عليه السلام ـ على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله؛ وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم؛ وكيف نقضوه؛ وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق الوثيق.

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل.. ذلك لحكمة متشعبة الجوانب..

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول. هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معاً. وهم الذين حرضوا المشركين وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم؛ كما تولوا بَثّ الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة. وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة. فلم يكن بدّ من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها. ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟.

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله؛ كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أَمْرهم كله مكشوفاً؛ ووسائلهم كلها مكشوفة. ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم؛ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقتضى هذا أن تلمّ الأمة المسلمة ـ وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ـ بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ؛ وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة ـ إلى حصيلة تجاربها؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي ـ بصفة خاصة ـ مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويـل. وقد علم الله أن الأمـد حين يطول على الأمم تقسـو قلوبها؛ وتنحرف أجيال منها؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فيها فتـرات من حياة بني إسـرائيل؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيـالها الكثيـرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت!.

فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزّها، وينفض عنها الركام، لِجدّته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة. فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنـداء الثـاني لا تكون لـه جِدّتـه، ولا تكون لـه هزّتـه؛ ولا يقع فيهـا الإحساس بضخـامته وجـديته، ومن ثم تحتـاج إلى الجهد المضـاعف، وإلى الصبر الطويل!.

وجوانب شتى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسـرائيل، وعـرضها مُفصّلة على الأمـة المسلمة وارثـة العقيدة والـدين؛ القَـوَّامـة على البشـر أجمعين. جوانب شتى لا نملك هنا المضي معها أكثر من هذه الإشارات السريعة... لنعود إلى سياق القصة:

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم. إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقـدسـة التي كتب الله لكم ولا تـرتـدوا على أدبـاركم فتنقلبـوا خاسرين﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١]..

وإننا لنلمح في كلمات موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقه من تَردُّد القوم

ونكوصهم على الأعقاب. فلقد جربهم من قبل في «مواطن كثيرة» في خط سير الرحلة الطويل.

جَرّبهم **وقد أخرجهم من أرض مصر**؛ وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذي فَرَق لهم البحر، وأغرق لهم فرعون وجنده. فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيقولون: ﴿**يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾ [الأعراف: ١٣٨]..

وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه **حتى يتخذ السامري** من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهباً له خوار، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته!.

وجَرَّبهم وقد فَجَّر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء، وأنزل عليهم المَنّ والسلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر ـ أرض الذل بالنسبة لهم ـ فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها، ولا يصبرون عما أَلِفوا من طعام وحياة في سبيل العزة والخلاص، والهدف الأسمى، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون!.

وجَرَّبهم في قصة البقرة التي أُمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ.. ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون**﴾ [البقرة: ٧١]..

وجَرَّبهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده. فأبوا أن يُعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد مع ربهم ـ بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ـ ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم ﴿**وظنوا أنه واقع بهم**﴾ [الأعراف: ١٧١].

لقد جربهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل.. ثم ها هو **ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة**. أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا. الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته..

لقد جربهم فَحقّ له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البُشريات، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات:

﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم. إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾..

نعمة الله. ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً. وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ.

والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله. فهي إذن يقين.. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده. وهذا وعده الذي هم عليه قادمون.. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين..

ولكن إسرائيل هي إسرائيل!!! الجبن. والتَمَحُّل. والنكوص على الأعقاب. ونقض الميثاق:

﴿قالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾ [المائدة: ٢٢]..

إن جِبِّلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل. ذلك أنهم أمام الخطر؛ فلا بقية إذن من تجمل؛ ولا محاولة إذن للتشجع، ولا مجال كذلك للتمحل. إن الخطر ماثل قريب؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وَعْد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله قد كتبها لهم ـ فهم يُريدونه نَصراً رخيصاً، لا ثمن له، ولا جهد فيه. نصراً مريحاً يتنزل عليهم تَنَزُّل المن والسلوى!.

﴿إن فيها قوماً جبارين.. وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها.. فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾..

ولكن تكاليف النصر ليست هكـذا كما تـريدهـا يهود! وهي فـارغة القلوب من الإيمان!.

﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما: ادخلوا عليهم الباب فـإذا دخلتمـوه فـإنكم غـالبـون. وعلى الله فتـوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ٢٣]..

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه.. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشىء لهمـا الخوف من الله استهـانة بـالجبارين! ويـرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعـة الشدة؛ وقيمـة الخوف من الله في مـواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته ـ جل جلاله ـ ومخافة الناس.. والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده؛ ولا يخاف شيئاً سواه..

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾..

قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب.. أَقْدِمُوا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم..

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾..

فعلى الله ـ وحـده ـ يتـوكـل المؤمن. وهـذه هي خـاصيـة الإيمـان وعلامته؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه..

ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبني إسرائيل؟!.

﴿قالوا: يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها. فاذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤]..

وهكـذا يُحْرَج الجبنـاء فيتوقحـون؛ ويفزعـون من الخطر فيـرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين؛ بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان. . يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن، فَيُحْرَج بأنه ناكل عن الواجب، فيسبّ هذا الواجب؛ ويتوقح على دعوته التي تكلفه ما لا يريد! **﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون﴾**. .

هكذا في وقاحة العاجز، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مَدّ اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان!.

﴿فـاذهب أنت وربك﴾! فليس بـربهم إذا كانت ربـوبيته ستكلفهم القتال!.

﴿إنا ها هنا قاعدون﴾. . لا نُريد ملكاً، ولا نُريد عزاً، ولا نريد أرض الميعاد. . ودونها لقاء الجبارين!.

هذه هي نهاية المطاف بموسى ـ عليه السلام ـ. نهاية الجهد الجهيد. والسفـر الـطويـل. واحتمـال الـرذالات والانحـرافـات والالتـواءات من بني إسرائيل!.

نعم ها هي ذي نهاية المطاف. . نكوصاً عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها. ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق. . فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟ **﴿قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي. فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾** [المائدة: ٢٥]. .

دعوة فيها الألم. وفيها الالتجاء. وفيها الاستسلام. وفيها ـ بعد ذلك ـ المفاصلة والحسم والتصميم!.

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه. . ولكن موسى في ضعف الإنسان المخذول. وفي إيمان النبي الكليم. وفي عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجهاً إلا لله. يشكو له بثّه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة

الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين، فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق.. ما يَربطه بهم نسب. وما يربطه بهم تاريخ. وما يربطه بهم جهد سابق، إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله. وقد فَصَلُوه. فانْبَتَّ ما بينه وبينهم إلى الأعماق. وما عاد يربطه بهم رباط.. إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون.. إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون..

هذا هو أدب النبي. وهذه هي خطة المؤمن. وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون.. لا جنس. لا نسب. لا قوم. لا لغة. لا تاريخ. لا وشجية من كل وشائج الأرض؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة؛ وإذا اختلف المنهج والطريق..

واستجاب الله لنبيه. وقضى بالجزاء العادل على الفاسقين ﴿**قال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض. فلا تأسَ على القوم الفاسقين**﴾ [المائدة: ٢٦]..

وهكذا أسلمهم الله ـ وهم على أبواب الأرض المقدسة ـ للتيه؛ وحرَّم عليهم الأرض التي كتبها لهم..

والأرجح أنه حَرَّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل. جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود.. جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.

ويتركهم السياق هنا ـ في التيه ـ لا يزيد على ذلك.. وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني، على طريقة القرآن في التعبير..

هـا هي ذي إسرائيـل هي إسرائيـل! نقضت الميثـاق، ونسيت الله، ولجّت في المعصية، حتى استحقت غضب الله ولَعْنَتَه. وحقَّ عليها القول، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها، وأفاء عليها من عطايـاه. فلم تشكـر النعمة، ولم تـرع العهد، ولم تـذكر الميثـاق.. وما ربُّـك بـظلَّام للعبيد..

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس ـ مما قصَّه الله عليهم من القصص ـ فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر، قالـوا لنبيِّهم ـ ﷺ ـ إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيِّهم: **﴿فـاذهب أنت وربُّـك فقاتـلا﴾** لكن نقول: اذهب أنت وربـك فقاتـلا فإننـا معكما مقاتلون..

وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص العامة؛ وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل..

وقصة موسى آخر ذكر يرد لها في القرآن الكريم حسب ترتيب النزول يرد في سورة المائدة، والحلقة التي تعرض فيها هي حلقة التيـه. فهؤلاء بنو إسرائيل قد أغدق الله عليهم نعمته، وأملى لهم في رحمته؛ ثم ها هم أولاء في النهاية لا يحافظون على النعمة، ولا يدخلون الأرض المقدسة، وقد جَهِدَ موسى ما جَهِدَ لِرَدِّهم، فيكون تأديبهم على هذا المَطَال، تركهم في التيه لا مُرشد لهم ولا معين، حتى يأتي الأجل المعلوم.

ذلك غَرَض ديني بحت. ولكن تُرى كان هناك ختام فني أجمل من مشهد التيه، في نهاية ذلك الجهد الجهيـد، وبعد ذلـك التردد الشـديد؟ **﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾**..

إنه مشهد التيه هو المشهد الأنسب، لو كانت القصة مطلقة من جميع القيود.

لقد كانت قصة موسى، قصة أمة، تعددت جوانبها، وكثرت معانيها، وتنوعت أهدافها ومقاصدها، إنها قصة مصوَّرة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون مرآة للمسلمين حتى لا يقعوا في تلك المزالق، ويتبعوا خطوات الشيطان، ويرتدوا على أدبارهم، وتلاحقهم سُنَّة الله فيكونوا من الأخسرين..

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ وقد خَبَر الناس، يسأل النبي محمد ـ ﷺ ـ في رحلة المعراج بعد أن فَرَض الله على أمة محمد خمسين صلاة في اليوم والليلة.. قال موسى ـ عليه السلام ـ: «بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أُمَّتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني قد جَرَّبتُ الناسَ قبلكَ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأُمَّتك، فرجعتُ، فوضعَ عني عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثْلَهُ، فرجعتُ، فوضعَ عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثْلَه، فوضع عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله... فرجعتُ، فأمرتُ بعشر صلوات كل يوم، فرجعتُ إلى موسى، فقال مِثْلَه، فرجعتُ، فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمرتُ بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أُمَّتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جرَّبتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأُمَّتك، قال: قلت: سألتُ ربي حتى استحييتُ، ولكني أرضى وأُسَلِّم..» قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فلما جاوزتُ، ناداني منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي»(1)..

---

(1) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري ٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧. انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٤٨).

وقد ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ في حديث المعراج المذكور: «.. ثم صَعد بي حتى أتى =

لقد كانت قصة موسى مناراً للإنسانية وهي ترزح تحت أثقال الجاهلية، فغدت كل حلقة من حلقاتها مادة تربية ومنهج سلوك، وتقريراً لحقيقة، وسنة من سنن الوجود **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، بصائر للناس، وهدى ورحمة، لعلهم يتذكرون﴾** [القصص: ٤٣]..

﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر. وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا؛ ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا؛ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ [القصص: ٤٤ ـ ٤٦]..

والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جعله الله ميقاتاً مع موسى ـ عليه السلام ـ بعد أَجَلٍ محدد.. ثلاثين ليلة، أتمَّها بعشر. فكانت أربعين ليلة. وفي هذا الميقات قُضي الأمر لموسى في الألواح، لتكون شريعته في بني إسرائيل. وما كان رسول الله ـ ﷺ ـ شاهداً لهذا الميقات، حتى يعلم نبأه المُفَصَّل، كما ورد في القرآن الكريم. وإن بينه وبين هذا الحادث لقروناً من الناس ـ أي أجيالاً متطاولة: **﴿ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾**

= السَّماء الخامسة، فاستفتحَ، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن مَعك؟ قال: محمد ـ ﷺ ـ قيل: وقد أرسل إليه؟ قيل: نعم، قيل: مرحباً به. فَنِعْمَ المجيء جاء. فَفُتِحَ. فلما خلصتُ إذا هارون. قال: هذا هارون. فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتحَ. قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد ـ ﷺ ـ قيل: أوقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففُتحَ. فلما خلصتُ إذا موسى. قال: هذا موسى، فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردّ السلام. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزتُ بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثرُ ممن يدخلها من أمتي..».

فتلك دلالة على أن الذي نَبَّأه به هو العليم الخبير، الذي يوحي إليه بالقرآن الكريم.

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مَدْين، ومقام موسى ـ عليه السلام ـ بها وتلاها رسول الله ـ ﷺ ـ وما كان مقيماً في أهل مدين، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذي جاءت فيه: ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين.

كذلك صوّر القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ وما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ النداء، وما سجل في وقتها تفصيلاته. ولكن رحمة الله بقومه هؤلاء، أن قَصَّ عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ـ ﷺ ـ فيما يدعوهم إليه، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ـ فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل، منذ أبيهم إسماعيل: ﴿لعلهم يتذكرون﴾..

لقد أكرم الله موسى وهارون باختيارهما للنبوة. هذه المنحة الربانية التي تصطفي من تشاء:

﴿ولقد مننا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين﴾ [الصافات: ١١٤ ـ ١٢٢]..

وهذه الآيات تعني بإبراز مِنَّة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما، وبإعطائهما الكتاب الواضح المستبين. وهدايتهما إلى الصراط المستقيم. صراط الله الذي يهدي إليه المؤمنين وبإبقاء ذكرهما في الأجيال الآتية

والقرون الأخيرة. وتنتهي هذه الآيات بالسلام من الله على موسى وهارون وتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون، وقيمة الإيمان الذي يكرم من أجله المؤمنون.

إن هذه القصة تحمل نوراً وضياءً وذكراً للمتقين إلى يوم الدين **﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياءً وذكراً للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾** [الأنبياء: ٤٨، ٤٩]..

موسى ـ عليه السلام ـ:

وبعد، لا بد من الوقوف بخشوع وهيبة وتأمُّل أمام شخصية موسى ـ عليه السلام ـ، فالقصة وِجْهَتها هي الدعوة الدينية، وتبرز من خلال الأحداث هذه الشخصية التي صَنَعها الله على عينه، «ولئن كان حديداً في مزاجه شديداً في طبعه فذلك ما خصَّه الله به، فالمواقف التي سَيُجابهها ـ عليه السلام ـ بحاجة إلى هذه الشخصية **﴿ألَا يعلم مَنْ خَلَق وهو اللطيف الخبير﴾** وقد شَبَّه الرسول ـ ﷺ ـ صاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، شَبَّه أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بإبراهيم وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وذلك لما كان يُعرف من رقّته ولينه ـ رضي الله عنه ـ، أما إبراهيم فقد قال: **﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً، واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام. ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس، فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾**. وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال: **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾**.

وشَبَّه عمر ـ رضي الله عنه ـ بنوح وموسى ـ عليهما السلام ـ وذلك لشدّته وحدّته. أما نوح فقد قال: **﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً﴾**، وأما موسى فقد قال: **﴿ربنا إنك آتيتَ فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد**

على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾»[1].

فشخصية موسى ـ عليه السلام ـ هي نموذج القائد الشديد المندفع العصبي المزاج. «فها هو ذا قد رُبي في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قوياً ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجدَ فيها رجلين يقتتلان: هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكَزَهُ موسى، فقضى عليه﴾. وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحاً.

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين: ﴿قال: هذا من عمل الشيطان. إنه عدوّ مضِلّ مبين. قال: ربِّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي. فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال: ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾.

﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب﴾ وهو تعبير مُصوّر لهيئة معروفة: هيئة المُتَفَزّع المُتَلَفّت المتوقع للشر في كل حركة. وتلك سمة العصبيين أيضاً.

ومع هذا، ومع أنه قد وَعَد بأنه لن يكون ظهيراً للمجرمين. فلننظر ما يصنع. إنه ينظر ﴿فإذا الذي استنصرهُ بالأمس يستصرخه﴾ مرة أخرى على رجل آخر، ﴿قال له موسى: إنك لغوي مبين﴾ ولكنه يهمّ بالرجل الآخر كما هَمَّ بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يُذكره من يهمّ به بفعلته، فيتذكّر ويخشى: ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما. قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس؟ إن تريد إلا أن تكون جبّاراً في الأرض، وما تريد أن تكون من المصلحين﴾، وحينئذ ينصح له بالرحيل رجلٌ جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا.

(١) القصص القرآني: ٣٤١، ٣٤٢.

فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادىء الطبع حليم النفس.

كلا! فها هو ذا يُنادَى من جانب الطور الأيمن: أن ألقِ عصاكَ فألقاها، فإذا هي حية تسعى، وما يكاد يراها حتى يَثب جرياً، لا يُعَقِّب ولا يلوي. إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلاً؛ فغيره كان يخاف؟ نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمَّل هذه العجيبة الكبرى.

ثم لندعه فترة أخرى، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه.

لقد انتصر على السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعَبَر بهم البحر، ثم ذَهَب إلى ميعاد ربِّه على الطور. وإنه لنبي. ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً: **﴿قال: ربِّ أرني أنظر إليك﴾**.. **﴿قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾** ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية: **﴿فلما تجلَّى ربه للجبل جعلهُ دكاً وخرَّ موسى صعقاً؛ فلما أفاق قال: سبحانك! تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين﴾**.. عودة العصبي في سرعة واندفاع.

ثم ها هو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يتريث وما يني **﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾** وإنه ليمضي منفعلاً يشدّ رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولاً: **﴿قال: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي. إني خشيتُ أن تقولَ: فرقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾**. وحين يعلم أن «السامري» هو الذي فَعل الفعلة، يلتفت إليه مغضباً، ويسأله مستنكراً. حتى إذا علم سرّ العجل: **﴿قال: فاذْهب. فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس؛ وإن لك موعداً لن تُخلفه؛ وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً، لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً﴾**.. هكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة.

فلندعه سنوات أخرى.

لقد ذهب قومه في التيه ونحسب قد صار كهلاً حينما افترق عنهم، ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه لِيُعَلِّمه مما آتاه الله علماً. ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى يُنبئه بسرّ ما يصنع مرة ومرة ومرة.. فافترقا..!.

تلك شخصية موحدة بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة جميعاً»(١).

أذى وصبـــر:

يذكر الله ـ سبحانه ـ رسالة موسى في سورة الصف ليقرر أن قومه الذين أُرسلَ إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا، ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض: **﴿وإذ قال موسى لقومه: يا قوم لم تُؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** [الصف: ٥]..

إذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، فلم يعودوا أمناء عليه، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين.

وإيذاء بني إسرائيل لموسى ـ وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومُعَلِّمهم ـ إيذاء متطاول متعدد الألوان ـ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق. ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء.

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بِذِلّتهم له! فكانوا يقولون له لائمين مُتبرمين: **﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾** [الأعراف: ١٢٩].. كأنهم

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٦٤ ـ ١٦٦.

لا يرون في رسالته خيراً، أو كأنما يُحملونه تبعة هذا الأذى الأخير!.

وما كاد يُنقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون.. حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه.. **﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة﴾** [الأعراف: ١٣٨].. وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامري: **﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا: هذا إلٰهكم وإله موسى فنسي!﴾** [طه: ٨٩]..

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء: المَنّ والسلوى. فقالوا: **﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾** [البقرة: ٦١]..

وفي حادث البقرة التي كُلِّفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾**.. **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾**.. **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾**.. **﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾** [البقرة: ٦٩ - ٧٢]..

ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه.

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يُصَعِّرون خَدَّهم في الوقت ذاته لموسى: **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾**.. فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تَبَجَّحوا وكفروا: **﴿قالوا: يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾** [المائدة: ٢٥]..

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد، والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث.

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة: **﴿يا قوم لم تُؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم؟﴾** [الصف: ٥].

وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هي لهجة العتاب والتذكير..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بُذلت لهم كل أسباب الاستقامة، فزادهم الله زيغاً، وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى. وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً: **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**.

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال..

وبعد إجلاء بني قريظة وسائر اليهود من قَبل - في أيام خاتم النبيين محمد ﷺ - لم يعد في المدينة من هو ظَاهر بالكفر. فقد أصبح أهلها كلهم مسلمين، إما صادقين في إسلامهم وإما منافقين. وكان المنافقون هم الذين يروجون الشائعات، وينشرون الأكاذيب، وقد انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب، انطلقت تغمز وتلمز، وتؤول وتعترض، وتهمس وتوسوس، وكان بعض المؤمنين يقع في حبائلهم، ويسايرهم في بعض ما يروجون. فجاء القرآن يحذرهم إيذاء النبي - ﷺ - كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى - عليه السلام - ويوجههم إلى تسديد القول، وعدم إلقائه على عواهنه، بغير ضبط ولا دقة؛ ويحببهم في طاعة الله ورسوله وما وراءها من فوز عظيم:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا. وكان عند الله وجيهاً. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم. ويغفر لكم ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٦٩ - ٧١]..

ولم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى، ولكن وردت روايات تُعَيِّنه. ونحن لا نرى بنا من حاجة للخوض في الذي أجمله القرآن. فإنما أراد الله

تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذي النبي ـ ﷺ ـ وقد ضرب بني إسرائيل مثلاً للالتواء والانحراف في مواضع من القرآن كثيرة. فيكفي أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم، وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه، لينفر حسّ كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلاً صارخاً للانحراف والالتواء.

وقد برأ الله موسى مما رماه به قومه: **﴿وكان عند الله وجيهاً﴾** ذا وجاهة وذا مكانة. والله مبرىء رسله من كل ما يُرْمَون به كذباً وبهتاناً.

وتتعرض القصة النبوية للأنبياء في بعض مواقفهم الإنسانية، التي يظهرون فيها أناساً من البشر، في عواطفهم وانفعالاتهم، وطبائعهم، كما نجد في قصة «الذين آذوا موسى» تصويراً حياً لطبيعة الحياء والستر، التي جُبِلَ موسى كليم الله عليها وأنه «كان رجلاً حيّياً ستّيراً ما يرى من جلده شيء، استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقال: ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يُبرِّئه مما قالوا، وأن موسى ـ عليه السلام ـ، خلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن الناس خلقاً، وأبرأه مما كانوا يقولون، قال: وقام الحجر، فأخذ ثوبه ولبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر عصاه ثلاثاً، أو أربعاً، فذلك قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾**[1] [الأحزاب: ٦٩]».

---

(١) سنن الترمذي ٥/٣٦١ ـ ٣٦٢، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح» ورواه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ، ورواه البخاري عند تفسير آية الأحزاب: ٦٩، وفي أحاديث الأنبياء انظر تفسير ابن كثير ٣/٥٢٠.

ويقول الله تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه: **﴿لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** [الصف: ٥].. وفي هذا تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم وأَمْر له بالصبر، ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ: «رحمة الله على موسى. لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[١]. وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ـ ﷺ ـ أو يُوصِلُوا إليه أذى كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾**..

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن مهران، ورواه الإمام أحمد وأبو داود.

قصة قارون

المحتوى	ص
ـ تقديم	٣٨٩
ـ الردّة الفاجرة المغرورة	٣٩٥
ـ زينة وفتنة	٣٩٨
ـ القيم الظاهرة الجوفاء	٤٠٧

قصة قارون

لقد مضت قصة موسى وفرعون، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم، وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم، والكفران بالله، والبعد عن هداه. والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم؛ وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق، وجحود نعمة الخالق. وتُقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد. وقد أشار القرآن الكريم إلى دعوة موسى إلى قارون مع فرعون وهامان: **﴿وقارونَ وفرعونَ وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾** [العنكبوت: ٣٩].

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون، فقالوا ساحر كذاب﴾ [غافر: ٢٣].

هذا هو موقف اللقاء الأول. موسى ومعه آيات الله، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده. وفرعون وهامان وقارون. ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذي يخافون عليه من مواجهة الحق ذي السلطان.. عندئذ لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق: **﴿فقالوا: ساحر كذاب﴾**..

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغي والفساد، فلم يعصمه الثراء والقوة والدهاء. لم تعصمه من أَخْذ الله، ولم تجعله ناجياً ولا مفلتاً من عذاب الله، بل أدركه وأَخَذَه كما سيجيء..

وقصة قارون من القصص القصيرة التي جاءت تعرض سلوك المترفين، سلوكَ مَن تَمَلَّكه الغرور فطغى كل الطغيان، وقد ذُكرت القصة في سورة القصص[1]، ووردت الإشارة إلى قارون في سورتي العنكبوت وغافر.

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها؛ إنما يكتفي بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم. فهل وقعت القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج؟ أم وقعت بعد الخروج في حياة موسى؟ هناك روايات تقول: إنه كان ابن عم لموسى ـ عليه السلام ـ وأن الحادث وقع في زمان موسى. ويزيد بعضها فيذكر أن قارون آذى موسى، ودبَّر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة في مقابل رشوة من المال، فبرّأ الله موسى وأذن له في قارون، فخسفت به الأرض..

ولسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات، ولا إلى تحديد الزمان والمكان. فالقصة كما وردت في القرآن كافية لأداء الغرض منها، ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقريرها. ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئاً ما ترك تحديدها. فلنستعرضها إذن في صورتها القرآنية، بعيدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراءها..

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا،

---

(١) القصص: ٧٦ ـ ٨٣.

وأحْسِن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض. إن الله لا يحب المفسدين. قال: إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص ٧٦ ـ ٧٨]. .

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم طاغيتها «قارون» وتحدد قومه «قوم موسى» وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي «فبغى عليهم» وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء: **﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾**. .

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى. فآتاه الله مالاً كثيراً، يصور كثرته بأنه كنوز ـ والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول ـ وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال. . من أجل هذا بغى قارون على قومه. ولا يذكر فيم البغي، ليدعه مجهلاً يشمل شتى الصور. فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم ـ كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان ـ. وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال. حق الفقراء في أموال الأغنياء، كي لا يكون دُوَلَة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه، فتفسد القلوب، وتفسد الحياة. وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب.

لقد تكبر قارون وعَلاَ بعد أن أنعم الله عليه بالثراء والثروة. وكثيرون أولئك الذين لم يشكروا النِعَم فتزيدهم طغياناً، ويبغوا ويتكبروا، من حيث كان ينبغي أن يشكروا.

وتُبرز القصة صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته ومصيره وأبطره الغنى، وحاول قوم قارون وذَووه وكأنهم لا يزالون يظنون به خيراً، حاولوا إرشاده وإصلاح أمره.

وعلى أية حال فقد وَجَد من قومه من يحاول ردّه عن البغي، ورجعه إلى النهج القويم، الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم، ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب:

﴿إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأَحْسِن كما أَحْسَنَ الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض. إن الله لا يحب المفسدين﴾..

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرّده بين سائر مناهج الحياة.

﴿لا تفرح﴾.. فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ.. لا تفرح فَرَح البطر الذي يُنسي المنعم بالمال، وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران. لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير به لبّه، ويتطاول به على العباد..

والمال منذ الأزل، زينة الدنيا وبهجتها، مَن استحوذ عليه طغى وتكبَّر، واغترّ وتجبّر، فهو يجمعه جمعاً جشعاً، ويُحبُّه حباً كثيراً طاغياً، لا يستبقي في نفسه أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام، وظن هذا الجموع للمال أن أحداً لن يقدر عليه، وخُيِّل إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته، أو أنهم ما خُلقوا إلا مُسَخرين له، فإذا تكلَّم طأطأوا رؤوسهم عند سماع صوته، وإذا أشار كانوا عند إشارته، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه..

إن حبّ المال الذي يُطغي، والتكالب على جمعه بكافة الطرق،

تورث القلوب كزازة وقساوة، وهو سمة الجاهليات في كل زمان ومكان! حتى الآن!.

ولن يكون قارون بدعاً في الحياة، وإنما كغيره من الناس، يسير سيرتَهم ويترسَّم طريقهم، فبغى على قومه، وفرض سلطانه عليهم وَسَامَهم بطشه وجبروته.

لا تفرح.. فرح غرور واستئثار وبطر واستكبار.. المال ظل زائل، ووديعة مستردة. لا تفرح بما أوتيتَ؛ ولا تغتر به، فمهما تقلبتَ، وتحركت، وملكت، واستمتعت، فأنت إلى اندحار وهلاك وبوار، ولن يفيدك المال والجاه والسلطان، فهو متاع قليل.. ينتهي ويذهب.

وهكذا حاول القوم إرشاد قارون وإصلاح أمره حين رأوه سادراً في طغيانه وبَغيه، لا هَمَّ له إلا أن يستكثر من المال في زُهُو وعُجب وغرور. فقالوا: **﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾**..

إن الله لا يحب الفرحين.. فهم يردونه بذلك إلى الله، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين، المتطاولين بسلطانه على الناس.

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا﴾.. وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم.

المنهج الذي يُعلّق قلب واجد المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة. بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفاً، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وُجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يُشْغَلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه

الحالة لون من ألوان الشكر للمُنْعِم، وتقبُّل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

﴿وَأَحْسِن كما أَحْسَنَ الله إليك﴾.. فهذا المال هبة من الله وإحسان. فليقابل بالإحسان فيه. إحسان التقبُّل وإحسان التصرُّف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران.

﴿ولا تبغِ الفساد في الأرض﴾.. الفساد بالبغي والظلم. والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة. والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء. والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال. والفساد بالترف والإسراف والتَّبْذير.

والترف يُفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسدّ المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر بالحق وتستجيب. ومن هنا يحارب الإسلام الترف؛ ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة، لأنهم كالغصن يفسد ما حوله، حتى لينخر فيه السوس، ويَسبح فيه الدود!.

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتَأْسن، وتَرْتَع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغُ في الأعراض والحُرمات، وهم إذا لم يجدوا من يَضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن

ثم تَتَحلَّل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحتها.

﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾..

إن الله لا يحب المفسدين.. كما أنه لا يحب الفرحين.

الردّة الفاجرة المغرورة:

كذلك قال قوم قارون له: فكان ردّه جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد والإفساد:

﴿قال: إنما أُوتيته على علم عندي﴾!.

إنما أُوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طَوّع لي جمعه وتحصيله. فما لكم تُملون عليَّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حَصَّلتُ هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟.

لقد انحرفت فطرته بتأثير الأهواء. وقال عن النعمة والرزق والفضل: إنما أُوتيته على علم عندي.. قالها قارون، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يُعلِّل بها ما اتفق له من مال أو سلطان. غافلاً عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومُسَبّب الأسباب، ومُقَدّر الأرزاق.

إن المال نعمة، ولكنه فتنة للاختبار والامتحان. ليتبين إن كان سيشكر أم سيكفر؛ وإن كان سيصلح بها أم سيفسد؛ وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال.

ولكن الإنسان يطغى أن رآه استغنى، ويشمخ قارون بكبرياء ويتعالى، فيخرج عن طور الحق وقد تَملّكه الشيطان فيعلن أن ما أُوتيه إنما كان بسبب عِلمه وخبرته ومهارته وقدرته وفنونه: ﴿قال إنما أُوتيته على علم عندي﴾!.

إنها قولة المغرور المطموس الـذي ينسى مصدر النعمـة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء ويفسده الترف. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكدّه هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما يُنفق وما يُمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حساباً، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!.

والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يُلغيه. ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجاً مُعَيّناً للتصرف في الملكيـة الفردية ـ كما يفرض منهجاً لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته. وطرق إنفاقه والاستمتاع به. وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم. وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بَطَر ذميم.

وأنَّى للطاغية أن تتفتّح آذانه للنصيحة تُلقىٰ إليه، ومَن للمستكبر ينال من نفسه ويمسّ شفاف قلبه!.

إن قارون قد أُشرب قلبه حبّ المال، وزاده الغنى عُلوًّا واستكباراً. فليس لمثل هذا الكلام سبيلٌ إلى نفسه، فَمَن هؤلاء الذين يُشيـرون عليه فيأتمر، وتتطاول أعناقهم إلى نُصحه فينتصح! إنهم لا شـك قد استبـاحوا رحمَاه وتدخَّلوا فيما لا يعنيهم من أمره؛ بل إن هذا من أموره الخاصة!.

لذلك كان جافياً متعالياً في ردّه. فهو أكثر مالاً وأَعـزّ نفراً، وأعـظم سلطاناً وأرفع مقاماً، وأغزر علماً، وأعلا جاهاً. إذ قال: لست بحاجة إلى

نُصح ناصح ولا إلى إشارة راشد، فأنا أرجحكم عقلاً وأسَدُّكم رأياً؛ وما أوتيتُ هذا المال الطويل والثراء العريض؛ إلا لأني به أجدر وأحق، فأنا خير منكم مقاماً، وأكثر عرفاناً. .

هكذا يرسم القرآن الكريم هذا النموذج الإنساني المتعالي بمَالِه وثرائه، المتكبِّر بعلمه وسلطانه. . يُصوِّره من زوايا النفس الإنسانية، ومن ملابسات حياته المُنتفخة. . الإنسان في قوته وماله، مُغْتَرّ غافل، وهو في تخليط هابط مَقيت في القيم والموازين. .

قارون نموذج إنساني مُكَرّر يجتمع فيه العلو والغرور، ويظن نفسه أريباً عالماً حصيفاً، وحشو جلده تغفيل، ولكنه في عترسة وتبجح ذميم. .

وهكذا لم يسمع قارون نداء قومه، مختالاً بماله، فخوراً بسلطانه، يَتَمطَّى في اختياله، ويتعاجب من نصيحة قومه تعاجباً ثقيلاً كريهاً، وقد نسي أن ما به من نعمة هي من الله. أعرض عن هذا كله. وتكبَّر واستكبر، وتعالى وتَجَبَّر. **﴿قال: إنما أوتيته على علم عندي﴾**!.

ومن ثم جاءه التهديد قبل إتمام الآية، رداً على قولته الفاجرة المغرورة:

﴿أوَ لَم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً؟ ولا يُسْأَل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]. .

فإذا كان ذا قوة ومال، فقد أهلك الله من قبله أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالاً. وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المُنجي. فليعلم. وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم. فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد! **﴿ولا يُسْأَل عن ذنوبهم المجرمون﴾**. .

والقرآن ـ رحمة بالعباد ـ يكشف لهم عن السرّ، وينبههم إلى الخطر،

ويحذرهم الفتنة. فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان. وهو يلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم. مصارعهم بمثل هذه الكلمة الضالة التي يقولها قائلهم: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ [الزمر: ٤٩]..

هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها قارون. قالها الذين من قبلهم، فانتهت بهم إلى السوء والوبال. ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئاً. وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين. فسنة الله لا تتبدل وما هم بمعجزين.. فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل!.

﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]..

زينـــة وفتنـــة:

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة، يتجلى فيها البغي والتطاول، والإعراض عن النصح، والتعالي على العظة، والإصرار على الفساد، والاغترار بالمال، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران.

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزينته على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم، وتتهاوى لها نفوسهم، ويتمنّون لأنفسهم مثل ما أُوتي قارون، ويحسّون أنه أوتي حظاً عظيماً يتشهاه المحرومون. ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون. ويُذَكِّرون إخوانهم المبهورين المأخوذين، في ثقة وفي يقين:

﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثلما أُوتي قارون. إنه لذو حَظٍّ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠]..

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقيمة

الإيمان، والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله. والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان:

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون. إنه لذو حظ عظيم﴾..

وفي كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها؛ فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عَرَض الحياة؟ من مال أو منصب أو جاه. ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدُّوه، ولا إلى الطريق الدَنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها.

والحياة الدنيا متاع ولهو ومَشغلة، ولكنها حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمراً عظيماً هائلاً. ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً. وهي تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جدّ تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة!.

والحياة الدنيا: لعب. ولهو. وزينة. وتفاخر. وتكاثر... هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جدّ حافل واهتمام شاغل.. وهي مهلة محدودة وهي ابتلاء واستحقاق للجزاء.

والحياة الدنيا متاع. ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعاً. أو المتاع الذي يُنشىء الغرور والخداع! فهي متاع يُلهي، أو شغل يُنسي. أو شيطان يوسوس في الصدور. والشياطين كثير. الغرور بالمال شيطان. والغرور بالعلم شيطان. والغرور بالعمر شيطان. والغرور بالقوة شيطان.

والغرور بالسلطان شيطان. ودفعة الهوى شيطان. ونزوة الشهوة شيطان. . .

فأما المتاع الحق. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله. . فهو ذاك. . هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار. وتقوى الله وتَصَوُّر الآخرة هما العاصم من كل غرور.

إن الحقيقة الجلية الواضحة إذا لامست القلب البشري لمسة قوية، تدفع الإنسان للإدراك أنه مُستخلف في مُلك ومال وسلطان أُزيل من مالكيه الأوائل وأُجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مُكّنوا فيه، وأنه هو بدوره زائل عن هذا المُلك والمال والسلطان.

إن الحياة الدنيا أيام يقضيها الإنسان على هذه الأرض، مُمْتَحناً بما يكون منه، مُبْتَلى بهذا المُلك والمال والسلطان، محاسَباً على ما يكسب ويعمل بعد بقاء فيه قليل. .

إن هذا التصور الذي يُنشئه الإسلام في القلب البشري. . فوق أنه يرى الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع يظل يُثير فيه يقظة وحساسية وتقوى، هو صمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه.

إن شعور الإنسان أنه مُبْتَلى ومُمتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض، وبكل شيء يملكه، وبكل متاع يُتاح له، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة، ويعطيه وقاية من الانبهار بزينة الدنيا والاستغراق في متاعها ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه ومُمتحن فيه، وإن شعوره بالرقابة الإلهية التي تحيط به ليجعله شديد التوقي، شديد الحذر، شديد الرغبة في الإحسان وفي النجاة أيضاً من هذا الامتحان!.

إن الذين يكتب الله لهم الهدى والخير يضع في قلوبهم الحساسية والحذَر، فهم المتصلون بالله ولهم ميزان آخر يُقَيِّم الحياة، وفي نفوسهم قِيَم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع. وهم أعلى نفساً، وأكبر قلباً من أن

يتهاووا ويتصاغروا أمام قِيَم الأرض جميعاً. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم ﴿الذين أوتوا العلم﴾ العلم الصحيح الذي يُقَوِّمُون به الحياة حق التقويم:

﴿وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم! ثواب الله خير لمن آمَن وعمل صالحاً، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون﴾..

ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون. والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يُلَقَّاها إلا الصابرون.. الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم. الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها. الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون. وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة. درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان.

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حداً للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتُحطِّم الغرور والكبرياء تحطيماً. ويجيء المشهد الثالث حاسماً فاصلاً:

﴿فَخَسَفْنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين﴾ [القصص: ٨١]..

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة: **﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾** فابتلعته وابتلعت داره، وهَوَى في بطن الأرض التي عَلاَ فيها واستطال فوقها جزاء وفاقاً. وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال.

ويصور القرآن الكريم هذا المشهد العنيف الصاخب، مشهد حافل بالحركة، يتسق في هَوْله مع غرض القرآن. فالصورة المعروضة للخسف بهذا المتعالي المُتَكَبِّر مع داره وكنوزه وزينته، تقول: إن هذا الذي تعجبون

به، وتغترون به، وهذا الذي تستطيلون أَمَده، إنما هـو في حقيقته قصيـر زائل، فالإنسان في يد القدرة القادرة تطويه في غمضة، هكذا في ومضـة ابتلعته الأرض في مكان سحيق، فاختفى هو وثروته وسلطانه ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾. . ولِمَ هذه السرعة الخاطفة؟ لئـلا يتوهم أحـد أن لمن يَـتَكَبَّر ويَـتَعالى ويشمخ مَنْبَتاً، أو وجوداً، أو قراراً، أو امتداداً، مهما يبلغ من الثروة والكنوز والقوة والجاه والسلطان؛ إنما يأتي في ومضة من المجهول، ليذهب في ومضة إلى المجهول!!!.

﴿فخسفنـا به وبـداره الأرض﴾ إنه تصـوير حَيّ شـاخص. المشهد يتحـرك وهو يُلقي ظـلالاً بعيدة. ظـلالاً فيها رهبـة وفيها هَـول. ووراءها إيحاءات وإيماءات وإيقاعات!.

فخسفنا به. . وهي حركة عنيفة هائلة مُروِّعة حيّة في الوقت ذاتـه. ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها وضعفه. . كما أن وراءها الإيماء إلى جدّية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحاً ولا مجاملة لأحد كائناً من كان. ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع!.

إن الله ـ سبحانه ـ في عُلاه ينتقم من كل مَن عَلاَ وتجبر وتكبَّر. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله عز وجل: العِزُّ إزاري، والكِبْرياء رِدائي، فَمَنْ ينازعني عذَّبْته»(١).

إن قارون وأمثاله من المتكبرين والمترفين المفسدين يستحقون الانتقام في الدنيا والآخرة، العذاب الذي يصبّه الله عليهم صَبّاً، فلا يَدعهم يفلتون من عـذابه. وهـو الجبار المتكبـر الذي يتـوعد هؤلاء الضعـاف المساكين بالعذاب الرعيب!.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنـه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قـال: «بينما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠)، وأخرجه أبو داود (٤٠٩٠) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

رَجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ[1] تُعْجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ رأسه[2]، يَخْتَال في مِشْيته، إذْ خَسَفَ الله به، فهو يَتَجَلْجَلُ[3] في الأرضِ إلى يوم القيامة»[4].

وعن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزال الرجلُ يذهب بنفسه حتى يُكْتَبُ في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم»[5]. وقوله: «يَذْهَبُ بنفسه»: أي يرتفع ويَتَكبَّر.

﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ وهكذا يرسم القرآن مشهد قارون المروِّع، مشهد يهزّ القلوب هزاً ويخلعها خلعاً. مشهد الهول المفزع الذي يُلقي في النفوس الخوف الرعيب.. لقد هوى في بطن الأرض وذهب يتجلجل فيها يغوص في العذاب..

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس؛ وردَّتهم الضربة القاضية إلى الله؛ وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال. وكان هذا المشهد الأخير:

﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون: وَيْ! كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر. لولا أن مَنَّ الله علينا لخَسَفَ بنا. وَيْ! كأنه لا يُفلح الكافرون﴾ [القصص: ٨٢]..

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يُؤتهم ما آتى قارون. وهم يرون المصير المذلّ المخزي البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة. وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله. فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقُهُ لأسباب أخرى غير الرضى والغضب.

---

(١) الحلة: بضم الحاء المهملة: ثوب له ظهارة وبطانة.
(٢) مُرجِّلٌ رأسه: أي ممشطة.
(٣) يتجلجل: بالجيمين، أي يغوص وينزل.
(٤) البخاري ٢١١/١٠، ٢٢٢، ومسلم (٢٠٨٨).
(٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف. إنما هو الابتلاء الذي يعقبه البلاء. وعلموا أن الكافرين لا يفلحون. وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يُسلكونه في عداد الكافرين، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك الكافرين.

ويسدل الستار على هذا المشهد. وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان.. ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: ٨٣]..

تلك الآخرة التي تحدث عنها الذين أُوتوا العلم. العلم الحق الذي يقوّم الأشياء قيمتها الحقيقية. تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق **﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾** [الإسراء: ٢١]..

فمن شاء التفاوت الحق، ومن شاء التفاضل الضخم، فهو هناك في الآخرة. هناك في الرقعة الفسيحة، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل.. **﴿ولدار الآخرة خير﴾** من هذه الدار الدنيا **﴿ولنعم دار المتقين﴾** [النحل: ٣٠]..

إن القرآن الكريم يضع أمام الإنسان الميزان الدقيق للقيم كلها. فإذا الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تُقاس بالحياة في الدار الآخرة.

فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهواً ولعباً حين لا يُنظر فيها إلى الآخرة. حين تكون هي الغاية العليا للناس. حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة. فأما الحياة الآخرة فهي الحياة الفائضة بالحيوية.

إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى. فعن هذا الإيثار ينشأ الانحراف ثم الفساد والضلال، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويُؤثروها. وهم يريدون الدنيا ويُؤثرونها. .

وتسميتها «الدنيا» لا تجيء مصادفة. فهي الواطية الهابطة ـ إلى جانب أنها الدانية: العاجلة. . والآخرة خير وأبقى. . خير في نوعها، وأبقى في أمدها.

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير. لا يقدم عليها عاقل بصير.

والقرآن لا يعني بهذا أن يحضّ على الزهد في متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيداً. إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه. إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع، والوقوف فيه عند حدود الله. كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له، يُكلِّفها ما يُكلِّفها فلا تتأبَّى عليه! والمسألة مسألة قِيَم يزنها بميزانها الصحيح. فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن؛ ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها، مالكاً لحريته معتدلاً في نظرته: الدنيا لهو ولعب، والآخرة حياة مليئة بالحياة.

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم، فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يُغَير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض. فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون. ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود. والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة

الطويلة، وقدر زهيد من النصيب الضخم، وفصل صغير من الرواية الكبيرة!.

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾.. فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله، ومنهجه في الحياة. أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً. ولا يبغون فيها كذلك فساداً. أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة. تلك الدار العالية السامية.

﴿والعاقبة للمتقين﴾ الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه.

والتقوى شعور في الضمير، وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة، وتصل الإنسان بالله في سره وجهره. وتشف معها الروح فتقلّ الحجب بينها وبين الكُلِّيّ الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول. ومتى شفت الروح وانزاحت الحُجب بين الظاهر والباطن، فإن الإيمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه، ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح. وهناك المآل وهناك الرجاء، وهناك المثوى وهناك المأوى.. **﴿والعاقبة للمتقين﴾**..

وفي تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه. الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها. والسيئة بمثلها رحمةً بضعف الخلق وتيسيراً:

﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها. ومن جاء بالسيئة فلا يُجزىٰ الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ [القصص: ٨٤]..

ويجمع الله ـ سبحانه ـ بين فرعون وهامان وقارون ومن سبقهم من الكفار في العذاب: ﴿.. **وقارون وفرعون وهامان، ولقد جاءهم موسى بالبيِّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين. فَكُلًّا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحةُ، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ [العنكبوت: ٣٩]..

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وعَلا وتكبَّر بثروته وماله وعلمه. وفرعون كان طاغية غشوماً، بغى وطغى، وعَلاَ في الأرض، وظلم ظلماً كثيراً، وعتى عتواً غليظاً. وهامان كان وزيره المدبر لمكائده، المُعين له على ظلمه وبطشه.

قد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان؛ ولقد بغي قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال. وكانت النهاية واحدة، هذا خُسف به وبداره، وذلك أخذه اليمّ هو وجنوده. ولم تكن هناك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة، إنما تدخلت يد القدرة سافِرة فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد.

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزاً والصلاح حسيراً، ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال. عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع الحد الرادع للشر والفساد.

القيم الظاهرة الجوفاء:

إن قارون وفرعون وهامان ومَن سَلَك طريقهم على توالي الزمان واختلاف المكان هم في فئة واحدة: فئة الطغيان والبغي والفساد، وفئة العلو والاستكبار والتجبّر.

لقد عرضت قصة موسى وفرعون قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المتجبر.

وعرضت قصة قارون مع قومه ـ قوم موسى ـ قيمة المال، ومعها قيمة العلم. المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء. والعلم الذي يعتز به قارون، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أُوتي ذلك المال. ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تُستخفهم زينته؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنه خير وأبقى. ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض، لا يُغني عنه ماله ولا يُغني عنه علمه؛ وتتدخل تدخلاً مباشراً سافراً كما تدخلت في أمر فرعون، فألقته في اليمّ هو وجنوده فكان من المغرقين.

ومن هذه الجولة في قصة البغي والطغيان. قصة قارون في ضمير الزمان، نرى طرفاً من سنة الله الجارية، التي لا تتخلف مرة ولا تحيد.

وهي دعوة إلى التأمُّل في مصائر الغابرين؛ وهم ناس من الناس، وخَلْق من خَلْق الله، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية. فسنة الله هي سنة الله في الجميع. وسنة الله حق ثابت يقوم عليه مبدأ الوجود، بلا محاباة لجيل من الناس، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب. حاشا لله رب العالمين!.

وقصة قارون، قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور. إنه موقف كل مُترف أمام الحق. والترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى الحق ولا تستمع لصوته، وتستكبر على الهدى، وتصرّ على الباطل، ولا تتفتح للنور.

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويُغِرّهم ما هم فيه

من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذَّبين**﴾ [سبأ: ٣٥]..

إن الإنسان تُخطىء موازينه وتضل تقديراته، ولا يرى إلا الظواهر، ما لم يتصل بميزان الله: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول: ربِّ أكرمنِ. وأما إذا ما ابتلاه فقَدَر عليه رزقَه فيقول: ربِّ أهاننِ**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]..

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال، ومن بَسْطٍ وقَبْض يَبتليه بالنعمة والإكرام. بالمال أو المقام. فلا يدرك أنه الابتلاء، تمهيداً للجزاء. إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه عند الله للإكرام، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره. فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة! ويقيس الكرامة عند الله بعَرَض هذه الحياة! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك، ويحسب الاختبار عقوبة، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله، فلو لم يُرد مهانته ما ضيّق عليه رزقه..

وهو في كلتا الحالتين مخطىء في التصور ومخطىء في التقدير. فَبَسْط الرزق أو قَبْضه ابتلاء من الله لعبده. ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر. ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر. والجزاء على ما يظهر منه بعد.

وليس ما أُعطي من عرض الدنيا أو مُنع هو الجزاء.. وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عَرَض الدنيا. ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض. فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح. ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول. إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي. والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء!.

لقد وضع القرآن للناس ميزان القيم كما هي عند الله، فهو يُبين لهم

أن بَسْط الرزق وقبضه، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة، ولا يدل على رضى ولا غضب من الله، ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء، وعن الرضى والغضب، يتبع قانوناً آخر من سنن الله: ﴿**قل: إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [سبأ: ٣٦]..

وهذه المسألة. مسألة بسط الرزق وقبضه؛ وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها، مسألة يحيك منها شيء في صدور كثيرة. ذلك حين تتفتح الدنيا أحياناً على أهل الشر والباطل والفساد، ويُحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح؛ فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام؛ أو يشك بعض الناس في قيمة الخير والحق والصلاح، وهم يرونها محوطة بالحرمان!.

ويَفصل القرآن بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التي ينظر الله إليها. ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وأن هذه المسألة، ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما. وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على مَن هو عليه راض. وقد يُضَيق الله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير. ولكن العلل والغايات لا تكون واحدة في جميع هذه الحالات.

قد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة ـ وفق حكمته وتقديره ـ بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة، وجزعاً وضيقاً وبأساً من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال.

ولقد يغدق الله على أهل الخير، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب

واللسان والفعل الجميل، ويذخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم. وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان، وثقتهم بربهم، ورجاءهم فيه، واطمئنانهم إلى قدره، ورضاهم بربهم وحده، وهو خير وأبقى؛ وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان.

وأياً ما كانت أسباب بَسْط الرزق وقبضه من عمل الناس، ومن حكمة الله، فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلاً بذاتها على أن المال والرزق والمتاع قيم تقدم أو تُؤخر عند الله. ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم في الرزق أو المُضَيق عليهم فيه. فمن وهَبَه الله مالاً ومتاعاً فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله في الثواب جزاء ما أحسن في نعمة الله.

غير أن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لا يدرك حكمة المنع والعطاء. ولا حقيقة القيم في ميزان الله.. فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك. وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء.. واطمأن إلى قَدَر الله في الحالين؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!.

وقد كان القرآن يخاطب أُناساً في مكة ـ يوجد أمثالهم في كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع ـ أناساً ذلك ظنهم بربهم في البسط والقبض. وذلك تقديرهم لقيم الناس في الأرض. ذلك أن المال والجاه عندهم كل شيء. وليس وراءهما مقياس! ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيماً، وحبّهم له حباً طاغياً، مما يورثهم شراهة وطمعاً. كما يورثهم حرصاً وشحاً.. ومن ثم يكشف لهم عن ذوات صدورهم في هذا المجال، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم في إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض في الأرزاق:

﴿كلا. بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضُّون على طعـام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لَماً، وتحبون المال حباً جمّاً﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠]..

كلا! ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان. ليس بسط الرزق دليلاً على الكرامة عند الله. وليس تضييق الرزق دليلاً على المهانة والإهمال. إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء، ولا توفون بحق المال..

.. إنكم لا تدركون معنى الابتلاء. فلا تحاولون النجاح فيه، بإكرام اليتيم والتواصي على إطعام المسكين، بل أنتم ـ على العكس ـ تأكلون الميراث أكلاً شرهاً جشعاً؛ وتحبون المال حباً كثيراً طاغياً، لا يستبقي في نفوسكم مكرمة أو خير.

إن المادية والتفكير المادي حين يطغي على حياة الناس وشعورهم وتفكيرهم يكاد يُعطّل فيهم شعور الرحمة والبر والتسامح والوئام والأخوة الإنسانية، وحتى يكاد يُميت في الإنسان الضمير والإيمان الذي يمكن أن يمدّ صاحبه بنوازع الخير والبر والحق والإحسان والإنصاف.

إن المادية تجعل وَجْه الحياة كالحاً، فهي تغتال الرحمة من القلوب فتفسد الحياة وتصبح جحيماً لا يُطاق؛ لأن ميزانها الوحيد هو المادة وما تُنتجه من قسوة وتناحر وأنانية وجشع وضعف شعور واستغراق في الشهوات، وتحلّه من روابط البرّ والآداب الكريمة والعواطف الإنسانية، وتبيحه من الوسائل، في سبيل تحقيق نزوات النفوس ومطامعها ورغباتها التي تمليها تلك الصبغة، ولأن التوازن قد انفقد تقريباً بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والعاطفة والعلم.

حين ينشأ الترف في المجتمع، وتنشأ طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسيتهم، وتكثر الأموال وأدوات الترف، تشتد الإغراءات المادية وتفعل فعلها في المجتمع حتى يشرف الإيمان والعمل الصالح على الضياع

والتلف، وتتقدم الأمة بخطى واسعة إلى انهيار في الأخلاق والروح، ولا بقاء لأمة بعد ذلك في الصلة بالله، وهذا دوماً نذيراً لعذاب الله الشديد، نذيراً لكارثة كبرى، كارثة أصيبت بها الأمم من قبل، وهي الإفلاس في الإيمان والروح والأخلاق، ولا بقاء لأمة بعد ذلك: **﴿وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾** [الإسراء: ١٦]. .

والآية تقرر سُنَّة الله هذه. فإذا قَدَّر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعمَّ فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهي المسؤولة عما يحلّ بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلَّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك وعذاب الله.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قَدَر الله سيصيبها جزاءً وفاقاً، وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة.

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشىء السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب. الأمر الذي لا مفرّ منه لأن السُّنة جرت به. والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق.

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشىء آثارها التي لا مفرّ منها. وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً.

هذه السُّنة قد مضت في الأولين، قرناً بعد قرن، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير.

أما نُزل المترفين يوم الدين، مصير الطغاة المفسدين ﴿**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال؟ في سَموم وحميم. وظلٍّ من يحموم. لا بارد ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين**..﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٥]..

لقد كانوا في الدنيا في دعة وراحة، لكنهم هناك في سموم وحميم.. الهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام. والماء مُتَنَاه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروي. وهناك ظل! ولكنه «ظل من يحموم».. ظل الدخان اللافح الخانق.. إنه ظل للسخرية والتهكم. ظل ساخن لا رُوح فيه ولا برد؛ وهو كذلك كزّ لا يمنح وُرّاده راحة ولا إنعاشاً!..

لقد خلقت جهنم ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين المفسدين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها.. هذا الشظف كله جزاء وفاق: ﴿**إنهم كانوا قبل ذلك مترفين**﴾.. وما آلَم الشظف للمترفين!.

وبعدُ، لقد أخذ الله قارون بعدما علا في الأرض بزينته وماله وكنوزه، وتكبَّر وتجبّر، بعدما فتن الناس وآذاهم طويلاً، بعدما قال كلمته الضالة: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ فانتهت به إلى السوء والوبال. ولم يُغن عنه علمه ولا ماله ولا سلطانه شيئاً.

إن الترف يورث الكِبَر والعلو والإعراض عن الحق. الترف يغلق القلوب عن سماع النصيحة والإرشاد، الترف يطمس العقول دون التدبر. ومن ثم لا يكون إلا الهلاك والخسف والتدمير لهذه الجبلة التي لا تريد أن

تفتح عينها لترى، أو تفتح قلبها لتحس، أو تفتح عقلها لتستبين.

هذا هو مصير قارون ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾، وهذا هو مصير ذلك الصنف من خلق الله يعرضه القرآن على الناس لعلهم يتبينون عـاقبة الطريق الذي يسلكون..

قصة صاحب الجنتين

المحتوى	ص
ـ عرض وتقديم	٤١٩
ـ ما شاء الله لا قوة إلا بالله	٤٢٣
ـ في ميزان الله	٤٢٧
ـ مرآة الحق	٤٣٢

قصة صاحب الجنتين

ثم تجيء قصة الرجلين والجنتين تُضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية. وهي القصة الأكثر وقوعاً في الحياة اليومية والحياة العادية. وتتمثل في كل مكان وزمان وحين. .

وقصة الجنتين تُصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة. وكيف يجبه صاحبها المنتفش المنتفخ، يجبهه بالحق، ويؤنبه على نسيان الله: **﴿قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرتَ بالذي خلقكَ من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً؟﴾** . .

وهي ترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة. ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه.

وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربّه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره.

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة: **﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب، وحففناهما بنخل، وجعلنا بينهما**

زرعاً. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً، وفجّرنا خلالهما نَهَراً. وكان له ثمر﴾..

إنها قصة رجل غمرته النعمة، وتوفرت له أسباب الهناء والرخاء، له جنتان من أعناب ـ الثمر الكريم الحبيب ـ، فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل ـ الثمر الكريم الحبيب ـ تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر.. إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال: ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً**﴾..

ويختار التعبير كلمة ﴿**تظلم**﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلىء نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿**فقال لصاحبه ـ وهو يحاوره ـ أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً**﴾..

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛ فأنساه الله نفسه.. وهي حالة عجيبة. ولكنها حقيقة.. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشدّه إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى. وفي هذا نسيان لإنسانيته. وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زاداً للحياة الطويلة الباقية، ولا ينظر فيما قدّم لها في الغداة من رصيد.. أولئك هم الفاسقون.. المنحرفون الخارجون عن الفطرة وعن الحق المبين..

لقد ظنّ هذا الرجل أن هذه الجنان المثمرة لن تبيدَ أبداً، أنكر قيام الساعة أصلاً. وهَبْها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظاً في الآخرة!

﴿**ودخل جنته وهو ظالم لنفسه. قال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما**

أظن الساعة قائمة. ولئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً!﴾..

إنه الغرور الذي يُخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن الطبيعة المادية وقصر نظرها: «هناك تثور الطبيعة المادية في هذا الرجل السري الثري ـ نفس الطبيعة التي تثور في أصحاب الحكومات والولايات، وأصحاب رؤوس الأموال والعقارات، وأصحاب الزعامة والوزارات، وأصحاب الصناعات والاختراعات، وأصحاب البوارج والمدمرات ـ تثور هذه الطبيعة التي لا يقهرها الإيمان، ولا تضبطها المعرفة الصحيحة والتربية الصالحة، فينسب سعادته وجدّه إلى علمه ولباقته وجهوده وذكائه كما فعل قارون من قبل فقال: **﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾**..

ويفاخر صديقاً له لا يعادله في هذه السعادة فيقول في صراحة بل وقاحة: **﴿أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً﴾**.

ويدخل في مركز رخائه وثرائه ومركز نفوذه وسلطانه جاهلاً لنفسه، جاهلاً بربه، جاهلاً بالأسباب الخفية والإرادة الإلهية التي تحكم من فوق سبع سماوات، وتحول بين الإنسان وملكه وبين الإنسان وقلبه، ظالماً لنفسه ظلماً علمياً وعملياً، وخلقياً وعقلياً، فتنطق هذه الطبيعة المادية العمياء على لسان صاحبها الجاهل فيعلن خلوده وخلود جنتيه، ويجحد بالبعث، ويعلن سعادته الدائمة ـ في الدنيا والآخرة، إن كانت آخرة ـ في صلَف وخُرْق.. ويعتقد أنه من الرجال المجدودين السعداء الذين لا يخونهم الحظ ولا يعثر بهم الجَدّ، ويكونون في كل مكان وزمان في أوج السعادة والسيادة **﴿ولئن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً﴾**. ويعتقد أمثال هذا أن لا حاجة إلى الإيمان والعمل

الصالح والكدح، إنما هي سعادتهم الفطرية التي تهيىء لهم أسباب الهناء والرخاء في كل وقت»[1].

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر.. فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى. معتز بعقيدته وإيمانه. معتز بالله الذي تعنو له الجباه؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور مُنكراً عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم. وينذره عاقبة البطر والكبر. ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار:

﴿قال له صاحبه ـ وهو يحاوره ـ أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً؟ لكنا هو الله ربي، ولا أشرك بربي أحداً. ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. إن ترنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً. فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك، ويرسل عليها حسباناً[2] من السماء فتصبح صعيداً زلقاً[3]، أو يصبح ماؤها غوراً[4] فلن تستطيع له طلباً﴾..

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب.

وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم، وهو يطمع في فضل الله. وأن نقمة الله جبَّارة وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

«لقد كان هذا المؤمن قد فتح الله بصيرته للحق والإيمان وسعد بمعرفة الله وصفاته وأفعاله وأنه هو المصرّف لهذا الكون، والخالق للأسباب والمغيِّر

---

(١) تأملات في سورة الكهف، المسلمون، المجلد السادس، ص: ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) سيل مدمر يقتل أشجارها ويهلكها.
(٣) سطحاً أجرد تزل فيه القدم.
(٤) غائراً وهو ضد النابع.

للشؤون، فعارضه في مقالته وتفكيره المادي، ونبَّهه إلى أصله وحقيقته وبدايته، وهي الحقيقة القاسية التي يتناساها المجدودون المُخدعون ويفرون من تذكرها **﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً﴾** وما أشق سماعه على المتكبرين الجبارين! وذكر له أنه سائر في اتجاه معارض، وهو الاتجاه الإيماني **﴿لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾**.

ثم ذكَّره بالحقيقة الأساسية التي يدور حولها نظام الحياة، وهو أنه ليس الشأن في الأسباب، إنما الشأن في خالق الأسباب ومالكها، وكل ما يراه السري الثري من أسباب السعادة والهناء ويغتبط بها ليس من صنع الأسباب وليس من كسب يده أو ذكائه، إنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، ويلفته ـ في حكمة ورفق ـ إلى الاعتراف بصنع الله وقدرته وإسداء كلمة الشكر والحمد **﴿ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾**.

ما شاء الله لا قوة إلا بالله:

و **﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾** هي روح الكون والحياة، ومفتاح القصة، يقول الأستاذ الندوي: «وقد أوصى الله تعالى نبيه ـ وكل قارىء للقرآن قبل آيات من تقديم القصة بتفويض الأمر والقوة إلى الله تعالى في المستقبل وفي ما ينويه ويريده في المستقبل، وأن يشترط كل إرادة وعزم بمشيئة الله تعالى فقال: **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله. واذكر ربك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقربَ من هذا رشداً﴾**.

وكيف يخضع للأسباب وعبادتها والمادة وأصحابها ويؤمن بالنفس وإرادتها مَن ينسب الفضل في كل ما حِصل والفضل في كل ما ينوي إلى الله وحده ويقول: **﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾** ويستثني في كل ما يقصده ويعد به فيقول: إن شاء الله. وهاتان ـ ما شاء الله، وإن شاء الله ـ كلمتان خفيفتان على اللسان يكثر النطق بهما من غير شعور وتعقل، ولكنهما كلمتان ثقيلتان عميقتان مليئتان بالمعاني حاسمتان للمادية الرعناء والاعتماد على النفس والإرادة.

وقد امتازت الحضارة المادية بشدة الاعتماد على وسائلها وقواها وطاقاتها فتعلن حكوماتها بتحقق مشاريعها[1] العمرانية والاقتصادية حتى ما يتوقف منها على موافقة الطبيعة واعتدال المواسم والفصول ـ في المدة المحددة من غير استثناء وشك، وتعلن أنها ستنجح كذا وكذا في كذا وكذا من الأعوام، وتصبح بلادها كافلة لنفسها مستغنية عن الخارج، وتسخر منها الإرادة الإلٰهية فتصاب بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبالمجاعات بعد المجاعات والمفاجآت التي لم تكن في الحساب، وتتخلف عنها الأمطار في حين أو مكان، وتصاب بالفيضان والسيل العرم في حين أو مكان آخر، فيخطىء التقدير وتخفق المشاريع.

ليست كلمة «إن شاء الله» والوصية بالتكلم بها محدودة في الأعمال الفردية التافهة أو الحوادث اليومية «البسيطة» من مقابلات وزيارات ومواعيد شخصية وأسفار، بل هي الشاملة للأعمال الاجتماعية الكبيرة والعزائم والمشاريع العظيمة التي تؤثر في حياة الأمة ومصيرها، فيجب أن يكون كل ذلك ـ مع السعي والجد والجهاد والأخذ بالتدابير اللازمة الذي حثّ عليه القرآن والسنّة، وجرى عليه النبي وأصحابه في حياتهم ـ خاضعاً للإيمان بأن الإرادة الإلٰهية هي القاضية الحاكمة، وهي الفاصلة الحاسمة، وليس الفرد هو المخاطب الوحيد بقوله **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾** بل المجتمعات والحكومات والمنظمات كلها المعنية المكلفة بها، وهي روح المجتمع الإسلامي الذي يتغلغل فيه الإيمان، وروح الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالغيب، وهي الفارقة بين الحضارة المادية والحضارة الإيمانية.

ويُنبِّهه صديقه المؤمن إلى أن هذا الاختلاف في الحظوظ والجدود وأن هذا التوزيع ليس أبدياً لا يزول ولا يحول، وأن زمام الأسباب والتصرف في

---

(١) لا يعني ذلك طبعاً ألا توضع المشروعات وتتسع الدراسات القائمة على وسائل العلم في الإنتاج، وإنما المهم ألا يطغينا مظاهر القوة والعلم فنغفل عن جلال الله الذي خلق الأسباب ومسبباتها.

العالم لم يفلت من يد خالق الكون، فلا يزال يملكه، فالشقي قد يسعد، والسعيد قد يشقى، والغني ربما يفقر، والفقير ربما يغنى، فلا غرابة إذا انقلبت الأوضاع **﴿إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾**.

وهكذا كان! فطاف على الجنتين طائف من الله، وأصبح كل ذلك صعيداً جُرزاً»[1].

وينقلنا سياق القصة من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار. ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار. فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن.. هناك أفاق الرجل السكران **﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفّيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، ويقول: يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾**..

وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مُدمَّر كأنما أُخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء. والجنة خاوية على عروشها مهشّمة محطمة. وصاحبها يقلّب كفّيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب. وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته. ومع أنه لم يصرِّح بكلمة الشرك، إلى أن اعتزازه بقيمة أخرى غير قيمة الإيمان كان شرطاً يُنكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي:

«إن صاحب الجنتين لم يكن مشركاً بالله كعامة المشركين، فليس في القرآن ما ينص على ذلك أو يشير إليه، بل بالعكس يُشعِر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به فقد قال: **﴿ولئن رُدِدتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً﴾**.

---

(١) تأملات في سورة الكهف، المجلد السادس من مجلة المسلمون، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

فما كان شركه الذي تأسَّف عليه وقرع عليه من الندم: ﴿يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾؟

الظاهر الذي لا خفاء فيه أنه كان أشرك بالله الأسبابَ، فاعتقدَها المصرفة المؤثرة التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه وازدهار ماله واعتمد عليها ونسي الله وكفر بتأثيره وتصرفه.

وهذا هو الشرك الذي اتجهت إليه الحضارة العصرية المادية، فقد اتخذت الأسباب الطبيعية والمادية والفنية وأصحاب الاختصاص فيها الذين نسميهم «الأخصائيين Specialists» أرباباً وأولياء من دون الله، ووضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم، واعتقد أن بيدهم الحياة والموت، والسعادة والشقاء. لقد فقدت الوثنية وفقدت الأصنام القديمة كثيراً من سلطانها ونفوذها بتأثير الإسلام أولاً وبتأثير الحضارة المادية والفلسفات المادية ثانياً، وأصبحت عبادة الأسباب والماديات والقوى الكونية وعبادة الطبيعة والاعتماد الكلي على أصحاب الاختصاص واتخاذهم أرباباً من دون الله وثنية هذا العصر والشرك السائد الذي ينافس الإيمان والعبودية، وهي الوثنية التي تتحداها هذه القصة وتحاربها وتنعى عليها»(١).

إن هذه القصة ترسم الجانب الأصيل للتوحيد والإشراك.. ترسم نموذجين واضحين.. نموذج الرجل الذي تعميه الثروة وتبطره النعمة.. ونموذج المؤمن الذي يرى أثر المُنعم الخالق في نعمه، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

كما أن هذه القصة بناء أخلاقي عقيدي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمَن يقوم أميناً على منهج الله في الأرض، وهي حلقة من حلقات التربية والتوجيه، وهي تفتح القلوب والعيون على الحقيقة. فالله سبحانه يتفرد بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره. وثوابه

---

(١) المصدر السابق: ١٢٤ ـ ١٢٥.

هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو ما يتبقى: **﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً. هنالك الولاية لله الحق، هو خير ثواباً وخير عقباً﴾** . .

في ميزان الله:

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يُقلِّب كفيه أسفاً ونـدماً، وجـلال الله يظلل المـوقف، حيث تتوارى قـدرة الإنسان . .

هذه القصة درس كبير. . كله تقرير للقيم في ميزان العقيدة. إن القيم الحقيقية ليست هي المال، وليست هي الجاه، وليست هي السلطان. كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة. . إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة. والإسلام لا يحرم الطيب منها؛ ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان. فمَن شاء أن يتمتع بها فليتمتع، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها. وليشكـره على النعمة بالعمل الصالح، فالباقيات الصالحات خير وأبقى.

وهكذا نجد محور القصة هو تصحيح العقيدة. وتصحيح منهج الفكر والنظر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة.

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله. فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه. فهذه قيم زائفة، وقيم زائلة. إنما التفاضل بمكانها عند الله. ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له. وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان، فبعد أن ضرب الله للفريقين مثلاً رجلين: أحدهما يعتز بما أوتي من مال وعزة ومتاع. والآخر يعتز بالإيمان الخالص، ويرجو عند ربه ما هو خير. .

نرى السياق القرآني يُعقب بمَثَل يضرب للحياة الدنيا كلها، فإذا هي قصيرة زائلة كالهشيم تذروه الرياح . .

لقد عقب القرآن الكريم على القصة فضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها:

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾..

وأمام مشهد الرجلين والجنتين يضرب الله مثلاً للحياة الدنيا كلها. فإذا هي كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة، لا بقاء لها ولا قرار.

إن مشهد الحياة الدنيا يعرض قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال. فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط بـه نبات الأرض. والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح. ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة.

ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد. بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء:

﴿ماء أنزلناه من السماء﴾ فـ ﴿اختلط بـه نبات الأرض﴾ فـ ﴿أصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة!

وبعد أن يلقي مشهد الحياة الذاهبة ظله في النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التي يتعبدها الناس في الأرض، والقيم السامية التي تستحق الاهتمام، يعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً، وخير أملاً﴾..

المال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات. ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد.

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة. فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يُقدروا على أساسهما في الحياة. إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات.

وإذا كـان أمل النـاس عادة يتعلق بـالأموال والبنـين فـإن البـاقيـات الصالحات خير ثواباً وخير أملاً. عندما تتعلق بها القلوب، ويناط بها الرجاء، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء.

وهكذا يتناسق إيحاء قصة الجنتـين. مع ظـل المثل المضروب للحيـاة الدنيا. مع هذا التقرير الأخير للقيم في الحياة وما بعد الحياة..

وتشترك كلها في تصحيح القيم بميزان العقيدة، وتنتهي من ذلك كله بتقرير الحقيقة الباقية الخالدة.

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمراً عظيماً هائلاً. ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً. لعب. ولهو. وزينة. وتفاخر. وتكاثر.. هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جدّ حافل واهتمام شاغل..

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه، ويُنظر إليه، ويستعـد له.. فهي لا تنتهي إلى حـطام وفناء.. إنها حسـاب وجزاء.. ودوام.. يستحق الاهتمام! فلتتعلق القلوب بالقيم الحقة، بالباقيات الصالحات فهي **﴿خير عند ربك ثواباً، وخير أملاً﴾**.

إن متاع الحياة الدنيا متاع الغرور، يستمد قوامه من الغرور الخادع، كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع. وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة. حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي ناطها بهذا الكـائن البشري(١). إنما يقصـد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسيـة، والاستعلاء عـلى غرور المتـاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض. هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهـذا القرآن في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم. والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة،

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ في سورة الذاريات، في ظلال القرآن ٦/٣٣٨٦ - ٣٣٨٩.

ليحقق عقيدته، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعاً.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي [1] في التعليق على قصة صاحب الجنتين والتعقيب القرآني عليها: «يمثل القرآن هذه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يلبث أن يكون هشيماً ﴿**واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلطَ به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً**﴾.

وهذا هو تصوير القرآن لهذه الحياة القصيرة الفانية في مواضع كثيرة، ففي سورة يونس: ﴿**إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرُفها وازَّيَّنت وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس كذلك نُفصِّل الآيات لقوم يتفكرون**﴾.

وهكذا يصوِّر القرآن الحياة التي يؤمن بخلودها الماديون، ويعكف على عبادتها «النفعيون» و«الأبيقوريون» ويزيِّف مكاييلها وموازينها التي يعتمد عليها قصارِ النظر وعُبَّاد الأسباب والمظاهر ويمجِّدونها ويعقدون بها الآمال الكثيرة، ويفضِّل عليها المكاييل الإيمانية ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أملاً**﴾.

وهنا نقف وقفة قصيرة ونتساءل: ما هي نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا؟ ويحسن بنا أن نستعرض القرآن في هذا الموضوع، ونستوحيه فقد اضطربت عقول المسلمين ونظراتهم، وأقوال الباحثين واتجاهاتهم في هذه الحياة وقيمتها ومنزلتها.

إن القرآن يقرر ـ بكل وضوح وقوة وصراحة ـ قِصَر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الآخرة، فيقول مثلاً ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ [براءة: ٣٨] ويقول: ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحَيَوان لو كانوا يعلمون**﴾ [العنكبوت: ٦٤] ويقول:

(١) تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص: ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غَيْثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقرر كذلك في وضوح وقوة أنها قنطرة إلى الآخرة وفرصة للعمل: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٧] ويقول: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ [الملك: ٢].

ويقرر أن الآخرة هي خير وأبقى فيقول: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، ولَلدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ [الأنعام: ٣٢] ويقول: ﴿وما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خيرٌ وأبقى أفلا تعقلون﴾ [القصص: ٦١].

إذن هو يذم ويشنع مَن يؤثر الدنيا ـ هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة ـ على الآخرة ـ الباقية الخالدة الواسعة الصافية من الأكدار الخالية من الأخطار ـ فيقول: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءَنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ [يونس: ٧ ـ ٨] ويقول: ﴿مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحَبطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ [هود: ١٦] ويقول: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد﴾ [إبراهيم: ٣] ويقول: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧] ويقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تولَّى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمَن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمَن اهتدى﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] ويقول: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذَرون

وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ [الإنسان: ٢٧] ويقول: ﴿فأما مَن طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

ويمدح مَن يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها فيقول: ﴿فمن الناس مَن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حَسَنةً وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم مَن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠١] ويقول على لسان نبي الله موسى: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هُدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦] ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [النحل: ١٢٢].

وهنا تتعارض الأديان السماوية وتعاليم النبوّة أو مدرسة النبوّة ـ إن صحّ هذا التعبير ـ مع الفلسفات المادية والتفكير المادي الذي يلحّ على أن هذه الحياة هي كل شيء وهي المنتهى، ويبالَغ في تمجيدها وتقديسها، والاحتفاء بها والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها».

مرآة الحق:

«وقد تجلَّت هذه النفسية القرآنية أو النظرة القرآنية إلى الحياة في كلام النبي ـ ﷺ ـ وكثيراً ما كان يقول: «اللهم لا عيشَ إلا عيشَ الآخرة»[(١)] وكان دعاؤه ـ ﷺ ـ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ـ وفي رواية: كفافاً»[(٢)].

وعن المستورد بن شداد قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بِمَ يرجع»[(٣)]،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق.
(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد.
(٣) رواه مسلم.

وقد كانت حياته الطيبة مرآة صادقة لهذه العقيدة والنفسية، فعن ابن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ نام على حصير وقد أثّر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»[١].

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإيلاء: «فدخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو مضطجع على رمال[٢] حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف فسلمتُ عليه.. [إلى أن قال] فرفعتُ بصري في بيته فوالله ما رأيتُ فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة[٣] فقلتُ يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وُسّعَ لهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ـ ﷺ ـ وكان متكئاً فقال: «أوفي هذا يا ابن الخطاب، إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»[٤].

وقد انصبغ كل مَن تلقى التربية في هذه المدرسة أو تخرّج فيها أو كان تلميذاً من تلاميذها بهذه الصبغة وسيطرت عليه فكرة الآخرة وجرت منه مجرى الروح والدم، وتغلغلت في أحشائه فأصبح لا يذهل عن الآخرة ولا يبغي بها بدلاً ولا يُؤْثِر عليها شيئاً، ويكفيك إذا أردت أن تتمثل هذه الروح المسيطرة على تلاميذ هذه المدرسة أن تقرأ وصف علي بن أبي طالب، وهي صورة ناطقة للطراز الإنساني الذي تخرّج في هذه المدرسة ونشأ في أحضان الرسول ـ ﷺ ـ.

عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة: صف لي علياً. فقال: أوَ تعفيني. قال: بل صفه، قال: أوَ تعفيني. قال: لا أعفيك، قال: أما إذاً فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً،

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

(٢) المراد به النسج.

(٣) جمع إهاب وهو الجلد.

(٤) البخاري ج ٢، كتاب النكاح.

ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غَزير الدمعة طويل الفكرة، يقلّب كفه ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتديه لعظمه، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا أبي تعرضت أم لي تشوقت؟ هيهات! غرِّي غيري. قد بتتُّكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبُعْد السفر ووحشة الطريق(١).

وإليك مثال ثان، وهو خطبة رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ يلقيها أميراً على عاصمة كبيرة من عواصم الدولة الإسلامية الكبرى: «عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ فحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد. فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولّت حذّاء(٢) ولم يبقَ منها إلا صبابة (٣) كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم فإنه قد ذُكر لنا أن الحجر يُلقى من شفة جهنم فيهوي سبعين عاماً لا يدرك لها مقراً، والله لتملأنَّ، أفعجبتم؟ وقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتينّ عليها يوم كظيظ من الزحام، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ـ ﷺ ـ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بُردة فشققتها بيني

---

(١) صفوة الصفوة لابن الجوزي.
(٢) أي مسرعة الانقطاع.
(٣) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء.

وبين سعيد بن مالك فاتَّزرت بنصفها واتَّزر سعيد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً، وأنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى تكون آخر عاقبتها ملكاً فستُخبرون الأمراء بعدنا».

ولا تستطيع العقليات والدعوات التي لم تتشبع بروح الإيمان ولم تتلقَ التوجيه والتربية من مدرسة الرسول ـ ﷺ ـ مباشرة أن تهضم هذه الفكرة أو العقيدة أو الاتجاه ولا تسيغه، ولا تزال في صراع منها أو في حرج من ذلك، وتحاول الفرار منه أو تعليله بأنه كان في عصر خاص وفي بيئة خاصة وبظروف وأسباب خاصة، ولكن الذي لا غموض فيه أن القرآن وسيرة الرسول والحديث النبوي ممتلىء بهذه الروح، وأن هذا هو المزاج الإسلامي أو النفسية الإسلامية التي تتكون تحت تأثير التربية الإسلامية النبوية، وكلما استطاع القرآن وكلما استطاعت السيرة النبوية أن تعمل عملها بحرية وتنشىء جيلاً خاصاً يُخلق في الإسلام خلقاً جديداً ولم تساوره العوامل الأجنبية، كان ذلك مزاجه أو طبيعته أو نفسيته: زهدٌ في الدنيا وزخارفها وفضولها، وقناعة بالقدر الكافي، واهتمام بالآخرة وما ينفع فيها، وحنين إلى لقاء الرب، وإيثار ما عند الله على ما في هذه الحياة، واستقبال للموت على الإيمان في سبيل الله. وقد تفيض على شفة هذا الطراز المؤمن كلمة السابقين من أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ: «غداً ألاقي الأحبة محمداً وحزبه»[١].

وقد تعني بعض الدعوات الإسلامية بعقيدة الإيمان بالآخرة وتشرحها شرحاً جميلاً وتذكر ـ في توسع وبلاغة ـ حكمتها وتأثيرها في الحياة وأهميتها في النظام الخلقي، ولكن القارىء الذكي يلاحظ أنه إيمان بالآخرة كضرورة خلقية وكحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة، فضلاً عن المجتمع الإسلامي، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، والفرق بينهما أن

(١) من قول سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه ـ الغزالي في إحياء علوم الدين عن أبي الدنيا.

الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقرير وقانون مرسوم، وأن الأولين يتكلمون عن «الآخرة» باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة. والآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية أو الحاجة الاجتماعية وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتّان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية.

ولكن هذا الإيمان العميق القوي بالآخرة وإيثارها على الدنيا والزهد في زخارف الحياة وفضول المعيشة لم يحمل أصحابه على الاعتزال عن قيادة العالم وتوجيه الإنسانية، والعيش في عزلة عن الحياة، ولم يحملهم على رفض أسباب المعيشة والقعود عن الكفاح للحق والخير، ولم يكن عاملاً من عوامل الضعف والاستسلام ـ كما شوهد ذلك في بعض القرون المتأخرة ـ بل كان عاملاً من عوامل القوة والإقدام والتمرد على قوى الشرّ، ومن أعظم أسباب الشجاعة والقوة والانتصار، وقد كان أشجع الناس وأنشطهم في الكفاح الحق وأعظمهم نصيباً في الجهاد والفتح الإسلامي، أزهدهم في هذه الحياة الدنيا وأحرصهم على الآخرة، وأقواهم إيماناً بها وأعظمهم شوقاً إلى لقاء الربّ والشهادة في سبيل الله، وهذه طبيعة هذه العقيدة، فإنها تبعث في صاحبها الشجاعة، والنجدة والإقدام والاستهانة بالحياة والتغلب على الشهوات، ولا شك أنها أعظم قوة معنوية عرفها الإنسان في جميع العصور، ولا شك أن الإسلام يدين لهذه العقيدة في انتشاره وانتصاره وفتوحه.

إذن ليست هذه العقيدة «الإيمان بالآخرة» وهذه النظرة القرآنية إلى هذه الحياة الدنيا في شيء من «الرهبانية» الممقوتة التي ينكر عليها القرآن ويكفر بها الإسلام والتي ظهرت في العالم الإسلامي بعد ضعف التعاليم الإسلامية وبُعد القرون المشهود لها بالخير وبتأثير النزعات العجمية والفلسفات «الأجنبية» المسيحية والبرهمية. إنها عقيدة تقوم على إيثار الآخرة على الدنيا من غير تخريب لها وإنكار لقيمتها الصحيحة، وعلى الكفاح في سبيل الآخرة وفي سبيل الحق والخير والتغلب على الشهوات الفانية في سبيل البقاء والخلود وابتغاء رضوان

الله، ولا شك أن المسلمين لم يضعفوا إلا بضعف هذه العقيدة، وأن الجيل الحاضر منهم - الذي أصبح فريسة أهوائه وشهواته - في حاجة ملحة إلى تجديد هذه العقيدة وإثارتها في كثير من الناس وإعادتها من جديد في كثير منهم. وأن المسلمين لا يستقيم ميزانهم ولا يكمل إيمانهم حتى ينظروا إلى هذه الحياة بمنظار القرآن وهو الذي يأباه التفكير المادي وتعارضه الفلسفات المادية التي تعبد الحياة عبادة وتهيم بشهواتها ولذاتها وتقتصر على ترفيهها وتوسيعها وتكفر بما وراءها.

وقد تكفلت هذه القصة - قصة أصحاب الجنتين - الرد على هذا التفكير وعلى هذه العقيدة وزعمائها وألحّت على تصوير هذه الحياة الدنيا التصوير الصحيح المطابق وإن لم يُرضِ كثيراً من الناس..»[1].

(١) أبو الحسن الندوي، تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس ص: ٢٢٣ - ٢٢٨.

قصة الابتلاء والجزاء

المحتوى	ص
ـ عرض وتقديم	٤٤١
ـ بين الكفر والإيمان	٤٤٨

قصة الابتلاء والجزاء

ثم نمضي مع رسول الله - ﷺ - في بيان حكيم، وهتاف رضي ندي إلى الطاعة، والالتجاء إلى الله، وابتغاء رضاه. .

نمضي مع قصة الشكر وتذكر النعمة، والإحساس بفضل المنعم، واتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه، وإدراك حكمته في الابتلاء والإملاء. .

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيلَ: أبرصَ وأقـرعٍ وأعمى، فأراد الله أن يَبْتَليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرصَ، فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس[1]. قـال: فمسحه، فـذهبَ عنه الذي قذره، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً.

قـال: فأي المـال أحبُّ إليك؟ قـال: الإبـل. قـال: وأعـطي نـاقـةً عُشَرَاء[2]، فقال: باركَ الله لك فيها.

قال: وأتى الأقرع فقـال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قـال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قد قَذِرَني الناس، قال: فمسَحُه فذهبَ عنه، وأُعطيَ

(١) من صحيح مسلم.
(٢) بضم العين المهملة وفتح الشين المعجمة مع المد: هي الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل.

شعراً حسناً. قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطيَ بقرةً حاملاً، قال: باركَ الله لك فيها..

قال: وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يَرُدَّ الله إليَّ بصري، فأُبْصِرَ به الناس، فمسحه فردَّ الله إليه بصره. قال: فأيَّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، قال: فأعطيَ شاةً والداً، وأنتجَ[1] هذان، وَوَلَّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابنُ سبيل انقطعت بي الحِبالُ[2] في سفري، فلا بلاغَ بي اليوم إلا بالله ثم بكَ، أسألك بالذي أعطاك اللونَ الحسن، والجلدَ الحسن والمالَ، بعيراً أتبلَّغُ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفُك، ألم تكن أبْرصَ يَقْذَرُكَ الناسُ، فقيراً فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المالَ كابراً عن كابر[3]، فقالَ: إن كنتَ كاذباً، فصيَّرك الله إلى ما كنتَ:

قال: ثم أتى الأقرعَ في صورته، فقال له مِثْلُ ما قال لهذا، فردَّ عليه مثل ما ردَّ هذا، فقال: إن كنتَ كاذباً، فصيَّرك الله إلى ما كنتَ فيه.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبالُ في سفري! فقال: قد كنتُ أعمى فردّ الله عليَّ بصري، فخُذ ما شئتَ، فوالله لا أجْهَدُكَ اليوم شيئاً أخذته لله، فقال: أمْسِك مالَكَ،

---

(١) قال النووي في «شرح مسلم» ٨/٩٨: هكذا الرواية «فأنتج» رباعي وهي لغة قليلة الاستعمال، والمشهور «نتج» ثلاثي، وممن حكى اللغتين الأخفش. انظر الفتح ٦/٥٠٢، والعيني في «العمدة» ١٦/٤٨ والإحسان ٢/١٤ (هامش رقم ٢).

(٢) الحبال: الأسباب.

(٣) قال العيني: المعنى: ورثت هذا المال عن آبائي وأجدادي حال كون كل واحد منهم كابراً عن كابر، أي كبير أورث عن كبير. أي ورثته من أجدادي الذين ورثوه من آبائهم كبيراً عن كبير في العز والشرف والثروة (شرح النووي: ١٨/٩٩).

فإنما ابتليتُم، فقد رُضيَ عنكَ، وسُخط على صاحبيك»[1].

إنها قصة موحية بما تثيره في القلب من تفكير عميق، ونظرة فاحصة إلى الوراء للتأمُّل في آلاء الله ونِعَمه، ثم نظرة إلى الأمام مع الرجاء من الرحمن الرحيم أن يديم هذه النِعَم ويبارك فيها، فهو الواهب، وهو الآخذ، وهو على كل شيء قدير.

إنها إيحاءات كثيرة تنبض بها كلمات القصة، وصور حية متحركة للأشخاص على مسرح الحياة، ومن ثم تتجه القصة بالإنسان إلى تأمُّل يد القدرة الواحدة التي يتحرك المخلوق بإرادتها، وتُحذِّر بإيحاء رفيق وعميق إلى الغرور الذي يصيب هذا الإنسان حين ينعم عليه الله سبحانه، حتى لينسى نفسه فيطغى!

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته.. ويدرك أن النعمة التي وهبها رب العالمين إنما هي لغاية وأنه محاسب عليها. وأنه مُبتلى، فالأمر جدٌّ ليس فيه لعبٌ ولهو وإهمال.

وفي القصة مقدمة وجيزة، تمهد للقصة، بما تقدمه من وصف مميز للشخصيات: «أبرص، وأقرع، وأعمى».

وكما تقرر وصفهم، تقرر عددهم فهم «ثلاثة» وتتضمن تحديد تاريخهم وهم في بني إسرائيل، وأن هؤلاء الثلاثة خضعوا لتجربة الابتلاء والامتحان بإرادة الله تعالى.

والمقدمة في صورتها هذه نجدها تحفل بعناصر تشويقية تثير اهتمام السامع، وتشدّه للاهتمام بمتابعة القصة، والحرص على معرفة نتيجة الابتلاء، وتبدو هذه العناصر في:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء، و(٦٦٥٣) في الأيمان والنذور، ومسلم (٢٩٦٤) (١٠) في الزهد والرقائق، وابن حبان والنص له، والزيادات من صحيح مسلم. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٣١٤).

١ ـ «إن ثلاثة في بني إسرائيل» فهذه الكلمات تثير الاهتمام والانتباه، لأنها بداية قصة عن بني إسرائيل، وهم قوم كثيراً ما قصَّ القرآن الكريم عنهم، ونقل عن تصرفاتهم الأحداث العجيبة التي تثير الاهتمام والتطلع..

٢ ـ الوصف المميز لشخصيات القصة بأوصاف مثيرة: «أبرص، وأقرع، وأعمى»..

٣ ـ تقرير «أن الله أراد أن يبتليهم»، وهذا التقرير الإلّهي يثير النفوس التشوق إلى متابعة معرفة هذا الابتلاء والنتيجة التي انتهت إليها هذه التجربة والامتحان(١).

والقصة تصور الشرّ في صورة جحود للنعمة، ونكران الفضل، كما نجد ذلك واضحاً في قصة «الأبرص والأقرع» فقد غيَّر الله حالهما من المرض إلى الصحة، ومن الفقر إلى الغنى، فقد أعطاهما الله على يَد المَلَك الذي بعثه الله إليهما إبلاً وبقراً، حتى كان لهذا واد من الإبل، وللآخر واد من البقر، وبعد مدة جاء المَلَك إلى كل واحد في صورته وهيئته التي كان عليها قبل أن تتغيَّر حاله، يطلب من كل منهما معروفاً، فقد «أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطَّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم، إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلَّغ عليه في سفري فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك. ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ..».

وأتى الأقرع فقال له مثل ذلك، فردَّ عليه مثل ردِّ صاحبه، هذا الردّ الطافح بمعاني الغرور، المفحم بالجحود والنكران في أقصى صوره(٢)..

وقد رسمت القصة أيضاً النموذج الإنساني الذي حقق في واقعه الجانب

---

(١) القصص النبوي: ص ٩٦.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٧.

القوي الخيِّر الفاضل، حيث تسجل الأحداث موقف الخير في شخصية الأعمى في شكره لنعمة الله عليه، واستعداده للعطاء والبذل، وشعوره الدائم بفضل الله ونعمته(١).

وفي القصة نجد صورة للشخصية النامية، التي تعطينا من خلال نموها جوانب متعددة للشخصية من جراء حركة الحدث ونموه، وهي تعرض لنا أكثر من جانب للشخصيات التي تعرض لها «الأبرص والأقرع والأعمى» فهي قد كشفت في هذه الشخصيات عن جانبين مهمين من خلال نمو حركة الأحداث وتطورها، فعكست من خلال ذلك تلك الجوانب في الشخصية..

ففي الفصل الأول من القصة صوَّرت جانباً مشتركاً بين الشخصيات وهو جانب الشعور الإنساني بالنقص، والإحساس بالمرارة النفسية بسبب الواقع الذي تعانيه الشخصيات، وهو واقع المرض والفقر، فكل واحد من الثلاثة لديه شعور بالأسى لما هو فيه من مأساة.. يتمنى أن ينجو منها..

وفي الفصل الثاني تطالعنا القصة بجوانب جديدة لهذه الشخصيات بعد أن تغيرت حالها، وأصبحت تعيش واقعاً آخر، مفعماً بالصحة والثراء، حيث يتكشف لنا في شخصيتي «الأبرص والأقرع» جانب مشترك بينهما أيضاً هو جانب الجحود والنكران والمكابرة، فحين أتاهما «المَلَك» في صورتهما التي كانا عليها من المرض والفقر يطلب منهما معروفاً أعرضا عنه، وحين ذكَّرهما بحالتهما السابقة، وبإنعام الله عليهما أنكرا ذلك في صلف وغرور، وزعما في بجاحة، أنهما قد ورثا هذا المال كابراً عن كابر..

ولكن شخصية الأعمى تكشف عن جانب جديد آخر، يختلف عن صاحبيه الجاحدين، ذلك هو جانب الاعتراف بالنعمة، والشكر عليها، وهو شديد الشعور بفضل الله ورحمته، إلى حدّ أنه ما يزال يتذكر حاله السابقة من العمى والفقر، وهو لا يجد غضاضة في أن يُصرِّح بذلك لهذا الفقير الذي جاءه

---

(١) المصدر السابق.

يطلب العون، فها هو يقول له: «قد كنتُ أعمى فردّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئتَ فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته للّه»[1].

كما نجد في القصة لوناً من تصوير الشخصية، حيث تعرض لنا الشخصية الجاحدة المكابرة المتبجحة يمثلها كل من «الأبرص والأقرع» اللذين كانا يشعران بالألم والضيق لما هما عليه من حال الفقر الشديد، وفيهما العاهة المنفرة.

وبعد أن يُبدِّل الله حالها إلى حال أحسن، وابتلوا للكشف عن مدى استجابتهم للخير والشكر بعرض حالتهم السابقة عن طريق رجل مسكين يصور حالة الفقر والمرض الذي كانا فيه، ويسألهم بعض شيء مما لديهم من مال موفور ونعمة مبسوطة، ولكنهما يشيحان عنه متعللين بكثرة الحقوق والواجبات، وحين يذكرهم بحالتهم السابقة ينكرون في بجاحة، ويدَّعون أنهما ورثا هذه الأموال كابراً عن كابر[2]..

وفي مقابل هذه الشخصية الجاحدة نجد شخصية «الأعمى» العبد الشاكر، الشاعر بنعمة الله وفضله عليه، الرحيم بهذا المسكين السائل؛ حيث أنه يعترف فعلاً بما كان عليه من حال الفقر والعمى وأن الله أنعم عليه بما هو فيه.

والأعمى صورة للإنسان الشاكر النعمة، المقر بفضل الله وآلائه عليه، حين ردَّ عليه بصره، وأعطاه أموالاً كثيرة، فلما جاءه المَلَك ليختبره في صورة رجل مسكين فقير، أعمى، لم يجحد ولم يكابر كما فعل صاحباه وإنما قال: «... فخذ ما شئتَ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته للّه، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»[3].

---

(١) القصص النبوي: ٢٨٦.
(٢) القصص النبوي: ١٧٧.
(٣) المصدر السابق: ٢٦٣.

وقد كان الجانب الاجتماعي للشخصية في القصة أكثر الجوانب حظاً في ملامح الشخصيات التي تعبر عنها، نجد فيها محاولة للفت النظر إلى مركز الشخصية وموضعها من الناحية الاجتماعية، فهو يرسم ملامحها في أعماق النفس وهي في موضع وضيع، يحدد مكانتها في النفس والمجتمع.

ومع تطور الحدث نرى الجانب الاجتماعي وقد تغير فأصبح رفيعاً عظيماً، ومن ثم ترسم القصة الملامح في الموضع الجديد في أعماق النفس، وتحدد مكانتها في النفس والمجتمع.

ويأتي بعد الجانب الاجتماعي، البعد الجسمي، ورسم الشخصية في مظهرها وشكلها الخارجي، وتنص القصة على أشكال الشخصيات الخارجية بأنهم: «ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى» حتى نستطيع أن نتصور هيئات هؤلاء الثلاثة الخارجية، وما هم عليه من عاهات، لندرك بصورة أعمق موطن العبرة في هذا الامتحان وذلك الابتلاء الذين هم مقبلون عليه.. وحين تغيرت الحال، نجد القصة تنص مرة أخرى على هيئاتهم الجديدة فتقول عن الأبرص بأنه «أعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً» والأقرع «أعطي شعراً حسناً» والأعمى «رد الله عليه بصره..»(١).

ومن شخصيات القصة البارزة، شخصية المَلَك، وله وجود واضح على مسرح الأحداث بصورة إيجابية، وقد ظهر بالصورة البشرية، فقد نزل إلى الأرض في مهمة إلهية لاختبار بعض الناس في الدنيا بنوع من الابتلاء يكشف مدى صلاحهم من فسادهم. فالله سبحانه حين أراد أن يبتلي «الأبرص والأقرع والأعمى» بعثَ إليهم مَلَكاً، أَدَّى مهمته معهم خير أداء(٢).

ويبرز دور الحوار في بناء القصة فهو يساعد في رسم الشخصيات، فهو يجعل الشخصية أكثر حضوراً وتجسيماً من خلال حضورها في الحوار، كما يجعلها

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٧، ٢٩٩.
(٢) القصص النبوي: ٢٧٧.

كاملة الوضوح، فهو يرسم أعماق النفس الإنسانية من حيث الحديث والكلام، فالحوار في القصة ترجمة لمشاعر الشخصية وعواطفها، وأحاسيسها المختلفة، التي تبوح بها من خلال الكلمات الواردة على لسانها، وفي حوار المَلَك مع الأقرع والأبرص حين سألهما عن أحب شيء إليهما، حيث طلبا إزالة ما بهما من عاهة، قال الأبرص: «لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس». وقال الأقرع: «شعر حسن، ويذهب عني هذا قد قذرني الناس».

وقد كشف الحوار عما تنطوي عليه نفساهما من شعور بالنقص، الذي يسبب ازدراء الناس لهما، ونفورهم منهما.

وبعد أن زال ما بهما من أذى وعاهة، وقد زادهما الله بسطة من المال والمتاع، يكشف حوارهما مع المَلَك عما تنطوي عليه نفساهما من عواطف الجحود والنكران[1].

بين الكفر والإيمان:

ومن الملاحظ في تشييد بناء القصة أن الهدف الذي ترمي إليه يتدخل في توجيه مسارها، ودفعه إلى النمو، حين يحرص على الاستفادة من الشخصيات وتوظيفها، بحيث يدفعها إلى الحركة الدائمة بوضعها أمام موقف جديد، تصنعه القصة أساساً لهذا الغرض، مما يجعل الشخصية تتخذ سلوكاً معيناً.

فالثلاثة «الأبرص والأقرع والأعمى» تضعهم القصة أمام مواقف جديدة لم تكن في حسبانهم، حين جاء الملك إليهم بعد ذهاب ما بهم من سوء، وتوافر ما يحبون من مال لهم، فقد جاء الملك إلى كل واحد منهم في صورته السابقة، وما كان عليه من فقر وضيق يطلب منه معروفاً ومعونة، فإذا بالأبرص والأقرع يتخذان موقفاً متشابهاً، بينما نجد الأعمى يسلك سلوكاً مغايراً مع هذا السائل المحتاج[2].

---

(١) المصدر السابق: ٣١٩.

(٢) القصص النبوي: ١٦٤.

وهكذا نجد أن القصة قد نهضت في سلوك الطريق التربوي عن طريق العبرة المستقاة من قصص الماضين، وخاصة في أخبار بني إسرائيل. فقد كشفت عن تجربة إنسانية واقعية ذات دلالات مؤثرة، ومقاصد تربوية هادفة، وما حصل للجاحِدَيْن الأبرص والأقرع من نكسة وخسران، وما كان للأعمى الشاكر من خير ونعمة دائمة[1].

لقد كانت الشخصية الإنسانية في القصة، تنقل لنا بأمانة ودقّة، واقع الإنسانية الكبير في إطاره الصحيح، الذي يجمع ذلك الواقع وجوانبه المختلفة بخيره وشرّه. نجد الأبرص والأقرع يمثلان جانب الجحود والنكران، والكفر السافر للنعمة التي أسبغها الله عليهما: صحة بعد مرض، وغنى بعد فقر، ولكنهما يكفران ولا يشكران، وهو واقع موجود في نفس الإنسان الذي لم يلتزم بمنهج الإيمان[2]: ﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس: ١٧]. إنه لأمر يدعو إلى العجب من أمر هذا الإنسان الذي لا يذكر أصله ونشأته، ولا يرى عناية الله به، ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه..

﴿قُتل الإنسان!﴾.. فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه.. فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره. وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته..

﴿ما أكفره!﴾.. ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته. ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه، ولتواضع في دنياه، ولذكر آخرته..

وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويُعرض؟

لقد كان من مقتضيات الحقيقة: أن الله الذي خلق الإنسان وأنعم عليه.. فيذكر المخلوق هذا، ويشكر خالقه.. ولكن ﴿وقليل من عبادي

(١) المصدر السابق: ٤٥٥.
(٢) المصدر السابق: ٤٦٩.

الشكور﴾ [سبأ: ١٣]. . والذي يحدث هو الانحراف عن الحق **﴿كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. إن إلى ربك الرجعى﴾** [العلق: ٦ - ٧].

إن الذي أعطاه فأغناه هو الله. كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه. ولكن الإنسان في عمومه - لا يُستثنى إلا مَن يعصمه إيمانه - لا يشكر حين يُعطى فيستغني؛ ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته، وهو المصدر الذي أعطاه خَلْقه، وأعطاه عافيته وقدرته. . ثم أعطاه رزقه. . ثم هو يطغى ويفجر، ويبغي ويتكبر، من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر. .

وتُبرز القصة صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته وأبطره الغنى. . ترسمه في شخصية الأبرص والأقرع. . الشخصية الطاغية المتكبرة المتعالية. . الشخصية التي تنكرت لفضل الله فأدركها الشح والبخل، وتولت عن الوفاء بالشكر للمنعم الواهب.

لقد قدمت القصة الصورة الواقعية للنفس الإنسانية، التي شاركت فيها المقومات الحيوية في إقامة الصورة، وأبرز هذه المقومات الوصف، الذي قام عليه نسيج القصة، وتشكيلها البنائي بشكل عام. إنه الوسيلة الحيوية في نقل صورة الحدث، وفي تشخيصه. . وكان «الأبرص والأقرع والأعمى» نماذج صورتها القصة، بشخوص حيَّة، في مشاهد مرئية وعواطف ملموسة.

والوصف في القصة فوق ما يقوم به من تحديد الصور وملء إطارها بما يمنحها التكامل في الشكل، والنمو في الحركة هي فوق ذلك ذات أغراض أخرى في التأثير. فقد قدّمت القصة في مطلعها لوحة تحكي قصة بؤس للأقرع والأبرص والأعمى، وقد مسَّهم السوء، وملأ حياتهم. لوحة ترسم هذه الشخصيات في إطار مؤثر مضيء. . ثم نجد الأبرص والأقرع في صورة توحي بالرغد العميم، الذي به ينعمون، وهم عن ربهم ساهون. . ثم تحكي القصة عن المَلَك بعد أن سألهما معروفاً، وذكَّرهما بما كانا عليه فقال لكل واحد منهما: «إن كنتَ كاذباً فَصَيَّرك الله إلى ما كنت. . ».

وبعد هذه الكلمات يقف الخيال متأملاً ذلك الوصف في لوحة البؤس

الأولى. . وبجو مثير عجيب ينشأ تقابل مثير بين صورتين: زوال النعمة والرفاه والرخاء، والعودة إلى جحر الفاقة والعاهة والبؤس العبوس.

ما أقسى البؤس والشدة بعد الرفاه والعزة، وما أشد على النفس حزناً وكمداً: الانتقال من سعة الحياة إلى ضيقها الخانق، وما أذلّ على الروح من التحول من رغد العيش وسلطانه إلى جور الفقر وطغيانه.

وشتان بين هذه الحياة وتلك الحياة. . كذلك شتان بين موقف الجحود والنكران والكفر بالنعمة، وبين الاعتراف بفضل الله المنعم، والشكر على آلائه.

وبعد. . فقد رسمت القصة البؤس والحرمان في بدايتها، يصور ذلك «الأبرص والأقرع والأعمى»، ينبعث من كلٍ منهم نغمٌ حزين يحكي قصته التي ترسم الفقر المذلّ، تحملُه العاهة الموحشة المُنَفِّرة.

كما ترسم القصة صورة الإنسان في لحظات الشدة الضيقة، فلا يرى إلا في باب الله مخرجاً، وإلا في رحمته ملجأً وملاذاً، فيضرع شاكياً داعياً، لئن عافاه الله ليكوننَّ من الشاكرين. .

ها هو ذا الإنسان المُبتَلَى وقد قذره الناس، يتمنى في عمق حزين دفين، أن يُـذْهِبَ الله عنه الـذي به من المرض، وأن يُعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً. . وحَقَّق الله أُمنيته، وزاده من فضله بالغنى الواسع بعد الفقر الوضيع. . وإن هو إلا الابتلاء بالرخاء. . فتكثر النعم وينتشر رَغد العيش. . وتمضي السنون، والأبرص والأقرع في ظلال النعمة يرفلون ويتنقلون، وفي عيون السعادة والبهجة يرقدون. . وإذا بالمَلَك يسألهم حاجةً ويُذَكِّرهم فلا يذكرون. . صُمٌّ بُكمٌ عُميٌّ عن الحق المبين. . ألَا إنهم في غيِّهم وغرورهم يعمهون!

لقد رسمت القصة مشهدين متباعدين:

«الأبرص والأقرع» في مشهد تنبعث في أرجائه صورة الإنسان الكنود

الجحود. صورة يمثلها كثير من الناس في أيام الرخاء والهناء. وهو نموذج أصيل، لا يخطئه الإنسان في كل مجتمع، وفي كل جيل، والله سبحانه يقول: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** [سبأ: ١٣]، **﴿ولا تجدُ أكثرهم شاكرين﴾** [الأعراف: ١٧]. .

و«الأعمى» في مشهد الأوّاه المنيب. تنبعث من أعماق نفسه نبضات العبودية للّه الأحد الصمد. . صورة يمثلها ذلك الإنسان الذي يرى في نعمة الله يَد المنعم في كل شيء، فيطوي ظلَّه البشري في جنب الله خاشعاً، معترفاً بالفضل لرب العالمين في كل حين. وهو نموذج أصيل لأفراد مكرورين، لا يخطئه الإنسان في كل مجتمع، وفي كل جيل.

إنها موقفان متقابلان. لكنهما لا يلتقيان. . الكفر والإيمان. . إنها الصورة الإنسانية الحيّة مشحونة بالحركة من خلال التعبيرات الكثيرة التي تنتشر في إطار القصة وأعماقها.

إنها قصة الحياة. ترسمها نماذج شخصية واقعة، تتخطى الزمان والمكان، وتتجاوز القرون والأجيال. فهي حكمة الله الذي خلق الإنسان وهداه السبيل **﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾** [الإنسان: ٣].

وفي الختام تصور القصة عاقبة الكفر بالنعمة حتى تتم الموازنة، وتتم العبرة، فقد سُلبت النعمة وجاءهم بأس الله وعذابه. إنها **﴿سُنة الله التي قد خَلَتْ في عباده﴾** [غافر: ٨٥].

وسنّة الله لا تضطرب ولا تختلف ولا تحيد عن الطريق: **﴿فهل ينظرون إلا سُنَّةَ الأولين فلن تجدَ لسنَّة الله تبديلاً ولن تجدَ لسنَّة الله تحويلاً﴾** [فاطر: ٤٣].

إنها تذكرة، فمَن شاء فليؤمن ويشكر ربه، الذي يزيده من نعمه وآلائه **﴿وإذ تأذَّن ربُكم لئن شكرتم لأزيدَنَّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** [إبراهيم: ٧]. . **﴿ما يفعل الله بعذابكم ـ إن شكرتم وآمنتم ؟ ـ وكان الله شاكراً عليماً﴾** [النساء: ١٤٧].

إنها اللمسة العجيبة الموحية المؤثرة العميقة. . لتشعر قلوب البشر أن الله في غنى عن عذاب العباد. فما به ـ سبحانه ـ من نقمة ذاتية عليهم يصبّ عليهم من أجلها العذاب. وما به ـ سبحانه ـ من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق.

وما به ـ سبحانه ـ من رغبة ذاتية في عذاب الناس. كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر. . مع تحبيبهم في الإيمان والشكر للّه. وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس ﴿**ما يفعل الله بعذابكم. . .**﴾.

نعم! ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والنكران، وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان. . إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل، ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان. . تعالى الله عن ذلك كله عُلوًّا كبيراً. . فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان، فهناك الغفران والرضوان. وهناك شكر الله ـ سبحانه ـ لعبده. وعلمه ـ سبحانه ـ بعبده. .

وشكر الله ـ سبحانه ـ للعبد، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة. . إنه معلوم أن الشكر من الله ـ سبحانه ـ معناه الرضى، ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب. . ولكن التعبير بأن الله ـ سبحانه ـ شاكر ـ تعبير عميق الإيحاء!

وإذا كان الخالق المنشىء، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين. . يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم. . وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم. . إذا كان الخالق المنشىء، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر. . فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين؛ المغمورين بنعمة الله. . تجاه الخالق الرازق المنعم المتفضل الكريم؟!

ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب.

ألا إنها الإشارة المنيرة إلى معالم الطريق. . الطريق إلى الله الواهب

المنعم، الشاكر العليم.. ﴿**ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه ومَن كفر فإن الله غني حميد**﴾ [النمل: ٤٠]..

إن قصة الابتلاء والجزاء عميقة الإيحاء، يرسم النص الشريف صورة صادقة للنموذج الإنساني في مرآتين واضحتي المعالم. وهي صورة كاملة! وكل جملة تكاد تكون لمسة ريشة، ترسم الملامح والسمات، وتشخص المشاعر والانفعالات. وما يكاد الإنسان يُتم قراءتها حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها، حتى لتكاد تخطر نابضة حية!

قصة لقمان عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	٤٥٧
ـ الحكمة	٤٥٧
ـ قصة التوحيد	٤٦١
ـ توصية وحَنَان	٤٦٢
ـ قضية الآخرة	٤٦٧
ـ عِدّة المؤمن	٤٦٩
سِمَة المؤمن	٤٧٩

قصة لقمان عليه السلام

يعرض القرآن قصة لقمان في نسق جديد. نسق الحكاية والتوجيه غير المباشر. ويعالج قضية الشكر للّه وحده، وتنـزيهه عن الشرك كله، وقضيـة الآخرة والعمل والجزاء في خلال الحكاية.

ولم تُذكر القصة سوى مرة واحدة في كتاب الله تعالى، وذلك في السورة التي خَصَّهُ الله بها وهي سورة لقمان، فنقرأ قول الله تعالى: ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر للّه؛ ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومَن كفر فإن الله غني حميد**﴾..

ولقمان الذي اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد وقضية الآخرة تختلف في حقيقته الروايات: فمن قائل: إنه كان نبياً، ومن قائل: إنه كان عبداً صالحاً من غير نبوة ـ والأكثرون على هذا القول الثاني ـ ثم يُقال: إنه كان عبداً حبشياً، ويقال: إنه كان نوبياً. كما قيل: إنه كان في بني إسرائيل قاضياً من قضاتهم..

الحكمـة:

وأياً مَن كان لقمان فقد قُرر أنه رجل آتاه الله الحكمة. والحكمة هبة ثمينة، فمَن أُوتيها فقد أُوتي خيراً كثيراً: ﴿**يُؤتي الحكمة مَن يشاء، ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً**﴾ [البقرة: ٢٦٩].

الحكمة: هي توخي القصد والاعتدال في الأمور كلها، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها في تبصُّر ورؤية وإدراك ﴿**ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً**﴾..

أُوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود؛ وأُوتي إدراك العلل والغايات فلا يضلّ في تقدير الأمور؛ وأُوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال.. وذلك خير كثير متنوع الألوان.. وهو صاحب العقل والفؤاد. الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال.. الذي يرى موحيات الهدى ودلائله، وينتفع بها فلا يعيش لاهياً غافلاً.

هذه الحكمة يؤتيها الله مَن يشاء من عباده، فهي معقودة بمشيئة الله سبحانه، هذه هي القاعدة الأساسية في التصور الإسلامي: ردّ كل شيء إلى المشيئة المطلقة المختارة ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر للّه**﴾: الحكمة التي مضمونها ومقتضاها الشكر للّه: ﴿.. **أن اشكر للّه**﴾..

وهذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذي يعرض قصته وقوله.

والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة، وتمجيده بصفاته، ثم عبادته وحده؛ وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثاره في صنعته. ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها، بحس العابد للّه في كل نشاط وكل متاع.

ويجول القلب مع آلاء الله ونعمه.. وإذا بهذه النعم توقظ الوجدان إلى دلائل الإيمان. ولو تدبّر الإنسان خلقه وهيئته، وما زُوِّدَ به من الحواس والجوارح، وما وهبه الله من الطاقات والمدارك لوجد الله، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد. فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير.

هذا السمع وحده وكيف يعمل؟ كيف يلتقط الأصوات ويكيفها؟ وهذا

البصر وحده وكيف يبصر وكيف يلتقط الأضواء والأشكال؟ وهذا الفؤاد ما هو؟ وكيف يدرك؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال، والمعاني والقيم والمشاعر والمدركات؟

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعد كشفاً معجزاً في عالم البشر. فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، ذلك التناسق الملحوظ الذي لو اختلّت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفَقَد الاتصال، فما استطاعت أُذن أن تلتقط صوتاً. ولكن القدرة المدبرة نسّقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذي يعيش فيه، فتم هذا الاتصال.

إن هذا المخلوق الصغير.. الإنسان. يحظى من رعاية الله ـ سبحانه ـ بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يُسخر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه. وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلّهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه!

ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة؛ بل ما استطاع أن يعيش معها؛ وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام.

سخّر الله للإنسان كل ما في السموات والأرض، ليبتغي من فضل الله، وليتجه إليه بالشكر على الفضل والإنعام. وهو يوجِّه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق، وإلى الارتباط بذلك الأفق. الارتباط بالله سبحانه.

إن الشكر للّه عبادة تلحّ على العقل البشري، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب ردّه، فالإنسان قد وُجِدَ ـ وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يُعلم من الخلائق ـ وهو لم يوجد نفسه فلا بد أن يكون مَن هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده.. ولا مفر من الاعتراف بخالق هذا الإنسان. الذي خلقه فقدّره، ثم السبيل يسّره.

وما قابل الإنسان آلاء الله عليه.. هذه الهبات الضخمة التي أُعطيها لينهض بتلك الأمانة الكبرى، فإنه لم يشكر **﴿قليلًا ما تشكرون﴾**..

وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به، كما يذكر القرآن الناسَ في هذا المجال، ويذكر كل جاحد وكافر، لا يشكر نعمة الله عليه، وهو لا يوفيها حقها لو عاش للشكر دون سواه!

ولو استعرض الإنسان ألواناً من النعمة التي تحيط بـه، فلن تُحصى: **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** فضلاً على أن تشكروها. وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها.. وهـذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يـدركه المرض فيحسّ بالاختلال؟

ونعود إلى لقمان الحكيم. ذلك العبد الشـاعر بنعْمـة ربه، المستعـظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره. يهفو قلبه لينهض بواجب الشكر **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر للّه﴾**..

وكما قلنا: هذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم.. وإلى جوار هذا التوجيه الضمني توجيه آخر، فشكر الله إنمـا هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو، والله غني عنه.

فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه: **﴿ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه. ومَن كَفر فإن الله غني حميد﴾**..

وإذن فأحمق الحمقى هو مَن يخالف عن الحكمة؛ ولا يدخّر لنفسه مثل هذا الرصيد.. والله غني عن الشاكرين، ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز البـلاء في الدنيـا، وحسن الثواب والجزاء في الآخرة. ومَن كفر فإن الله غني عن الشكر. كريم يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء.

قصة التوحيد:

ثم تجيء قصة التوحيد في صورة مَوعظة من لقمان الحكيم لابنه:

﴿وإذ قال لقمان لابنه ـ وهو يعظه ـ يا بني لا تشرك بالله. إن الشرك لظلم عظيم﴾..

وإنها لعظة غير متهمة؛ فما يريد الوالد لولده إلا الخير؛ وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً. وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك؛ ويعلل هذا النهي بأن الشرك ظلم عظيم. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين. مرة بتقديم النهي وفصل علته. ومرة بإنّ واللام.. وهذه هي الحقيقة التي يعرضها محمد ـ ﷺ ـ على قومه، فيجادلونه فيها؛ ويشكون في غرضه من وراء عرضها؛ ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم!

فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة، بعيدة من كل مظنة؟

ألا إنها الحقيقة القديمة التي تجري على لسان كل مَن آتاه الله الحكمة من الناس؛ يراد بها الخير المحض، ولا يراد بها سواه.. وهذا هو المؤثر النفسي المقصود.

﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.. إذ يفقد الإنسان القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها.. قاعدة التوحيد.. ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه، فتتخطفه الأهواء، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح. وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود.

إن العبودية للّه وحده هي العاصم من العبودية للعباد.. وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدَّر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه.

ومَن يشرك بالله يقع في عبودية العبيد من أمثاله، يصرّفون حياته وفق هواهم، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر، مشوبة بحب

الاستعلاء، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى. لذلك ينهى الله ـ سبحانه ـ عن الشرك . .

ينهى عن الشرك والتحذير من عاقبته الذميمة، فهو ظلم عظيم، وانقطاع ما بين الله والعباد، فالمشركون مقطوعو الصلة بالله رب العالمين. وما تشرك النفس بالله إلا وهي تتخبط في ظلام شديد، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير.

والمشرك هو ذلك الشقي المنكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه، فهو أبداً في تعثُّر، وأبداً في عناء، وأبداً في ضلال، وأبداً في بوار، وأبداً في ظلم عظيم . .

توصية وحَنان:

وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق؛ ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة. ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمّه وهناً على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك، إليّ المصير . . ﴾.

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا رسول الله ـ ﷺ ـ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلاً. ومعظمها في حالة الوأد ـ وهي حالة خاصة في ظروف خاصة ـ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه. فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشىء لضمان امتداد الحياة، كما يريدها الله، وإن الوالدين لَيَبْذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى؛ بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر

المولّي الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة!

وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما. وهذه الصورة الموحية:

﴿حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين﴾ ترسم ظلال هذا البذل النبيل.

والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر؛ وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق..

روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ـ بإسناده ـ عن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ـ ﷺ ـ هل أديت حقها؟ قال: «لا. ولا بزفرة واحدة». هكذا.. ولا بزفرة.. في حمل أو في وضع، وهي تحمله وهناً على وهن.

فالقرآن الكريم والحديث النبوي يصوران تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين **﴿حملته أمه وهناً على وَهن﴾**..

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال.. لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، ثم ليتصوَّر الولد صورة أمه وهي في الوضع وطلقه وآلامه!

ثم رعاية الوالدين للطفولة الضعيفة حتى يصل الطفل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين. وهو قبل ذلك ضعيف ضعيف.

وفي معرض الإنعام والإحسان كان التوجيه الإلهي والنبوي يتكرر للإحسان إلى الوالدين في صور موحية، وعبارات ندية، يستجيش وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء:

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ «أي الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلتُ: ثم أي؟ قال: برُّ[1] الوالدين. قلتُ: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبلَ رجلٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: فهل من والديك أحدٌ حيّ؟ قال: نعم. بل كلاهما حيّ. قال: فتبتغي الأجر من الله؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «رَغم أنفُ[4] رجل ثم رغمَ أنف رجل ثم رغمَ أنف رجل» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «مَن أدركَ أبويه عند الكِبَر أحدهُما أو كليهما فلم يدخل الجنة»[5].

---

(١) طاعتهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) قال أهل اللغة معناه: ذلّ. وقيل: كره وخزي. وهو بفتح الغين وكسرها. وهو الرغم، بضم الراء وفتحها وكسرها. وأصله لصق أنفه بالرغام وهو تراب مختلط برمل. وقيل: الرغم: كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه. وفيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه. ومعناه: أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة. فمَن قصَّر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه «شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/١٠٩».

(٥) رواه مسلم عن أسير بن جابر، «قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنتَ أُوَيس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُراد ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَص، فبرأتَ منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: أَلَكَ والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مُراد ثم من قرن، كان به بَرَص فبرأ منه إلا مَوْضع درهم، له والدة، هو بها بَرٌّ، لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل» فاستغفر لي. قال: فاستغفر له».

[سير أعلام النبلاء ٤/١٩، وتهذيب السير ١/ رقم ٣٨٦].

وروى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن خيرَ التابعين رجلٌ يقال له أُويس وله والدة وكان به بياض فَمُرُوه فليستغفر لكم» [انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/٩٤ ـ ٩٦].

وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجّه إلى شكر الله المنعم الأول، وشكر الوالدين المنعمين التاليين، ويرتب الواجبات، فيجيء شكر الله أولاً ويتلوه شكر الوالدين. . ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾. . ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة: ﴿إليّ المصير﴾ حيث ينفع رصيد الشكر المذكور.

ولكن رابطة الوالدين بالوليد ـ على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة ـ إنما تأتي في ترتيبها بعد وشيجة العقيدة. فبقية الوصية للإنسان في علاقته بوالديه: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾. . فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة، وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة. فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن إقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته ـ وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم! ـ فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق في الطاعة.

ولكن الاختلاف في العقيدة، والأمر بعدم الطاعة في خلافها، لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ فهي رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر في الحقيقة الأصيلة: ﴿واتبع سبيل مَن أناب إليّ﴾ من المؤمنين ﴿ثم إليّ مرجعكم﴾ بعد رحلة الأرض المحدودة ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران، ومن شرك أو توحيد.

روي أن هذه الآية في سورة لقمان نزلت هي وآية العنكبوت المشابهة وآية الأحقاف كذلك في سعد بن أبي وقاص وأمه(١).

والقصة في «صحيح مسلم» من حديث سعد بن أبي وقاص(٢).

---

(١) رواه الطبراني في كتاب العشرة ـ بإسناده ـ عن داود بن أبي هند.

(٢) سعد بن أبي وقاص. الأمير أبو إسحاق القرشي الزهري المكي، أحد العشرة، وأحد السابقين الأولين، شهد بدراً والحديبية، وأحد الستة أهل الشورى. وأبيه أبي وقاص اسمه: مالك بن أُهيب، فيقال لسعد أيضاً سعد بن مالك. ومن مناقب سعد أن فتح العراق كان على يديه توفي سنة ٥٥ هـ. [انظر سير أعلام النبلاء ١/٩٢، وتهذيب السير ١/ رقم ٥].

عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آياتٌ من القرآن. قال: حلفت أُم سَعد أن لا تُكَلِّمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمتَ أنَّ الله وصّاك بوالديك وأنا أُمُّك وأنا آمرُك بهذا قال: مَكَثَتْ ثلاثاً حتى غُشي عليها من الجَهْد فقام ابنٌ لها يُقال له عُمارة فسقاها فجعلَتْ تدعو على سعد فأنزل الله عزَّ وجلَّ في القرآن هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداكَ على أن تشركَ بي..﴾ وفيها: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾»[1].

عن أبي عثمان «أن سعداً قال: نزلت هذه الآية فيَّ ﴿وإن جاهداك على أن تُشرك ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾.

قال: كُنتُ بَرًّا بأُمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدين الذي قد أحدثتَ؟ لتدعَنَّ دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلتُ: لا تفعلي يا أمَّه، إني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يوماً لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جُهِدَت، فلما رأيت ذلك، قلت: يا أُمَّه! تعلمين والله لو كان لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركتُ ديني، إن شئتِ فكلي أو لا تأكلي، فلما رأت ذلك، أكلتْ»[2].

أما مدلول الآية فهو عام في كل حالة مماثلة، وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبات والتكاليف. فتجيء الرابطة في الله هي الوشيجة الأولى، ويجيء التكليف بحق الله هو الواجب الأول.

والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة[3] ويؤكدها في كل مناسبة وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض.

---

(١) انظر شرح النووي في صحيح مسلم ١٥/١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٩٢، وتهذيب السير ١/ ص ١٥ ـ ١٦ رقم ٥.

(٣) انظر فصل «رابطة العقيدة» في كتاب طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٧٣ ـ ٧٨.

قضية الآخرة:

وبعد الاستطراد المعترض في سياق وصية لقمان لابنه، تجيء الفقرة التالية في الوصية، لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل.

إن الناس لم يُخلقوا عبثاً، ولن يُتركوا سُدى. والذي قدَّر حياتهم ذلك التقدير العظيم، ونسَّق حياتهم ذلك التنسيق العجيب، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملاً! ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعاً! ويهتدون في الحياة أو يضلُّون ثم يلقون مصيراً واحداً. ويعدلون في الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعاً!

إن هنالك يوماً للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان، وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود. وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً. . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا، وتلتقي الخلائق كلها بربها في ساعة الحساب في يوم الحساب، وهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي. . ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع. . والله لا يخفى عليه من خلقه شيء، في كل وقت وفي كل حال. . هناك تجزى كل نفس بما كسبت، في ذلك اليوم، يوم الجزاء الحق، يوم العدل. . لا ظلم اليوم. اليوم يوم القضاء الفصل، بلا إمهال ولا إبطاء. . والله وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق، وهو ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء، حتى لفتة العين الخائنة، وسر الصدر المستور، فهو كله مكشوف لعلم الله. الذي يقضي بالحق عن علم وعن خبرة، وعن سمع وعن رؤية. فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً.

هنالك في ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً. . ليُروا أعمالهم. . إن الناس ذاهبون إلى حيث تُعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس

الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر؟!

إنها عقوبة هائلة رهيبة. . مجرد أن يُروا أعمالهم، وأن يواجهوا بما كان منهم!

ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.

عندئذ لا يحقر «الإنسان» شيئاً من عمله. خيراً كان أو شراً. ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل!

إن حقيقة الآخرة لا تعرض في هذه القصة هكذا مجردة، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح، وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف:

﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض، يأتِ بها الله. إن الله لطيف خبير﴾. .

وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله، وعن قدرة الله سبحانه، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور. وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء، العميقة الإيقاع[1]. .

حبة من خردل. صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة. **﴿فتكن في صخرة﴾**. . صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها. **﴿أو في السموات﴾**. . في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة. **﴿أو في الأرض﴾** ضائعة في ثراها وحصاها لا تبين. **﴿يأتِ بها الله﴾**. . فعلمه يلاحقها، وقدرته لا تفلتها. **﴿إن الله لطيف خبير﴾**. . تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف.

---

(١) يراجع فصل «طريقة القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة؛ ويتملى علم الله الذي يتابعها. حتى يخشع القلب وينيب، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب. وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب. بهذا الأسلوب العجيب.

عِدّة المؤمن:

ويمضي السياق في حكاية قول لقمان لإبنه وهو يعظه. فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير.. بعد الإيمان بالله لا شريك له؛ واليقين بالآخرة لا ريب فيها؛ والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل.. فأما الخطوة التالية فهي التوجه إلى الله بالصلاة، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لا بد أن تكون:

﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وَانْهَ عن المنكر، واصبر على ما أصابك. إن ذلك من عزم الأمور﴾..

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم.. توحيد للّه، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه. ثم انتقال الناس إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر، بالزاد الأصيل. زاد العبادة للّه والتوجه إليه بالصلاة. وهي الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية.

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير. إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة. إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.. ومن هنا كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا كان في الشدة قال: «أَرِحْنا بها يا بلال». ويكثر من الصلاة إذا حَزَبَه أمر ليكثر من اللقاء بربه.

﴿يا بني أقم الصلاة﴾.. وإقام الصلاة[1] هي الاتجاه بالعبادة للّه

(1) يقول الإمام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/١٤٥: «وأما إقام الصلاة، فقد وردت =

وحده، الاتجاه إلى القوة المطلقة بغير حدود. والذين يقيمون الصلاة يحنون جباههم لله لا للعبيد؛ والقلب الذي يسجد لله حقاً، ويتصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية

= أحاديث متعددة تدلُّ على أن مَن تركها، فقد خرج من الإسلام، ففي «صحيح مسلم» عن جابر، عن النبي - ﷺ - قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر تركُ الصلاة» [صحيح مسلم رقم ٨٢، انظر تمام تخريجه في صحيح ابن حبان (١٤٥٣)]، ورُوي مثله من حديث بُريدة [انظر البخاري ٤٥١٤]، وثوبان وأنس وغيرهم.

وخرّج محمد بن نصر المروزي من حديث عُبادة بن الصامت، عن النبي - ﷺ - قال: «لا تترك الصلاةَ متعمداً، فمَن تركها متعمداً، فقد خرج من الملة» [هو في «تعظيم قدر الصلاة» (٩٢٠)، ورواه اللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٥٢٢)، وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث أميمة عند المروزي (٩١٢)، وعن أم أيمن عند أحمد ٤٢١/٦، والمروزي (٩١٣).

وفي حديث معاذ، عن النبي - ﷺ -: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة» فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاط ولا يثبت إلا به، ولو سقط العمود، لسقط الفسطاط، ولم يثبت بدونه.

وقال عمر: لا حظّ في الإسلام لمَن ترك الصلاة، وقال سعد وعلي بن أبي طالب: مَن تركها، فقد كفر.

وقال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب رسول الله - ﷺ - لا يَرَون من الأعمال شيئاً تركه كفر غير الصلاة.

وقال أيوب السختياني: ترك الصلاة كفر، لا يُختلَف فيه.

وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف، وهو قول ابن المبارك وأحمد وإسحاق، وحكى إسحاق عليه إجماع أهل العلم!

وقال محمد بن نصر المروزي: هو قول جمهور أهل الحديث.

وذهب طائفة منهم إلى أن مَن ترك شيئاً من أركان الإسلام عمداً أنه كافر بذلك، ورُوي ذلك عن سعيد بن جبير ونافع والحكم، وهو رواية عن أحمد اختارها طائفة من أصحابه وهو قول ابن حبيب من المالكية.

وقد استدل أحمد وإسحاق على كفر تارك الصلاة بكفر إبليسَ بترك السجود، وترك السجود لله أعظم.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «إذا قرأ ابنُ آدم السَّجدة فسجدَ، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلي أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسُّجود، فسجد، فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار» [انظر تمام تخريجه في الإحسان (٢٧٥٩)].

أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحسّ أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق.. وهذا كله مصدر قوة للضمير، كما أنه مصدر تحرج وتقوى، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية، وجعلها ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك.

إن إقامة الصلاة هو انقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها، والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - في حديث تربوي طويل(١): «... والصلاة نور..» نورٌ مطلق يفيض على قلب المؤمن، تُشرق بها روحه، وتستنير بصيرته. ولهذا كانت قُرَّة عين المتقين، كما كان النبي - ﷺ - يقول: «جُعلت قُرَّة عيني في الصلاة»(٢).

والصلاة نور للمؤمنين في قبورهم، ولا سيما صلاة الليل كما قال أبو الدرداء: «صلُّوا ركعتين في ظُلَم الليل لظلمة القبور»(٣).

وهي في الآخرة نور للمتقين في ظلمات القيامة، وعلى الصراط، فإن الأنوار تُقْسَم لهم على حسب أعمالهم. وفي «المسند» و«صحيح ابن حبان» عن عبد الله بن عمرو عن النبي - ﷺ - أنه ذكر الصلاة، فقال: «مَن حافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومَن لم يحافظ عليها، لم يكن له نور ولا نجاة ولا برهان»(٤).

ويتابع لقمان نصيحته لابنه: ﴿وَأْمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر﴾..

---

(١) وهذا نصه: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله، تملآن أو تملأ ما بينَ السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجةٌ لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائعٌ نَفْسَه، فمعتقها أو موبقها» [انظر تخريجه في جامع العلوم والحكم رقم ٢٣].

(٢) خرّجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم ٢/١٦٠ انظر تخريجه في جامع العلوم ٢/٢١.

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ٢/٢٢.

(٤) رواه أحمد ٢/١٦٩، وصححه ابن حبان (١٤٦٧).

إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة. طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر ﴿وَأْمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر﴾..

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إعلاء لكلمة الله في الأرض، وتحقيق شرعه والخير الذي أَمَر به، ودفع الشر بكل ألوانه.

إنها الصورة الوضيئة للمؤمن، الذي آمن إيماناً صادقاً عميقاً، وكاملاً شاملاً..

إن على المسلم في كل حين، وفي كل زمان ومكان واجب. وضعه الله سبحانه على كاهله في الأرض. واجب ثقيل لتحقيق كلمة الله وإعلاء دينه، واجب يحتمه الإيمان، وتُحتمه غاية وجود الإنسان على هذه الأرض وهي القيامُ بحق الخلافة.

إنه النهوض بتكاليف الإيمان، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما في طريقها من أشواك.. إنه التعرض للشرّ والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد.. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة.

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذا الواجب[1]. وفي السنّة

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ولتكن منكم أُمة يَدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنْهون عن المنكر﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿خُذِ العَفو وَأْمُر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المنكر﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داودَ وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن مُنكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]، =

كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول ـ ﷺ ـ وتوجيهاته نقتطف بعضها:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَن رأى منكم مُنكراً فَلْيُغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم. . ثم جلس ـ وكان متكئاً ـ فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً»(٢) أي تعطفوهم وتردوهم.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»(٣).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جدير بالاهتمام والتطبيق لأن فيه مصلحة المجتمع والأمة ونجاتها، وفي إهماله الخطر العظيم والفساد الكبير، فتختفي الفضائل ومكارم الأخلاق، وتظهر الرذائل وقبائح الأعمال. وهو من أهم المهمات وأفضل القربات والعبادات. وهو التناصح والتوجيه إلى الخير، والتواصي بالحق والصَّبر عليه، والتحذير من النكر والشر والفساد وكل ما

= وقال تعالى: ﴿فاصدع بما تُؤمر﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿أنجينا الذين يَنْهون عن السُّوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف: ١٦٥] والآيات في الباب كثيرة معلومة.

(١) أخرجه مسلم (٤٩) وأخرجه أبو داود (١١٤٠) و(٤٣٤٠)، والترمذي (٢١٧٣)، والنسائي ٨/١١١، وابن ماجه (٤٠١٣).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) رواه الترمذي (٢١٧٠) وقال حديث حسن، وله شاهد من حديث ابن عمر عند الطبراني في «الأوسط» وآخر عن أبي هريرة عند الطبراني في «الأوسط» أيضاً، انظر «مجمع الزوائد» ٧/٢٦٦.

يخالف ويُغضب الله عز وجل ويباعد من رحمته.

وأصل المعروف: توحيد الله عز وجل والإخلاص له ومنه ينبع كل معروف وخير وفضيلة وخُلق كريم.

وأصل المنكر: الشرك بالله وعبادة غيره ومنه تظهر كل ألوان الشر والفساد والأخلاق الذميمة الهابطة.

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يتحرى الرفق والعبارات المناسبة، والألفاظ الطيبة **﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** [النحل: ١٢٥].

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير حكمة، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

ويختار المؤمن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أطيب الكلام وأرفعه، وبالجدل بالتي هي أحسن. بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو التعالي في النصح والغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق والخير. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تسير عليه في حياتها وتدافع عنه، إلا بالرفق، وبالعبارات الهادئة الرصينة، والألفاظ الطيبة الرقيقة. والقول اللين الرحيم.

والكلمة الفظّة، والعبارة الغليظة، والأسلوب الخشن يُبعد القلوب عن

الحق. فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعوة بالرفق والكلام الطيب، حتى لو جادلوه في شيء خفي عليهم، أو كابروا فيه، يجادلهم بالتي هي أحسن. فالمقام مقام تعليم ودعوة وإيضاح للحق، لأن هذا أقرب إلى الخير، قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للآمر والناهي أن يكون رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، عدلاً فيما يأمر به، عدلاً فيما ينهى عنه، عالماً بما يأمر به، عالماً بما ينهى عنه». فيجب تحري الرفق مع العلم والحلم والبصيرة، لا يأمر ولا ينهى إلا عن علم، لا عن جهل. ويكون مع ذلك رفيقاً عاملاً بما يدعو إليه، تاركاً ما ينهى عنه، حتى يُقتدى به.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له حواريون وأصحاب، يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف[1] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمَن جاهَدَهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهَدَهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2].

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أنه قال: «يقول الله عز وجل: مُروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوني فلا أستجيب لكم، وقبل أن تسألوني فلا أعطيكم، وقبل أن تستنصروني فلا أنصركم»[3].

---

(١) خُلوف: بضم الخاء، جمع خَلْف، يقول أهل اللغة: خَلَفَ كذا إذا جاء بعده. لكنها بالفتح (خَلَف) وهو الخالف بخير، وبالإمكان (خَلْف): وهو الخالف بشرّ. قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

(٢) أخرجه مسلم [(٨٠)، (٥٠)] كتاب الإيمان، باب (٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٣٨٨/٥، ٣٩٠، ٣٩١. قال الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤٧): حديث حسن. =

وكل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم، وضروراتها لهذا المجتمع أيضاً، وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة(١).

ونمضي مع لقمان الحكيم في موعظته البليغة لإبنه: ﴿.. **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾..

لا بد من العون والزاد على تكاليف الدور العظيم الذي أُنيط بالمؤمن، لحمل رسالة الله وتحقيق منهجه في الحياة على هذه الأرض.

لذلك كان الصبر في التوجيه التربوي هو القاعدة الصلبة في بناء صرح الإيمان في القلب الإنساني.. الصبر هو زاد الطريق الطويل. الطريق الشاق الحافل بالعقبات والإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة في ما يصيب الداعية إلى الله، من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها. ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي. ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء ﴿**واصبر على ما أصابك..**﴾.

= وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كَمَثَل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» رواه البخاري ٥/٩٤ و٢١٦، ٢١٧.

«القائم في حدود الله تعالى» معناه: المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد: بالحدود: ما نهى الله عنه. «استهموا»: اقترعوا.

عن أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة رضي الله عنها، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنه يُستعمل عليكم أُمراء فتعرفون وتُنكرون فمَن كره فقد بريء، ومَن أنكر فقد سَلِمَ، ولكن مَن رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة» [رواه مسلم (١٨٥٤)] وفيه «ما صلوا» بدل «ما أقاموا فيكم الصلاة» واللفظ في النص هو عند مسلم (١٨٥٥) من حديث عوف بن مالك.

(١) إلى جانب النصوص القرآنية والأحاديث النبوية نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته. يراجع بتوسع كتاب «قبسات من الرسول» فصل «قبل أن تدعو فلا أجيب».

الصبر على مشقة ما يصادف السالك في طريق الإيمان لا تصوره حقيقة الكلمات. الكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول مَن عانى مشقات الطريق وتذوقها، انفعالات وتجارب ومرارات، فَيَجِبْ أن لا ينفذ صبر المؤمنين، فإنه ضياء القلوب في ظلمات الدروب المعتمة الملتوية. قال رسول الله ـ ﷺ ـ في بيانه الشريف: «.. والصبر ضياء..»[١]، والضياء هو النور الذي يزيح الظلام، فهو كضياء الشمس[٢] التي تبدِّد عتمة الليل المبهم المظلم.

ولما كان الصبر شاقاً على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها، وكفّها عمّا تهواه، كان ضِياءً، فإن معنى الصبر في اللغة: الحبسُ، ومنه قَتْلُ الصبر: وهو أن يُحبس الرجل حتى يُقتل.

وقد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة وأَمَر به[٣]،

---

(١) وقد تقدم الحديث في هذا الفصل. انظر جامع العلوم والحكم، الحديث رقم ٢٣.

(٢) قال الله سبحانه: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾ [يونس: ٥].

(٣) قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أي اصبروا على الطاعات والمصائب وعن المعاصي، وصابروا الكفار، أي غالبوهم، فلا يكونوا أشد صبراً منكم. وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] وقال تعالى: ﴿ولَمَن صَبَر وغَفَر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ [محمد: ٣١] والأيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة.

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنَان الخدري رضي الله عنهما قال: «.. ومَن يَسْتَعْفِف يُعِفَّهُ الله، ومَن يَسْتَغنِ يُغْنِه الله، ومَن يَتَصبَّر يُصَبِّره الله. وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصَّبر» [متفق عليه].

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمْرَه كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صَبَر فكان خيراً له» [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كأني أنظرُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يحكي نبياً من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ضَرَبَه قومُه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، =

وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وهو توجيه من الله ـ سبحانه ـ إلى عباده المؤمنين، فهو زاد الدعوة في طريقها الشاق الطويل، وهو الصفة التي لا يستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها إلا بها، وهي تحتاج إلى الصبر في كل خطوة من خطواتها.

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق. الصبر على شهوات النفس، والصبر على الإسلام الخالص(1)، إسلام القلب والوجه

= يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [متفق عليه].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمٍّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه» [متفق عليه] والوَصَب: المرض.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أراد الله بعبده خيراً عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

وقال النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهُم، فمَن رضيَ فله الرِّضى، ومَن سَخِطَ فله السُّخط» [رواه الترمذي برقم ٢٣٩٨] وقال: حديث حسن، وفي الباب عن عبد الله بن مغفل عند الطبراني والحاكم، وعن عمار بن ياسر عند الطبراني، وعن أبي هريرة عند ابن عدي، فالحديث صحيح بهذه الشواهد.

(1) قال الله عز وجل: ﴿قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ [الحديد: ٢٢].

وخرّج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن لكلِّ شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئَهُ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه» [رواه أحمد ٤٤١/٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٩٧/٧] وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في «الأوسط».

وإن مدار هذه الوصية ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ هو عماد الإيمان ورسالة الإسلام، فإن العبد إذا علم أنه لن يُصيبه إلا ما كتبَ الله له من خير وشرٍّ، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضارُّ النافع، المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيد ربِّه عز وجل، وإفرادَه بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار.

وقوله ـ ﷺ ـ: «واعلم أنَّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً» يعني أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صَبَرَ عليها، كان له في الصبر خيرٌ كثير. =

ومغالبة للهوى والشهوة والاستقامة على الدّين وهو عسير على النفوس. . ﴿**إن ذلك من عزم الأمور**﴾. . وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم.

سمة المؤمن:

ويستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله. فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس؛ والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير. ومن باب أَوْلَى التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل:

﴿**ولا تصعر خَدَّك للناس، ولا تَمشِ في الأرض مرحاً. إن الله لا يحبُّ كلَّ مختال فخور، واقصد في مشيك، واغضض من صوتك. إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾. .

والصَّعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها. والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفيذ من الحركة المشابهة للصَّعر. حركة الكبر والازورار، وإمالة الخد للناس في تعالٍ واستكبار!

إذن فمعنى ﴿**ولا تُصَعِّر خَدَّك للناس**﴾ أي: لا تميله وتُعرِضُ به عن الناس تكبُّراً عليهم.

و «المَرَح» التبختُر. والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالاة للناس. وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق.

= والصبر واجب على المؤمن حتم، وفي الصبر على المكروه خير عميم وجزاء عظيم، فإن الله أَمَر به، وَوَعَد عليه جزيل الأجر ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾. .

ولنعلم أن الصبر: كفُّ النفس وحبسُها عن التسخط مع وجود الألم، وتمني زوال ذلك، وكفّ الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «الصَّبر معوَّلُ المؤمن» [رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/٣٤٢] انظر جامع العلوم ١/٤٥٩ رقم ١٩.

وهو تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفَّس في مشيته الخيلاء: ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾..

إن هذه الأوامر والنواهي مرتبطة بعقيدة التوحيد، فهو ـ سبحانه ـ ينهى عن الكِبْر الفارغ والخيلاء الكاذبة: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً. إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]..

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان، أو قوة أو جمال. ولو تذكر أنه ما به من نعمة فمن الله، وأنه ضعيف أمام حول الله، لطامَنَ من كبريائه، وخَفَّف من خيلائه، ومشى على الأرض هوناً لا تيهاً ولا مرحاً.

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته: ﴿إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾.

فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل، لا يبلغ شيئاً من الأجسام الضخمة التي خلقها الله. إنما هو قوي بقوة الله، عزيز بعزة الله، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه.

ذلك التطامن والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء، أدب مع الله، وأدب مع الناس. أدب نفسي وأدب اجتماعي. وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعُجب إلا فارغ صغير القلب صغير الاهتمامات، يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه.

وفي الحديث: «مَن تواضع للّه رفعه. فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير. ومَن استكبر وَضَعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير. حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير: آية: ﴿ولا تمْشِ في الأرض مرحاً...﴾..

يدخل الجنَّةَ مَنْ كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّة من كِبْر» فقال رجل: إن الرجل يُحبُّ أن يكون ثوبُه حسناً، ونعلهُ حسنةً؟ قال: إن الله جميل يحبُّ الجمال[1]. الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغمط الناس»[2].

بطرُ الحقِّ: دَفْعُه وردُّه على قائله، وغَمْطُ الناس: احتقارهم.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله - ﷺ - بشماله، فقال: «كُلْ بيمينك». قال: لا أستطيع! قال: «لا اسْتَطَعتَ» ما مَنَعَهُ إلا الكِبْر. قال: فما رفعها إلى فيه»[3].

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقولُ: «أَلا أُخْبِرِكم بأهل النار؟: كُلُّ عُتُلٍّ جوّاظ مُسْتَكْبِر»[4].

«العُتُلُّ»: الغليظ الجافي. و «الجوّاظ» بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة: وهو الجموع المَنُوع، وقيل: الضخم المُختال في مِشْيته، وقيل: القصيرُ البطين.

وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عنِ النبي - ﷺ - قال: «احتجَّتِ الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت الجنة: فيَّ ضُعفاء الناس ومساكينهُم. فقضى الله بينهما: إنك الجنةُ رحمتي، أرحمُ بك من أشاء، وإنك النار عذابي، أُعذِّبُ بك من أشاء، وَلِكلَيْكما عليَّ مِلؤها»[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا ينظرُ الله يومَ القيامة إلى مَنْ جرَّ إزاره بطراً»[6].

---

(١) أي: فليس ذلك من الكبر.
(٢) رواه مسلم (٩١)، وأخرجه أبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٩).
(٣) رواه مسلم (٢٠٢١).
(٤) البخاري ٥٠٧/٨، ٥٠٨ و ٤٠٨/١٠، ومسلم (٢٨٥٣).
(٥) رواه مسلم (٢٨٤٧).
(٦) البخاري ٢١٩/١٠، ٢٢٠، ومسلم (٢٠٨٧) وأخرجه مالك في «الموطأ» ٢/ ٩١٤.

وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله عز وجل: العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمَن يُنازعني عذَّبته»(١).

وعنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بينما رَجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعجبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ رأسه، يختالُ في مِشْيته، إذ خَسَفَ الله به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»(٢).

«الحُلّة» بضم الحاء المهملة: ثوب له ظهارة وبطانة. «مُرَجِّلٌ رأسه»: أي مُمَشِّطُهُ. «يتجلجل» بالجيمين: أي يغوص وينزل.

وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة لا يُكلِّمُهُم الله يوم القيامة، ولا يُزكيهم، ولا ينظُر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخٌ زان، ومَلِكٌ كذّاب، وعائل (٣) مستكبر» (٤).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزالُ الرجُل يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حتى يُكْتَبُ في الجبارين، فيصيبُه ما أصابهم»(٥). «يذهب بنفسه» أي: يرتفعُ ويتكبَّر.

فالكِبْر والعُجب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل. وهما من ذميم الفِعال والصفات التي نهى الله ورسوله عنهما ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾ [الفرقان: ٣٩].

ومع النهي عن مشية الخيلاء والمرح، بيانٌ في وصية لقمان الحكيم للمِشْية المعتدلة القاصدة ﴿واقصد في مشيك﴾..

والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف. وعدم إضاعة الطاقة في

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) وأخرجه أبو داود (٤٠٩٠).
(٢) البخاري ١٠/٢٢١، ٢٢٢، ومسلم (٢٠٨٨).
(٣) العائل: الفقير.
(٤) رواه مسلم (١٠٧).
(٥) رواه الترمذي (٢٠٠١) وقال: حديث حسن.

التبختُر والتثني والاختيال. ومن القصد كذلك. لأن المِشْية القاصدة إلى هدف لا تتلكأ. ولا تتخايل ولا تتبختر، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق.

ويصف الله عباده في القرآن الكريم ـ عباد الرحمٰن ـ بسماتهم وصفاتهم المميزة ومقومات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم:

﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣]..

ها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمٰن: أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة لينة، ليس فيها تكلّف ولا تصنع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خَدّ ولا تخلُّع أو ترهل. فالمشية ككل حركة تعبر عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر. والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة. فيها وقار وسكينة، وفيها جدّ وقوة. وليس معنى هذا أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح! وهذا رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا مشى تكفأ تكفياً، وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول الله ـ ﷺ ـ كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ـ ﷺ ـ كأنما الأرض تُطوى له ـ وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحطّ من صبب.

وقال مرة إذا تقلَّع ـ قلت: والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصَّبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة[1].

---

(١) عن زاد المعاد في هدى خير العباد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية.

ونمضي مع لقمان في وصيته لابنه: ﴿**واغضض من صوتك**﴾..

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته. وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيىء الأدب، أو شاكٌ في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدّة والغلظة والزعاق!

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفّرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير**﴾.. فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة. ولا يكاد ذو حسّ يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول.. شيئاً من صوت هذا الحمير..!

وبعد.. فقصة لقمان الحكيم مليئة حافلة. موضوعاتها كثيرة منوعة، والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة، والظلال التي تلونها عميقة الخطوط في الوجدان الإنساني.

وهي كسائر القصص القرآنية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية: ونبذ الشرك المقيت والظلم العظيم، والبعث: في تعبير كبير عن دقة الحساب وعدالة الميزان. كل ذلك في إطار علم الله الواسع وشموله.. كذلك تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة. تلم بالإحسان إلى الوالدين في صورة موحية معبّرة.. ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة والعبادة والسلوك.

إنها دعوة حكيمة ووصية خالدة. نداء حبيب من أب لابنه، واستجاشة للقلب الإنساني، وهي أدب رفيع، وصورة من الأدب الإلّهي.. دعوة إلى الآداب النفسية في المشاعر والأعماق الوجدانية. دعوة إلى السلوك القاصد النبيل.

لقد كانت وصية جليلة ضخمة تثير في النفس والذهن خواطر عميقة

ومعاني كبيرة، وتشمل قواعد التربية والتهذيب لمجتمع رفيع كريم نظيف. .

كل ذلك عرضه القرآن في قصة لقمان في نسق وأداء وتعبير عجيب، حافل بالإشارات الموحية، والوقفات العميقة الدلالة، والإيضاح القوي التأثير في استعراض عالي النسق في ظل بيان منير.

مشهد مفزع ـ مسخ وانحراف

يـرسم القـرآن الكـريم من خـلال تعبيـره عن التحلل من العهـد، والنكوص عن آيات الله والانسلاخ منها، نموذجاً إنسانياً، رَسَمه شاخصاً من خلال اللمسات، وينتفض مخلوقاً حياً خالد السمات! رسمه صورة لنموذج أصيل، لا يُخطئه الإنسان في كل مجتمع وجيل: ﴿**واتل عليهم نبأ الذين آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين**﴾ [الأعراف: ١٧٥]..

لقد رسمت الآيات القرآنية نموذجاً شخصياً واقعاً، والمعجزة الفنية في التصوير، جعلت هذا النموذج يتخطى الزمان والمكان، ويتجاوز القرون والأجيال.. صورة للانحراف عن سواء الفطرة، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها.. ذلك الذي آتاه الله آياته، فكانت في متناول نَظَره وفكره؛ ولكنه انسلخ منها، وتَعرَّى عنها ولصق بالأرض، واتبع الهوى؛ فلم يستمسك بالميثاق الأول، ولا بالآيات الهادية؛ فاستولى عليه الشيطان؛ وأمسى مطروداً من حِمَى الله، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار..

ولكن البيان القرآني المعجز لا يصوغ المَثَل هذه الصياغة! إنما يُصوّره في مشهد حي متحرك، عنيف الحركة، شاخص السمات، بارز

الملامح، واضح الانفعالات؛ يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة، إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب.. إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث..﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]..

إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أوَ لَيست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟...

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي؛ وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصِقاً بالأرض، ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يَلْهَث إن طُورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتابع وتتوالى؛ والخيال شاخص يتتبعها في انفعال وانبهار وتأثر. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها.. مشهد اللهاث الذي لا ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحي، على المشهد كله:

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ [الأعراف: ١٧٦، ١٧٧]..

ذلك مَثَلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم. ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان «الإنسان» إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم جناح يرفون به إلى عليين، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين!.

﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون!﴾..

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يُعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبداً!!!.

وبعد.. فهل هو نَبأ يُتلى؟ أم أنه مَثَل يُضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً. فهو من هذا الجانب خبر يروى؟.

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين ـ قبل دخول بني إسرائيل ـ وتروي بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهياره؛ على نحو لا يأمن الذي تَمَرّس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير، أن يكون واحدة منها؛ ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي وَرَد فيها؛ ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر.. فقد رُوي أن الرجل من بني إسرائيل (بلعام بن باعوراء)، وروي أنه كان من أهل فلسطين الجبابرة. وروي أنه كان من العرب (أمية بن الصلت). وروي أنه كان من المعاصرين لبعثة الرسول ـ ﷺ ـ (أبو عامر الفاسق)، وروي أنه كان معاصراً لموسى ـ عليه السلام ـ، وروي أنه كان بعده على عهد يوشع بن نون الذي حارب الجبارين ببني إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة على

إثر رفض بني إسرائيل الدخول، وقولهم لموسى ـ عليه السلام ـ ما حكاه القرآن الكريم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾..

كذلك روي في تفسير الآيات التي أُعطيها أنه كان (اسم الله العظيم) الذي يدعو به فيجاب؛ كما روي أنه كتاب مُنزل وأنه كان نبياً.. ثم اختلفت تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى..

لذلك رأينا ألا ندخل في شيء من هذا كله. بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء. ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عنه شيء. وأن نأخذ من النبأ ما وراءه. فهو بمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر؛ وما أكثر الذين يُعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه. واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المُتَسلطين الذين يملكون لهم ـ في وَهْمِهم ـ عرض الحياة الدنيا.

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها. ويُعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً!.

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلَخَ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟.

وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله ـ سبحانه ـ عن صاحب النبأ: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه. فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!﴾.. ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته. ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ، لأن ذلك الذي

عَلِمَ الآيات أَخْلَد إلى الأرض، واتبع هواه، ولم يتبع الآيات. .

إنه مَثَل لكل من آتاه الله من علم الله؛ فلم ينتفع بهذا العلم؛ ولم يستقم على طريق الإيمان. وانسلخ من نعمة الله. ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان. ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!.

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟.

إنه ـ في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها. ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً. والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه؛ فهو منطلق فيه أبداً!.

والحياة البشرية ما تَنِي تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة. . حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مَثَله. فيما عدا الندرة النادرة مِمَّن عَصَم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض؛ ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلّهم الشيطن؛ ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان!. . فهو مَثَل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان!.

وقد أمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها. ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يُتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة؛ وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو. فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!.

ولقد رأينا من هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ في زماننا هذا من كان كأنما

يحرص على ظلم نفسه؛ أو كمن يعض بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!.

اللهم اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين..

مسـخ وانتكـاس

ومرة أخرى يواجه القرآن الكريم بني إسرائيل بمظهر من مظاهر النكث والنكسة، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك بـه، والضعف عن احتمال تكاليفه، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب:

﴿واسـألهم عن القريـة التي كانت حـاضرة البحـر، إذ يعـدون في السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يـوم سبتهم شُرَّعـاً ويوم لا يسبتـون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف: ١٦٣]..

ومرة أخرى يقع القوم في المعصية والخطيئة.. وهم في هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها! ويأتيهم الابتـلاء فلا يصبـرون عليه، لأن الصبـر على الابتلاء يحتـاج إلى طبيعـة متماسكة في تملك الارتفاع من الأهواء والأطماع.. **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر..﴾**.

يدرك سياق القصة هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل، إلى أسلوب المواجهة لـذراريهم التي كانت تـواجه رسـول الله ـ ﷺ ـ في المدينة..

يأمر الله ـ سبحانه ـ رسوله ـ ﷺ ـ أن يسأل اليهود عن هذه الواقعـة المعلومة في تاريخ أسلافهم. وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة

الأجيال؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً.. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر؛ فهي معروفة للمخاطبين! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية.. وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة؛ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش، فجعل لهم السبت.. ثم كان الابتلاء ليربيهم ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع.. وكان ذلك ضرورياً لبني إسرائيل التي تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً؛ ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية، لتعتاد الصمود والثبات. فضلاً على أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله؛ ويُؤَهلون لأمانة الخلافة في الأرض..

وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وُجِّه من قبل إلى آدم وحواء.. فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد ومُلك لا يبلى! ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض.. إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا تتغير فحواه!.

وقد فَصّل القرآن حكاية اعتدائهم في السبت.. ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت..**﴾ [البقرة: ٦٥]..

نعم فقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدساً لا يعملون فيه للمعاش. ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت، وتختفي في غيره!.

ولم يصمد فريق من بني إسرائيل - في هذه المرة - للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . .

لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تتراءى لهم على الساحل، قريبة المأخذ، وسهلة الصيد. فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم! فإذا مضى السبت، وجاءتهم أيام الحلّ. لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة، كما كانوا يجدونها يوم الحرام! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع؟ أتتركه وفاءً بعهد الله واستمساكاً بميثاق؟ إنَّ هذا ليس من طبع يهود!.

ومن ثم اعتدوا في السبت. اعتدوا على طريقتهم الملتوية. . راحوا يحوطون على الحيتان في يوم السبت، ويقطعونها عن البحر بحاجز، ولا يصيدونها! حتى إذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز!. . وهذا ما أمر رسول الله - ﷺ - أن يذكرهم به، ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا. .

فأما كيف وقع لهم هذا، وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة، وتداورهم هذه المداورة. . فهي الخارقة التي تقع بإذن الله عندما يشاء الله. . والذين لا يعلمون ينكرون أن تجري مشيئة الله بغير ما يسمونه هم «قوانين الطبيعة»! والأمر في التصور الإسلامي - وفي الواقع - ليس على هذا النحو. .

إن الله - سبحانه - هو الذي خلق الكون، وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة. ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجري إلا بها. . لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة. . وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون. . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين؛ فإنه لم يكن معنى هذا تقييد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين. . فحيثما اقتضت

الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفاً لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر. . ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجري فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه الأمور. فهي لا تجري جرياناً آلياً لا تَدَخُّل لِقَدَر الله فيه. . وهذا مع ثباتها في طريقها ما لم يشأ الله أن تجري بغير ذلك. . وعلى أساس أن كل ما يقع ـ سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها ـ إنما يقع بقَدَر من الله خاص، فإنه تستوي الخارقة والقانون الثابت في جريانه بهذا القَدَر. . ولا آلية في نظام الكون في مرة واحدة ـ كما يظن الذين لا يعلمون! ولقد بدأوا يدركون هذا في ربع القرن الأخير(١)!.

على أية حال، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل. . فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل ـ على طريقة اليهود ـ للصيد في يوم السبت!.

وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب، وتقل التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص!..

إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه. إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه. وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! ما من قوة تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة ـ كان ما كان الإرهاب فيها ـ أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس، ومراقبتهم له في السر والعلن. . .

---

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ في ظلال القرآن ص ١١١٣ ـ ١١٢١.

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية. وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله.. ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها. وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها!.

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت، الذي حرم عليهم الصيد فيه.. وروي أنهم كانوا يقيمون الحواجيز على السمك ويحوّطون عليه في يوم السبت؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه؛ وقالوا: إنهم لم يصطادوه في السبت، فقد كان في الماء ـ وراء الحواجيز ـ غير مصيد!.

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله! ويُنكر عليه ما يزاوله من الاحتيال! بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر: ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب؟ **﴿وإذ قالت أمة منهم: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟﴾** [الأعراف: ١٦٤].

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم.. بعدما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله..

﴿قالوا: معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتقون﴾ [الأعراف: ١٦٤]..

فهو واجب لله نؤديه: واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخويف من انتهاك الحرمات، لنبلغ إلى الله عذرنا، ويعلم أن قد أدينا واجبنا. ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى.

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق.. أو ثلاث أمم.. فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة، وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث، مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام، إنما هي من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة(١)!.

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي.. وهي طرائق متعددة من التصور والحركة، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً!.

فلما لم يجد النصح، ولم تنفع العظة، وسَدَر السادرون في غيهم، حقَّت كلمة الله، وتحققت نُذُره. فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء. وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذي سيأتي بيانه. فأما الفرقة الثالثة ـ أو الأمة الثالثة ـ فقد سكت النص عنها.. ربما تهويناً لشأنها ـ وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب:

﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين

---

(١) ترد كلمة «أمة» بمعنى الجماعة من الناس إطلاقاً كقوله تعالى: **﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾**، وترد بمعنى القيادة والإمامة كقوله تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾**، وهي هنا تتضمن معنى أنه كان فريقاً وحده.. وإن كان هذا لا يؤثر في المدلول الاصطلاحي الإسلامي للفظ أمة وهو الجماعة من الناس ذات العقيدة الواحدة والتصور الواحد.

ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف: ١٦٥، ١٦٦]..

لقد كان العذاب البئيس ـ أي الشديد ـ الذي حل بالعصاة المحتالين، جزاء إمعانهم في المعصية ـ التي يعتبرها النص هي الكفر، الذي يُعبَّر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق؛ وهو تعبير يختلف عن المصطلح الفقهي المتأخر عن هذه الألفاظ إذ أن مدلولها القرآني ليس هو المدلول الذي جعل يشيع في التعبير الفقهي المتأخر ـ كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية!.

لقد تنازلوا هم عن آدميتهم، حين تنازلوا عن أخص خصائصها ـ وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة ـ وانتكسوا إلى عالم «الحيوان» حين تخلوا عن خصائص «الإنسان». فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان!.

أم كيف صاروا قردة؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه؟ أم تناسلوا وهم قردة؟.. إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير.. فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم، وليس وراءه عن رسول الله ـ ﷺ ـ شيء.. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه.

لقد جرت كلمة الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء، كما يجري بها التحوير والتغيير.. كلمة «كن». **﴿قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين﴾**.. فكانوا قردة مهينين. كما جرى القول الذي لا رادّ له؛ ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه!.

إنه العهد والميثاق مع الله!! ولكنهم نقضوا الميثاق وتحللوا واحتالوا.. هؤلاء هم الذين فسقوا حتى بلغ بهم الظلم والفسوق ألا يصير

حالهم إلى الإيمان.. لقد لَجُّوا في الفسوق والظلم والعدوان **﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، فقلنا لهم: كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾** [البقرة: ٦٥، ٦٦]..

هؤلاء فسدت فطرتهم، وباتوا بذلك شرّ الدواب والبهائم عند الله.. لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله، والنكوص عن مقام الإنسان ذي الإرادة. فانتكسوا بهذا إلى عالم الحيوان والبهيمة، الحيوان الذي لا إرادة له، والبهيمة التي لا ترتفع على دعوة البطون! انتكسوا بمجرد تَخَلِّيهم عن الخصيصة الأولى التي تجعل من الإنسان إنساناً. خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله والتقيد بميثاقه.. وانطلقوا تسوقهم أهواؤهم وقد تملصوا من ميثاق الله بحيلة شيطانية وهم يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على التلاعب بميثاق الله ونصوصه.. في طبيعتهم آفة، وفي قلوبهم زيغ وعلة.. كيف يُخادعون الله ويحتالون على ميثاقه وأمره.. إنهم من الانتكاس والارتكاس والغفلة المتردّية بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم! إن الله بخداعهم عليم، يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم على العهد والميثاق مع الله وهم يفسقون ويكفرون بأوامره.. كل هذا انتهى بهم إلى شر مصير ينتهي بالإنسانية: **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**..

وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر في السِّحنة وتُلقي ظِلّها العميق!.

ومضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين في زمانها وفيما يليه، وموعظة نافعة للمؤمنين في جميع العصور:

﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾..

قال الإمام ابن القيم: «وقد أخبر الله تعالى عن أهل السبت من اليهود بِمَسْخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرّمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن

نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه مَن يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه.

ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى ـ عليه السلام ـ وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال، ظاهره ظاهر الاتقاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مُسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شَبَه منه، وهو مخالف له في الحدّ والحقيقة. فلما مُسخ أولئك المعتدون على دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً، يوضحه ما يلي:

إنَّ بني إسرائيل كانوا قد أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل كما قَصَّه الله تعالى في كتابه[1]، وذلك أعظم من أكل الصيد الحرام في يوم بِعَينه، ولذلك كان الربا والظلم حرام في شريعتنا، والصيد يوم السبت غير محرّم فيها. ثم إن أَكَلَةَ الربا وأموال الناس بالباطل لم يُعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مُستحِلُّوا الحرام بالحيلة، وإن كانوا عوقبوا بجنس آخر كعقوبات أمثالهم من العصاة. فيشبه والله أعلم أن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً إذ هم بمنزلة المنافقين ولا يعترفون بالذنب، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم؛ فإن من أَكَلَ الربا والصيد الحرام عالماً بأنه

---

(١) قال تعالى في سورة النساء آية ١٦٠، ١٦١: ﴿فَبِظُلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾.

حرام فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم، وهو إيمان بالله تعالى وآياته. ويترتب على ذلك من خشية الله تعالى ورجاء مغفرته وإمكان التوبة ما قد يُفضي به إلى خير ورحمة.

ومن أَكَلهُ مُستحلاً له بنوع احتيال تأوَّل فيه، فهو مصرٌ على الحرام، وقد اقترن به اعتقاده الفاسد في حل الحرام، وذلك قد يُفضي به إلى شر طويل».

لقد احتال اليهود على إباحة ما حرّمه الله تعالى فقد أصابهم الزيغ في قلوبهم، فانتخرت وتوهنت عقيدتهم وانهارت أمام بريق الشّهوة ومغرياتها، لقد أغلقوا نوافذ الإيمان في أفئدتهم، فإذا هي صلدة مظلمة جامدة عنيدة، تروغ روغان الثعلب حول صيد طري . .

إنهم يُخادعون الله سبحانه وما يخدعون إلا أنفسهم. . والمخادعة: هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه: ليحصل مقصود المخادع. وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة: فإنهم يقولون: طريق خيدع، إذا كان مخالفاً للقصد لا يُشعر به ولا يُفطن له، ويقال للسراب الخيدع، لأنه يغرّ من يراه، وضبّ خَدِع، أي مراوغ. كما قالوا: أخدع من ضبّ. ومنه: الحرب خدعة، وسوق مخادعة، أي متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخزانة مخدعاً[1].

إنها يهود في عتامة قلوبها وارتكاسها. تتلوى في الحسّ، وتروغ من الحقيقة. إنهم انتكسوا وجَبُنوا أن يواجهوا الفعل الحرام بالظاهر. فهم يواجهون تمسكهم بنصوص ميثاقهم مع الله بالألفاظ، بينما هم يَلْوون قلوبهم بالكفر والظلم والفسوق.

وهم بفعلتهم تلك يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء، والقدرة على

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٥٥.

التملص من الوقوع في الحرام، والانسلاخ من نصوص العهد والميثاق، فهم يخادعون الله في احتيالهم هذا أو يحاولون: ﴿أَوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما تخفي صدورهم وما يعلنون﴾، فهم يتظاهرون بالامتثال لأوامر الله، ولكن حقيقة الأمر هم في غفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون! فالله سبحانه عليم بالتوائهم اللئيم وخداعهم الماكر.

فما أبأس من يستهزىء بنصوص العهد مع الله، فهو سبحانه يمدّ لهم، فهم في مكرهم وطغيانهم يعمهون.. يخبطون في خداع أنفسهم، ثم يد المنتقم الجبار تمسخهم في صورة زرية تهويناً من شأنهم، ووعيداً لكل النفوس الممسوخة الهزيلة التافهة التي تحتال لإباحة ما حرمه الله تعالى.

جرم عظيم وفعل قبيح:

وقد جاء ذكر المسخ في عدة أحاديث نبوية:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبتْ اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل»(١).

وهو نص في تحريم استحلال محارم الله تعالى بالحيل، وإنما ذكر ـ ﷺ ـ أدنى الحيل تنبيهاً على أن مثل هذا المُحرَّم العظيم الذي قد توعَّد الله تعالى عليه بمحاربة من لم يَنْتَهِ عنه.

وعن جابر بن عبد الله: أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله حرَّم بَيْع الخمر والميتة، والخنزير، والأصنام، فقيلَ: يا رسول الله! أرأيتَ شحوم الميتة فإنها يُطلى بها السُّفن، ويُدهن بها الجلود، ويَستصِح بها الناس؟ فقال: لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك: «قاتلَ الله

(١) رواه أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن سلام، حدثنا الحسن بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، قال ابن القيم: وهذا إسناد صحيح يصحح مثله الترمذي (إغاثة اللهفان ١/٣٦٣).

اليهود، إن الله لما حرَّم عليهم شحومها جَملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه»(١).

فمن احتيال اليهود: أن الله سبحانه لما حرَّم عليهم الشحوم، تأوّلوا أن المراد نفس إدخاله الفم، وأن الشحم هو الجامد دون المـذاب، فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه، وقالوا: ما أكلنا الشحم، ولم ينظروا في أن الله تعالى إذا حرَّم الانتفاع بشيء فلا فرق بين الانتفـاع بعينه أو بِبَـدَله. إذ البَـدَل يسدّ مسدّه. فلا فرق بين حال جامده وَوَدْكه، فلو كان ثمنه حلالاً لم يكن في تحريمه كثير أمر.

قال ابن عباس: بلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ أن فلاناً باع خمراً. فقال: قاتلَ الله فلاناً، أَلَمْ يعلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قاتل الله اليهود، حُرمت عليهم الشحوم فجملوها(٢) فباعوها»(٣).

قال الخطابي: في هذا الحديث بطلان كل حيلة يحتال بها المتوصل إلى المحرم، وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيئاته وتبديل اسمه، وقد مثلت حيلة أصحاب الشحوم بمن قيل له: لا تقرب مال اليتيم، فباعه وأخذ ثمنه وأكله وقال: لم آكل نفس مال اليتيم. أو اشترى شيئاً في ذمته ونقده، وقال: هذا قد ملكتُه وصار عوضه ديناً في ذمتي، فإنما أكلتُ ما هو ملكي ظاهراً وباطناً.

وقال ابن القيم: فمن أسهل الحيل على من أراد فعله: أن يعطيه مثلاً ألفاً إلا درهماً باسم القرض، ويبيعه خرقة تساوي درهماً بخمس مئة(٤).

وقد جاء ذكر المسخ في عدة أحاديث نبوية:

روى البخاري في صحيحه في حديث أبي مالك الأشعري أنه سمع

(١) رواه البخاري وأصله متفق عليه، انظر جامع العلوم والحكم ٢/٤٤٥.

(٢) قال الخطابي: (جملوها) معناه: أذابوها حتى تصير ودكاً فيزول عنها اسم الشحم يقال: جملت الشحم، وأجملته، وأجلته، واجتملته. والجميل: الشحم المذاب.

(٣) متفق عليه.

(٤) إغاثة اللهفان ١/٣٦٣.

النبي ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ من أُمتي أقوام يَسْتَحِلُّون الحِر[1] والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنّ أقوامٌ إلى جَنْب عَلَمٍ، يروح عليهم بسَارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غداً، فيُبَيِّتُهم الله تعالى ويَضَعُ العَلَم، ويمسخ آخرين قِرَدة وخنازير إلى يوم القيامة».

قال أبو هريرة: لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيراً. فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيخسف بأحدهما، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي لشأنه ذلك، حتى يقضي شهوته منه.

وقال مالك بن دينار: بلغني أن ريحاً تكون في آخر الزمان، وظلم، فيفزع الناس إلى علمائهم، فيجدونهم قد مَسَخهم الله.

فالمسخ على صورة القردة والخنازير واقع في هذه الأمة ولا بُدّ وهو في طائفتين:

علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله، الذين قلبوا دين الله تعالى وشرعه فقَلَبَ الله تعالى صُوَرهم كما قلبوا دينهم.

والمجاهرين المُتَهتِّكين بالفسق والمحارم. ومن لم يُمسخ منهم في الدنيا مُسخ في قبره أو يوم القيامة.

وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء في أحاديث كثيرة.

قال الشيخ ابن تيمية: «وإنما ذلك إذا استحلوا هذه المحرمات بالتأويلات الفاسدة. فإنهم لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول حرّمها كانوا

(١) الحِر، بكسر الحاء المهملة: الفَرْج، والمعنى: يَسْتَحِلُّون الزِّنا.

كفاراً ولم يكونوا من أمته. ولو كانوا معترفين بأنها حرام لأوشك أن لا يعاقبوا بالمسخ، كسائر الذين يفعلون هذه المعاصي، مع اعترافهم بأنها معصية، ولما قيل فيهم: يستحلون. فإن المستحلّ للشيء هو الذي يفعله معتقداً حلّه. فيشبه استحلالهم للخمر، يعني أنهم يسمونها بغير اسمها، كما جاء في الحديث. فيشربون الأنبذة المحرمة، ولا يسمونها خمراً. واستحلالهم المعازف باعتقادهم أن آلات اللهو مجرد سمع صوت فيه لذة. وهذا لا يحرم كأصوات الطيور، واستحلال الحرير وسائر أنواعه باعتقادهم أنه حلال في بعض الصور كحال الجَرَب وحال الحكة. فيقيسون عليه سائر الأحوال ويقولون: لا فرق بين حال وحال».

وهذه التأويلات ونحوها واقعة في الطوائف الثلاثة الذين قال فيهم عبد الله بن المبارك رحمه الله:

وهل أفسدَ الدِّين إلا الملو ... كُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانها[1]؟

ومعلوم أنها لا تغني عن أصحابها من الله شيئاً بعد أن بلَّغ الرسول وبيَّن تحريم هذه الأشياء بياناً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة. والحديث الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليشربنّ ناسٌ من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يَخسف الله تعالى بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير».

ولولا أن الله سبحانه رَحِمَ هذه الأمة بأن نَبيها نبَّههم على ما لُعِنَت به اليهود، وكان السابقون منها فقهاء أتقياء، علموا مقصود الشارع، فاستقرت الشريعة بتحريم المحرمات: من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وإن

---

(١) وقد ذكر قبل هذا البيت:

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلو ... ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو ... ب وخير لنفسك عصيانها

تبدلت صورها، وبتحريم أثمانها، لطرَّق الشيطان لأهل الحيل ما طرق لهم في الأثمان ونحوها. إذ البابان باب واحد على ما لا يخفى.

إن باب الحيل المحرمة مداره على تسمية الشيء بغير اسمه، على تغيير صورته مع بقاء حقيقته، فمداره على تغيير الاسم مع بقاء المسمى، وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة. والمفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة، ولا بتغيير صورته من صورة إلى صورة، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد يعلمها من قلوبهما عالم السرائر. فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد، ثم غير اسمه إلى المعاملة، وصورته إلى التبايع الذي لا قصد لهما فيه ألبتة، وإنما هو حيلة ومكر ومخادعة لله تعالى ولرسوله ـ ﷺ ـ.

وأيُّ فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرّم الله عليهم من الشحوم بتغيير اسمه وصورته؟ فإنهم أذَابوه حتى صار ودكاً وباعوه وأكلوا ثمنه. وقالوا: إنما أكلنا الثمن، لا المثمن، فلم نأكل شحماً.

وكذلك من استحل الخمر باسم النبيذ كما في حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ليشربنّ ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير».

وإنما أتى هؤلاء من حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم، ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم وثبوته، وهذا بعينه هو شبهة اليهود في استحلال بيع الشحم بعد جمله، واستحلال أخذ الحيتان يوم الأحد بما أوقعوها به يوم السبت في الحفائر والشباك من فعلهم يوم الجمعة، وقالوا: ليس هذا صيد يوم السبت، ولا استباحة لنفس الشحم. بل الذي يستحل الشراب المسكر، زاعماً أنه ليس خمراً مع علمه أن معناه معنى الخمر ومقصوده مقصوده وعمله أفسد تأويلاً. فإن الخمر اسم لكل شراب

مسكر كما دلَّت عليه النصوص الصحيحة الصريحة، وقد جاء هذا الحديث عن النبي - ﷺ - من وجوه أخرى.

منها: ما رواه النسائي عنه - ﷺ -: «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها» وإسناده صحيح.

ومنها: ما رواه ابن ماجة عن عبادة بن الصامت يرفعه «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها» ورواه الإمام أحمد، ولفظه: «ليستحلنّ طائفة من أمتي الخمر».

ومنها: ما رواه ابن ماجة أيضاً من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها».

فهؤلاء إنما شربوا الخمر استحلالاً لما ظنوا أن المحرم مجرد ما وقع عليه اللفظ، وأن ذلك اللفظ لا يتناول ما استحلوه. وكذلك شبهتهم في استحلال الحرير والمعازف، فإن الحرير أُبيح للنساء وأُبيح للضرورة، وفي الحرب. وقد قال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ [الأعراف: ٣٢]..

والمعازف قد أُبيح بعضها في العرس ونحوه، وأبيح الحداء، وأبيح بعض أنواع الغناء. وهذه الشبهة أقوى بكثير من شُبَه أصحاب الحيل. فإذا كان من عقوبة هؤلاء: أن يمسخ بعضهم قردة وخنازير، فما الظن بعقوبة مَنْ جُرمهم أعظم، وفعلهم أقبح؟.

فالقوم الذين يُخسف بهم ويُمسخون، إنما فُعل ذلك بهم من جهة التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم بطريق الحيلة، وأعرضوا عن مقصود الشارع وحكمته في تحريم هذه الأشياء. ولذلك مُسخوا قردة وخنازير، كما مُسخ أصحاب السبت بما تأوّلوا التأويل الفاسد الذي استحلوا

به المحارم، وخسف ببعضهم كما خُسف بقارون، لأن في الخمر والحرير والمعازف من الكِبَر والخيلاء ما في الزينة التي خرج فيها قارون على قومه، فلما مسخوا دين الله مسخهم الله، ولما تكبّروا عن الحق أذلَّهم الله تعالى، فلما جمعوا بين الأمرين جمع الله لهم بين هاتين العقوبتين، وما هي من الظالمين ببعيد. وقد جاء ذكر المسخ والخسف في عدة أحاديث تقدم ذكر بعضها.

والله ـ سبحانه ـ إنما حرّم هذه المحرمات وغيرها لما اشتملت عليه من المفاسد المضرّة بالدنيا والدين، ولم يحرمها لأجل أسمائها وصورها. ومعلوم أن تلك المفاسد تابعة لحقائقها، لا تزول بتبدل أسمائها وتغير صورتها، ولو زالت تلك المفاسد بتغير الصورة والأسماء لما لَعَن الله ـ سبحانه ـ اليهود على تغيير صورة الشحم واسمه بإذابته حتى استحدث اسم الودك وصورته ثم أكلوا ثمنه، وقالوا: لم نأكله. وكذلك تغيير صورة الصيد يوم السبت بالصيد يوم الأحد.

فتغيير صور المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادة في المفسدة التي حُرمت لأجلها، مع تضمنه لمخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه، وأنه يحرم الشيء لمفسدة ويبيحه لأعظم منها.

ولهذا قال أيوب السختياني: يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون.

عن الشعبي عن مسروق قال: قال عبد الله: ليس من عام إلا والذي شرٌ منه، لا أقول أميرٌ خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يُحدث قوم يقيسون الأمر برأيهم، فينهدم الإسلام وينثلم.

وقال أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد: لا يجوز شيء من الحيل.

وفي رواية صالح ابنه: الحيل لا نراها.

وقال في رواية أبي الحرث: هذه الحيل التي وضعها هؤلاء، احتالوا في الشيء الذي قيل لهم: إنه حرام. فاحتالوا فيه حتى أحلُّوه، وقد قال ـ ﷺ ـ: «لعن الله اليهود، حُرمت عليهم الشحوم، فأذابوها وأكلوا أثمانها» فإنما أذابوها حتى أزالوا عنها اسم الشحوم[١].

ومن تأمَّلَ الشريعة ورُزق فيها فقه نفس رآها قد أبطلت على أصحاب الحيل مقاصدهم، وقابلتهم بنقيضها، وسدّت عليهم الطرق التي فتحوها لِلْتَحْيُّل الباطل. فمن ذلك: أن الشارع منعَ المُتَحَيل على الميراث بقتل مورثه ميراثه، ونقله إلى غيره دونه لما احتال عليه بالباطل.

ومن ذلك: بطلان وصية الموصى له بمال إذا قَتَل الموصَى. ونظائر ذلك كثيرة، فالمحتال بالباطل معامل بنقيض قصده شرعاً وقدراً. ولهذا عاقب الله ـ سبحانه ـ وتعالى من احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها[٢]، وعاقب من احتال على الصيد المحرّم بأن مسخهم قردة وخنازير.

وأصل هذا: أن الله ـ سبحانه ـ جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضدّ ما قصدوا له بتلك الجرائم، فجعل عقوبة الكاذب إهدار كلامه وردّه عليه.

وجعل عقوبة الغالّ في الغنيمة لما قصد تكثير ماله بالغلول: حرمان سهمه، وإحراق متاعه.

---

(١) وذُكر للإمام أحمد: أن امرأة كانت تريد أن تفارق زوجها، فيأبى عليها، فقال لها بعض أرباب الحيل: لو ارتددت عن الإسلام بِنْتِ منه، ففعلت، فغضب أحمد رحمه الله وقال: من أفتى بهذا أو علّمه أو رضي به فهو كافر. (انظر إغاثة اللهفان ١/٣٧٢).

(٢) انظر قصة أصحاب الجنة في هذا الكتاب في قوله تعالى في سورة القلم: ﴿**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة..**﴾.

وجعل عقوبة من اصطاد في الحَرَم أو الإحرام: تحريم أكل ما صاده، وتغريمه نظيره.

وجعل عقوبة من استكبر عن عبوديته وطاعته: أن صيّره عبداً لأهل عبوديته وطاعته.

وجعل عقوبة من التذّ بدنه كله وروحه بالوطء الحرام: إيلام بدنه وروحه بالجلد والرجم فيصل الألم إلى حيث وصلت اللذة.

وهذا باب واسع جداً عظيم النفع[1]، فمن تدبَّره يجده متضمناً لمعاقبة الرب ـ سبحانه ـ من خرج عن طاعته، بأن يعكس عليه مقصوده شرعاً وقَدَراً، دنيا وأخرى، وقد اطردت سنته الكونية ـ سبحانه ـ في عباده، بأن من مكر بالباطل مُكِرَ به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدع. قال الله تعالى: **﴿إن المنافقين يُخادعون اللّهَ وهو خادعهم﴾** [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: **﴿ولا يحيق المكر السَّيء إلا بأهله﴾** [فاطر: ٤٣].. واحتجّ ابن عباس وبعده أيوب السختياني، وغيره من السلف: بأن الحيل مخادعة لله تعالى. قال ابن عباس: ومن يُخادع الله يخدعه.

ولا ريب أن من تدبَّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع جزم بتحريم الحيل وبطلانها، فإن القرآن دلّ على أن المقاصد والنيات معتبرة في التصرف والعادات، كما هي معتبرة في القربات والعبادات، فيجعل الفعل حلالاً أو حراماً، وصحيحاً أو فاسداً، وصحيحاً من وجه، فاسداً من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

إن القلوب المؤمنة تعرف أن اللهَ ـ سبحانه ـ لا يُخدع، وهو يعلم السرّ وأخفى، وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه

(١) انظر إغاثة اللهفان المجلد الأول ص ٣٧٢ ـ ٣٩٠ وكتاب «إعلام الموقعين» لابن القيم ج ١١٩/٣ باب سد الذرائع.

منخوبة وقلبه مريض، وهو في غفلة كبيرة.. والله ـ سبحانه ـ ترك أصحاب السبت في فعلتهم المنكرة وكانوا في غيِّهم يعمهون.. تركهم يمضون في طريق الاحتيال والخداع الذي زُين لهم حتى حَلُّوا في غضب الله فمسخهم قردة وخنازير ﴿**ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾ [طه: ٨١].

النبوءة الصادقة والوعد المفعول

إن قصص بني إسرائيل هو أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ، لأسباب عدة، ذكرنا بعضها ـ فيما سبق ـ ونضيف هنا في هذه النبوءة الصادقة . . هو أن الله ـ سبحانه ـ علم أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة سَتَمُرّ بأدوار كالتي مرّ فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل؛ فعرض عليها مزالق الطريق، مصورة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة، ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيد الله ـ سبحانه ـ قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق! .

ونمضي في حلقة هامة من تاريخ بني إسرائيل:

﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً. .﴾ [الإسراء: ٣].

وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في سورة الإسراء. وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها؛ ودالت دولتهم بها.

ويبدأ الحديث في هذه الحلقة بذكر كتاب موسى ـ التوراة ـ وما اشتمل

عليه من إنذار لبني إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر ـ نوح ـ العبد الشكور، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه في السفينة، ولم يحمل معه إلا المؤمنون . .

وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الكتاب: **﴿هدى لبني إسرائيل ألاَّ تَتَّخِذُوا من دوني وكيلاً﴾** . .

فلا يعتمدوا إلا على الله وحده، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده. فهذا هو الهدى، وهذا هو الإيمان. فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلاً.

ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول في الأرض. خاطبهم بهذا النَسَب ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين، مع نوح العبد الشكور، وليردّهم إلى هذا النَسَب المؤمن العريق.

ووصف نوحاً بالعبودية لهذا المعنى ولمعنى آخر، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها.

في ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدى لبني إسرائيل، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض. وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم. وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض، تصديقاً لسنة الله الجارية التي لا تتخلف:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن عُلُوّاً كبيراً﴾ [الإسراء: ٤] . .

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهري عليهم، تنشأ عنه أفعالهم. فالله ـ سبحانه ـ لا يقضي بالإفساد على أحد: **﴿قل: إن الله لا يأمر**

بـالفحشاء﴾ إنمـا يعلم الله ما سيكـون علمه بمـا هو كـائن. فما سيكـون ـ بالقياس إلى علم الله ـ كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، ولم يكشف عنه الستار.

ولقـد قضى الله لبني إسرائيـل في الكتاب الـذي آتاه لمـوسى أنهم سَيُفســدون في الأرض مـرتين، وأنهم سَيَعْلُون في الأرض الـمقــدسـة ويسيطرون. وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سَلَّط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً:

﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً﴾ [الإسراء: ٥]..

فهذه هي الأولى: يعلون في الأرض المقدسة، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان، فيفسـدون فيها. فيبعث الله عليهم عبـاداً من عبـاده أُولي بـأس شـديد، وأُولي بَطش وقوة، يستبيحـون الديـار، ويروحـون فيها ويغـدون بـاستهتار، ويَـطَأُون ما فيهـا ومن فيها بـلا تَهَيُّب **﴿وكان وعـداً مفعـولاً﴾** لا يخلف ولا يكذب..

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذلّ، فرجعوا إلى ربهم، وأصلحـوا أحـوالهم وأفـادوا من البـلاء المُسَلّط عليهم. وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرّتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكن للمستضعفين من المستكبرين: **﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بـأموال وبنين وجعلنـاكم أكثر نفيـراً﴾** [الإسراء: ٦].

ثم تتكرر القصة من جديد!.

وقبل أن يُتِمّ السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء:

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أَسَأْتُم فلَها﴾ [الإسراء: ٧]. .

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه. وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء. فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يُكمل النبوءة الصادقة:

﴿فإذا جاء وَعْد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما عَلَوا تتبيراً﴾ [الإسراء: ٧]. .

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض، اكتفاء بذكره من قبل: **﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾** ويُثبت ما يُسلطه عليهم في المرة الآخرة: **﴿فإذا جاء وَعْد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم﴾**. . بما يرتكبونه معهم من نَكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال. ويستبيحون المقدسات ويستهينون المقدسات ويستهينون بها: **﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾** ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار **﴿وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾**. . وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء والذي لا يبقى على شيء.

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فَسَلَّط الله على بني إسرائيل من قَهَرهُم أول مرة، ثم سلط عليهم من شَرَّدهم في الأرض، ودمَّر مملكتهم فيها تدميراً[1].

---

(١) قال عبد الله بن أبي الهذيل من كبار التابعين في وعظه القصصي: «لما سُلِّط بخت نصر على بني إسرائيل، جيء بسبي فجلسوا حلقاً حلقاً، فمرَّ بهم نبي لهم، فلما رأوه بكوا وضجُّوا إليه وصاحوا، قال: فسمع ذلك فسألَ ما لَهم؟ قالوا: مرَّ بهم نبيّ لهم، قال: ائتوني به، =

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل، لأن النص لا يزيد في العبرة شيئاً. والعبرة هي المطلوبة هنا. وبيان سنة الله في الخلق هو المقصود.

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة: ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾.. إن أخذتم منه عبرة.

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية: ﴿**وإن عُدتم عُدنا**﴾ [الإسراء: ٨]..

ولقد عادوا إلى الإفساد فَسَلَّط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفساد فَسَلَّط عليهم عباداً آخرين[(١)]، حتى كان

= فأتوه به، فقال له: ما الذي سَلَّطني على قومك؟ قال: عظم خطيئتك، وظلم قومي أنفسهم!».

ولعمرو الحق، هذان ركيزتا الطغيان دائماً، ظلم الظالم وتفريط المظلوم!! (انظر المسلمون، المجلد الخامس، ص ١٠٢٦).

(١) لقد قضى الله في علمه أنه ليسلطن على بني إسرائيل إلى يوم القيامة من يذيقهم أشد العذاب، عقاباً لهم، والله سبحانه يقول: ﴿**وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾ [الأعراف: ١٦٧]..

ومما يلفت النظر في هذه الآية ما ذكرته من أن العذاب والاضطهاد سيلازمان بني إسرائيل إلى يوم القيامة، فالفترة التي اضطُهِدوا فيها قبل الإسلام والأخبار عنها يُمكن أن يُقال فيها بأنها للتحذير من أفعالهم، ولكن الجزم بأن هذا الاضطهاد سيلازمهم الى يوم القيامة مما هو واقع في التاريخ واستمر زمناً طويلاً بعد مجيء الإسلام لهو من الغيب الذي يُخبر عنه الله في القرآن الكريم..

ومن أهم حلقات الاضطهاد والعذاب التي أصابت بني إسرائيل قبل الإسلام:

ـ قام الملك الآشوري بختنصر بتخريب أورشليم، وقاد أكثر أهلها أسرى وكان ذلك عام ٥٨٧ ق.م.

ـ وقعت يهوذا ثانية تحت حكم ملوك سورية السلوقيين فأثقلوا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم من أجل دينهم. =

ـ استولى الزعيم الروماني «بومبه» على مملكة يهوذا وجعلها إقليماً رومانياً. وفي سنة ٧٠ م ثار اليهود على الرومان فاحتل الرومان أورشليم، وأمر ملكهم «تيتوس» بإحراق معبد اليهود وذبح معظم أهل أورشليم، وبيع من بقي منهم، لم يمض غير قليل حتى عُمّرت أورشليم بالسكان ثانياً، ولكن ثورة أخرى قام بها اليهود جعلت الإمبراطور الروماني «أدريان» سنة ١٣٥ م يأمر بهدم أورشليم من أساسها، وذبح ٥٠٠,٠٠٠ من اليهود، وبيع من بقي، وتشردوا في أرجاء المملكة الرومانية.

وبعد الإسلام جرت على اليهود حلقات متتابعة من الاضطهاد.. فحين جاء الإسلام تآمر عليه اليهود فقاتلهم محمد ـ ﷺ ـ فأجلى البعض عن ديارهم وقتل البعض.

ثم في نهاية الجزء الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي توالت الاضطهادات على الشعب اليهودي من دول أوروبا، جاء في كتاب «الفكر اليهودي» عن اضطهادات اليهود في إسبانيا والبرتغال (يرجع اضطهاد العنصر اليهودي إلى فجر العهد الذي تسلمت فيه المسيحية إدارة الشؤون المدنية إذ ظلت كراهية اليهود لعدة قرون رمزاً من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية فأشبعتهم امتهاناً واحتقاراً.. فلم يجدوا ملجأ إلا الأندلس حيث أحاطهم أمراء الإسلام بعطف خاص. لكن عندما احتل النصارى الأندلس انهدم هذا الملاذ الوحيد... إذ تقرر إخراج اليهود منها، ففي سنة ١٣٩٠ هـ ألقى واعظ معروف يدعى هرناندو مارتينيز خطبة مثيرة هاج لسماعها الكاثوليك بإشبيلية فهاجموا حي اليهود وقتلوا منهم ٤٠٠٠ نفس... وفي العام التالي وقعت حوادث مماثلة في بلنسيا وقرطبة.. وطليطلة وبرشلونة جَلّها بتحريض الواعظ ذاته، وأخيراً وقعت حرب الأندلس التي كانت تعتبر حرباً صليبية.. فأذكت حمية الدين عند المسيحيين... وقد بذل رجال الكنيسة كل جهودهم في سبيل طرد العنصر اليهودي... ففي أقل من ثلاثة شهور أُرغم جميع اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية على مغادرة البلاد الإسبانية وإلاّ حكم عليهم بالإعدام، وقد وقع كثير منهم في يد القرصان الذين انتشروا حول الشواطىء فجردوهم من أموالهم واتخذوهم عبيداً أرقاء، هذا ما عدا الذين ماتوا جوعاً أو أصيبوا بالطاعون فأهلكهم...

ثم لجأ ثمانون ألفاً إلى البرتغال ارتكاناً على وَعْد ملكها لكن القساوسة الإسبانيين أثاروا الرأي العام في تلك البلاد وعمدوا إلى إقناع ملك البرتغال بعدم إيوائهم فأصدر أمراً يقضي بإبعاد جميع اليهود البالغين، أما الأولاد الذين لا تتجاوز سنهم أربعة عشر عاماً فقد انتُزعوا من أحضان أمهاتهم لكي يُربّوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي. [تاريخ مذهب ناكري الوحي في أوربا فصل ٦ ص ٢١٥ وقد أورد هذا النص كتاب «الفكر اليهودي» تأليف ج. هـ. هرتس الحاخام الأكبر للإمبراطورية البريطانية ترجمة الدكتور ألفريد بلوز].

= لم يقتصر طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال فقط بل طردوا وشُردوا من جميع دول أوروبا وفيما يلي لائحة بحوادث الطرد:

في انكلترا: طرد الملك إدوارد اليهود سنة ١٢٩٠ م.

وفي فرنسا: طردهم الملك فيليب الجميل سنة ١٣٠٦ م وسمح لعدد ضئيل منهم بالعودة ولكنهم طُردوا مجدداً سنة ١٣٩٤ م.

وفي المجر: طردوا سنة ١٣٦٠ م، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا فيما بعد. وفي سنة ١٥٨٤ م طردوا مجدداً.

وفي بلجيكا: طردوا عام ١٣٧٠ م.

وفي تشيكوسلوفاكيا: شردوا من براغ سنة ١٣٨٠ م. وكثيرون عادوا فاستوطنوها سنة ١٥٠٢ م، وفي سنة ١٧٤٤ م، طردتهم الإمبراطورة ماريا تيرزا.

وفي النمسا: طُردوا سنة ١٤٢٠ م على يد الملك البريخت الخامس.

وفي هولندا: طُردوا من أوتريخت عام ١٤٤٤ م.

وفي إيطاليا: طُردوا من مملكة نابولي وسردينيا سنة ١٥٤٠ م.

وفي ألمانيا: نُفوا من بافاريا سنة ١٥٥١ م. ثم كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم.

وفي روسيا: طُردوا سنة ١٥١٠ م. ثم عادوا تدريجياً إليها متعرضين لأنواع شتى من الاضطهادات وأبرزها الاضطهاد الذي حَصَل في أوكرانيا طيلة عام ١٩١٩ م. جاء في كتاب «الفكر اليهودي» في شأن هذا الاضطهاد: (لقد ذُبح أكثر من مائة ألف يهودي ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ وأهرقت دماؤهم في الشوارع، ارتكب تلك الأعمال جنود غير نظاميين تحت امرة القائدين دنكدين وتبلورا، وقد أسكرتهم حمرة الدماء فابتكروا وسائل تعذيب شيطانية). [نقلاً عن التقرير الذي وضعته لجنة إغاثة منكوبي مذابح كييف تحت إشراف الصليب الأحمر الروسي].

ـ ومن أسباب اضطهاد اليهود: هو عدم اندماجهم مع الشعوب التي عاشوا معها، وعدم إخلاصهم ووفائهم للذين استضافوهم ولسلوكهم الشائن معهم، وذلك لما يظنونه من أنهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها، وأنه يحق لهم اغتصاب حقوق الغير، ولعل تعاليم التلمود ـ أحد كتبهم المقدسة ـ تركت أثراً كبيراً في تكييف سلوكهم.

فمن تعاليم التلمود: «أن أملاك غير اليهود تُعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهودي أن يتملكه». وأن «الله قد منح اليهود السلطة على مقتنيات وحياة كل الشعوب» [فصل بابابثرا وفي سفر حيكريم (ج ٣، ف ٢٥) نقلاً عن مجلة المشرق ١٨ / ٧٧٠].

«كما يسمو الإنسان على الحيوان كذلك يسمو اليهودي على باقي أهل الأرض ذوي =

العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر».. ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لِوَعْد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف.. وإن غداً لناظره قريب[1]!.

ويختم السياق بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مُشاكَلة:

﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ [الإسراء: ٨].. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد، وتَتَّسع لهم فلا ينِدّ عنها أحد.

وهذه حلقة من سيرة بني إسرائيل، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يَهتدوا؛ بل ضَلُّوا فَهَلَكُوا..

= الطبيعة البهيمية» [سفر سنهادرين].

«وإن الله تعالى أمرنا باستعمال الربا ضد الغوييم (غير اليهود) وحرّم علينا إقراضهم المال بدون تقاضي فوائد عليه، فلا يجوز إذن الامتناع عن إقراضهم بدون فوائد بل يجب علينا إرهاقهم كذلك» [سفر بابا مزيا عن كتاب الصهيونية تأليف ميشال كفوري]. (نقلاً عن اليهود في القرآن للعلامة عفيف طبارة ص ٨٨ ـ ٩٢).

(١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود [فيقتلهم المسلمون]، حتى يختبىء اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود».

وفي رواية أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر ووراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي، فاقتله». أخرج مسلم الأولى، والثانية البخاري.

رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ

ويتحدث القرآن عن مآل بني إسرائيل بلمحة سريعة تستغرق ما حدث في أجيال:

﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق، ورزقناهم من الطيبات، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم.. إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [يونس: ٩٣]..

والمبوأ: مكان الإقامة الأمين. وإضافته إلى الصدق تزيده أماناً وثباتاً واستقراراً كثبات الصدق الذي لا يضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء.

وتمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ، من بعد موسى وخلفائه، مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول - ﷺ - والجماعة المسلمة في المدينة..

ولقد طاب المقام فترة لبني إسرائيل بعد تجارب طويلة، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال، حتى فسقوا عن أمر الله فَحُرِّمت عليهم. واختلفوا بعد وفاق. اختلافهم في دينهم ودنياهم، لا عن جَهل ولكن بعد أن جاءهم العلم، وبسبب هذا العلم واستخدامه في التأويلات الباطلة..

﴿وقَطَّعناهم في الأرض أمماً. منهم الصالحون ومنهم دون ذلك

وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف: ١٦٨]. .

وفي هذا السياق تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد موسى. . ذلك حين تَفَرّق اليهود في الأرض؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات، مختلفة المشارب والمسالك. فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح. وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات. تارة بالنعماء وتارة بالبأساء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويستقيمون على طريقهم:

﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾. .

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد، وتذكير دائم لهم، ووقاية من النسيان المُؤَدِّي إلى الاغترار والبوار. .

﴿فَخَلفَ من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون: سيغفر لنا. وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ [الأعراف: ١٦٩]. .

وصفة هذا الخَلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه. . ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم. . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تُدرس وعلم يُحفظ. . وكلما رأوا عَرَضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأوَّلوا وقالوا: **﴿سَيُغفر لنا﴾**. . وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!.

ويسأل سؤال استنكار: **﴿ألم يُؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألاَّ يقولوا على الله إلا الحق؟ ودرسوا ما فيه؟﴾** [الأعراف: ١٦٩]. .

ألم يُؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألاَّ يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يُخبروا عن الله إلا بالحق. . فما بالهم يقولون: **﴿سيُغفر لنا﴾**. . ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويُبررون لأنفسهم هذا بالتَقَوُّل

على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يَغفر لمن يتوبون حقاً؛ ويُقلعون عن المعصية فعلاً؛ وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عَرَضاً من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!.

بلى! ولكن الدراسة لا تُجدي ما لم تُخالط القلوب. وكم من دارسين للدّين وقلوبهم عنه بعيد. إنما يدرسونه ليتأوَّلوا ويحتالوا، ويُحرّفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المُغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا.. وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة، ولا يأخذونه عقيدة، ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!.

﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون. أفلا تعقلون؟﴾ [الأعراف: ١٦٩]..

نعم! إنها الدار الآخرة! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العَرَض الأدنى القريب في هذه الدنيا.. نعم! إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها.. وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة المُلِحّة في حيازة كل عَرَض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفّها عن البغي؟ وما الذي يُهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يُطَمْئِنها في صراع الحياة على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟ وما الذي يُثَبِّتها في المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفرّ من بين يديها وتنأى؟ والشر يتَبَجَّح والباطل يطغى؟.

لا شيء يُثَبّت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى؛ إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويَترفَّعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع

والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون.. مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين[1]..

ولأن قضية الآخرة، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عَرَض هذا الأدنى.. عَرَض الحياة الدنيا.. إلى العقل: ﴿**والدار الآخرة خير للذين يتقون.. أفلا تعقلون؟**﴾...

ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى.. ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي.. لكانت الدار الآخرة خيراً من عَرَض هذا الأدنى. ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً: ﴿**والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾ [الأعراف: ١٧٠]..

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به، ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم؛ ولا في سلوكهم وحياتهم.. غير أن الآية تبقى ـ من وراء ذلك التعريض ـ مطلقة، تعطي مدلولها كاملاً، لكل جيل ولكل حالة.

إن الصيغة اللفظية: «يُمَسِّكون».. تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى.. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجدّ وصرامة.. الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه.. في غير تعنت ولا تَنَطّع ولا تزمُّت..

فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر.. إن الجد والقوة والصرامة لا تُنافي اليسر ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون

---

(١) يراجع كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن».

«الـواقع» هـو الحكم في شريعـة الله! فهو الـذي يجب أن يظل محكـوماً بشريعة الله!.

والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة، وإقامة الصلاة ـ أي شعائر العبادة ـ هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة.. والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مـدلولاً معينـاً. إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح بـه الحياة والنفـوس، ولا تصلح بسـواه.. والإشارة إلى الإصـلاح في الآية: **﴿إنـا لا نضيـع أجـر المصلحين﴾**..

يشير إلى هذه الحقيقة.. حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً، وإقـامة الشعـائر عبـادة هما أداة الإصـلاح الذي لا يُضيـع الله أجـره على المصلحين. وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني.. ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائـع دون احتيال.على النصـوص، كالـذي كان يصنعه أهل الكتاب؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله..

إنه منهج متكامل، يُقيم الحكم على أساس الكتاب، ويقيم القلب على أساس العبادة.. ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب، فَتَصْلُح القلوب، وتَصلح الحياة.

إنَّه مَنهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر، إلا الذين كُتبت عليهم الشقوة وحق عليه العذاب!.

كانت القيادة ـ قبل الإسلام ـ لبني إسرائيل. كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التي اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ. ولا بُـدّ للبشر من قيـادة مُستمَدّة من السماء. فالأرض قيادتها هوى أو جهل أو قصور. والله خالق

البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مُبرأة من الهوى فكلهم عباده، مبرَّأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ [الجاثية: ١٦]..

فكان فيهم التوراة شريعة الله. وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة. وكان فيهم. النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب. وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبياً في التاريخ.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾.. فكانت مملكتهم ونبواتهم في الأرض المقدسة، الطيبة، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات.

﴿وفَضَّلناهم على العالمين﴾.. وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة: **﴿وآتيناهم بَيِّنات من الأمر﴾** [الجاثية: ١٧]..

فكان ما أُوتوه من الشريعة بياناً حاسماً فاصلاً، لا غموض فيه ولا لبس ولا عوج ولا انحراف.. **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِفَ فيه﴾** [فصلت: ٤٥]..

ولم يكن هناك ما يدعو إلى الاختلاف في كتاب الله، في هذا الشرع البيِّن كما وقع منهم؛ وما كان هذا من غموض في الأمر ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم: **﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾** [الجاثية: ١٧].. إنما كان ذلك عن تحاسد بينهم، ونزاع وظلم، مع معرفة الحق والصواب: **﴿بَغياً بينهم﴾** [الجاثية: ١٧]..

ثم يُحدث القرآن عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم؛

ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهباً؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة: **﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾** [المائدة: ٦٤]..

وما تزال طوائف اليهود متعادية. وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح! ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. ففي خلال ألف وثلاث مئة عام.. بل من قبل الإسلام.. واليهود في شحناء وفي ذلّ كذلك وتَشَرُّد. ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه. مهما تقم حولهم الأسناد.

ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة، التي يتحقق لها وعد الله.. فأين هي العصبة المؤمنة اليوم، التي تتلقى وَعْد الله، وتقف ستاراً لقَدَر الله، ويُحقق الله بها في الأرض ما يشاء؟.

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام: تؤمن به على حقيقته؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته.. يومئذ يحق وَعْد الله على شر خلق الله.. واليهود يعرفون هذا، ومن ثم يُسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض، ويضربون ـ لا بأيديهم ـ ولكن بأيدي عملائهم ـ ضربات وحشية منكرة؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلاًّ ولا ذِمّة.. ولكن الله غالب على أمره. وَوَعْد الله لا بد أن يتحقق:

﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾..

إن هذا الشر والفساد الذي تُمثله يهود، لا بد أن يبعث الله عليه من يُوقفه ويحطمه؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يُزيله ويعفي عليه: **﴿ويسعون في الأرض فساداً،**

والله لا يحب المفسدين﴾ [المائدة: ٦٤]..

ويمضي القرآن يصف حال أهل الكتاب؛ ويبين ما في هذه الحال من نقائص؛ ويقرر القيم الصحيحة التي يقوم عليها الإسلام دين المسلمين. ويبدأ فيعرض نموذجين من نماذج أهل الكتاب في التعامل والتعاقد:

﴿ومن أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم مَن إن تأمنه بدينار لا يُؤَدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٥]..

إنها خطة الإنصاف والحق وعدم البخس والغبن يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك؛ والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال. ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، ودسّهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين..

كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المُحسنين منهم حقهم، حتى في معرض الجَدَل والمواجهة. فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناساً أمناء، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية: **﴿ومن أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾**..

ولكن منهم كذلك الخَونة الطامعين المُماطلين، الذين لا يردون حقاً - وإن صغر - إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة. ثم هم يُفَلْسِفُون هذا الخُلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وقصد:

﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾..

وهذه بالذات صفة يهود. فهم الذين يقولون هذا القول؛ ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة. فالأمانة بين اليهودي واليهودي. أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم!.

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا. وهم يعلمون أن هذا كذب. وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتاً وبهتاناً، وألا يرعوا معهم عهداً ولا ذمة، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم.

ولكنها يهود! يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديوناً وديناً: ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾..

والكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله**﴾ [النحل: ١٠٥]، وهي سمة الكفار: ﴿**ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب**﴾ [المائدة: ١٠٣].

ها هم أولاء يهود قد بدّلوا كتاب الله وانحرفوا، وكذبوا على الله، واعتدوا على شريعته بهذا الافتراء الذي كان منهجهم في رحلة حياتهم كلها.

والقرآن الكريم يكشف مؤامرات يهود الخفية، ويفشي ما تُخفي صدورهم المنخورة المنكودة، ويفضح ما كانوا عليه من الكفر بآيات الله والكذب عليه.. ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾ [آل عمران: ٧٨].. هؤلاء الذين غَضِبَ الله عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه..

ومن عجب أن ينعق الناعقون منهم ويدّعون أنهم شعب الله المختار،

وأنهم أَحبَّاء الله وأولياءه. . وهم الذين يفترون على الله الكذب، ويكفرون بشريعته في عدم تحكيمها في حياتهم، وينقضون عهد الله وميثاقه. . إنه الكفر والظلم والفسوق والاعتداء والعصيان. . هذه هي المؤهلات لغضب الله، وللهزيمة والذلة والمسكنة. .

وهذه هي المؤهلات التي تتوافر اليوم في البقايا الشاردة في الأرض من ذراري المسلمين. الذين يسمون أنفسهم ـ بغير حق ـ مسلمين!.

هذه هي المؤهلات التي يتقدمون بها إلى ربهم اليوم، فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة. فإذا قال أحد منهم: لِمَا نُغْلَب في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها: ما هو الإسلام، ومن هم المسلمون؟! ثم يقول!.

وإنصافاً للقلة الخيرة من أهل الكتاب، يعود القرآن عليهم بالاستثناء، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء. فهناك المؤمنون. يصور حالهم مع ربهم، فإذا هي حال المؤمنين الصادقين. ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين:

﴿ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة. يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات. وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥]. .

وهي صورة وَضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب. فقد آمنوا إيماناً صادقاً عميقاً، وكاملاً شاملاً، وانضموا للصف المسلم، وقاموا على حراسة هذا الدين. . آمنوا بالله واليوم الآخر. . وقد نهضوا بتكاليف الإيمان، وحققوا سمة الأمة المسلمة التي انضموا إليها ـ خير أُمة أخرجت للناس ـ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. . وقد رغبت نفوسهم في الخير جملة، فجعلوه الهدف الذي يُسابقون فيه، فَسَارَعُوا في الخيرات، ومن ثم هذه الشهادة

العلوية لهم أنهم من الصالحين. وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يُبخسوا حقاً، ولن يُكفروا أجراً. مع الإشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ علم أنهم من المتقين..

وهكذا لم يترك السياق القرآني الموقف مع اليهود، حتى يُنصف القليل المؤمن منهم؛ ويُقرر حسن جزائهم، وهو يَضمهم إلى موكب الإيمان العريق، ويشهد لهم بالعلم والإيمان. ويقرر أن الذي هداهم إلى التصديق بالدين كله: ما أنزل إلى الرسول ـ ﷺ ـ وما أُنزل من قبله، هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان: **﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك. والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** [النساء: ١٦٢]..

فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله. كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وذِكْر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين. فالعلم السطحي كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة..

ونحن نشهد هذا في كل زمان. فالذين يتعمقون في العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقي، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد.. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى.. أما الذين يتناوشون المعلومات

ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تَحُول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ـ أو لا تبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحي ـ علامات الاستفهام. وشأنهم شأن مَن لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق.. وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التَدَيُّن عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التي جاءت من عند دَيَّان واحد، على أيدي موكب واحد متصل من الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ورد في التفسير المأثور أن هذه الإشارة القرآنية تعني ـ أول من تعني ـ أولئك النفر من اليهود، الذين استجابوا للرسول ـ ﷺ ـ ولكن النص ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير..

ويمضي القرآن الكريم في الكشف عن طبيعة بني إسرائيل وهو يعرض صفحات من تاريخهم.. فهي الجبلة التي تسارع في الظلم والاعتداء.. هم هم لا يتورعون عن الإثم والفسوق والعصيان.. هم هم في العدوان على شَرْع الله والافتراء عليه.. إنها جُملة تفضحهم وتكشف خباياهم، وترسم حركاتهم كأنها منظورة من خلال التعبير **﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾** [المائدة: ٦٢]..

والمسارعة مفاعلة تُصوّر القوم كأنما يتسابقون تسابقاً في الإثم والعدوان، وأكل الحرام. وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تُصوّر حالة من حالات النفوس والجماعات حين يَستشري فيها الفساد؛ وتسقط القيم؛ ويسيطر الشر..

وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كُلُّ مَن فيها يتسابقون إلى الشرّ.. إلى الإثم والعدوان، قويّهم

وضعيفهم سواء. . فالإثم والعدوان ـ في المجتمعات الهابطة الفاسدة ـ لا يقتصران على الأقوياء؛ بل يرتكبهما كذلك الضعفاء. .

فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم. وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء؛ إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعاً. ولكنهم يعتدي بعضهم على بعض. ويعتدون على حرمات الله. لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحِمَى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم؛ فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد؛ والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات!.

وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام. . وكذلك أكلهم للحرام. . فَأَكْلُ الحرام كذلك سمة يهود في كل آن! ﴿**لبئس ما كانوا يعملون**﴾!.

ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة؛ وهو يستنكر سكوت الربَّانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني. . سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ وعدم نَهيهم عن هذا الشرّ الذي يتسابقون فيه:

﴿**لولا ينهاهم الربَّانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت! لبئس ما كانوا يصنعون!**﴾ [المائدة: ٦٣]. .

فهذه السمة ـ سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان ـ هي سمة المجتمعات التي فسدت وآذنت بالانهيار. . وبنو إسرائيل ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ [المائدة: ٧٩]. . كما حكى عنهم القرآن الكريم. .

إن سمة المجتمع الخَيِّر الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر؛ وأن يكون عُرْف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التَنَكُّر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

والقرآن هنا ينحي باللائمة على الربَّانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله.

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين. فصلاح المجتمع أو فساده رَهْنٌ بقيام الحَفَظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ والأمر يقتضي «سلطة» تأمر وتنهى[1]، والأمر والنهي أمْرٌ غير الدعوة. فالدعوة بيان، والأمر والنهي سُلطان. وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لِأمْرِهم ونَهْيِهم قيمته في المجتمع؛ فلا يكون مطلق كلام!.

اللَّعنة الأبدية:

وهكذا تفرقت كلمة بني إسرائيل واعتقاداتهم وعباداتهم، وفسدت فطرتهم، وانتكست نفوسهم، والتوت أرواحهم، وقست قلوبهم، وتمادوا في طغيانهم، ولجوا في كفرهم وعنادهم حتى سلكوا في ظلمهم طريق الهلاك والاستئصال.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه. ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم. وإنهم لفي شك منه مريب﴾ [هود: ١١٠]..

تفرقوا واختلفوا وضلوا عن سواء السبيل، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة:

---

(١) يراجع «في ظلال القرآن» ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ . .

ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة، ولم يحلّ عذاب الاستئصال بهم، لأن لهم كتاباً، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مُؤجلون إلى يوم القيامة، لأن الكتاب دَليل هداية باق، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذي أُنزل فيه. والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يَشهدها إلا جيل، فإما أن يُؤمن بها وإما أن لا يُؤمن فيأخذه العذاب. . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير، مُصدّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فيُصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعاً يُدعى إليه الناس جميعاً، ويُحاسَب على أساسه الناس جميعاً، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل: ﴿وإنهم﴾ . . أي قوم موسى . . ﴿لفي شك منه مريب﴾ . . من كتاب موسى، لأنه لم يُكتَب إلا بعد أجيال، وتفرقت فيه الروايات واضطربت، فلا يقين فيه لِمُتَّبِعيه.

وإذا كان العذاب قد أُجِّل . . فإن الكُلّ سيوفَّون أعمالهم خيرها وشرها. سَيُوفيهم بها العليم الخبير بها ولن تضيع:

﴿وإن كلاً لما لِيُوفينّهم ربك أعمالهم. إنه بما يعملون خبير﴾ [هود: ١١١] . . وفي التعبير توكيدات منوعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيل. وحتى لا يشك أحد في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي لا شك في بطلانه، وأنه الشرك الذي زاوله من قبل كل المشركين . .

ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة في تلك الفترة. فقد وَقف المشركون وَقْفتهم العنيدة منها ومن رسول الله - ﷺ - والقلة المؤمنة معه، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب. بينما عذاب الله الموعود مُؤَجَّل لم يقع بعد. والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضي أعداؤها ناجين! إنها فترة تَهتزّ فيها بعض القلوب. وحتى القلوب الثابتة تناولها الوحشة،

وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت.

وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله؛ وأنهم على الباطل الذي لا شك فيه!.

كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون!.

وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهذه العقيدة في النصوص القرآنية، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة، وكيف يكشف لها معالم الطريق!.

ثم كانت اللعنة الأبدية على بني إسرائيل ـ إلا الذين يؤمنون بالنبي الأمي ويتبعونه ـ بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التي لا تنتهي، وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذي لا راد له ولا مُعقب عليه:

﴿وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف: ١٦٧]..

فهو اذْنُ الأبد الذي تحقق منذ صدوره؛ فبعث الله على اليهود في فترات الزمان من يسومهم سوء العذاب. والذي سيظل نافذاً في عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب. وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن يُسلّطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف..

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عَزَّت واستطالت!

وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ . . ولا يدري إلا الله من ذا الذي سَيُسَلِّط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة.

لقد تأذَّن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة ـ كما أخبر الله نبيه في قرآنه ـ مُعقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة:

﴿إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾ . .

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حَقَّت عليهم كلمته بالعذاب ـ كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر ـ وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، في التوراة والإنجيل. . فليس عذابه ـ سبحانه ـ عن نقمة ولا إحنة. إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة. .

وبعد هذا البيان الواضح عن مسيرة بني إسرائيل منذ أن أتاهم الله التوراة على يدي موسى ـ عليه السلام ـ هدى ورحمة. . فقد نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا الضلالة بالهدى عن قصد وعلم وانتكاس. ووصف الله حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع ربهم، وحرفوا كلامه وأوَّلوا أحكامه وشريعته، ومن ثم وقاحتهم الشنيعة في قتل أنبيائهم. .

وهكذا كشف القرآن عن طبيعة القوم الفاسقين. وقد زاغت قلوبهم، وانطمست عقولهم، وجَفَّت أرواحهم، فأصبحت أفئدتهم كالحجارة الصلدة التي لا تنبض فيها حياة، ولا يتنفس فيها إيمان، قاسية جافة جامدة خاوية فارغة. .

وبذلك انتهت قيادتهم في الأرض، وبَطُل استخلافهم، وأَمْرُهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة: **﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** [يونس: ٩٣]. .

ثم كتب الله الخلافة في الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد، يردّ إلى

شريعة الله استقامتها، وإلى قيادة السماء نصاعتها، ويُحكِّم شـريعة الله لا أهواء البشر في هذه القيادة:

﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ [الجاثية: ١٨]..

وهكذا يتمحض الأمر. فإما شريعة الله. وإما أهواء الذين لا يعلمون. وليس هنـالك من فَـرَض ثالث، ولا طـريق وسط بين الشريعـة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليُحَكِّم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون!.

فهرس الموضوعات

(موسى - عليه السلام وبني اسرائيل)

الباب الأول:

- قصة إسرائيل - يعقوب - عليه السلام - وبني إسرائيل من قبل موسى - عليه السلام ٧
- إسرائيل - يعقوب - عليه السَّلام ٩

الباب الثاني:

(قصة موسى - عليه السلام)

* **القسم الأول**: موسى وفرعون ٢٧
تقديم ٢٩
☆ الحلقة الأولى ٣٣
ولادة موسى وطفولته ٣٣
شباب موسى وفتوّته ٤٦
ظهور السر ٥٢
من مصر إلى مدين ٥٤
الرحمة والفرج ٥٧
الزواج بين البساطة والصَّراحة ٥٨

☆ الحلقة الثانية ٦٣
تدبير الله سبحانه ٦٣
من مدين إلى مصر ٦٧
المفاجأة الكبرى واللحظة العظمى ٦٩
التكليف والرسالة ٧٢
فضل من الله ورحمة ٨٠
لقاء موسى وهارون والتكليف بالرسالة ٨٥
☆ الحلقة الثالثة ٩١
لقاء الحق والباطل ٩١
المواجهة والتبليغ ٩١
تهديد غليظ والمعجزة المزلزلة ١٠٣
إلى الميدان ١١٢
بين الحق والباطل ١١٦
المفاجأة الكبرى ١٢١
انتصار العقيدة على الحياة ١٢٦
التآمر والوعيد ١٣٤
إيمان كريم ونصيحة حكيم ١٤٠
الأُبَّهة الزائفة والبريق الخادع ١٥٠
بين موسى وقومه ١٥٤
اللمسة الموقظة والآيات البينات ١٦٠
نعمة ورحمة ١٦٨
دُعاء وإجابة ١٧٦
☆ الحلقة الرابعة ١٧٩
عاقبة الطغيان وانتصار الإيمان ١٧٩
انتصار الحق، وخروج بني إسرائيل من مصر ١٧٩

إيمان عقيم ١٨٥
عِبرة ونظر ١٩٤
صُور ومشاهد ٢٠٠
موقف مكروب ٢١٠
امرأة فرعون ٢١٩
ماشطة ابنة فرعون ٢٢٩
ميزان الإيمان والعقيدة ٢٤٣
* **القسم الثاني**: موسى وبني إسرائيل ٢٦٣
صبر مرير وجهد مضاعف ٢٦٩
الموقف الفريد ٢٧٦
ارتكاس وانتكاس ٢٨٦
موسى - عليه السلام - في مواجهة الفتنة والزيغ والضلال .. ٢٩١
تأديب عنيف وكفّارة صارمة ٢٩٨
التعنُّت والمعاجزة ٢٩٩
نبأ عظيم ٣٠٣
الميثاق الغليظ ٣٠٦
انحراف ومعصية وجحود ٣١٣
اللجاجة والتعنُّت ٣١٥
النعمة بين الكفر والشكر ٣٢٤
موسى والخضر ٣٤١
مُفاجآت غيبية ٣٤٩
ما أعجب الحقائق إذا ظهرت ٣٥٣
على أبواب أرض الميعاد ٣٦٦
شخصية موسى - عليه السلام ٣٧٨
أذى وصبر ٣٨١

(قصة قارون)

تقديم ٣٨٧
الردَّة الفاجرة المغرورة ٣٩٥
زينة وفتنة ٣٩٨
القيم الظاهرة الجوفاء ٤٠٧

(قصة صاحب الجنتين)

عرض وتقديم ٤١٧
ما شاء الله لا قوَّة إلاَّ بالله ٤٢٣
في ميزان الله ٤٢٧
مرآة الحق ٤٣٢

(قصة الابتلاء والجزاء)

عرض وتقديم ٤٤١
بين الكفر والإيمان ٤٤٨

(قصة لقمان – عليه السلام)

تقديم ٤٥٧
الحكمة ٤٥٧
قصة التوحيد ٤٦١
توصية وحنان ٤٦٢
قضية الآخرة ٤٦٧
عدة المؤمن ٤٦٩
سمة المؤمن ٤٧٩
مشهد مُفزع – مسخ وانحراف ٤٨٧
مسخ وانتكاس ٤٩٣

جرم عظيم وفعل قبيح ٥٠٣
النبوءة الصادقة والوعد المفعول ٥١٣
رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ ٥٢١
اللعنة الأبدية ٥٣٤